د. خيرالله سعيد

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية الإسلامية



المجلد الأول

ج 1 – ج 2

تم تعضيد هذا الكتاب من قبل الصندوق العربي للثقافة والفنون

د. خيرالله سعيد

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية الإسلامية

المجلد الأول

ج 1 – ج 2



Arab Diffusion Company

د. خيرالله سعيد

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية الإسلامية

المجلد الأول

ج 1 - ج 2



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-201-4

الطبعة الأولى 2011

فهرست الموضوعات/ ج الأول

الجزء الثاني

الإهداء:

إلى بغداد

مدينتي

المقدمة

أهمية العمل

تعد الثقافة، لأي شعب من الشعوب، هي المقياس الحضاري، الذي يميز - كمّاً ونوعاً - هذا الشعب عن ذاك، وهذا البلد عن سواه، وتعد صناعة الكتاب والمدونات الأخرى، من أبرز تلك العلامات للمفاضلة، فالموشور الحضاري، إذا ما جرت المقارنة بين مختلف الحضارات، إذ أن «الثقافي» هو المقياس الأبرز في تلك المقارنات، ومن هذا «الثقافي» تشمخ الثقافة المكتوبة، أولاً، وتليها الثقافة الشفهية، ثانياً: بمعنى أن الأبعاد المعرفية، لهذه الحضارة أو تلك، تنطلق أولاً من المخزون الثقافي بشقيه «الفلكلوري والعلمي المدون» وعلى هذا الأساس تميل بوصلة التنافس الحضاري في هذين البعدين، ومن هنا نفهم أهمية المكتشفات «الآركيولوجية» واهتمام غالبية الدول فيها، بل ويكاد يلحظ اشتراك أغلبية دول العالم في «نبش وتحقيق» تلك المكتشفات الأثرية، للعهود القديمة، ولا سيما تلك التي وجدت في بلاد ما بين النهرين «حضارة سومر» وبلاد وادي النيل «الحضارة الفرعونية» إذ أن هذه المكتشفات تُظهر للعالم كيف كان «العالم القديم» يعيش حياته، ويسيّر أمور معاشه، ويسجل تاريخ سلالاته، وتاريخ شعوبه، وعلى أيّ أرضية يستند في ذلك التاريخ، وما هي سبل حفظ تلك المآثر، وكيف ظهرت «المدونات» بتعاقب الأزمان. إلى أن تتكشف للباحث سبل حفظ ذلك التراث، وآليات، وأشكال الممارسات العملية في ذلك، حتى يتم الكشف عن «سر» حياة تلك الشعوب، لا سيما تلك التي احتلت مكان الصدارة - تاريخياً - في النمو الحضاري، وأثّرت على بقية الحضارات التي توالت بعدها، أو تفاعلت معها، ونقصد بذلك حضارة سومر العريقة.

وبغية فهم جدلية «السابق يفسر اللاحق» فإن المتواليات الحضارية لبلاد الرافدين، تستوقف الباحث، الذي يروم البحث عن التواصل الثقافي، بين حضارة سومر - القديمة - وحضارة العراق - الحديثة - والتأثير المتبادل (ثقافياً) على الوسط الاجتماعي، باعتباره الوعاء

الحامل لذلك التراث السومري، والمنطلق نحو الحضارة الإسلامية، حاملاً بطريقه، كل العلامات الدالة على النضج في المجال الثقافي، عبر كل الحقب التاريخية المتوالية، التي أنجبت ذلك الشعب، وأعطته هويته الثقافية، ومن ثم إنطلق منها لاستكمال صيرورة البناء الحضاري، عندما استقرت الخلافة الإسلامية في العهد العباسي في بغداد، كعاصمة للخلافة، وكمركز ثقافي عالمي، يبدأ مرحلة جديدة من التطور والرقي في مختلف العلوم، الأمر الذي فرض قانونيته على ذلك الحامل الاجتماعي، لأن ينهض بالمسؤولية الثقافية، التي أنيطت به، بحكم التاريخ، وعليه أدرك هذا «الوسط» تلك المسؤولية، وراح يتفاعل مع حكم التاريخ، ليربط ثقافة تلك الفترة الذهبية بما سبقها من تواريخ، تمت لذات الحامل بصلة، وذلك من خلال إيجاد عملية «الوراقة» تلك المهنة الحضارية - الثقافية، والتي أوجدها - الوسط الاجتماعي - قبل أن يفرضها - الوسط الرسمي - ممثلاً بالخلافة العباسية، وهذا الأمر، يؤشر على مدى وعي «الحامل الاجتماعي» لمعنى الضرورة التاريخية في سياقها الحضاري، وبذا تكون هذه الالتفاتة بمثابة، ، نقلة حضارية كبرى في تاريخ الثقافة العربية - الإسلامية، إذ سن هؤلاء الوراقين «سنة» الثقافة المكتوبة بكتاب جامع لكل فن من الفنون. ومن هنا ندرك أهمية هذا الإنجاز الثقافي، بشكل عام، على صعيده العالمي، وبشكل خاص على الثقافة العربية - الإسلامية.

فمن المعلوم أن صناعة الكتابة والكتاب تعد من أهم وأنفع الصناعات البشرية، عبر مختلف العصور، حيث يعتبر زمن اختراع الكتابة، هو الحد الفاصل بين العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ.

وليس اعتباطاً أن يجري ربط «التاريخ الثقافي» للأمم بنشوء الكتاب، بحيث جرى استعمال وجود الكتابة باعتباره خطاً فاصلاً بين ما قبل التاريخ.. وضمن هذا التفاضل التاريخي، يمكن النظر إلى تاريخ العراق في هذه القضية المحورية «تاريخ الثقافة» إذ أنه يمتلك إرثاً كبيراً، حيث أنه مهد الحضارات الأولى، ومبدع أولى الصيغ المتطورة للكتابة، ابتداءً «بسومر» وانتهاءً بالخلافة الإسلامية، كما أوضحنا أعلاه، وبغض النظر عن الإنقطاعات الثقافية، فيما بين نشوء الحضارة في العراق وصيرورة الكيان العربي - الإسلامي، إلا أننا نستطيع أن نعثر على استمرارية خفية لما يمكن دعوته بـ«روح الكتابة» في هذه المنطقة من العالم، وليس صدفة أن تنشأ أولى المدارس اللغوية والخطيّة العربية في الكوفة والبصرة، يمكن القول بصيغة أخرى، أنَّ تاريخ الكتابة في العراق يتميّز بخصوصية فريدة.

وقد وجدت هذه الخصوصية إنعكاساتها الكبيرة في «المرحلة العبّاسية» وهذه المرحلة، هي ليست فقط وريثة الخلافة الراشدية والأموية، بل وكل تراث المنطقة، الفارسي، الهندي، اليوناني، السرياني. . . الخ.

لقد شكلت المرحلة العباسية الانعطاف الأكبر في توليف مختلف الثقافات وصهرها في بوتقة العربية الثقافية، وهو الأمر الذي أعطى للكتابة دورها المتميز في ترسيخ الإنجازات العلمية والأدبية، وإعادة إنتاجها من خلال نشوء فئة متميزة في الثقافة هي فئة الوراقين.

إنَّ نشوء هذه الفئة، يعكس في آن واحد متطلبات الثقافة وإعادة إنتاجها، إذ أنه حدد بدوره قيمتها التاريخية والعلمية من جهة، وأهميتها الأدبية والروحية والجمالية، من جهة أخرى.

إنَّ قيمتها التاريخية والعلمية، تقوم في حفظها الإنجازات الثقافية وإيصالها لنا، ليس فقط إبداعات الحضارة العربية - الإسلامية، وإنما أيضاً كتابات الفلسفة الإغريقية، والأدب الهندي والفارسي.

أمّا قيمتها الروحية والأدبية والجمالية، فتقوم في استلهامها البعد الحقيقي للثقافة العربية - الإسلامية، باعتبارها ثقافة كلمة، فكلمة «قرآن» لها علاقة بكلمة قراءة «والحديث» له علاقة بالكلام. واللاهوت الإسلامي ارتبط بمفهوم الكلمة «الكلام»، والأدب، سواء في الشعر أو النثر، تفنّن بصناعة الكلمة، وكذلك الرسم والنحت، وفن العمارة، مرتبط وثيق الارتباط بالكلمة العربية.

ومهنة «الوراقة» أوجدت الإحساس الفني عند الورّاق، لا سيما في مسألة «الخط العربي» وتجويده، حيث صار مفهوم (حسن الخط) من الركائز الأساسية في عمل الوراق، الأمر الذي أفرز أنواعاً جديدة من الخطوط العربية، رافقت الوراقين في مهنتهم، ومن ثمّ برز نمط متخصص من الوراقين، استقل بفن الخط، وأصبح «الخط العربي» فناً قائماً بذاته، برز فيه أعلام مشهورين.

إضافة لذلك، إن مسألة «الإستقلال الفكري» هي من أهم عوامل وجود مهنة الوراقة، حيث أن أغلب الوراقين كانوا من رجالات الفكر والفلسفة والأدب والدين واللغة، الأمر الذي فرض عليهم أن لا يكونوا تحت «بطانة» أحد، لذلك مالوا إلى ابتداع هذه المهنة، لحفظ كرامتهم، من ناحية، وعدم الاعتماد في المعاش على مؤسسة حكومية، إضافة إلى نشر أفكارهم بعيداً عن أي تأثير أيديولوجي، من أي طرف كان.

كل ذلك يكشف عمّا للكتابة والخط من أثر هائل في فهم الثقافة العربية - الإسلامية،

ومن هنا، فإن دراسة تاريخ الخط العربي وتاريخ الوراقين أنفسهم، باعتبارهم الفئة الحاملة للمخزون الثقافي، يمتلك ليس قيمة عالمية مجردة، بل وعملية أيضاً، انطلاقاً من أن اللغة والكتابة هما كيانات حية. وعلى هذا الأساس، كان التفاعل الثقافي - عند الوراقين - ومهنتهم، يأخذ طابعاً تفاعلياً، بين الحرفية والإبداع، من جهة، وبين الوعي الثقافي والمسؤولية الشخصية، من جهة أخرى.

ومن هنا، تنبع **أهمية العمل**، هذا الذي قمنا برصده وجمع مادته وتحليله، وتوثيق مصادره، لمدة زادت على 22 سنة، من البحث والتنقيب، والمتابعة والتقصي، وتحقيق الخبر في مضانّه ومراجعه، وليس المسألة مجرد نزهة، كما يتصور البعض، بل هي - **مسؤولية الكلمة** - التي نقولها، أو ننقلها، على اعتبار، أن تاريخ الكلمة، هو تاريخ ثقافي، يحدد مسؤولية كل شعب من الشعوب، وهو بنفس الوقت، **الأمانة التاريخية في وعي** الباحث، لتتبع مسار الكلمة الصحيحة، عبر كل المطبات والمنعطفات، في كل مرحلة. وعلى أساس من هذه الأمانة التاريخية. كان مشوارنا في هذا الحديث، والذي أخذ كل هذا الوقت، إذ أن ظاهرة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية - الإسلامية، هي واحدة من أبرز المعالم في المدنية والتحضّر التي أفرزها العصر العباسي، وبدورها هي، أفرزت تلك الفنون المتعددة، وأنبجست عن خواص ثقافية أخرى، دلت عليها بالشاهدة والمكان، والأثر والعين، منها - **المكتبات** - وفن الزخرفة، والترجمة، وغير ذلك من أمور إبداعات الثقافة للكلمة المكتوبة.

ثم أن موضوع الدراسة الموسوعية هذه، يحمل بعنوانه **«الوراقة والوراقون في الحضارة العربية - الإسلامية»** هو محاولة أولى وجادة في البحث الدقيق حول إيجاد دراسة متكاملة لبدء نشوء صناعة الكتابة في الحضارة العربية - الإسلامية، وإثبات دليل معرفي، كمرجع تاريخي، يؤكد وجود هذه الظاهرة في التاريخ العربي - الإسلامي، يلم بكل الجوانب المعرفية وشواهدها، على أساس من البحث العلمي - الأكاديمي، وبنفس الوقت يشير إلى أناس كانوا هم صنّاع هذه الظاهرة، باعتبارهم الأداة الأولى والأخيرة لوجودها، وبالتالي هم الشهود الحقيقيون على ذلك الوجود التاريخي في البعدين الزمني والثقافي، ناهيك عن فتح الآفاق لنظريات جمالية ومعرفية في فنون الخط والتجليد والتذهيب، وأساليب الكتابة والتصنيف، ورسم المناهج في إعداد الكتب وطباعتها، على أسس دقيقة، لا تتغير في المعنى، بل تزيد التركيز على الفكرة المعرفية، رغم اختلاف الأساليب وتعدد الوسائل، فلقد أوجدت هذه المهنة، عند الورّاق، الإحساس بالجمال معنى ورسماً وتدويناً، وخلقت له الألفة المحببة بين العين والحرف، حتى غدا التماثل بينهما شيء لا ينفصل.

هدف العمل

تهدف هذه الدراسة الموسوعية إلى تسليط الضوء على ظاهرة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، أو ما يعرف اليوم، على الصعيد المهني بـ «دور النشر» والدور التاريخي الذي اضطلعوا به، باعتبارهم صانعي أسس الثقافة العربية – الإسلامية، على الصعيد المهني والثقافي والإنساني، وبنفس الوقت الإشارة إلى المراكز الحضارية الإسلامية التي تبرعمت بها هذه الظاهرة الثقافية، بدءاً من بغداد كعاصمة للخلافة العباسية، ومروراً بدمشق والقاهرة وأشبيلية وبلاد فارس وبقية أطراف الخلافة الإسلامية، الممتدة بين حدود الصين شرقاً وأقاصي الأطلسي غرباً، مارّة بتأثيراتها على كل الإثنيات والأعراق والثقافات المتواجدة في تلك الأماكن الجغرافية، لذلك هذه الدراسة – الموسوعية – تنطلق من بغداد إلى أن تصل إلى تلك البقاع أو الأمصار الإسلامية المذكورة، لتؤشر بشكل إيجابي على النهوض الحضاري، في تلك الأماكن، رافدة كل ثقافات تلك البلدان «الأمصار الإسلامية» بمنهج معرفي يعلمهم أسلوب «صناعة الكتابة والكتاب» وفق شرائط مهنية وإبداعية يظهر فيها التأثير الإسلامي واضحاً، من الناحيتين العقائدية والحضارية، وبنفس الوقت يبين دور الإنسان المبدع في عملية الخلق الثقافي، في شروط زمنية واجتماعية محددة، رغم اختلاف ظرفي الزمان والمكان، من بلد لآخر، ومن شخص لسواه، ولكن يبقى القلق المعرفي هو الخيط الرابط بين كل هؤلاء الوراقين، مبدعي هذا العمل الحضاري، المؤثر والفاعل في ثقافة العرب والمسلمين في العصر الوسيط، وامتداد تلك المؤثرات على آننا الحالي، وحتى هذه اللحظة.

ومن أجل بلورة الغاية والهدف المعلن أعلاه، وضعنا المهمات التالية نصب أعيننا، بغية إضفاء الصدق والشرعية التاريخية للعمل.

1 – تحليل ماهيّة العمق الحضاري – السومري – البابلي، وامتداداته التاريخية في الوعي والصيرورة الاجتماعية على مناطق العراق وشبه الجزيرة العربية، وبلاد الشام، وكيف بدأت تلك الحضارة الرافدية، بوضع الخطوات الأولى لصناعة الكتاب والكتابة، كمؤشر حضاري لإنسان البيئة تلك، وأهمية وجود الإبداع في عقله، في المسالة الثقافية، كي يوصل حضارته إلينا، مشفوعة بتراث هائل من المكتبات والرقيمات في مختلف العلوم الإنسانية، وليعطي بنفس الوقت المعنى الجوهري للإنسان، باعتباره سيد الخليقة، وعقله المميز على سائر المخلوقات، وعليه إثبات تلك الميزة، من خلال عمله الإنساني في كل مرحلة من مراحل التاريخ.

2 - تحليل ماهية الوراقة والوراقين، وأثرهم في تطوير صناعة الكتاب وتطور فنون الخط العربي والتجليد والتذهيب، وبروز فن الزخرفة «الأرابسك» كمرافق لفن الخط والتزويق في بناء العمارة، ضمن الطراز الإسلامي العام، وضمن خصوصيته المحلية (خاص) في هذه البيئة أو تلك.

3 - تقديم صورة جامعة عن الوراقين وأخلاقهم ومعاناتهم، وسلوكهم الاجتماعي والسياسي في تلك الفترة الزمنية، من عمر الخلافة الإسلامية في عصرها الذهبي - العصر العباسي.

4 - دراسة الكيفية التي منهجوا على ضوئها صناعة الكتاب العربي، وتأثير الوعي الديني - الإسلامي في أخلاقية العمل الإبداعي.

5 - الكشف عن دور وأهمية «سوق الوراقين» في هذا البلد أو ذاك، انطلاقاً من سوق الوراقين ببغداد، وموقع هذا السوق في الحياة الثقافية العامة.

6 - البرهنة على ثقافة الوراقين الواسعة، وحسهم المعرفي العالي، وكيفية بناءهم الفكري، ودورهم في رفع الوعي الثقافي لدى جمهور الناس، ومن مختلف المشارب والملل.

7 - إثبات الدور الحضاري لمهنة الوراقة، في الثقافة العربية - الإسلامية، كإبداع أفرزه الوسط الاجتماعي، الحامل للثقافة.

8 - إيجاد الدليل والبرهان القاطع على سعة الثقافة العربية، وتلاقحها مع بقية الثقافات العالمية (هندية، فارسية، يونانية) وذلك من خلال «توريق وترجمة» كتب تلك الثقافات إلى الثقافة العربية - الإسلامية.

المرحلة المتناولة في الدراسة

يؤرخ موضوع الدراسة الموسوعية إلى فترة ظهور مدينة بغداد كعاصمة للخلافة العباسية سنة 145هـ/ 757م، إلى سنة سقوطها على يد المغول - التتار سنة 656هـ/ 1258م، كمفصل رئيسي وأساسي، إلا أن مديات البحث امتدت إلى نهايات القرن 8هـ/ 14م، حيث ظهرت هناك - في بعض الأمصار الإسلامية، (الأندلس، مصر، فارس)، استمرار للتعاطي مع مهنة الوراقة، رغم سقوط الدولة العباسية، وبداية النكوص الحضاري للثقافة العربية - الإسلامية.

وهذه الفترة - لا سيما الأولى منها - شهدت أوج الأزدهار الحضاري، على يد

الخلفاء الأكفاء من بني العباس، من أمثال: (أبو جعفر المنصور 138 - 158هـ/ 750 - 790م)، وهو باني مدينة بغداد، و(هارون الرشيد 170 - 193هـ/ 782 - 805م) ثم ابنه (عبد الله المأمون 198 - 218هـ/ 810 - 830م)، وهؤلاء الخلفاء، كانوا ميالين للثقافة والعلوم، الأمر الذي أعطى دافعاً قوياً لتطور مختلف العلوم والفنون، إذ تطورت الوراقة وصناعة الورق في بغداد ودمشق والقاهرة المعزية - أيام الفاطميين - لا سيما الخليفة المشهور (المعز لدين الله الفاطمي) وكذلك تجاوبت الأندلس الأموية، مع هذا الإيقاع المتصاعد، حتى غدت إشبيلية المنافس الأرأس لبغداد في الوراقة والتوريق، حيث لعب الخلاف السياسي بين الدولتين (الأموية والعباسية) دوراً أساسياً في تطوير صناعة الكتاب، وثقافة الكلمة، إذ كانت إشبيلية تستقطب كل وافد إليها من أهل المشرق، لا سيما أصحاب الإبداع في الفن والكتابة.

مستوى دراسة البحث

إنَّ موضوعاً حضارياً - ثقافياً، كموضوع «الوراقة» أو صناعة الكتاب، هو موضوع عالمي، يخص كل شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، وهو بنفس الوقت، موضوع يخص الحضارات العالمية المختلفة.

والمتتبع للحضارات القديمة، (كالسومرية والبابلية والأكادية والفرعونية والإغريقية والصينية) يتلمس تلك الكتابات، التي كانت تكتب على الطين والرقم، أو أوراق البردي والخشب، وعلى الصخور، والرقوق ولحاء الأشجار، وغيرها، بغية حفظ تراث تلك الحضارات، وهو ما وصل إلينا عبر الدراسات الآركيولوجية.

وتعد الحضارة الفرعونية (الألف الرابع قبل الميلاد) أقدم الحضارات التي اكتشفت ورق الكتابة من قصب البردي، والتي ما تزال آثارها قائمة حتى اليوم في مصر، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الفينيقيين (الألف الثالث قبل الميلاد) والذين سكنوا الساحل الشرقي للبحر المتوسط، قد توصلوا إلى إيجاد «أول أبجدية» للغتهم، ونشروها في كل بلدان حوض المتوسط، وحفظوها بسجلاتهم، وأودعوها في مدينتهم الخالدة «قرطاجة».

وعندما انبثق الإسلام من الجزيرة العربية، كانت مؤثرات بيزنطة وبلاد فارس، واضحة على تلك المنطقة العربية، ناهيك عن وجود الديانات السماوية فيها من «يهودية ومسيحية» وهذه المسألة تفرض على العرب والمسلمين تحدٍ حضاري وعقائدي، يفرض وجوده بين تلك الثقافات، باعتباره ديناً جديداً، خاطب العرب بلغتهم، فقد كان «القرآن» كتاب العرب والمسلمين الأول، لذلك ارتبطت به اللغة العربية أيما ارتباط، بحيث أصبح

هذا الترابط، يشكل وحدة عضوية متكاملة لا تعرف الانفصال ولا التجزؤ، لذلك نص اهتمام المسلمين الأوائل على جمع القرآن وتدوينه، وشكلت عظام الجمال وأوراق سعف النخيل وجلود الحيوانات والرقوق، المواد الأساسية الأولى للتدوين.

عندما أمر الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان (23 - 31هـ/ 648 - 655م) بأن يجمع القرآن من صدور الرجال «الحفاظ» وأوكل تلك المهمة الجليلة والخطيرة إلى (زيد بن ثابت) وهو صحابي، من الرعيل الأول للمسلمين، وأول كاتب للوحي عند الرسول محمد ﷺ وبذا يكون **هذا الصحابي هو أول ورّاق في الإسلام**، يقوم بهذه المهمة، حيث قام بوضع منهج خاص لوراقة القرآن، اعتمدت الأمانة العلمية مبدأ أساسياً، ثم الوضوح في الخط، والتوقف عند الفواصل الواجب التوقف عندها، ولذلك سار كل من جاء بعده على نفس المنوال، من الصحابة المسلمين، الذين تفرغوا لنسخ المصاحف القرآنية.

وعندما تطور المجتمع العربي - الإسلامي، إبان الخلافة العباسية، أصبح من الضروري فهم الفلسفة اليونانية الوافدة على المجتمع العربي - الإسلامي، الأمر الذي أبرز الحاجة إلى وجود تراجمة يحولون اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وما رافق ذلك من تطور ثقافي، فرض وجود الوراقين، لنسخ الكتب المترجمة، وإيجاد المتخصصين بذلك الفن. ويعد ابن النديم، وهو من أشهر الوراقين في العصر العباسي، أول من صنف كتاباً يتطرق لسيرة هؤلاء العلماء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والوراقين، بكتابه الهام «الفهرست» وهذا الكتاب - الفهرست - يعد أول التفاتة ذكية في وضع المعاجم لتراجم الرجال في الثقافة العربية - الإسلامية، ثم جاء بعده وراقاً ثانياً اسمه «**ياقوت الحموي**» ليضع موسوعة أكبر وأضخم من «الفهرست» لحياة هؤلاء العلماء اسمها «**معجم الأدباء**» أو «إرشاد الأريب لمعرفة الأديب» وهذه الموسوعة تقع في عشرين مجلداً، ضمّنها الكثير من تراجم الوراقين.

وعلى الصعيد المهني لحرفة الوراقة، كممارسة وإنتاج للإبداع، تصدى الفقيه (**الشيخ عبدالباسط بن موسى بن محمد العلموي/ توفي سنة 981هـ/ 1593م**) لموضوعة منهجية الوراقة، ضمن الرؤية الإسلامية، وذلك في كتابه المعروف بـ«المعيد في أدب المفيد والمستفيد» وتحديداً في الباب السادس من الكتاب، وظلت هذه المقالة من أقدم وابرز ما كتب في الموضوع الوراقي، في الثقافة العربية - الإسلامية. ثم جاءت مقالة الباحث (حبيب زيّات)، والتي حملت عنوان «الوراقة والوراقون في الإسلام» والمنشورة في مجلة «المشرق» البيروتية، الصادرة عام 1947م، وهي واحدة من أمتع الدراسات في هذا الموضوع، إلا أنها قصيرة لا تتجاوز 16 صفحة، إذ كانت بمثابة عرض مقتضب لبعض سيرة حياة الوراقين المعروفين، وبعض ما يعانوه في مهنة الوراقة.

أما على صعيد الكتّاب الأجانب - غير العرب - والذين كتبوا حول صناعة الكتب والورق والمكتبات، بشكل عام، في حضارة العرب وثقافتهم، دون التوقف الدقيق لمعرفة أسرار مهنة الوراقة في الحضارة العربية - الإسلامية، فيمكن ذكر الأسماء التالية من الباحثين:

1. R.S. Mackensen:
   «Four Great Libraries of Medieval.
   - Baghdad the library quarterly - 2/1930N^0 3- p 279-292
2. F. Milku - j - : «Handbuch der bibliothek, swissensch aft 1955.
3. J. Gerny: peper and books in Ancien Egypt. London 1952.

4 - ويعد كتاب «يوهانس بيدرسون» المسمّى (الكتاب العربي - منذ نشأته حتى عصر الطباعة) ترجم وطبع بدمشق 1989م، واحداً من أهم الدراسات التي استعرضت بعض أدوات الكتابة والطباعة، إلا أنه لم يتوقف مع ظاهرة الوراقة والوراقين، بشكل دقيق، من حيث المنهج والأسلوب، وهو معذور بذلك، فربما أشكل عليه بعض خوافي وأسرار اللغة العربية.

5 - ثم يأتي د. الكسندر ستيبتشيفج، أستاذ علم المكتبات والكتب في جامعة زغرب في يوغسلافيا، بكتابه الهام (تاريخ الكتاب) والمترجم إلى العربية في عام 1993م، حيث ذكر في الفصل السادس من الجزء الأول بعض مراحل الكتابة العرببية، لا سيما في الأندلس، بعد فتحها في عام 711م من قبل عبد الرحمن الداخل، أول خليفة أموي فيها، إذ سلط الضوء على ازدهار المكتبات، ومعرجاً بنفس الوقت على (بغداد) في القرن 9م/ 3هـ، مشيراً إلى تطور صناعة الكتاب العربي على القوالب الخشبية، لا سيما في مصر، ولو أنه اطلع على كتابي: ابن النديم وياقوت الحموي، المذكورين أعلاه، لكان توسع كثيراً في موضوعة «الكتاب العربي» ولكنه على ما أعتقد، ووفق ما أخبرني - مترجم كتابه أعلاه - د. محمد الأرناؤوط - وهو خريج يوغسلافيا، بأنه لم يعرف اللغة العربية! وهذا الإشكال يصعب على الكثيرين إنجاز مهمتهم المعرفية بصدد صناعة الكتاب العربي.

مناقشة علمية مع ستيبتشفيج وبعض المستشرقين

ينطلق البروفيسور «الكسندر ستيبتشفيج» مؤلف كتاب «تاريخ الكتاب»[1] من أن تاريخ الكتابة يبدأ من السومريين[2] حيث أن الشواهد على الكتابة السومرية تظهر على الرقم الطينية الصغيرة التي نقشت عليها «الكتابة التصويرية» والتي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، ويضيف: «وربما يكون السومريون قد بدأوا الكتابة قبل هذا التاريخ، على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت للأبد» لكنه يضيف عبارة أخرى، يخضعها إلى «الشك المنهجي» الذي يحكم تصوره، باعتباره أستاذ علم تاريخ الكتاب والمكتبات في جامعة زغرب في يوغسلافيا[3] حيث يورد هذا الشك في العبارة التالية: «ومن المحتمل أن لا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة، كوسيلة جديدة للتواصل، أي أن يكونوا قد أخذوها عن شعب آخر غير معروف، كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين» ويضيف أيضاً: «وربما تجدر الإشارة إلى الفرضية الجديدة التي تقول أن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب التي كانت على ضفاف نهر الدانوب، وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور في عام 1961م على الرقم الطينية التي تعود إلى العصر الحجري في منطقة تاتاريا برومانيا، فالتشابه بين الإشارات الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضح للغاية».

ويضيف: «ولذلك فلقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات بالإضافة إلى الكثيرين من أمثالها، التي تم اكتشافها قبل وبعد 1961م في ضفاف الدانوب، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط، إلا أن نتائج التحاليل (الراديوكربونية) قد فاجأت وحيرت الخبراء، لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية»[4].

ونحن نرى أن «الشك المنهجي» من حق كل دارس أن يأخذ به، لا سيما إذا كان قد اعتمد على نتائج خبراء مختصين من الآركيولوجيا أو غيرها، لكن مسارات تطور تاريخ

(1) صدر الكتاب بترجمة د. محمد الأرناؤوط - ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية، تحت رقم 169 و170 في رجب 1413هـ/ يناير - كانون الثاني/ 1993م.

(2) المصدر أعلاه/ ص12.

(3) أنظر مقدمة المترجم للمصدر أعلاه.

(4) تاريخ الكتاب/ ص12.

بلاد سومر، أيضاً يشير إلى مدى التأثير العالمي، الذي أحدثه السومريون على باقي شعوب الأرض - في تلك الحقب الغابرة - هذا أولاً، وثانياً، **أن مركز العالم الحضاري كان في بابل**، وهذا يعني أن إنتقال لغة الكتابة السومرية، بحروفها المسمارية وارد جداً، فلربما نقلها سومري أو غيره من بابل إلى تلك البقاع النائية عبر البحر المتوسط، ولربما وقع أسير بابلي بيد أحد الأعداء، وهناك علّم أهل الدانوب أو غيرهم تلك الكتابة، وتاريخ المكتشفات الأثرية، منذ بدء عمليات التنقيب الآركيولوجية، كلها تشير إلى **«أن التاريخ يبدأ بسومر»** وعلى هذا الأساس، كان شك الخبراء الذين حللوا تلك الإشارات بواسطة «التحاليل الراديوكاربونية» ولو كانت للدانوب حضارة سابقة على بلاد سومر لما خفيت على علماء الآثار، وعلى أساس صحة التاريخ وقدمه، يعترف ستيبتشيفج في نهاية مقالته «بأن السومريين هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية، ثم طوروها إلى نظام كتابي تضفي عليه السمات الصوتية»[1].

أما المستشرقين الروس، والذين انتبهوا إلى صناعة الكتاب العربي والورق في الحضارة العربية - الإسلامية، فيسجل السبق في هذا الميدان إلى المستشرق الروسي الكبير **«آ - غ كراتشوفسكي»** وهو مخضرم من العهدين - القيصري والسوفيتي - حيث كان أول من ترجم القرآن إلى اللغة الروسية، واهتم بالأدب العربي أيما اهتمام، وهو بهذا يكون قد فتح الباب أمام المستشرقين الروس للدخول إلى الثقافة العربية - الإسلامية. أما أهم باحث روسي من المستشرقين كتب عن الخط والمخطوطات العربية، والذي لامس بشكل قريب موضوع الوراقة فهو **(البروفسور الراحل خاليدوف** (A. B XalugoB) - باللفظ الروسي - من معهد الإستشراق في سان بطرس بورغ، بمقالتيه - باللغة الروسية، الأولى بعنوان **«الثقافة الكتبية»** والمنشورة بكتاب **«دراسات في تاريخ الثقافة العربية» والمطبوع بموسكو عام 1982م.** ومقالته تحت عنوان **«المخطوطات والكتب في الثقافة العربية».**

والمنشورة في كتاب **«مخطوطات الكتب في ثقافة الشعوب»** الصادر من معهد الإستشراق في موسكو عام 1987م، ثم تليه المستشرقية الروسية **«ي. ن ميشيرسكايا»**.

بمقالتها **«مخطوطات الكتب السورية»** والمنشورة بنفس الكتاب السابق أعلاه والصادر من معهد الإستشراق في موسكو، وقد يسّر لي الوقت للإلتقاء بها في إحدى الندوات العالمية حول الثقافة العربية، إذ كانت من المشاركات، ثم تأتي - ثالثاً - المستشرقة الروسية **«ل. ف ديمتريفا»** بمقالتها **«المخطوطات من الكتب - التركية والعربية»** والمنشور

(1) تاريخ الكتاب/ ص13.

بنفس المصدر أعلاه. ومن الجدير التأكيد عليه (هنا) أن مقالتي **خاليدوف**، هما من أكثر الدراسات عمقاً وتحرياً في بعض جوانب صناعة الكتاب العربي (كمخطوط) وكان حري به أن يطور تلك الدراسات في كتب مستقلةلا دراسات منفردة ضمن كتاب مشترك، وكان قادراً على ذلك، إلا أن - رداءة الأحوال الثقافية في روسيا - بعد إنهيار الاتحاد السوفيتي، كان عائقاً كبيراً لنشر أي ثقافة عربية - إسلامية في روسيا الاتحادية.

الجديد في البحث

إن متابعاتنا الدقيقة والحثيثة لموضوعة صناعة الكتاب العربي، أو ما أطلقنا عليه تسمية **الوراقة والوراقون في الحضارة العربية الإسلامية**، ومقارنة بكافة دراسات المستشرقين والمختصين في الثقافة العربية، حول هذا الموضوع نقول بثقة عالية: إنَّ دراستنا هي أول دراسة في العالم العربي والإسلامي تتصدى لموضوع **(صناعة الكتاب العربي)** بكل جوانبه، التاريخية والعلمية والفنية والمهنية، بدءاً من التبرعمات الأولى في المساجد وبيوت العبادة، إلى تطور الظاهرة الوراقية إلى أن تتخذ لها أسواقاً خاصة في المدن العراقية أولاً، مثل بغداد والبصرة والكوفة وواسط، ثم انتقالها إلى بقية الأمصار الإسلامية، على نفس الإيقاع والوتيرة. وقد قمنا برصدٍ دقيق لهذه الحركة الثقافية، ومتابعة الوراقين في كل صغيرة وكبيرة، في حياتهم المهنية والشخصية، ومن ثم استطعنا أن نكشف ونثبّت في البحث، مسار **(تطور الخط العربي)**، على يد هؤلاء، وإبداعاتهم في توليد خطوط أخرى، تساعدهم في عملية فن الوراقة، لا سيما ابتداعهم خطاً يسمى **الخط الوراقي** حيث كان هذا هو السائد في نسخ الكتب، وهو أقرب شكلاً من الناحية الفنية، إلى **خط النسخ** المتداول - آنذاك.

ثم أننا كشفنا لأول مرة **«المنهج المعرفي»** لفن الوراقة في الثقافة العربية - الإسلامية، حيث لم يهتد إليه أحد قبلنا، لا من العرب ولا من المستعربين، وقد أوضحنا بجلاء المراحل الزمنية لتطور هذا المنهج الدقيق في ظاهرة الوراقة، **إذ أن هذا المنهج**، مر بثلاث مراحل تاريخية، يتوجب الإشارة إليها، وهي: أولاً ظهرت الوراقة على شكل **«مجالس إملاء»** حيث كان الشيخ أو الأستاذ، يلقي محاضرته، ويبدأ **«الوراقون - النساخ»** بكتابتها مباشرة عنه، وكان هؤلاء يسمون **«المستملون»** ومفردها مستملي، والناتج يسمى **«أمالي»** كما هو معروف عن **«أمالي القالي»** وغيره.

والمرحلة الثانية، هي مرحلة **«النسخ والمقابلة»** حيث أصبحت مهنة الوراقة تتطلب المطابقة الحقيقية على أصل المخطوط، وبمصادقة المؤلف والقراءة عليه، فصلاً فصلاً،

وعند الإنتهاء من ذلك، تؤخذ موافقته العلنية وأمام الناس وداخل المسجد، ويكلف شخص أو أشخاص محددين، يسميهم المؤلف ويعطيهم «الإجازة» ويشهد الناس عليه بذلك.

أما المرحلة الثالثة، في مسار حركة تطور صناعة الكتاب، فإن مهنة الوراقة أوجدت في مسارها ما يعرف بـ«منهج التخصص بالوراقة» وهي المرحلة الأكثر نضجاً، في العملية الإبداعية للوراقين، حيث صار الوراق الناسخ، يتخصص بفن من الفنون، وينسخ به فقط، كالشعر أو النثر أو اللغة أو الحديث النبوي، أو التاريخ أو الفولكلور، أو الفلسفة، أو غيرها من بقية فنون الإبداع، وقد أضيف إلى هذه المرحلة تقيدات كثيرة على الوراقين، حيث توجب على الوراق أن يكون «عالماً» بتخصصه، أي أن يكون - ناقداً - وهنا ظهر مبدأ «الحاشية» في التوريق، لتوضيح ما يقع فيه - المؤلف - من أخطاء نحوية أو لغوية أو عروضية وصححها الوراق بيده، وهذا إبداع ثقافي، أضفى حالة من الرقي المعرفي على تقاليد الكتابة العربية الإسلامية. إذ بهذه العملية حافظ الوراقون على الأمانة العلمية، في عملية النقل من الأصل - المخطوط.

ثم إننا أوضحنا الفرق في المعنى لكلمة «ورّاق» وما المقصود منها، حيث أن هذا المصطلح يعني: أن كل إنسان اشتغل بمهنة نسخ الكتاب أو تجليده، أو تزويقه، أو خط عناوينه، أو التوسط في بيعه، أو بيع أدوات الكتابة، أو الورق أو الرقوق، وما لحق من أمور تخص نشر الكتاب، من حيث التوزيع، وشكل الإعلان عنه وتسويقه، وكل هذه الأمور، يقوم بها مجموعة من الاختصاصين من الوراقين، ومجمل هذه العملية بكل إجراءاتها، تسمى الوراقة، ولا يصح إطلاق كلمة «وراق» على الناسخ فقط لأنه ضمن سلسلة متكاملة، متخصصة، فالوراق أشمل وأوسع من الناسخ. وهذا الإشكال، هو أحد المطبات الرئيسية التي يقع بها المستشرقون الذين يعنيهم الناسخ - فقط، من كل عملية الوراقة، والأمر ذاته ينسحب على الترجمات المختلفة، التي تنقل المصطلح «الوراق» حيث تسمية «ناسخ».

موضوعات العمل

كأي عمل موسوعي، لا بد لموضوعاته أن تكون بارزة وواضحة، لأن الباحث يهتدي بسير عمله، أثناء البحث، وهذا يعني، أن «مخطط الموضوعات» قد أعد سلفاً، ضمن الرؤية المنهجية للعمل، ولكن هذا «المخطط» يخضع إلى الحذف والإضافة، والنقصان والزيادة، بحكم طبيعة العمل المبحوث فيه، لأن سير العملية يؤكد أفكاراً جديدة، تستوقف الباحث لأن يدرجها في عمله، ومن ثم يخصص لها أبواباً وفصولاً، وهو الأمر الذي

(حدث) معنا أثناء بحث هذه الموسوعة، هذا من جهة ومن جهة ثانية، أملت علينا «الثقافات المتعددة»، ونحن ننتقل من بلد لآخر، أن نجد مسوغ المقارنات النقدية، في ذات الموضوع، مع تلك الثقافات، حيث واجهتنا عدة أسئلة حول الموضوع، لا سيما ونحن - ندافع عن تلك الأطروحة - في روسيا الاتحادية، وبالتالي أصبحت الزيادة المفروضة على العمل من صلب الموضوع، فشغلت الحيز الخاص بها، في جسم الموسوعة، ناهيك عن التقاط بعض المضان، التي كانت غائبة عنا، أو صعوبة الحصول عليها، هنا وهناك، لا سيما في البلدان الأوروبية، وهذا أيضاً فرض قانونية وجوده على العمل، وأمور معرفية أخرى، ومن هنا يلاحظ المتتبع ضخامة العمل، من حيث الحجم وكثرة العناوين الرئيسية والفرعية، حتى اكتمل هذا البناء المعرفي بعد 22 عام من الجهد والمتابعة والتحقق والتدقيق والقلق النفسي الرهيب، والذي كثيراً ما أقض مضاجعي - في أكثر من بلد - ولا زال هذا القلق كامن في الروح إلى أن ييسر الله له، فيطبع، واستريح من عناه، ولو أن الأمل ضعيف جداً، بأن يخرج إلى النور، ولكن الأمل باق.

وعلى العموم، تمركزت الموضوعات الرئيسية في هذه الموسوعة على عدة أجزاء، حيث بلغت «6 أجزاء» كلها تخص ذات الموضوع «الوراقة والوراقون» وكل جزء يتمم الآخر، وهي موزعة على النحو التالي:

- الجزء الأول: حمل عنوان (الممهدات التاريخية والحضارية)، والتي سبقت ظهور مهنة الوراقة الإسلامية، أي أننا توقفنا - تاريخياً - مع الحضارات القديمة على أرض الرافدين ومصر، ودرسنا تأثيراتها الثقافية والحضارية، على كينونة المنطقة العربية، وصيرورتها، وما انتقل إليها من إرث تلك الحضارات، بعبارة أخرى يمكن القول أن الموروثات الحضارية ظلت كامنة في نفوس وأرواح تلك البقاع، ومن ثم برزت اللحظة التاريخية، لولادة جنين حضاري من تلك الموروثات، يستفيد من ذلك الموروث، وينطلق منه، ليحقق ذاته، وكان ذلك هو العصر العباسي في تاريخ الثقافة العربية - الإسلامية، إذ فيه شمخت الحضارة العربية - الإسلامية، كما شمخت حضارة سومر وبابل، في تلك الأزمان الغابرة، وبنفس الحاضن الجغرافي، والذي اسمه العراق. ومن هنا كانت موضوعات الجزء الأول، شبه مواصلة تاريخية لربط اللاحق بالسابق، فتوزعت الموضوعات - بهذا الجزء - على بابين في ثمانية فصول: مضافاً إليها، التمهيد التاريخي للدراسات المقارنة، التي عرّجت على موضوع الوراقة من الدراسات الأجنبية، فكان الباب الأول، يشمل الفصول التالية:

- الفصل الأول: تمهيد تاريخي، تمّ فيه التطرق إلى البدايات الأولى لوعي الناس،

ضمن الثقافة الإسلامية، وهم يعبرون مرحلة الجهل، ونقل الأخبار مشافهة إلى التدوين والنقل، واختراع الآليات المعرفية لحفظ تراث تلك الأمة من الضياع، فبدأ القلق المعرفي يشغل أذهان المفكرين الإسلاميين، من العرب وغيرهم لإيجاد وسيلة معرفية يعبر بها عن هذا القلق، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كانت أمور المسلمين تفرض عليهم معرفة مبادىء إسلامهم وقوانينه وفلسفلته، كمؤثر خارجي على بنية الذات، وتستجيب له الحالة الفردية كمبعث داخلي، لتشكل وحدة متراصة، لها ما يميزها ثقافياً وعقائدياً، فنشأ عن ذلك تبرعمات أولية على وجود ظاهرة الوراقة بدأت في المساجد الدينية ومنها انطلقت إلى رحاب أوسع شملت قارات فيما بعد.

وهذه الظاهرة نشأت مع نشوء المهن الإسلامية الأخرى، وبذا هي تشترك مع هذه المهن بالثقافة الدينية والروحية، لكن في مجال الإبداع الفكري، وليس العضلي أو الجسمي، وتلك هي أهم الأمور التي تمّ مناقشتها في (**الفصل الأول**).

- **أما في الفصل الثاني**: **فتناول كيفية إنشاء بغداد من قبل الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور)** وأهمية وتأثير هذه المدينة على بقية المدن والأمصار الإسلامية، باعتبارها عاصمة الخلافة الإسلامية ومركز التمدن الحضاري في العالم الوسيط، وبروز تأثيرها الثقافي الواضح، حتى أصبحت قبلة العلماء والأدباء والفلاسفة وغيرهم.

- **والفصل الثالث**: يناقش، من خلال المعطيات «**التطور الاقتصادي الهائل للمجتمع العباسي**»، وانتعاش مختلف الطبقات، وبالتالي سحب ظلال هذا الرفاه الاقتصادي على الحالة الاجتماعية، والتي بدأت تظهر فيها، نزعات نحو الثقافة الروحية، بشكل ملفت للانتباه، حتى صار التعليم والتثقيف، إحدى سمات «**الظرف البغدادي**» تلك الحالة الثقافية النادرة، والتي أغرت النساء والرجال لأن يتسابقوا للدخول في حلبتها الثقافية.

- **والفصل الرابع**: ترتسم فيه معالم ثقافية لمجتمع كامل الآهلية، من حيث الشكل والمضمون، إذ **صارت متطلبات الحياة الثقافية كضرورة حتمية**، ليس فقط لصفوة المجتمع، بل للسواد الأعظم من الناس، فظهرت المكتبات، والحانات وملاهي الغناء، وبرزت أسماء فنية لامعة، وسجلت قفزات حضارية للمجتمع العباسي، في تلك الفترة من حكم (هارون الرشيد)، وصولاً إلى خلافة إبنه (المأمون) إذ تعتبر بحق - هذه الفترة - من أخصب فترات الازدهار الثقافي والروحي في الخلافة العباسية، وقد كان للوراقين في تلك الفترة، السمعة العالية والحضوة المكنية عند مختلف الأوساط العلمية والثقافية والسياسية.

- **الفصل الخامس**: يكمل فيه مشوار التطور الثقافي - في حياة المجتمع العباسي، إذ تظهر على السطح ظاهرات علمية - ثقافية، تتمحور حولها تيارات سياسية وثقافية، تفرض

نمطاً من السلوك الاجتماعي العالي، حيث تشمخ الترجمة ويسود «**التفكير الاعتزالي**»، وتظهر المذاهب والفرق، وتبدأ الصراعات الفكرية، وكان سوق الوراقين (**في جانبي بغداد - الكرخ والرصافة**) مسرحاً لتلاقي تلك التيارات الفكرية، ومجلساً ينعقد لها في كل يوم، عند عتبة هذا الوراق أو دكة ذاك الناسخ، أو حلقة ذاك الفيلسوف، فتشعر وأنت تدخل سوق الوراقين - بأنك في رحاب عالم آخر، شغله الشاغل الثقافة وحدها. حتى تميزت تلك الفترة بظهور «طبقة خاصة من الكتّاب والمفكرين» بدأت تقلق كيان السلطة السياسية العباسية، حيث ظهر بين أوساط هذه الطبقة، مفكرون وقادة تيارات سياسية، مبطنة بالعباءة الدينية، وهناك في تلك الفترة، ظهر التصوف الإسلامي، وفلسفته العالية، التي أحدثت نقلة نوعية في الثقافة العربية - الإسلامية، وكان لكل هذه التيارات ورّاقوها المخلصين.

- **أما الباب الثاني**: والذي أخذ عنوان: «**تطور صناعة الكتابة في بغداد والأمصار الإسلامية**»، فهو يكشف لنا عن الأساليب الفنية التي بدأت تظهر عند نمط من الكتّاب أمثال (**الجاحظ، والصولي**) وغيرهم، حيث بدأت هذه الأنماط الكتابية، تفرض قانونيتها الإبداعية في الترسّل والكتابة، حتى غدت قبلة الكتّاب للوصول إليها، وارتقاء سلمها العالي، وهي بهذه «**الأنماط**» أوجدت شيئاً من المنافسة الإبداعية بين الوسط الثقافي، وكان للوراقين الدور الأبرز في إظهار هذه الأنماط والترويج لها، بل إنحاز قسم من هؤلاء الوراقين إلى ملازمة هؤلاء النخبة من الكتّاب، والتوريق لهم فقط، وبهذا التفرّد صارت هناك «**طبقة مثقفة من الكتّاب**» تلتزم بهذا النمط من الكتابة، وهو الموضوع الذي يعالجه - **الفصل الأول** - من هذا الباب، والذي حمل عنوان: «**ظهور الكتّاب كطبقة مثقفة**».

- **أما الفصل الثاني**: فكان يحمل عنوان: «**مقومات الكتابة والكتّاب**»، وهو بمثابة، استمرار للفصل السابق - كحالة ثقافية - حددت لها ميزات خاصة لحامل لقب «**كاتب**» تلزمه التمسك بها، كعرف إبداعي - معرفي، ضمن شروط خصوصية الحالة الاجتماعية، في مجتمع عربي - إسلامي، له خصوصيته الثقافية وشرطه الزمني.

- **أما الفصل الثالث**: والأخير - في هذا الباب - فإنه يتحدث عن «**أدوات الكتابة**»، حيث أفرزت تلك الفترة، عدة أدوات لممارسة الكتابة، يتوجب توفرها في حوزة الكاتب، مع العناية بها، واعتبرت تلك الأدوات جزءً من شخصية الكاتب، لا سيما القلم والدواة، وما لحق بهما، وقد كشفت الدراسة عن أكثر من أربعين أداة من أدوات الكتابة كل منها له وظيفته الخاصة في العملية الإبداعية «الكتابة».

- **الجزء الثاني**: حمل عنوان «**ظهور مهنة الوراقة**».

إنَّ التمظهرات التاريخية، التي أفرزها العصر العباسي الناهض على مختلف

الأصعدة، ولا سيما في الحالة الثقافية، استوجبت أن تكون هناك، صناعة خاصة بالكتاب العربي، تخضع بشرطها المعرفي إلى المستوى العقلي والروحي للمجتمع العربي - الإسلامي باعتباره، كينونة اجتماعية، وإثنية، تملي مقوماتها على أهمية إبراز خصوصيتها القومية والعقائدية، إنطلاقاً من روح الإسلام الحضاري بوصفه يمثل ثقافة المنطقة الشرق أوسطية، من جهة، وبوصف العرب الساميين كونهم حاملين لتراث الثقافات القديمة، السومرية والبابلية والأكدية والآشورية من جهة ثانية، تلك التي خلقّت جذورها في المنطقة، وعلى خلفية هذه اللوحة، بكل تراكماتها التاريخية، ظهرت تلك الإفرازات الحضارية في فن الخطابة والشعر - في المرحلة الجاهلية، ثم تفجرت تلك «المخزونات» في العصور الإسلامية المختلفة، حتى وصلت إلى قمة الذروة في العصر العباسي، إذ فرضت الحالة الحضارية، وجود صناعة خاصة بالعرب والمسلمين، تعبر عن روح الثقافة فيهم، وتكون بمثابة مشعلاً وهاجاً يدل عليهم ثقافياً، أثناء احتدام حالة المنافسة الحضارية، فكانت «مهنة الوراقة» أصدق تمثيل لهذا المنحى، وأعمق وأخطر ظاهرة حفظت لهم شكل خطابهم العقلي والروحي والبلاغي، وعبّرت - بنفس الوقت - عن مكامن الإبداع اللامحدود، في عقليتهم الخلاقة المنتجة، وبمعنى آخر، إن ظهور مهنة الوراقة، هي الهوية المعرفية، التي ميزت الثقافة العربية - الإسلامية في العصور الوسطى من التاريخ العالمي، حددت سمات الشخصية الثقافية العربية الإسلامية، ووضعت قدماً راسخاً لها في كل ثقافات العالم، من خلال ما تركته من نتاج ثقافي، لا زال حتى اليوم يبهر العقول. وبغية أن تكون هذه الصنعة الثقافية هي المعبرة الحقيقية عن روح الإبداع العربي - الإسلامي، فإن العامل الذاتي، يجب أن يكون، هو الدافع الأرأس في تكوين تلك الصنعة، وهو ما كان فعلاً، إذ بدأت المبادرة من الوسط الثقافي العربي، ذاته - وكما أوضحنا في بداية هذه المقدمة - من أن المثقفين ورجال الفكر والأدب هم الذين أسسوا هذه المهنة الثقافية الخالدة.

ينقسم البحث - في هذا الجزء - من الموسوعة، إلى بابين رئيسين يشكلان العمود الفقري، والرافعة الأقوى لبنية العمل الموسوعي برمته، وحوله تدور الأجزاء والأبواب والفصول، وهو الأكبر حجماً في العمل - بحكم طبيعة البحث المنهجي - الذي رسمناه، لإبراز هذه الظاهرة.

- الباب الأول: وقد اشتمل على (تسعة فصول) كل فصل منها، يعالج قضية محددة، تنتمي بحلقيّتها، إلى سلسلة طويلة من الترابط المنهجي في البحث، فكانت تلك الفصول التسعة، تعبر عن مداليلها، حسب ما يلي:

الفصل الأول: حمل عنوان «**تمهيدات تاريخية واقتصادية واجتماعية**».

إذ فرض السياق المنهجي هذه التمهيدات، بغية إيقاف الدارس أو الباحث، على الأسس التاريخية التي صاحبت تطور حركة المجتمع العباسي اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، بحيث أن قانونية التطور تفرض وجود هذه الحالة من السمو الثقافي والروحي، لإيجاد مثل هذه «الصنعة».

الفصل الثاني: حمل عنوان: «**الورّاقون، كصنف من الأصناف الإسلامية**».

وهذا الفصل حددنا فيه، معنى **الأصناف الإسلامية**، أي «**النقابات**» بالمفهوم السياسي - الاجتماعي، المعاصر إذ أن حالة الأصناف الإسلامية، تؤشر إلى البواكير الأولى من «الوعي الطبقي» لدى المسلمين، وبنفس الوقت يشير إلى مدى النضوج المهني لدى هذه «الأصناف» لأن تشكل وحداتها النقابية، وقد كان للوراقين الدور البارز، في بلورة هذه الأشكال المهنية، إذ أن - **ممثل الورّاقين** - كان في طليعة من يقرروا - قبول العضويات والعقوبات في بقية الأصناف الإسلامية، ويجد المتابع «**طقوساً خاصة في عمليات الشدّ والشعيرة**» لقبول العضو في تلك الأصناف، والتي بنت وعيها النقابي على أساس من الفكر الديني، والمكيف عملياً، وحالات النقابات تلك، وهو أثر لم يسبق لحضارة موازية - في تلك الفترة - للحضارة العربية - الإسلامية، لأن تبدع مثل هذا النمط في وجود النقابات، ضمن روح الإسلام الحضارية، وهذا الأمر يُغفله المستشرقون عن عمد وإجحاف، لا سيما الذين اشتغلوا في التراث العربي - الإسلامي، من دافع أيديولوجي مناهض للعرب والمسلمين.

الفصل الثالث: حمل عنوان: «**تعريف معنى الوراقة والورّاقين**».

حيث ميزنا فيه عن معنى الورّاق والناسخ، والمجلد والبائع، والمنادي وبقية أصناف الوراقين، وفق المصادر اللغوية والتاريخية، التي تطرقت لهذه التعاريف، وحددت مضامينها. ثم عرّفنا معنى «الوراقة» اعتماداً على تلك المصادر، وما وقفنا عليه من تتبع سير العملية، في كافة مراحلها التاريخية.

الفصل الرابع: أخذ عنوان «**منهج الوراقة في الإسلام**».

بهذا الفصل أوضحنا مجموعة القواعد والطرق والأساليب الواجب إتباعها في عملية «توريق الكتاب» من دافع معرفي ووازع إسلامي، يخضع بمضمونه إلى البعد الديني - الأخلاقي، في التعامل مع المهنة «الوراقة» بوصفها مهنة إسلامية، تتعامل مع - صناعة الكتاب.

وقد أظهر «منهج المقابلة والنسخ» وهو النقطة الجوهرية في موضوع منهج الوراقة

الإسلامي، الأبعاد الدقيقة، والمسؤولية العالية، والأمانة العلمية لدى الوراق، أثناء عملية النقل، وألزمه ضرورات علمية ودينية وأخلاقية، يتوجب التمسك بها، ثم ظهر في سياق البحث الأشكال المتطورة في عمل الوراقة، إذ ظهرت «الحاشية والتعليقات» والإشارات للخطأ والصواب، ومفردات دالة على الاختصار - لا سيما في كتب الحديث - ثم تطور هذا المنهج لدى الورّاقين، وأصبح فيه، النقاد والمختصين في مختلف فنون الكتابة، ثم ظهر فيه «عملية الإخراج الفني للكتاب» وكل ذلك، كان يظهر - بشكل يوحي - من خلال عملية الوراقة برمتها، والمتابع سيقف على مقدار المسؤولية الأخلاقية، والمسؤولية العلمية، في إخراج الكتاب أو - المخطوط - سليماً وخالياً من العيوب.

الفصل الخامس: حمل عنوان: «أثمان النسخ والتجليد».

وفيه تتبدى أخلاقية الوراقين العالية، إذ أنهم، كانوا يسعون إلى انتشار المعرفة أولاً وأخيراً، وهو ما نلمسه في أسعار وأثمان النسخ لكل صفحة، أو لكتاب، أو بأسعار التجليد، إذ أن الوراق، يكفيه قوت يومه، من كسب المال، حيث أن الهم الثقافي، كان هو الأبرز في سلوكه في هذه الناحية.

الفصل السادس: حمل عنوان: «أصناف الورّاقين».

وبهذا الفصل حددنا، من هو الذي ينطبق عليه «لقب ورّاق» وما هي مهمات كل صنف من هذه الأصناف، وكيف يؤدّون عملهم، كل حسب اختصاصه في مهنة الوراقة، وعلى ضوء هذا الاختصاص، تُعرف شخصية الوراق، وتحدد مسؤوليته، وبها يعرف، وعلى ضوّها يقيّم، لا سيما حملة الأخبار والمرويات الإسلامية، في كتب الحديث والفقه، إذ أنه يشكل عالماً قائماً بذاته.

الفصل السابع: أخذ عنوان: «أخلاق الورّاقين».

وفيه جرى البحث عن التعارضات العلمية والدينية، من جهة، ومصلحة الورّاق المهنية من جهة ثانية، بمعنى أن أخلاقية العلم ترفض الغش أو التحريف أو ابتسار النصوص، وكذلك الوازع الديني الإسلامي، الذي يرفض هذه المسلكية من قانون الرسول محمد ﷺ: «من غشنا ليس منا» وهنا يكون الدافع الديني عامل موازنة، بالجانب الروحي والأخلاقي، الأمر الذي يشكل وحدة متكاملة مع الوعي المعرفي في نقل العلوم والإبداع، وبهذا تكون أخلاقية الورّاق - المهنية والشخصية - خاضعة لهذين النازعين، الأمر الذي فرض علينا - منهجياً - أن نستوقف ملياً، مع هذه الحالة ونحن في إطار عملية البحث العلمي.

الفصل الثامن: أخذ عنوان: «معاناة الورّاقين».

وفي هذا الفصل، جرى التطرق إلى الآلام النفسية عند الورّاق، لما يعانيه في المهنة، بغية كسب العيش، وقد أظهرت النصوص المُجلى عنها بالبحث - مقدار القيمة الأدبية لنصوص أدبية عالية، تركها هؤلاء الورّاقين، وهي تصف معاناتهم - سلباً وإيجاباً - حتى أن القارىء ليقف على حالات جمالية ممتعة للأدب في هذا المضمار، وتظهر أمامنا اللغة العالية والأسلوب الفريد، في التعبير عن هذه الحالات الشخصية العديدة، وهي ترسم بعمق عوالم الوراق الداخلية، وما يكابده من عسر وضيق، ويكفي أن نذكر هنا - عملاق الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري «أبو حيّان التوحيدي» حيث أدت به الحالة - إلى حرق كتبه ومسوّداته، وهو من ألمع الورّاقين الأدباء، في تلك الحقبة.

الفصل التاسع: حمل عنوان: «الإنتماءات السياسية للوراقين».

في هذا الفصل، يظهر الورّاقون بأنهم جزءً هاماً من النسيج الاجتماعي - العباسي، إذ أن المذاهب والفرق الإسلامية، كانت لها اتجاهاتها الفكرية والعقائدية، وكان لها - في سوق الورّاقين - مروجين بين هؤلاء الوراقين، وهنا نصطدم بحقيقة تاريخية، تظهر أمامنا في «مخطوطات ذلك العصر» إذ أن عملية «التحريف والوضع» للنصوص الدينية - لا سيما في الحديث النبوي - كان مثار جدال في ذلك الوقت، إضافة إلى بروز - نزعات عنصرية، شعوبية - أخذت تظهر في مخطوطات الورّاقين. وكان للإحتراب المذهبي - ظهوره الطاغي في سلوك الوراقين السياسيين، وقد تجلى هذا، بشكل واضح عند (وراقي المعتزلة والإسماعيلية، وإخوان الصفاء، والمرجئة والشيعة، والسنة، والأشعرية)، الأمر الذي أثار اهتمام المؤرخين الكبار، في تلك الفترة، وأشاروا إليها، لا سيما مؤرخ بغداد المشهور «الخطيب البغدادي» حيث أشار بموسوعته «تاريخ بغداد» إلى أكثر من ورّاق، قد قام بعملية «وضع الحديث وانتحاله «وهذه المسألة أربكت الكثير من المؤرّخين والعلماء - قديماً وحديثاً - لا سيما عند الحديث حول «المذاهب الفقهية» وكذلك انسحب الأمر، على الأدب والمقولات السياسية والفلسفية، ومن هنا، جاء هذا الفصل ليكشف عن الانتماءات السياسية للوراقين، باعتباره فصلاً مهماً، يعلم على التطور السياسي للمجتمع العباسي، وتأثيراته الثقافية على الخطاب العربي، منذ ذلك الأوان، وحتى هذه اللحظة.

- **الباب الثاني: من هذا الجزء - حمل عنوان: «سوق الورّاقين».**

وبه ينكشف عالم الثقافة العربية - الإسلامية، على كافة الاتجاهات، والعوالم، ومنه «يصدر» الكتاب، وبه يعرف الكاتب، وفي ساحاته، تتبدى الأندية الثقافية، وتظهر مختلف الآراء السياسية والفكرية والمذهبية، ومنه تخرج كافة «البدع والإبداعات» ولا غرو في ذلك، إذ أن هذا المحيط الثقافي، كان له أكثر من مئة حانوت وله فرعين رئيسيين. في

بغداد لوحدها، واحد في الكرخ وآخر في الرصافة - ناهيك عن بقية الأمصار الإسلامية، وخصوصاً مدنها الرئيسية، ولكن أسواق بغداد للوراقة، هي الأعرف والأشهر، ومنها خرج المثال والتماثل، وكثير من الورّاقين، تخرجوا من سوق الوراقين ببغداد، ورحلوا إلى بقية الأمصار، بكامل عدتهم الوراقية من أمثال ظِفر الورّاق، الذي ذهب إلى الأندلس، وافتتح حانوتاً للوراقة هناك، وخلاصة القول، أن عالم الثقافة العربية - الإسلامية، كان هناك موقعه، ورقعته، ونقطة انطلاقه، وملتقى العلماء والأدباء ورجالات الفكر والسياسة، بل وشكل سوق الورّاقين ببغداد، أحد العوالم الحضارية التي تتباهى بها المدن والحواضر، وبها يقاس التفاضل بين مجتمع وآخر، وهو الأمر الذي أشار إليه (أبو حيان التوحيدي) في رسالته «البغدادية المشهورة»، وهو يفاخر به أهل «أصفهان» وهذا السوق ذاته، الذي اتخذ منه الجاحظ، ملاذاً له، وإقامة دائمة فيه، حتى عرف عنه «بأنه كان يكتري حوانيت الورّاقين ويبيت فيها للنظر» وكفى بهذا المثال ذكرى.. وعلى هذه الأهمية، جاءت فصول هذا الباب، موزعة على النحو التالي:

الفصل الأول: وحمل عنوان: **«تعريف معنى الأسواق»**.

حيث أشرنا في هذا الفصل إلى المعنى العام، المتعارف عليه للسوق، ثم حددنا، ماهية سوق الورّاقين.

الفصل الثاني: حمل عنوان: **«الأسواق الإسلامية وميزاتها»**.

حيث تناول البحث في هذا الجانب، معنى الأسواق الإسلامية، من حيث شكل التعامل، وإشرافها تحت سلطة «المحتسب» ناهيك عن أشكال بضاعتها، بالمقارنة مع بقية الأسواق في الثقافات الأخرى، وعلى هذا الأساس، خضع سوق الورّاقين إلى هذه المواصفات، مضافاً إليها مواصفات المكان، وتأثيرات البرودة والحرعليه، وانعكاس ذلك على طبيعة المواد التي يتعامل بها الورّاقون، من أوراق وأحبار، وأمور الكتابة الأخرى.

الفصل الثالث: حمل عنوان: **«الأبعاد الهندسية والمعمارية للسوق»**.

وهذا الفصل، جاء اكتمالاً للفصل السابق، حيث مال تصميم البناء الهندسي للسوق إلى ما تتطلبه مواد الكتابة، كي يحافظ عليها ذلك الطراز من البناء، والذي بالضرورة يخضع «تصاميمه» إلى طبيعة الأجواء الحارة، في العراق، من جهة، وبقية أمصار الخلافة الإسلامية، من جهة أخرى، حيث أن الفروقات بفن العمارة، لهذه الأسواق، تختلف بشكل طفيف، وفق متطلبات الحالة الاقتصادية والثقافية لهذا المصر أو ذاك.

الفصل الرابع: حمل عنوان: **«موقع سوق الورّاقين ببغداد»**.

بهذا الفصل تمّ معرفة خطط بغداد، ومواقعها الجغرافية الهامة، إذ أن موقع سوق الورّاقين كان على ضفة نهر دجلة، إن كان في الكرخ أو الرصافة، حيث يتميز ذلك المكان بموقعه القريب من النهر - حيث كان دور المواصلات المائية هاماً، بالنسبة إلى ذلك الوقت، مع إنسيابية مويجات النهر عند الأصيل، الأمر الذي يزيد الرائي بهجة وهو يقوم بشراء ما يحتاجه من ذلك السوق، إضافة إلى كونه قريب من قصر الخلافة، وهناك أمور أخرى ميّزت هذا الموقع.

الفصل الخامس: حمل عنوان: **«كيفية بيع الكتب في سوق الوراقين»**.

وبهذا الفصل تتجلى روح الدعابة والفكاهة والفطنة، للورّاقين الدلاّلين، هذا الصنف الذي يعرض البضاعة، وكيف يروجها بعملية تدعى «النداء» والتي تكون شبه ندوة مفتوحة، يستعرض فيها كتاب أو عدة كتب، وقد حذق الدلاّلون بهذه - الوظيفة - الممتعة.

الفصل السادس: حمل عنوان: **«روّاد سوق الورّاقين من العلماء والأدباء والساسة»**.

وهذا الفصل يكشف عن صفة رجالات المجتمع، الذين يتوافدون على سوق الوراقين، ليس فقط للتسوق، بل للسماع والمشاركة أحياناً، لما يعقد فيه من ندوات ثقافية وغيرها.

الفصل السابع: **«نوادر في سوق الورّاقين»**.

هذا الفصل هو أمتع الفصول - في كل العمل - حيث أن المحمول الثقافي، وديمومة التعاطي مع القضايا الفكرية والعلمية، تخلق حالة من اليقظة المبكرة في ذهن الورّاق، تظهر بشكل نادرة - أو ملحة، تطلق بتعليقة، أو بيت شعر، أو مثل سائر، ومتى ما أطلقت، فإنها تنتشر كالنار في الهشيم، وقد تفنن الورّاقون من خلق هذه النوادر، لكسر حالة الملل والرتابة في عملهم.

الفصل الثامن: حمل عنوان: **«مجالس العلماء في سوق الورّاقين ومناظراتهم»**.

حينما تدخل - سوق الورّاقين - لا سيما وقت الأماسي فإنك تدهش، من ذلك التخالط الإثني والثقافي العجيب، فهذا يطالعك عن اسم كتاب وصل حديثاً، عند الورّاق - الفلاني - باللغة الهندية، وآخر باللغة الفارسية، وثالث باليونانية، وكلها تتحدث عن مختلف العلوم، وصدى كل كتاب قد وصل مداه في أرجاء السوق، وكل متسوق يبحث عن ضالته، فيما انتصبت عند هذا الورّاق المعتزلي، أو الصوفي حلقة علمية وافترشت الأرض، وتحلق حولها المريدون وطلبة العلم، وبالقرب من المحدّث أو الشيخ جلس النسّاخون، والكل يحمل (محبرته وأدوات كتابته) ليسجل ما ينطق به الشيخ، أو ما يردُّ عليه

شيخ آخر، ضليع بنفس الفن، والجمهور من حولهم، قد أخذته الدهشة لما يسمع ويدور، وهو ما جلب إنتباه أبي حيان التوحيدي، وسجل ذلك بكتابه الهام المقابسات، حيث حلقة أبو سليمان السجستاني، رئيس مناطقة بغداد/ 4 هـ/ كانت كثيراً ما تعقد جلساتها العلمية في سوق الورّاقين، كي يزداد جمهور العامة معرفة بالأمور الفلسفية، وتلك هي أهم المفاصل التي كشفنا عنها في هذا الفصل، إضافة إلى تسليط الأضواء على «المناظرات الفقهية» التي كانت تدور في السوق بين أئمة المذاهب الإسلامية المختلفة، وكيف أن بعض هذه المناظرات يبقى إلى ساعة متأخرة من الليل، قرب أحد الدكاكين الوراقية، ولعمري أن مثل هذه الظواهر، لن تتكرر قط في عالمنا المعاصر، إذ أن الكلمة الحرة، تهز مضجع السلطان، فلا يهنأ بنومه، فيأمر بعدم السماح بمثل هذا.

- **الجزء الثالث:** من الموسوعة، حمل عنوان: **«صناعة الورق وظهور المكتبات»**.

يمثل الورق باكتشافه وصناعته، قفزة حضارية واضحة المعالم على كل مجتمع من مجتمعات العالم، فهذه المادة - الوَرَق - تعني رقياً ثقافياً واضح الدلالة على المجتمع، والمجتمع العربي - الإسلامي، كان سبّاقاً لاقتناء تلك المادة، وبغية تدوين ثقافته وأمور دينه ودنياه فيها.

والعباسيون الأوائل، كان طموحهم السياسي عالياً، فكانت «الفتوحات الإسلامية»، ما زالت تغازل أفئدتهم وعقولهم، وقد لعبت الصدفة دورها في تلك الفتوحات، إذ أسرّ المسلمون، على حدود الصين، بعض أهالي تلك البلاد، وأخذوهم أسرى إلى «سمرقند» وكان بين هؤلاء الأسرى من يجيد صناعة الورق فعاملوهم بالإحسان، وتعلموا منهم صناعة الورق، وأسسوا أول مصنع للورق في سمرقند، ومن ثم أسس مصنعين للورق في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، أيام هارون الرشيد، ثم انتشرت صناعة الورق بعد ذلك، في بقية الأمصار الإسلامية.

وموضوعة صناعة الورق - هي مدار البحث في **الباب الأول** - من هذا الجزء من الموسوعة، حيث اشتملت فصوله الثلاث على العناوين التالية:

الفصل الأول: أهمية الورق الحضارية.

الفصل الثاني: أثر الورق في تطور الثقافة العربية - الإسلامية في العصر العباسي.

الفصل الثالث: أنواع الورق ومقاساته.

وهذه الفصول تخبرنا مدى التفاعل الحضاري للعرب والمسلمين، للتعامل مع هذا المنتج وكيفية الاستفادة منه في نقل علومهم وآدابهم، من وإلى الثقافات الأخرى، وقد

لعب الورّاقون والمترجمون الدور الأراس في تنشيط هذه الصناعة، ومن ثم أوجدوا المقاسات اللازمة والنوعية الخاصة للتدوين والنقل والأمور الأخرى.

- **الباب الثاني**: من هذا الجزء حمل عنوان: **«ولع الناس بالكتب والمكتبات»**.

إذ أن صناعة الورق، لعبت دوراً خطيراً في تهافت الناس على الكتب وشرائها، ومن ثم برزت **ظاهرة تأسيس المكتبات العامة والخاصة**، في المجتمع العباسي، بكافة امتداداته العربية والإسلامية، حتى لقد كشفت هذه الدراسة عن وجود أكثر من **(200 مكتبة)** بين عامة وخاصة، الأمر الذي يبين مدى اشتياق الناس - في ذلك الأوان المزدهر - إلى المعرفة، وهذا الاشتياق المعرفي، لم ينحصر بطبقة دون أخرى، فلقد اشترك الجميع فيها، ويكفي أن نذكر **«مكتبة الحكمة»** التي تأسست في زمن الرشيد وازدهرت في زمن المأمون، حتى غدت من شوامخ ذلك العصر، ومؤشر حضاري على تطور الخلافة الإسلامية، ومن ثم، تكشف لك - فصول هذا الباب - عن الغنى الروحي الهائل، الذي وسم الجميع بميسمه، فقد كانت عناوين تلك الفصول على النحو التالي:

الفصل الأول: إطلالة تاريخية على حب القراءة من أيام «سومر» إلى قيام بغداد.

الفصل الثاني: الحالة الثقافية في بغداد ونشوء المكتبات.

الفصل الثالث: المكتبات الإسلامية، كنتاج ثقافي - حضاري للورّاقين.

الفصل الرابع: شغف العلماء بالكتب.

الفصل الخامس: الدولة العباسية والكتاب.

الفصل السادس: مكتبات المساجد ودور العبادة الأخرى.

- **الباب الثالث: المكتبات العباسية.**

الفصل الأول: مكتبات الخلفاء العباسيين.

الفصل الثاني: مكتبات الوزراء العباسيين.

الفصل الثالث: المكتبات العامة.

الفصل الرابع: مكتبات الأدباء العباسيين أو المكتبات الخاصة.

الفصل الخامس: أثر المكتبات على المجتمع العباسي.

- **الباب الرابع: مكتبات الأمصار الإسلامية:**

الفصل الأول: مكتبات بلاد الشام.

الفصل الثاني: مكتبات بلاد فارس.

الفصل الثالث: مكتبات مصر الفاطمية.

الفصل الرابع: مكتبات بلاد الأندلس.

والمتتبع هنا، ينذهل إلى وجود هذا الكم الهائل من الكتب والمكتبات، ولا أدلُ على ذلك من الحدث الرهيب، عندما غزا المغول بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية عام 656هـ/ 1258م حيث رموا الكتب في نهر دجلة فأصبغت مياهه بالحِبر الأسود! ناهيك عن حرائق المكتبات في - مصر والأندلس وبلاد فارس والشام - عندما تعرضت للحرق من قبل «الدول» التي جاءت بعدهم - بما فيهم الحروب الصليبية - وقد ضاع الكثير من هذه الكنوز الثمينة نتيجة - إعدام الكتب - بهذه الطريقة البربرية.

- الجزء الرابع: حمل عنوان: «الإفرازات الحضارية للورّاقين - ظهور الخطّاطين -».

ما من شك، بأن المهنة الحضارية، تفرز لها نخبة من المحترفين فيها، يفهمون «سر المهنة» وهؤلاء كانوا يطلقون عليهم «أساطين الصنعة» ومفردها «أسطى» وهذا اللقب، ما زال مستخدماً حتى أيامنا هذه، في مختلف الأقطار العربية، وهو في العراق أكثر شيوعاً، لا سيما في المهن الحرة.

والوراقة، مهنة حرة، منذ تأسيسها وإيجادها، وحتى هذه اللحظة الراهنة، وقد تابعنا - من خلال عرض المقدمة - لموضوعات الموسوعة، بأن «مبدأ الاحتراف المهني» في العراق، وسمت العصر العباسي برمته، وهذا يعني ديمومة المهنة واستمرارية بقائها[1]، لذلك نشاهد علامات تاريخية واضحة المعالم في الثقافة العربية - الإسلامية، رافقت مهنة الوراقة منذ ولادتها وحتى هذه الساعة، إذ أن هذه «التمظهرات» أو العلامات، كانت أساسية وتوأميّة للمهنة، لا سيما وجود العلاقة المترابطة بينهما، والتي ترفض الانفصال قطعاً، حيث التلاحم بينهما أبدي، وعلى مر الأزمان، ودون اتحادهما قد يبطل العمل الوراقي، لا سيما في جانبه الجمالي، وهذه العلاقة السرمدية هي التي جمعت بين الخط العربي ومهنة الوراقة، والخط للحرف العربي، كان الأساس واللبّنة الأولى في نشوّ وظهور وانتشار مهنة الوراقة، وبدونه كانت تكسد مهنة الوراق، فقد كان هناك شعار عالي السارية في مذهب الورّاقين يقول: «رداءة الخط، زُمانة الأديب» أي من ليس لديه خط حسن، فهو مريض مزمن.

ونتيجة زيادة في «الكم» العامل في حقل الوراقة، ظهر «الكيف» بشكل منطقي، مع

---

(1) ما تزال في بعض العواصم العربية، مثل، بغداد - دمشق - القاهرة - الزيتونة - الرباط، يوجد فيها وراقون يمارسون هذه المهنة، بشكل فردي، وبأجور عالية جداً.

احتفاظه بشروط الكم. فلقد انسلخت فئة من أساطين الورّاقين، خطّت لها سكة وراقية أخرى، تزيد المهنة جمالاً، اختصت هذه الفئة بخط وتذهيب الأغلفة والعناوين وأسماء الفصول فقط، دون المساس - كتابياً - بالنص المراد نسخه - أي طباعته - وعلى مر الأيام والدهور، برزت مهنة أخرى مع الوراقة، وداخل أروقتها - في البدء - ثم استقلت عنها تماماً، مع الاحتفاظ برابط الصلة، هي مهنة «الخطّاط»، وضعت لنفسها قواعد وأصول غاية في الدقة والإحكام في رسم الحرف العربي، وضمن «قياسات هندسية» وشرائط فنية بحتة، تتطلب جهوداً عالية في الممارسة والتطبيق، وتلعب الموهبة الإبداعية، دوراً هاماً في تنمية هذه الملكة الجمالية، كي تكتمل في الخطاط، شروط الصنعة، وعلى هذا الأساس، بدأت الملاكات الأولى من الخطاطين، في سوق الوراقة، بالتأثير على حالاتها الفردية، ثم بدأ الاستقطاب والاصطفاف. يأخذه مداه، حتى ظهرت أسماء المبدعين الأوائل، في هذا النمط من الكتابة الخاصة، وقد حفظت لنا (المخطوطات العربية والإسلامية) الكثير من «توقيعات» هؤلاء، لا سيما المشهورين منهم، من أمثال: (ابن مُقلة، وابن البوّاب، وياقوت المستعصمي)، وغيرهم ممن وضعوا أحكام واصول هذه الحرفة الجمالية، وهؤلاء النخبة من الخطاطين العرب، هم الذين نتوقف معهم، بالبحث والدراسة - في هذا الجزء من الموسوعة - استكمالاً لمنهج البحث العلمي، مع شيء من ملاحقة السيرة الذاتية، كي يأخذ الموضوع، استقلاليته في البحث، من جهة، ويكون صلة الوصل للموضوع الأرأس «الوراقة» من جهة ثانية، وكي تعم الفائدة المنهجية، من جهة ثالثة.

إنَّ أهمية موضوع الخط العربي، تبرز من دورها الفاعل في بنية الثقافة العربية - الإسلامية، ضمن الإطار الحضاري العام للثقافة العالمية، إذ شكل الحرف العربي في ثقافة العرب والمسلمين، معادلاً موضوعياً لفن الأيقونات في الثقافة المسيحية، وهو بهذا الشرط - الجمالي - يكون قد عبّر عن نفسه، بوصفه، ثقافة حرف نابعة من ثقافة «كلمة» فإذا علمنا بأن الثقافة المسيحية تتمحور حول شخص اسمه «المسيح» فإن الإسلام يتمحور حول كتاب، هو «القرآن» ومن هذه المقارنة كانت أولى الإبداعات في الخط العربي جاءت في آيات القرآن وسوره، وإذا علمنا بأن الإنسان أول المخلوقات، فإن أدوات الكتابة كانت مرافقة له في الخلق والإبداع وهي «القلم واللوح المحفوظ» هذا إلى جانب أن الله في القرآن قد أقسم في القلم، حيث جاءت الآية: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1].

(1) سورة القلم، الآية: 1.

ومن هنا انتبه الخطاط العربي إلى تشكيل رؤاه الفكرية بجمالية رسم الحرف العربي، للتعبير عن الهوية والذات، فقد دلّت أحاسيس الخطاط على أن الحرف هو المعنى الباطني للعدد، وتميزت الثقافة الإسلامية بانتقال الحروف إلى لغة الأعداد، بعكس الحضارات الأخرى، حيث تنتقل فيها الأعداد إلى لغة الحروف، وبذلك أوجد التطور التاريخي لفن الخط العربي أبعاداً وظيفية تميزت بوحدة بنائها اللغوية، كشكل مرئي «حرف» ومضمون مكتوب «كلمة» وهو الأمر الهام الذي انتبه إليه الباحث المعروف روزنتال بمقالته الهامة (الأهمية التطبيقية للخط العربي).

ومن ثم كان لهذه الوظيفة البنائية، التأثير الفعال على بقية «لغات الأعاجم» الذين استوطنوا البقاع العربية، وكتبوا بالعربية بدل لغاتهم الأصلية، أسهل لهم للتعبير عمّا يجول في خواطرهم.

إنَّ الخطاط العربي انتقل من رسمه للحرف، من ضرورة كتابية للعلوم والآداب إلى متعة جمالية للعين والقلب، أي هنا نشهد تغيّيراً للوظيفة الإبداعية للقلم حيث صارت الكتابة لا تعني التدوين، بل رسم ما في الروح بالريشة، منظوراً إليها بحدقة العين، بغية إيجاد لحظة تأمل، تتشابك فيها رؤيا البصر مع رؤية البصيرة، فينخلق إبداعاً آخراً، ينطلق من جمال الحرف في الكتابة إلى استنطاق الذائقة الحسية، عند أول نظرة للعين، مع رسم الحرف في ذلك التشكيل المسمى «خطاً». وإلا كيف نفسر تعدد أنواع الخطوط؟ وما الداعي إذن إلى تلك «المدارس الفنية» في فن الخط؟ ولماذا سمي كل خط باسم، وفق مقاييس وتراتبية تميزه عن غيره؟.

إذن إنَّ العامل الروحي، ومن خلال حاسة البصر، يتفاعل مع المبصور إليه، فينخلق الإحساس بالجمال، وعلى هذا الأساس، نمى الحرف العربي، وبه سمي الخطّاط خطّاطاً.

إنَّ هذه الجدلية الإبداعية لفن الخط العربي، هي التي قادتنا في البحث عن كل مفاصل الموضوع في هذا - الجزء - والذي أعطيناه تسمية «الخطّاطون - كصنف مبدع من الورّاقين» راعينا فيه، بدايات التبرعم - التاريخي - لنشوْ الوراقة، والاستقلال الحرفي لفن الخط، ومن ثم راعينا أن تكون دراسة الموضوع ضمن هيكلية الموسوعة، لا مستقلاً عنها، للأسباب التي ذكرناها في بداية هذه المقالة، إذ أن الموضوع - وفق قناعتنا - وما توصلنا إليه - أثناء البحث - بأنه شكل أساسي ومتمم من بنية عمل الوراقة، في الحضارة العربية - الإسلامية.

تنقسم موضوعات هذا (الجزء) على الأبواب والفصول التالية:

- **الباب الأول**: حمل عنوان: **«الخطّاطون كصنف مبدع من الورّاقين»**.

وفيه جرى التطرق إلى أثر الإسلام - كدين وحضارة - في تحسين وإجادة الخط العربي، واهتمام الخلافة الراشدية والأموية وبداية الدولة العباسية فيه.

الفصل الأول: حمل عنوان: «**بدايات الحرف العربي في الكتابة**» تناول البحث ولادة الحرف العربي عند (الأنباط والتدمريون) كحرف عربي، ثم انتقل هذا «**الحرف**» إلى الكوفة، لتشهد هذه المدينة العراقية، البدايات الأولى للخط العربي، والذي عرف باسمها «**الخط الكوفي**» وهو أقدم الخطوط وأشهرها في سياق التاريخ لتلك المرحلة، ولا زالت آثاره باقية حتى اليوم، ومن الخط الكوفي، أملت الضرورة الفنية، والوظيفة العملية للقلم، بأن توجد تفرعات أخرى للأقلام الأساسية «**الخطوط**» تشتق لها أسساً من الخط الكوفي، فظهرت - خطوط أخرى - لها مبدعيها وروادها الأوائل.

الفصل الثاني: حمل عنوان: «**الإسلام والحرف العربي**».

وفيه تم الكشف والملاحقة التاريخية عن انتقال الخط والخطّاطين من الكوفة إلى بغداد، وبقية الأمصار الإسلامية.

- **الباب الثاني**: حمل عنوان: «**الخط في العصر العباسي**».

حيث تم الكشف فيه عن تأثير الخلافة العباسية في تبني القلم ورعايته وتقديم الدعم اللامحدود للكتبة الأوائل وتشجيع ممارستهم له.

الفصل الأول: حمل عنوان: «**العباسيون وتأصيل الخط العربي**».

وفيه جرى الكشف عن أشكال اهتمام الخلفاء العباسيون بفنيّة القلم وتقريب المبدعين فيه.

الفصل الثاني: حمل عنوان: «**الخطّاطون أساس مهنة الوراقة**».

وفيه جرى البحث عن الكيفية التي برّزت الخطاطين لأن يكونوا النواة الأولى في عملية الوراقة نظراً لحسن خطوطهم واتقانهم لأصول الخط في بداياته الأولى.

- **الباب الثالث**: حمل عنوان: «**مدرسة بغداد للخط العربي**».

الفصل الأول: حمل عنوان: «**الأرهاصات الأولى لهذه المدرسة**». حيث أشرنا إلى الخطاطين الأوائل الذين سبقوا ظهور هذه المدرسة وأثّروا في الوعي الفني لرواد هذه المدرسة.

الفصل الثاني: حمل عنوان: «**ابن مقْلة عميد هذه المدرسة**» تم البحث في حياته السياسية والاجتماعية وكيف أصبح وزيراً.

الفصل الثالث: حمل عنوان: «**حياة ابن مقْلة الفنيّة**» وفيه تم الكشف عن أساليبه وقواعده التي أرساها في كتابة الحرف العربي، وشروط الالتزام بها.

الفصل الرابع: حمل عنوان: **«أهمية ابن مُقلة»**، وتم التطرّق فيه إلى أهميته الأدبية والثقافية وأهم آثاره المخطوطة كوثائق ما زالت موجودة الى اليوم.

الفصل الخامس: حمل عنوان: **«تلاميذ ابن مقلة»**. وفيه تم عرض كيفية فهمهم لأسلوب ابن مقلة وتطويره وشرحه للآخرين، وأهم تلاميذه الذين جاؤوا بعده وطوّروا منهجه وأساليبه.

- **الباب الرابع**: حمل عنوان: **«استقرار قاعدة الخط العربي في بغداد»**.

الفصل الأول: حمل عنوان: **«ابن البوّاب.. على هدى ابن مقلة»**.

وفيه أشرنا على تأثيرات ابن مُقلة على ابن البوّب وكيف عرف الأخير سر إبداع الحرف العربي من طريقة الأول.

الفصل الثاني: حمل عنوان: **«طريقة ابن البواب في الخط»** حيث تم الكشف عن إبداعات هذا الفنان في التقاطه وإبداعه في توليد خطوطاً أخرى من طريقة ابن مقلة.

الفصل الثالث: حمل عنوان: **«تلاميذ ابن البوّاب وآثاره»** وفيه تم الكشف عن أهم آثاره الفنية وأبرز تلاميذه من النساء والرجال والذين نقلوا طريقته إلى بقية الأمصار الإسلامية.

- **الباب الخامس**: حمل عنوان: **«ياقوت المستعصمي - آخر المدرسة البغدادية في الخط العربي»** إذ تم التوقف - في هذا الفصل - مع هذا المبدع الفذ، والذي طور أساليب الكتابة في الخط والذي شهد سقوط الخلافة العباسية وضياع الآثار الفنية والعلمية والأدبية، أثر غزو المغول لبغداد وإسقاط الخلافة فيها.

  وقد فصلنا هذا الباب على الفصول التالية:

الفصل الأول: **من هو ياقوت المستعصمي؟**

وفيه تم الحديث عن أصل هذا المبدع «الرومي» في الخط العربي وكيف وصل دار الخلافة العباسية التي رعته باهتمام بالغ وخلقت منه مبدعاً بعد أن كان هو من ذوي الطاقة الإبداعية المبهرة في هذا الفن.

الفصل الثاني: **آثاره الفنية والأدبية.**

الفصل الثالث: **المرأة والخط العربي.**

حيث كان لتأثيرات مدرسة بغداد للخط العربي أثراً واضحاً في دمج النساء المبدعات في هذا الفن الجميل، وقد ترجمنا بشكل موجز لأبرز **«النساء الخطاطات»** في الحضارة الإسلامية، بدءاً من العراق ومروراً ببقية الأمصار الإسلامية كـ **«مصر وسوريا والأندلس وبلاد فارس وتركيا»**.

الفصل الرابع: ملحق - أرجوزة الشيخ محمد بن الحسن السنجاري - المعروفة باسم «بضاعة المجوّد في الخط وأصوله».

- **الباب السادس**: حمل عنوان: «شخصية الحرف العربي» حيث أظهرنا فيه «مقومات هذه الشخصية» من الناحية الثقافية والفنية والتاريخية، وانعكاساتها على الثقافة الإسلامية برمتها، وقسّمت فصوله على النحو التالي:

الفصل الأول: التشكيل الفني للحرف العربي.

الفصل الثاني: جمالية الخط العربي في وعي المسلمين.

الفصل الثالث: الحرف العربي في فلسفة التصوف.

الفصل الرابع: الحرف العربي والفنون التشكيلية.

الفصل الخامس: كلمة في الحرف العربي حيث أوضحنا رأينا النقدي في «ظاهرة الخط العربي على طول مسيرته التاريخية».

- **الجزء الخامس**: حمل عنوان: «أعلام الورّاقين البغداديين».

وهو مقسّم إلى بابين رئيسيين، الأول، حمل عنوان: «المستملون» كصنف من علماء الحديث الورّاقين. تم التطرق فيه إلى أهم الوراقين. الذين مارسوا «الإستملاء» بمجالس الإملاء وتفرغوا له، من مسوّغ ديني، أكثر من مسوغه الدنيوي، وتحديداً لموضوعات «الحديث النبوي» وجرى الترجمة لطائفة كبيرة منهم، وإبراز أهم آثارهم.

- أما الباب الثاني، فقد شمل على الفصول التالية:

الفصل الأول: حمل عنوان: «ورّاقو الحديث».

وهم الفئة التي إنسلخت من «المستلمين» ومالت لكسب العيش من عمل الوراقة، ولكنها ظلت محافظة على اختصاصها في توريق - الحديث النبوي -.

الفصل الثاني: حمل عنوان: «الورّاقون العلماء».

وهم الفئة المبدعة والمنتجة للفكر الثقافي، بكافة مناهله وشطوطه وبحاره، إذ أن فيهم من عمالقة الثقافة العربية - الإسلامية، ومن مختلف المذاهب والفرق الإسلامية، بما فيهم الفلاسفة، وعلماء الكلام، والمتصوفة، ولهم آثار باقية حتى اليوم.

الفصل الثالث: حمل عنوان: «الورّاقون الأدباء».

وهم الفئة المختصة بوراقة الأدب العربي وفنونه، إذ هم بالأساس من هذه الفئة المثقفة، والتي رفضت أن تشتغل بدواوين الدولة، حفاظاً على استقلالها الفكري، وتلبية

لطموحها الأدبي، وكان على رأس هؤلاء المبدعين الوراق المشهور - **أبو حيان التوحيدي** -.

الفصل الرابع: حمل عنوان: «الورّاقون الشعراء».

وهو ترجمة لمجموعة من الشعراء المعروفين، الذين مارسوا مهنة الوراقة، من دافع الإبداع ذاته، فأخلصوا للمهنة وللإبداع.

الفصل الخامس: حمل عنوان: «الورّاقون النُسّاخ».

وهم الفئة الأكثر شهرة، والأوسع نشاطاً، وهم حجر الزاوية في مهنة الوراقة، وعليهم وقع الحمل الأثقل في المسؤولية التاريخية، حيث أنهم **(المدونون الأساسيون)** لكل ثقافة ذلك العصر، وإليهم يعود الفضل في وصول **«المخطوطات العربية - الإسلامية»** خالية من الأخطاء، أو التشويه، حيث كانوا ملتزمين بمنهج الوراقة المعرفي، والذي هم أنفسهم من وضع قواعده وأسسه، ولذلك شغلوا الحيز الأكبر في تراجم الوراقين، بهذا الجزء الهام من العمل الموسوعي هذا.

الفصل السادس: حمل عنوان: «ورّاقوا العلماء والأدباء والشعراء».

وهذا الصنف، هو أميل للتخصص في النقل وملازمة (أشخاص محددين) والكتابة عنهم، ونسخ كتبهم، لذلك خرج منهم العلماء والمختصون، حسب الشيوخ الذين تتلمذوا على أيديهم، وورّقوا لهم حصراً دون سواهم، وقد برزت عندهم **«ملكة النقد»** لطول المعاشرة والصحبة مع الأستاذ أو الشيخ، وكثيراً ما كان هؤلاء الشيوخ يتفضلون عليهم بتركة تراثهم الفكري، وإعطائهم **«الإجازة»** لنقل كتبهم وهم أحياء وبعد الممات أيضاً، ولذلك برزوا (علماء) في الفن الذي ورّقوا له.

الفصل السابع: حمل عنوان: «الورّاقون الدلاّلون».

وهذا الصنف الأقل عدداً من بقية الأصناف: إلا أن له دوراً هاماً في بيع الكتب والتعريف بها وتثمين أسعارها.

الفصل الثامن: حمل عنوان: «الورّاقون القضاة».

وهذا الفصل يكشف ويترجم عن وجود - طائفة قليلة من القضاة - ترفض استلام مرتباتها من الدولة وتشتغل - بالوراقة لكسب العيش - حتى لا تميل إلى جهة السلطة، أثناء إصدار الأحكام الشرعية وغيرها، وهذه حالة لن تتكرر قط في أي ثقافة أخرى، أو أي عصر آخر.

الفصل التاسع: حمل عنوان: «الورّاقون الفلكلوريون».

وهذه الطائفة من الورّاقين، مالوا بالمهنة إلى تدوين الأسمار والحكايا الشعبية فقط، وينقلونها من مختلف اللغات، وقد تحول لديهم الهمّ المهني إلى همّ ثقافي ينحصر في الجانب الفلكلوري فقط، وهو الأمر الذي يكشف لنا عن مدى نشاط هؤلاء الورّاقين للتخصص بمختلف العلوم والآداب والفنون، ومن دافع ذاتي محض، قلّ مثاله في هذا الزمن.

الفصل العاشر: حمل عنوان: «النساء الورّاقات».

وهذا الفصل يكشف عن مدى تأثير الثقافة العربية - الإسلامية، على المرأة، فهي لا تريد أن تكون حاملة وأسيرة البيت، بل تريد أن تساهم بالعملية الثقافية، كما يساهم فيها الرجل، لذلك ساهمت بهذا الفن الوراقي الجميل، وضمن شروطه وقواعده. وهذه الحالة، قد تثير تساؤلات إشكالية، فيما إذا كانت (المرأة) في بقية الحضارات، المناوئة للحضارة العباسية في تلك الفترة، هل كانت تقوم بمثل هذه الأعمال الثقافية؟ وبنفس الوقت، ينسحب ظلال السؤال على الفترة الراهنة، ودور المرأة في الحياة الثقافية المعاصرة.!!

- **الجزء السادس: حمل عنوان: «ورّاقو الأمصار الإسلامية».**

إنَّ امتداد رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، استوجب أن يكون هناك - في كل مصر - ورّاقين، كما هم في بغداد، عاصمة الخلافة، بغية القيام بالمهمات الثقافية لحالة العصر الناهضة، وهو ما كان فعلاً، حيث انتشر الورّاقون على امتدادات جغرافية الدولة العباسية، وشكلوا نواتاة أولية، حال وصولهم، حتى توسعت هذه النواتاة وأصبحت أسواقاً للوراقة تضاهي أسواق بغداد، لا سيما في الأندلس، حيث وجود أسواق للوراقة في إشبيلية، تغري ورّاقي بغداد، وترغبهم بالمجيء إليها، وهو ما حدث فعلاً، إذ رحل من بغداد أكثر من ورّاق، ليقيم هناك ويفتح دكان وراقة - مثل - ظِفر البغداي وغيره، وعلى هذا المنوال الحضاري، وجدت عواصم تلك الأمصار الإسلامية ما يلبي حاجتها من الورّاقين، ووجد لهم في كل مصر سوق خاص بالوراقة.

وفي هذا العمل الموسوعي، سلطنا الضوء على حركة الورّاقين الذين رحلوا من بغداد، أو قدموا إليها من تلك الأمصار، وتعلموا فن الوراقة وعادوا، بعد اكتسابهم الخبرة المهنية في سوق الورّاقين ببغداد، وقد ذكرنا كل هؤلاء الورّاقين - بالتفصيل، وكل حسب مِصره - ولذلك جاءت فصول هذا الجزء، محصورة في باب واحد، ومقدارها خمسة فصول، على النحو التالي:

الفصل الأول: ورّاقو بلاد الشام.

حيث أن هؤلاء لهم باع طويل في أمور النسخ والخط وعلوم الحديث، ولهم تاريخ يمتد بهم إلى الدولة الأموية، وهم بهذا الاعتبار، يعتبرون المنافس الأقوى للورّاقين البغداديين، وكان فيهم جملة من علماء الحديث، وكتّاب السير والتواريخ، فكانوا يقدمون من دمشق أو غيرها، ويشتغلوا بفن الوراقة، ثم يعودون إلى بلادهم، وحين الوصول يشرعون بممارسة المهن الوراقية.

الفصل الثاني: وراقو بلاد مصر.

وهؤلاء فئة منتخبة من العلماء ورجال الأدب واللغة، قسم منهم جاء من الفسطاط أو غيرها من المدن، وتعلم فيه فن التوريق وعاد، أو استصحب معه مجموعة ورّاقين بغداديين، لا سيما بعد قيام الخلافة الفاطمية، وبناء مدينة القاهرة، حيث كان هناك سوقاً للورّاقين، يضاهي وينافس سوق بغداد، وقد لعب التنافس السياسي بين الخلافتين - الفاطمية والعباسية، دوراً إيجابياً ومشجعاً، ليس فقط في جانب الوراقة وحسب، بل في كافة مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبهذا الصدد يوقفنا مؤرخ البلاد المصرية الشهير (المقريزي ت 854هـ/ 1441م) بكتابة «**المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**» على مكتبات الخلفاء الفاطميين الهائلة، والتي يفرد لها فصولاً في «**خططه**».

الفصل الثالث: وراقو بلاد الأندلس.

وهؤلاء كزملائهم المصريين وأهل بلاد الشام، حيث كانت الخلافة الأموية في الأندلس تشجع الوفود إليها، وتكرّم من يصلها، لتنافس حكومة بغداد على كافة الأصعدة، لذلك لقي الورّاقون الوافدون إليها، وكذلك العلماء والأدباء والفنانين، الترحيب العالي، وتقدير المنزلة، لكل وافد، ولذلك انتشرت فيها أسواق للوراقة في أكثر من مدينة، كمالقة، وطليطة، واشبيلية، وقرطبة، ذات الصيت العالي بالكتب والمكتبات وأسواق الوراقة.

الفصل الرابع: وراقو بلاد فارس.

وهؤلاء كانوا الأكثر استفادة من علوم بغداد قاطبة، وخرج منهم علماء كبار، وطاب لهم المسكن والإقامة في بغداد، ثم رحلوا عنها، وكل منهم قد أتقن مهنة الوراقة، وصار يعتاش منها، ويفتح حانوتاً لها، وهم بين جيئة وذهابا إلى بغداد وبلاد فارس، حيث كانت أرض هؤلاء امتداداً طبيعياً - جغرافياً وسياسياً - خاضع للخلافة العباسية، وقد أبدعوا إبداعات كثيرة في مختلف العلوم العربية والإسلامية.

كذلك يتضمن هذا الجزء - من الموسوعة - كشافات عامة للمدن والأسماء وقائمة كبيرة للمصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذه الموسوعة، بغية اكتمال البحث الأكاديمي وفق شرائطه المطلوبة علمياً في مثل هذه الأبحاث التراثية، مضافاً إليها «نماذج» من خطوط الوراقين والخطاطين، مكتوبة بأقلامهم، ومن أوثق المخطوطات العربية.

د. خير الله سعيد

أوتاو 3/ 12/ 2006

مدخل تاريخي - حضاري

عندما تستفزّك الحضارة، بسبقها على وجودك الحالي، فإنّك تشعر أن هناك «سبق» دلالي لمعرفة ماهيّة الحياة بكامل أكوانها، وقد تُدهش حين تقرأ أن الشرائع القديمة في الحضارة السومرية والبابلية قد ناقشت حقوق الإنسان وحرّيته، وثبّتت ذلك في قوانينها المكتوبة، فقد اكتشف المنقّبون الآثاريون «علماء الآركيولوجيا» في مدينة (تَلّو) العراقية «مخروط طيني» يتضمّن الإصلاح الإجتماعي الذي قام به الملك السومري «أوركاجينا» حوالي (2345 ق.م) نتيجة أن سكان وادي الرافدين قد اعتادوا منذ ذلك الحين على ممارسة حقوقهم وحرياتهم في حدود القانون، حيث كانوا يقفون بوجه كل ما يؤدي إلى الإنقاص من حريّتهم الإقتصادية والشخصية، وهذا الإدراك أدّى إلى توليد معارضة شديدة ضد الضرائب التي فرضت على السكان، واستطاعت هذه المعارضة - كما يخبر بها المؤرخ السومري الذي دوّن الإصلاحات - أن تجلب إلى الحكم رجلاً صالحاً يخاف الآلهة هو «أوركاجينا» الذي أعاد العَدل وأرجع حرية المواطنين وأزال الضرائب[1].

إنَّ هذا النص السومري المكتشف من إصلاحات أوركاجينا، يظهر لنا من خلال الترجمة ما يلي: «في ذلك اليوم سيطر الملاّح المشرف على الملاحة» على السُفن والمشرف على رعاة الحمير قد سيطرَ على الحمير، جامع الضرائب قد سيطر على مصادر السمك، وبيت الفقير صار بجوار بيت الثري الكبير[2].

إنَّ هذه الوثيقة - كما يقول عالم الآثار العراقي - د. فوزي رشيد: (تبرز كون محتوياتها تنادي بصراحة بأهمية حقوق الإنسان، وتأكيدها حرّيته، ورفضها لكل ما يناقض ذلك، ومن ناحية ثانية، أن كلمة «حرية» (ama - ar - gi) قد ظهرت لأوّل مرّة في التاريخ البشري في هذه الوثيقة العراقية)[3].

---

(1) أنظر د. فوزي رشيد «الشرائع العراقية القديمة» ص12. منوشرات وزارة الثقافة والإعلام - بغداد - 1979، ولاحظ النص السومري وترجمته إلى العربية في ص13 من المصدر أعلاه.

(2) الشرائع العراقية القديمة/ ص14. وسيجد القارىء - نص - هذه الوثيقة مع هذه المقدمة، للتوضيح والإستدلال والتوثيق، لا سيما وأن الوثيقة مكتشفة ومترجمة من قبل «البعثة الفرنسية في مدينة تلو».

(3) المصدر السابق/ ص14.

بمعنىً آخر، أن بلاداً تعي القانون وتضع دساتيرها مؤرّخة ومكتوبة لا شكَّ أنّها قد اعتنت بالتعليم وأعطته المكانة اللائقة في تلك الدساتير والقوانين والأعراف، وإلاّ كيف استطاعت أن تكتب تلك الملاحم والأساطير التاريخية، مثل «ملحمة كلكاش ومسلّه حمورابي» وغيرها الكثير.

إنَّ الآلهة السومرية أوجدت إلهاً للكتابة إسمه «نبو» كان هذا الإله، إلهاً للكتبة ومعضد للنبوغ والعلوم، إذ هو كاتب مردوخ وهو موضع ثقته، حيث يكتب لهُ ألواح القدر، ولَهُ التأثير الفعّال في هذه العملية، وقد إتَّخذ الريشة رمزاً للكتابة، منذ ذلك الوقت[1].

وهذا الإله «نبو» يكون حاضراً في أعياد رأس السنة، ويستمع إلى اعتراف الآلهة عن الأخطاء التي حدثت في السنة المنصرمة، وما سيكون عليه الحال في السنة القادمة، ضمن إجتماع خاص يضم بقية الآلهة[2].

من هنا يمكن القول، أن اهتمام أهل سومر وبابل بمسألة التعليم وخلقهم إله للتعليم والكتابة يشير إلى نُضجٍ حضاري، سابق لغيره من الحضارات العالمية، فلقد كانت المدارس مرتبطة أشد الإرتباط بالمعبد في العصور السومرية الأولى، ثم أخذت تستقل شيئاً فشيئاً في الألف الثالث قبل الميلاد، أما في عهد حمورابي «سادس ملوك سلالة بابل الأولى» (1792 - 1750 ق.م) فقد إتخذت المدارس إتجاهاً خاصاً حيث بدأت تمارس نشاطها التعليمي بموافقة وامتياز من الدولة البابلية حيث كانت الدولة قد سمحت بأن يكون في كل مدينة كبيرة (بيت للألواح الطينية) على الأقل، وقد احتوت مدينة بابل على عدّة بيوت، تُدار من قبل كُتّاب مختصين في فرعٍ واحدٍ أو عدة فروع، وكان ناظر المدرسة يسمى (رب بيت الألواح الطينية) وهو المسؤولُ عن التدريب والإدارة[3].

لقد كانت صفوف الدراسة بسيطة وقليلة الآثاث، وكان النظام التدريسي صارماً، بحيث أن المعلم لا يستغني عن استعمال العصا في تأديب التلاميذ[4] رغم أن المدارس كانت خاصة، وكان أولياء الطلاب يدفعون أجوراً نقدية وهدايا خاصة للمدرسين[5] كما أن هناك بعض التلاميذ الأذكياء يدرسون على حساب الملك أو المعبد، وتشير د. براندت إلى

(1) أنظر - براندت - د. إيفلين كلينكل «رحلة إلى بابل القديمة» ص144، ترجمة د. زهدي الداوودي - منشورات دار الجليل - دمشق، ط1، 1984.
(2) المصدر السابق/ ص156.
(3) رحلة إلى بابل القديمة/ ص166.
(4) رحلة إلى بابل القديمة/ ص 166.
(5) المصدر نفسه.

أن إمكانات الدراسة للبنات كانت ضعيفة جداً، إلاّ أن هناك مدارس خاصة للبنات مهمتها تعليم القراءة والكتابة[1].

لقد كانت المدرسة السومرية حصيلة مباشرة لإبتكار نظام الكتابة بالخط المسماري والذي يُقرأ من اليسار إلى اليمين وموضع الفعل في الجملة السومرية والبابلية يكون دائماً في نهايتها[2] وقد أوجدت أولى نماذج الكتابة في مدينة أوروك «الوركاء» جنوب العراق حيث اكتشفت بين عامي 1902 - 1903 م عدد من الألواح المدرسية يعود تاريخها إلى نحو (2500 ق.م)[3] حيث كان يُطلق على اسم المدرسة باللغة السومرية (E - DUBBA) وتعني «بيت الألواح» ولعل هذه الكلمة - كما يعتقد د. علي الشوك - هل أصل كلمة «الأدب» بالعربية[4].

وكان نظام المدرسة السومرية، يتسلسل - إدارياً - من[5]:

1 - مدير المدرسة، وكان يُدعى (UMMIA) أي «خبير» أو «بروفيسور» ويلقّب أيضاً «أبو المدرسة».

2 - التلميذ: ويدعى - إبن المدرسة -.

3 - الأستاذ المساعد: ويدعى (الأخ الكبير) وكان من واجباته كتابة ألواح جديدة للتلاميذ، ليستنسخوها، وفحص نسخ التلاميذ والإستماع إلى مذكراتهم شفوياً.

4 - الرجل المسؤول عن الرسم.

5 - الرجل المسؤول عن اللغة السومرية.

6 - مراقب لكل صف.

7 - مسؤول - العصا - الخيزرانة، اي المسؤول عن حفظ النظام وكان التلاميذ «يداومون» من الصباح حتى المساء، ويتمتعون بعطل مقدارها ستة أيام في الشهر[6].

كما أن منهجه التعليم عند السومريين، كانت تخضع إلى منظور متقدم من حيث الرؤية المستقبلية، فقد كانت - المناهج الدراسية - مقسومة إلى فرعين أساسيين «علمي وأدبي

(1) كتابها أعلاه/ ص166 - 167.
(2) انظر. د. فوزي رشيد «الشرائع العراقية القديمة»/ ص9.
(3) د. علي الشوك - مدارس سومر - جريدة الحياة - ليوم 14/ 3/ 2006م.
(4) المرجع السابق.
(5) نفس المرجع.
(6) نفس المرجع.

إبداعي»[1]. والمدرسون يتابعون ذلك بدقة، ويحاسبون المقصرين، حيث تظهر لنا علامة «عصا وجسد» والتي هي أداة العقوبة في اللغة السومرية[2].

أمّا على الصعيد التعليمي الذاتي للتلميذ السومري، فإن برنامجه اليومي، يكاد يكون «نموذجياً» حيث أن التلميذ لديه «مدوّنة يومية» على النحو التالي: يوصي التلميذ أُمَّهُ بأن توقظه مبكراً، لئلا يضربه المعلم بالخيزرانة، وعند الصباح يحثُّ أُمَّهُ على إعداد غدائه بسرعة ليحمله معهُ إلى المدرسة، وفي المدرسة يقول التلميذ: «أتلو لوحي، وأتناول غدائي، ثم أحضّر لوحي الجديد، اكتُبُه، وأنتهي منه، ثم يعيّنون لي واجبي الشفهي، وبعد الظهر، يعيّنون لي واجبي المكتوب، وبعد إنتهاء الدوام أعود إلى البيت، وأجد أبي جالساً هناك، ثم أتلو عليه واجبي المكتوب، وما في لوحي، وبذلك أُدخل السرور إلى قلب والدي، وعندما أستيقظ مبكراً في الصباح أقول لأمي: (أعطيني غدائي أريد أن أذهب إلى المدرسة) ثم تعدّ لي أمي «الفتين» وأنطلق إلى المدرسة[3].

إنَّ «النص السومري» السابق، يكشف عن مدى جديّة التعليم في المرحلة الأولى للطفولة، حيث نشاهد - إسقاطات - التلميذ العفوية، التي تكشف مدى سروره بانضباطه، لأجل التعليم، من جهة، ومن جهة ثانية، يكشف النص، المسؤولية المتبادلة بين المؤسسة التعليمية «المدرسة» والمؤسسة الاجتماعية «العائلة» في سبب إنجاح الجُهد العلمي في نفسية التلميذ السومري، والنص المقبوس واضح الدلالة في هذا الجانب، ومن هنا ندرك الدور الإيجابي الذي لعبتهُ «المدرسة السومرية - الأدبّا -» والتي أنتجت الأدب التعليمي في تلك المراحل الغابرة من التاريخ، رغم أن المدرسة السومرية «الأدبّا» أصبحت مؤسسة تعليمية واضحة في الألف الثالث ق.م[4].

حيث كان غرضها الأساس أن تخرّج كتبة ومسّاحين ومختصّين في أمورٍ أخرى، تحتاجها الدولة لتمشية شؤونها الإدارية والزراعية، وتكشف المدوّنات التاريخية بعد أن تطورت المدرسة إلى نظام تعليمي متطوّر، إذ أصبحت في أواخر الألف الثانية وبداية الألف الثالثة ق.م. مركزاً أكاديمياً، حيث باتت فروع المعرفة تدرّس فيها الأمور العلمية مثل: الرياضيات، قواعد اللغة، الغِناء، الموسيقى، القانون، وكانت هذه الدراسات

(1) د. علي الشوك - المصدر السابق -.
(2) نفس المصدر.
(3) لقد أحسن د. علي الشوك، بنقل «عفوية تفكير الطالب» حيث أن «الحقيقة» في النص تدلل على مضامينها العميقة في مسألة تعاطي العلم السومري، في مرحلة الطفولة.
(4) د. علي الشوك، المصدر السابق.

تشتمل أيضاً على إستظهار «قوائم للمصطلحات الطبيّة والنباتية والصيدلانية والجغرافية»، إلى جانب قوائم «المصنفات الأدبية»[1].

لقد أوضحت الدراسات التاريخية للعهد السومري، بأن معظم المؤلفات «الأدبية» كانت بصيغة نصوص دوّنها معلّمون وتلاميذ، لا سيما الأساطير والحكايات التعليمية[2]. لكن بعض النصوص المدرسية كانت عبارة عن «مقالات أدبية» تصف الحياة في المدرسة ونظامها، ومهمّاتها التعليمية، (تعاليم أخلاقية، نصائح أخلاقية، تعليمات عامة) حيث أنها كانت موجّهة إلى الطلاب مباشرة، وغالباً هذه النصوص تتخذ شكل حوار شعري، وبعضُها كانت نصوصاً من الحكمة الشعبية والحِكَمْ والأمثال، والنوادر، والحكايات الخرافية، والأقوال المأثورة وأغلب نصوص «الحكايات الخرافية» في المدارس السومرية كانت نصوصاً مدرسية، من هُنا نفهم قدسيّة المدرسة في العقل السومري، وما بعدها في العقل البابلي، والذي أخذ منهج السومريين في التعليم الأولي، والأكاديمي وبشكل أرفع، حتى لقد وصلت الأمور التعليمية في العهد البابلي القديم إلى إستخدام لغتين في نصّ واحد - سومري وبابلي -، في أمور القانون والدساتير، وبهذا الصدد، يشير دُ. فوزي رشيد[3] إلى وجود نصوص قانونية (يبدو أنها إستنساخات مدرسية مقتبسة لـ 12 مادة قانونية من شريعة «لم تصل إلينا بعد» وجدت مدوّنة باللغتين السومرية والبابلية، يعتقد أنها تمارين مدرسية للتدريب الطلاب على الترجمة من اللغة السومرية إلى البابلية وبالعكس).

إنَّ التطور التعليمي - الأكاديمي في بابل، تجاوز تعقيدات كل اللغة المسمارية رغم بقائها في المعابد للأغراض الدينية أو تدرس للمختصّين فقط في التراث، أو كلغة ثانية[4]. أمّا العلوم المختلفة والإختصاصات فيها فقد جُعلت من نصيب «المعاهد الأكاديمية» والتي تقع في المُدن الكبيرة مثل (أور، نُفّر، بابل) فيما كانت المعابد تُدرّس طلابها علوم اللاهوت والفلك والتنجيم والسحر، وأما المعاهد المستقلة أو الخاضعة للقصر فكانت تدرّس علوماً أخرى، مثل (الرياضيات، الجيولوجيا، الطب)، وكانت «اللغة» تُدرّس كأساس لكل العلوم المذكورة، إذ يجري تحليل اللغة السومرية القديمة، الأمر الذي ساعد الأخلاف الساميين لمعرفة قواعدها، لا سيما في الألف الثالث ق.م، وبداية تركّزه في الألف الثاني ق.م. إذ تحوّلت من (2000 علامة إلى 500 علامة) فيما وصلت - هذه

(1) د. علي الشوك، المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه.

(3) د. فوزي رشيد/ الشرائع العراقية القديمة: ص176.

(4) براندت - إيفلين كلينكل - رحلة إلى بابل القديمة/ ص167.

اللغة - في العهد الآشوري - البابلي الحديث، تستعمل فقط (350 - 400 علامة مسمارية)[1]، وهذه الخاصية - المقطعية للكتابة المسمارية أعطت الإمكانات ليس للتعبير عن اللغات السامية وحسب بل لكافة اللغات الأخرى في ذلك الزمن، كما تقول الباحثة الألمانية د. براندت[2].

إنَّ المراقب للتطور الحضاري للسومريين والبابليين، أنهم بدؤا بشكل «منهجي» يفكرون بالمخلوقات الكونيّة، وليس اعتباطاً أن يهتموا بتعليم السِحر، وليس عبثاً أن تأتي «أساطيرهم المثِيولوجية» وكأنها محكومة بالسحر. وهذا «الفكر الأولي بالوجود» قاده في مرحلة لاحقة للإهتمام «بالفلك» بمعنى آخر، إن عقليتهم بدأت تنظر صوب «الماورائية» باعتبار أنه جرى تجاوز لما هو مادي مألوف في حياتهم اليومية، لذلك عنى البابليون - وبخاصة في العهد السلوقي المتأخر (310 ق.م - 75م) عناية فائقة بعلم الفلك، حيث صارت عندهم «مؤسسة حكومية ضخمة تموّلها الدولة» تعمل على تسجيل الإرصادات الفلكية - يومياً - لمواقع الكواكب والشمس والقمر والنجوم، وباقي الأجرام السماوية التي تراها العين، وكان اللّوح الطيني، يحتوي على معلومات تتضمن «تاريخ الرصد ومكانه، وإسم الراصد، وإسم مساعدهُ، وإسم الكاتب الذي يُدّون المعلومات على اللّوح الطيني، وإسم الناسخ الذي ينقل المعلومات من اللّوح الأول إلى اللّوح النهائي، وإسم المُدقّق، الذي يتولى تدقيق النسخ والتأكّد من صحّته[3].

هذا الأمر - عند البابليين - يكشف عن مدى أهمية «النَسخ» وأهمية «التدقيق» لهذه الألواح المنسوخة، ويكشف بنفس الوقت مقدار الرقي المعرفي، والمسؤولية العلمية في المراقبة الكونية للأفلاك، والمراقبة الشخصية للمنقولات، كما أنّه يوضّح بجلاء، مدى

---

(1) براندت - إيفلين كلينكل - رحلة إلى بابل القديمة/ ص167.

(2) نفس المصدر أعلاه.

(3) راجع بهذا الصدد.

Negebauer, O. A: Astronomical Cuneiform Texts, Lund Humphreys, 3 Vols, London, 1995.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن «العالم للآركيولوجيات» Otto Negebauer أوتونوجربارو هو مؤرّخ للفلك القديم، وقد ترجم لأغلب علم الفلك البابلي في ثلاث مجلدات كبيرة، بالعنوان أعلاه، إضافة إلى كتبه الأخرى مثل: A History of Arvcint Mathematical Astronomy.

والذي يقع في ثلاثة مجلدات أيضاً - وراجع بهذا الصدد - مقالة د. محمد باسل الطائي: (توزيع الكون بين الغزالي وإبن رُشد) المنشورة في مجلة - آفاق الثقافة والتراث - دُبي، مركز جمعة الماجد، العدد م 46 - السنة 12 - تموز/ يوليو 2004، ص147، ص159.

التطور العلمي لتلك الحقبة الزمنية، وهذا يعني أن أهل بابل يؤثّرون على معنى السبق والتطور الحضاري لأرض الرافدين.

إنَّ هذه «**الإلماعات الحضارية**»، في التطور العلمي هي التي أغرت عُلماء الآثار لأن يتعقّبوا كل المدونات السومرية والبابلية والأكدية والأمورية والآراميّة، التي إمتدّت بالعمق الجغرافي إلى ما يقارب ستّة آلاف سنة ق.م، وإلى يومنا هذا، فيما إشتملت مساحتها الجغرافية من سهل شنعار[1] إلى جميع بلاد ما بين النهرين وصولاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، حيث وجدوا في هذه الحضارة ما حيّر العقول، فقد كشفت الأبحاث الآركيولوجية، لا سيما في منطقة «إيبلا» من (مكتبات ضخمة، بلغت حوالي 1500 صحيفة منقوشة تشتمل على أكثر من 100 مُعجَم، فخاري توضّح المقابلات السومرية لنحو 3000 كلمة، من لُغة إيبلا، كما تشتمل على سجلات رسميّة، تحتوي على «مراسيم» أصدرها الملوك، ومفاوضات تجارية، وقرارات ومراسلات دبلوماسية لممالك أخرى مثل (أُغاريت وماري، وسدوم وعمورة)[2].

وإزاء هذا التطور المعرفي الدقيق يقول الأستاذ (ف. إدوارد) الذي نقل نصوص شريعة حمورابي: «الظاهر من تاريخ البابليين ودراسة مدنيّتهم وتشريعهم ومعاملاتهم التجارية والسياسية، التي نقوشها على أوانيهم الفخارية أنهم كانوا أمّة كتابة ونصوص وصكوك، يتقيّدون بحرفية ما ورد فيها، شأن بعض الأمم الراقية في عصرنا»[3].

إنَّ الوعي بأهمية الكتابة عند السومريين والبابليين جعلهم لأن يتبنوا فكرة «**التعليم العام والتعليم الخاص**» إذ أن التعليم كان يحصر في مدارس بابل على المبادىء العامة للقراءة والكتابة والرياضيات والهندسة، وربما علم الفلك[4] ولكن في التعليم الخاص، يمكن للطالب أن يختص في الفرع الذي يريد، وعليه أن يبحث عن (**معلّم معروف**) يُعمق معلوماته في الفلك والرياضيّات والطب، بغية الحصول على «**مهنة كاتب**» في القصر الملكي أو في المعابد المرتبطة في القصر، وعلى هذا الطالب أن يكون بارعاً في الكتابة واللغة وذا علم باللغة السومرية، إذ أن الكاتب يعمل عادة عند «التجّار الكبار والكهنة ودوائر الدولة، وكل كاتب كان يطمح للعمل في القصر الملكي»[5].

---

(1) سهل شنعار، هي المنطقة الواقعة بين مصبّي دجلة والفرات قديماً، من جنوب بغداد إلى البصرة.

(2) انظر د. خضر الحموي: التفاعل القانوني في حوض البحر الأبيض المتوسط، دراسة مقارنة للقوانين منذ خمسة آلاف سنة ص76، طبعة خاصة، بيروت، 1996م.

(3) المصدر السابق/ص88.

(4) انظر - د. براندت - رحلة إلى بابل القديمة/ ص172.

(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

وقد تميّز نوع من الكتّاب بـ «كتابة الألواح الطينية» إذ كانوا بارعين جداً في عملهم، يستعملون الطين بدقة متناهية، سواء أكان ذلك لوحة لا يقل طولها عند نصف متر، أو كانت بحجم طابع البريد[1].

وهذه الدقّة في نسخ الألواح، جاءت نتيجة الإحتراف الكتابي، والآباء فيها يورّثونها للأبناء، ومن جيل إلى جيل، وكان هؤلاء الكتّاب على صنفين، الصنف الأول، والذي كان يشتغل في دوائر الدولة والمعابد وغيرها. والصنف الثاني هم «كتّاب العرائض»[2] الذين يتخذون أماكنهم في الساحات العامة والشوارع، لكتابة العقود والرسائل البسيطة، حيث كان هؤلاء بإمكانهم تذييل النص الذي يكتبونه بأسمائهم، وهم معروفون في طول البلاد وعرضها، وهم الأكثر شهرة من بقية الحرفيين الآخرين[3].

لقد إنتبه أهل بابل، لا سيما القيّمون على إدارة المعابد على أهمية توريق النصوص، لا سيما الأساطير المتعلقة بديانتهم، باعتبارها تحمل «صفة المقدّس» فكانت هذه المعابد تفتخر لوجود الألواح الطينية لما لها من أهمية دينية، وكانت تبعث بكتّابها الخاصين إلى بقية المجامع لنسخ ما تعتازه من وثائق وأمور أخرى[4]، والملاحظ على تلك المجامع الحاوية للرُقم الطينية، لا تحتوي على الميثيولوجيا والنصوص الأدبية وحسب، بل والشؤون الاقتصادية ومختلف أنواع الوثائق[5] فيما كان القصر الملكي يحتوي على آلاف الألواح الطينية المتعلّقة بمعاملات الإدارة وتنظيم شؤون البلاد، والأموال الصادرة والواردة وأنواع الضرائب وكان هناك أرشيفاً خاصاً للوثائق السياسية المهمة، كالمعاهدات وواجبات رُسل الملك في البلدان الأخرى.

وعندما تقدّمت الحضارة البابلية في عهد سرجون الأكدي (2236 - 2181 ق.م) إهتم هذا الملك أيما اهتمام بماضي بلاده وتاريخها فجمع كافة الألواح المتعلقة بذلك، فيما كان الملك الآشوري «آشوربانيبال» (686 - 626 ق.م) قد حوى مكتبة ضخمة، فيها مجاميع هائلة من النصوص الأدبية والدينية، وغيرها، وقدّرت محتويات تلك المكتبة على ما لا يقل عن (25000 لوح) من الطين، مرتبة بانتظام[6] الأمر الذي يفصح عن وجود عامِلين خاصّين فيها لترتيب شؤونها وإدارتها.

---

(1) نفس المصدر والمكان.

(2) يبدو أن هذا الطقس الفولكلوري لكتّاب العرائض قد سنّه أهل بابل للعالم.

(3) د. براندت - رحلة إلى بابل القديمة/ ص172.

(4) المصدر السابق.

(5) نفس المصدر السابق/ ص172 - 173.

(6) راجع. د. براندت، رحلة إلى بابل القديمة/ ص173.

كما أن الميثيولوجيا والملاحم تعود أصولها إلى العهود السومرية التي نُقلت «مشافهة» في البدء، عِبر مختلف الأجيال والقرون، الأمر الذي حدا بكهنة بابل - في نهاية الألف الثالث ق.م - أي في العهد البابلي القديم، لأن يباشروا مع كتّابهم بنسخ وتدوين الأساطير على الألواح الطينية[1].

وقد ظهرت في العهد البابلي القديم ميثيولوجيا راقية، كانت نواتها سومرية حيث يلاحظ صعوبة تحديد معالم الأدبين السومري والبابلي، ووضع الحدود بينهما، إذ أنهما قد تداخلا وأكملا بعضهما البعض، كما تقول الباحثة براندت[2] ومثالها في ذلك «ملحمة كلكاش» الخالدة.

لقد لعبت الميثيولوجيا البابلية دوراً كبيراً في التأثير النفساني على بقية ميثيولوجيا الشعوب الأخرى، وهذا الأمر يمكن ملاحظته ببساطة شديدة على الأساطير الإغريقية، حيث هناك التشابه الكبير بين إسطورتي «كلكاش وهرقل» واقتبست الشعوب المجاورة الحكايات والأساطير البابلية، بل أن البابليين هم أول من أوجد شخصية «الثعلب الماكر» المعروفة في قصص الحيوانات[3]، وفي أدب الحوار المتخاصم، يلاحظ تأثّر الشاعر الإغريقي «كاليما» بالحوار البابلي الجاري بين النخلة وشجرة التمر هندي، حيث يبدو ذلك واضحاً في حواره الذي أقامه بين شجرة اللومير والزيتون[4].

إنَّ الأدب البابلي، سحب ظلال تأثيره على كل آداب الحضارات القديمة حتى أنّه وجد طريقه الرحب إلى كتب التوراة والإنجيل، قبل أن يتم التنقيب عن الألواح الطينية بفترة طويلة، وتكفي الإشارة إلى «إسطورة الطوفان» البابلية وورودها كاملة في «الكتاب المقدّس» بعهديه القديم والجديد، وكليهما يحمل إسم بابل حتى يومنا هذا، الأمر الذي أعطى زخماً هائلاً للبشرية للبحث المستمر عن بابل وروعتها، إن إسم بابل سيبقى خالداً إلى الأبد، كما تقول الباحثة الألمانية عن حق برادنت[5].

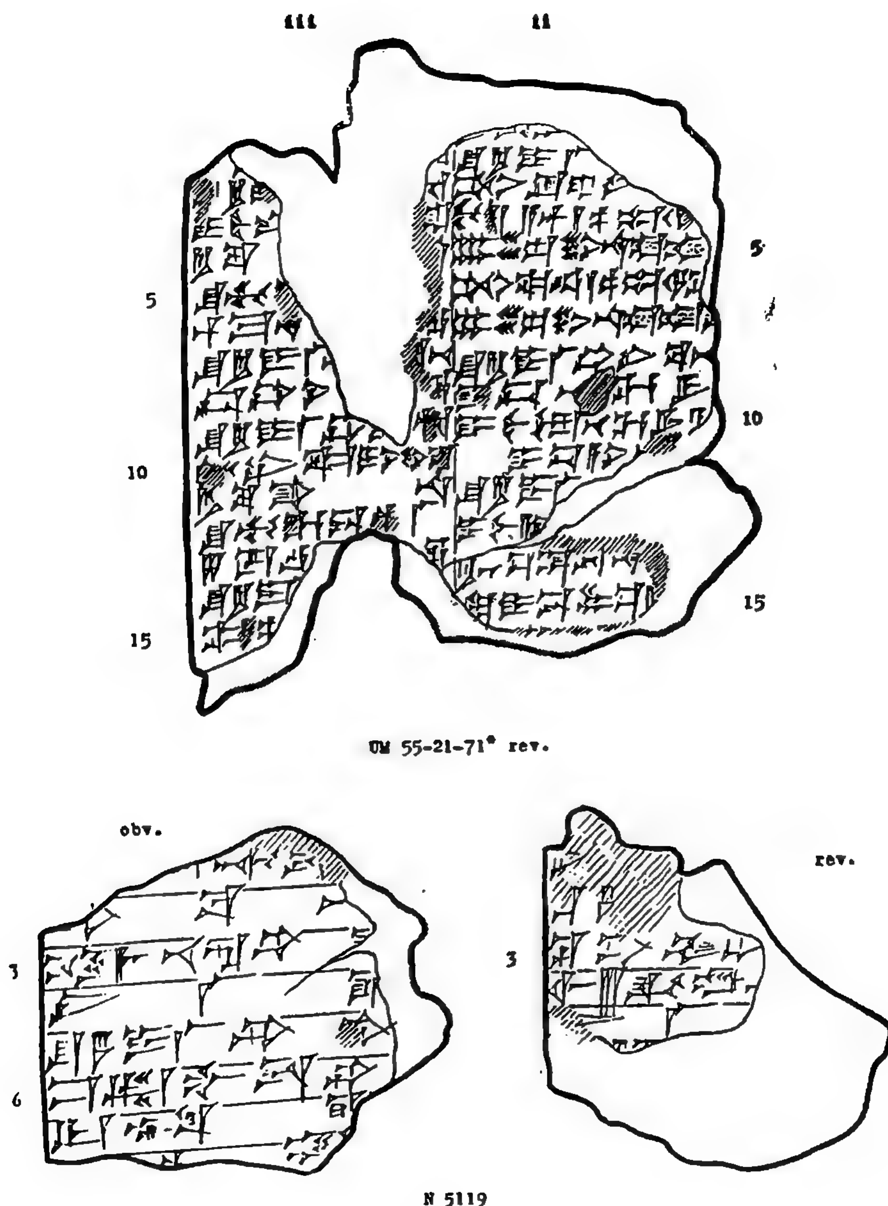
إنَّ إستعراضنا لهذه الوقائع التاريخية لحضارة بابل، واستشهادنا بآراء باحثي الآركيولوجيا، هو للتدليل على أن أرض الرافدين، قد أنتجت فكراً معرفياً، ما زالت تأثيراته قائمة حتى اليوم، وهذا الأمر يؤكد أن الحاضن الجغرافي لهذه الحضارة سيبقى أبداً

(1) نفس المصدر السابق والمكان.
(2) نفسه.
(3) رحلة إلى بابل القديمة/ ص197.
(4) المصدر السابق، ص198.
(5) نفس المصدر السابق.

حاملاً لبذور تلك الحضارة، في نفوس الأقوام المتعاقبة التي استوطنت هذه البقعة وأنبتت سلالاتها السامية، فليس غريباً أن ينبجس هذا الدفق الحضاري بقوة غير عادية في أرض الرافدين في العصر العباسي مستلهماً كل فنون المعرفة في صناعة الكتاب، ومطوّراً أساليب التدوين والإستنساخ بشكل لا مثيل له، من الدقّة والحرفيّة، الأمر الذي يعيد الكرّة التاريخية الحضارية لبلاد الرافدين في التأثير على آداب وثقافات العالم الذي كان يجاور أرض السواد.

UGARIT	LATIN	ARABIC	UGARIT	LATIN	ARABIC	UGARIT	LATIN	ARABIC
	A	ا		t	ط		S	س
	B	ب		Y	ي		ʼ =	ع
	G	ج		K	ك		p=f	ف
	h	خ		š	ش		s =	ص
	D	د		L	ل		Q	ق
	H	ه		M	م		R	ر
	W	و		d	ذ		t =	ث
	Z	ز		N	ن		g=	غ
	h	ح		z	ظ		T	ت
	T	ۏ		(s)	(س)		I	!

الابجدية السومرية - البابلية - العربية



استنساخ يدوي للرقيم الطيني الذي ظهر في تنقيبات البعثة الامريكية في نفر عام 49 - 1950. وهو يحتوي على مواد قانونية مدونة باللغة السومرية ولا يمكن نسبتها حالياً إلى شريعة لبت عشتار بصورة نهائية.

šum-ma sinništu lu-ú aššat^{at} awīli

رجل زوجة لو (كانت) امرأة اذا

lu-ú mārat awīli ši-il-la-ta

الكفر رجل ابنة او

taq-ti-bi lu-ú mi-qí-it pi-e

← تفاهة → أو قالت

ta-ar-ti-i-ši sinništu ši-i-it

هذه المرأة تغومت

a-ra-an-ša ta-na-áš-ši a-na mu-ti-ša

زوجها الى تتحمل عقوبتها

māri-ša mārti-ša la-a i-qar-ri-bu

تقرب لا بناتها اولادها

المادة الثانية من مواد اللوح رقم (1) من فترة العصر الآشوري الوسيط.

sum-ma sinništu qa-ta a-na awīli
ta-ta-bal

مدت رجل الى يد امرأة اذا

ub - ta - e - ru - ú - ši

ها و وجهت التهمة ضد (ها)

30 manû anâku ta - ad - dan

تدفع (كغرامة) رصاص منا ثلاثين

20 i - na iṣ âru i - maḫ - ḫu - ṣu - ši

يضربوها الجلدة(=عصي) ب ٢٠

المادة السابعة من مواد اللوح الأول من قوانين العصر الآشوري الوسيط.

الباب الأول

الفصل الأول

تمهيد تاريخي عن بغداد

ما إن انتصرت الدعوة العباسية في العراق سنة 132هـ[1] حتى استقرت حكومة أبي العباس السفاح بالكوفة، متخذة منها عاصمة لها على باقي الأمصار، على اعتبار أنها القلعة الأولى لبدء دعوتهم إلى جانب خراسان.

ثمة أمر هام جاءت به الدولة العباسية، في بادىء أمرها، ألا وهو، وجود جيش نظامي. وهذه المسألة هامة وجديدة على الصعيد الإداري والسياسي، في تطور الدولة الإسلامية، وشكل هذا الجيش البديل الأقوى والأثبت، في قوام الدولة، من الجند المقاتلين، الذين ترسلهم القبائل، وكان العباسيون قد خالطوا أقواماً أخرى، وخصوصاً الفرس، الذين عرفوا بحسن الإدارة والتنظيم في الدولة الساسانية وهذا الأمر أحدث تلاقحاً فكرياً بين ثقافتين، (فارسية وعربية)، وهو ما برز فعلاً على الصعيد السياسي والاجتماعي والأدبي، فآل ساسان، والبرامكة، وآل سهل، عائلات فارسية معروفة، كان لها نفوذها وحضورها في الدولة العباسية، منذ بداياتها، وظل هذا الحضور قائماً حتى بعد نكبة البرامكة أيام الرشيد سنة 187هـ[2]. كانت فكرة إيجاد مركز للخلافة العباسية، قائمة في أذهان الخلفاء العباسيين منذ قيام الدعوة العباسية، وحتى مسألة قيام المركز في الكوفة والأنبار، كان على مضض من قبل السفاح فقد وردت على لسان أبيه محمد بن علي أنه أشاد بفضل خراسان على أساس ولائها السياسي لهم واصفاً البصرة بأنها عثمانية تدين (بالكف عن القتال)، واعتبر الجزيرة الفراتية حرورية مارقة، وأعراباً كأعلاج،، وواصماً مكة والمدينة بأنهما قد غلب عليهما (أبو بكر وعمر)، أي أنهما تتمسكان بذكرى

---

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ 5/ 408 وما بعدها.

(2) راجع عن البرامكة - دائرة المعارف الإسلامية 3/ 492 - 498 - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته.

الراشدين، وأما الكوفة فقد غلب عليها حب (علي وآله)[1]. ومن هذا المنظور، تكون فكرة إيجاد البقعة البديل عن الأنبار وغيرها قائمة أصلاً عند خلفاء بني العباس الأوائل، لذلك عندما جاء المنصور للخلافة سنة 136هـ[2] كان همّه الأول إيجاد عاصمة له، تكون مركزاً بعيداً عن العصبيات المناوئة لهم، وبنفس الوقت تكون لهم السيطرة فيها على كل الأقاليم الخاضعة لدولتهم، إضافة إلى وجود عامل طبيعي يساعدهم في تسيير أمورهم الاقتصادية/ الزراعية/ التجارية، وقد كان المنصور قد جال الأرض، فبلغ طنجة، وأقام بالبصرة، ودخلها غير مرة، ووصل إلى أصبهان، وكان يحج ويجاور مكة، ويدخل الكوفة، ويقيم فيها، وجال في بلدان الجزيرة، وديار ربيعة ومضر، وكان مع أبيه وعمومته في الشراة، ومع هذا كان طالباً للأدب والعلوم، محباً للسياسة، بعيد الهمة، جيد الرأي والتدبير، وكان مقداماً على أجل الأمور دون تردد، كتوماً لأمره، لا يطلع أحداً على سريرته، وقد أجاد ابن هرمة في وصفه[3]:

إذا مـا أراد الأمـر نـاجـى ضـمـيـره	فناجى ضميرا غير مختلف العقل
ولـم يـشـرك الأدنيـن فـي جـل أمـره	إذا انتفضت بالأضعفين قوى الحبل

ويشير ابن الفقيه في عبارة دقيقة إلى خبرة وحزم المنصور، وطول أناته وبعد نظره، إضافة إلى جانب سياسي مهم في بناء مدينة بغداد فيقول[4]:

«فبهذا الحزم، وهذه التجربة، وبُعد هذه الهمة، والأسفار الكثيرة، ومشاهدة البلدان البعيدة، رأى أن يختار هذا الموضع مدينة ومنزلاً ومستقراً، هذا وخراسان تتمخض، وفي أكناف الشام جماعة من بني أمية، يحاولون طلب الملك، وبالحرمين طالبيون يرون أنهم أحق الناس بالملك».

وثمة مسألة أخرى كانت قائمة في ذهن المنصور/ حسبما نعتقد/ هي أن توسط الموقع لإقليم العراق، سيساعد على الإشراف على بقية الأقاليم لإدارتها جيداً وقمع أي تحرك فيها، قبل استفحاله، وقد تمكن المنصور من ملاحقة عبد الجبار بن عبد الرحمن في

---

(1) د. عبد العزيز الدوري - مقدمة في التاريخ الاقتصادي/ ص55 - منشورات دار الطليعة - ط2، بيروت 1978م.

(2) انظر - ابن الفقيه الهمداني/ بغداد مدينة السلام/ ص88 وما بعدها - تحقيق د. صالح أحمد العلي - ط2، منشورات وزارة الإعلام العراقية بغداد. وراجع الزركلي - الأعلام 4/ 117 - ط 5 - دار العلم للملايين بيروت 1980م.

(3) ابن الفقيه الهمداني/ بغداد مدينة السلام/ ص88.

(4) بغداد مدينة السلام/ ص88.

خراسان حتى أخذ أسيراً، ومحمد النفس الزكية، حتى بلغ مراده، كما يقول ابن الفقيه[1]. كما أمكنه أن يوجه المهدي إلى الري وطبرستان وجرجان، وأمكن المهدي من توجه الهادي إلى جرجان، والرشيد إلى صائفه الروم، وأن يمضي الرشيد بنفسه يريد سمرقند، وأن يوجه الأمين علي بن عيسى بن ماهان إلى خراسان، وأن يوجه المأمون، عبد الله بن طاهر إلى مصر، ويشرف على بابك بالجبال، وأن يفتح طبرستان وعمورية، ولولا توسط بغداد، لكان الأمر أعسر، والطلب أبعد والأخبار أبطأ.

ومن هنا تتوضح الأهمية الاستراتيجية لهذا الموقع الجغرافي لبغداد، التي لم تكن مدينة في الماضي إنما قرية من قرى طسوج بادوريّا، لم يكن فيها إلا دير للنصارى النسطورية، عُرف في العصر الإسلامي بالدير العتيق[2].

وقد اختار المنصور، موضع بغداد، بعد اختبار شخصي للمكان ذاته، حدد فيه بعض المعالم التي تصلح لاقامته وإقامة جنده والناس من حوله. قال المنصور لبعض أصحابه: أريد موضعاً ترتفق به الرعية ويوافقها، ولا تغلو عليها فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤونة، فإني إن أقمت في موضع لا يُجلب إليه، في البر والبحر، غلت الأسعار، وقلت المادة واشتدت المؤونة وشقّ ذلك على الناس، وقد مررت في طريقي، بموضع قد اجتمعت فيه هذه الخصال، فأنا راجع إليه، وبايت فيه، فإن اجتمع لي ما أريد من طيب الليل، فهو موافق لما أريده لي وللناس. قال: فأتى موضع بغداد[3]. وبعد أن تم الاختيار، وجه المنصور في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، فأحضروا، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، فجمعهم وتقدم إليهم أن يشرفوا على البناء، وكان فيمن أحضر الحجاج بن أرطأة، ثم أمر بخط المدينة وحفر الأساسات، وضرب اللّبن، وطبخ الآجر، فبدىء بذلك سنة 145هـ[4] وتم الفراغ من بناء (مدينة السلام) سنة 146هـ، فيما أتم بناء السور والفراغ من الخندق وإحكام جميع أمر المدينة سنة 149هـ، وتحول إليها المنصور من الهاشمية 146هـ، وأرّخ إبن الفقيه ذلك بالعربية/ الهجرية، وبالفارسية وبالشمسية قائلاً[5]:

(1) المصدر السابق.

(2) اليعقوبي/ البلدان - ص235، طبعة ليدن سنة 1891، وص3 - 20 من طبعة النجف العراقية، ط3، 1377هـ/ 1957م.

(3) ابن الفقيه/ ص30 - 31.

(4) ابن الفقيه/ ص32.

(5) بغداد مدينة السلام/ ص39 - 41.

«وكان تحوّل المنصور من الهاشمية إلى بغداد، والإبتداء ببنائها سنة خمس واربعين ومائة وذلك في اليوم الثامن عشر من مرداذماه سنة إحدى وثلاثين ومائة ليزدجر/ فارسي/ وآخر يوم من تموز سنة ألف وثلاثمائة وسبعين للإسكندر، والشمس في الأسد ثماني درجات وعشر دقائق».

وفي سنة 153هـ نزل المهدي بن المنصور وولي العهد الرصافة، فاختط قصره بها، وحفر نهراً يأخذ من النهروان، سماه نهر المهدي، في الجانب الشرقي، وأقطع المنصور أخوته وقوّاده، مثلما فعل في الجانب الغربي/ الكرخ/ وهو جانب مدينته، وقسمت القطائع في هذا الجانب/ الرصافة/ وتنافس الناس من النزول على المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا. كما أنَّ - الرصافة - كانت أوسع الجانبين أرضاً ولأن الناس سبقوا إلى الجانب الغربي، وهو جزيرة بين دجلة والفرات، فبنوا فيه وصارت فيه الأسواق والتجارات، ولما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي، امتنع على من أراد سعة البناء[1].

لم تكن فكرة إنشاء بغداد فكرة عابرة قطعاً خطرت في بال المنصور، بل كانت رؤية استراتيجية، فلقد كان يرمي إلى أبعاد سياسية، محصلتها إقامة تحالفات جديدة بين أجناس مختلفة، كما يقول أحد المعاصرين[2]. فقد كان المجتمع الإسلامي يخرج من التنظيم القبلي إلى التنظيم السكني باتجاه قيام مجتمع متماسك، تتوفر فيه شروط الاستقرار السياسي والاجتماعي.

فلقد سكن بغداد مختلف الاجناس من العرب والعجم، فيهم المروزية - من مرو، والخراسانية، والكرمانية وأهل فارياب، والأفارقة والديلم والبغْيين[3] وقد كان للموالي حظ كبير في أيام العباسيين، بعد أن كانت لهم مشاركة فعلية في الثورة العباسية، وقد استهوتهم سياسة العباسيين الإسلامية المنفتحة على غير العرب[4]. إن هذا التمازج أمر له مردوده على بغداد خاصة، ومدن العراق عامة، وبالأعم على باقي أقاليم الدولة العباسية، إذ كان من شأنه اكتساب عادات وتقاليد جديدة متطورة بعض الشيء، ونازعة في أغلبها نحو التمدن، وهو ما سوف يظهر بشكل جلي وواضح على الحياة الاجتماعية والثقافية،

---

(1) اليعقوبي/ البلدان/ ص251.

(2) فهمي عبد الرزاق سعد/ العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ ص15، منشورات الأهلية للتوزيع - بيروت 1983م.

(3) اليعوبي/ البلدان/ ص248 - 250.

(4) مؤلف مجهول/ أخبار الدولة العباسية - تحقيق د. عبد العزيز الدوري والمطلبي/ ص287 وما بعدها بيروت 1971م.

لعامة أهل بغداد، ووسطها الثقافي من علماء وكتّاب، ووراّقين، وخازني الدور والمكتبات والظّراف والمحدثين وغيرهم.

ينقسم تاريخ بغداد، الذي بدأ بالمنصور إلى عصرين عظيمين، الأول عصر بني العباس، والذي دام حوالي خمسمائة سنة[1]، كانت فيه بغداد قصبة دولة إسلامية عظيمة - ما خلا خمسة وخمسين عاماً منها - وغدت مركز الحياة العقلية، وأهم مركز تجاري في الشرق، وكسفت شمسها حواضر الولايات في العالم الإسلامي، بل إنها احتلت أرفع مكان في العالم المتمدن، آنذاك بفضل اتساعها وازدهارها.

أما العصر الثاني، فبدأ بسقوط الخلافة العباسية على يد المغول سنة 656هـ وحتى آننا الحاضر. وبلغت المدينة أزهى حضورها في القرن الذي أعقب وفاة المنصور، أو بوجه أدق في عهد خلفائه الخمسة من المهدي إلى المأمون، أي من عام 159هـ - 218هـ/ 775 - 833م. وقد أثّرت فيها سلباً الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، حيث حوصرت لأول مرة في تاريخها، ودام هذا الحصار أربعة عشر شهراً، وامتلأ زمن الحصار بالدسائس والغدر على اختلاف أنواعه، ورزح الجانب الغربي/ الكرخ/ تحت المجانيق، وتخرّب الجزء الأكبر من نصفها الشمالي المعروف بـ/ الحربية/ ووجد الخليفة - الأمين - نفسه آخر الأمر منعزلاً في قصر/ الخلد/ على شاطىء دجلة، وما لبث أن وقع في الأسر، وهو يحاول الفرار، وقتل في أوائل عام 198هـ/ 813م وبموته رفع الحصار عن بغداد[2].

ثم نقل المعتصم العاصمة العباسية إلى (سُر مّن رأى) - سامراء - فراراً بجنوده الأتراك من أهل بغداد سنة 221هـ/ 836م، - إلا أن بغداد لم تفقد كل بريقها، وفي هذا العهد أي العهد السامرائي حدث الحصار الثاني لبغداد، والذي استمر طوال عام 251هـ/ 865م تقريباً. حين فر الخليفة المستعين إلى بغداد بالقسم الأصغر من جنده، وبقي القسم الأكبر من جنده الأتراك في سامراء، وبايعوا المعتز بن عم المستعين بالخلافة، وحاصر المعتز بغداد، وقد استبسل أهل بغداد في الدفاع عنها، وعلى رأس هؤلاء المدافعين كان العيّارون، فقد تمكنوا من الصمود أمام الجيش النظامي من الأتراك، وتمكنوا مع من انضم إليهم من المبيضة والغوغاء من إعطاب مجانيق الترك، وتمكنوا من إلحاق الهزائم بالاتراك، بعد أن نصبوا لهم الكمائن، حتى قتلوا منهم الكثير، وشحنوا رؤوس القتلى إلى بغداد بالشبارات، يقول الطبري[3]: «إنَّ محمد بن عبد الله الطاهري/ قائد شرطة بغداد «

(1) دائرة المعارف الإسلامية 4/ 8 - مادة - بغداد.

(2) المرجع السابق 4/ 9.

(3) تاريخ الطبري - 9/ 282 وما بعدها - ضمن أحداث سنة 251 - تحقيق أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر 1968م.

أصدر سلسلة من الإجراءات العسكرية، وأمر أن يقبل في الجيش من يرغب من العيارين، وأن يجعل عليهم العرفاء، وتُصنع لهم التراس من البواري[1] المقيَّرة، وأن يُعمل لهم مخال تملأ بالحجارة، كما أصدر أمراً بإعطاء خمسين درهماً لكل من جاء برأس تركي أو مغربي، وقد كان أكثر ذلك العمل للمبيضة[2] والعيارين.

هذا الدفاع عن بغداد، فيه أكثر من مرمى/ليس الآن مجال بحثه[3] في أعلاها، حس المواطن البغدادي بوجوده وشخصيته من خلال دفاعه عن مدينته، صحيح أنه بالمحصلة يدافع ضمناً عن السلطة، لكن الدفاع عن المدينة هو الأوضح، وذلك ما كشفته الأحداث اللاحقة، وثمة أمر هام في الاستبسال، هو أنه مكن العامة من ابتكار أشكال وأساليب متتالية لم تخطر ببال، فقد استطاع العيارون أن يثبتوا موقفاً ميّزهم عن بقية فئات المجتمع البغدادي حين دافعوا بالحجارة[4]، وقد شمل الدفاع هذا مختلف فئات الناس، ولكن صورة العيارين هي الأبقى والأثبت من بقية الصور، حتى كان منهم الغلام الذي لم يبلغ الحلم، كما يقول الطبري[5] فقد كانت معه المخلاة وفيها الحجر يرمي بها الأتراك، غزاة مدينته فلا يُخطىء وجوههم.

إنَّ هذا الإستبسال المقاوم، لم تكن سلطة المستعين في مستواه، لأنها تقاتل متفرجة، ومن على شرفات القصور، فقد ظهر فيها حبل التراجع واضحاً، وبدأت المفاوضات والمساومات مع أصحاب المعتز فثارت العامة بمحمد بن عبد الله بن طاهر، وسبوه وشتموه، وطوقوا داره التي فيها المستعين، عدة مرات، وطلبوا إلى الخليفة الانتقال عنها، وجهزوا الزواريق بالنفاطين، واستعدوا لضرب محمد بن عبد الله بن طاهر، وحاولوا منع المستعين من التنازل، إلا أنه كان قد اندحر من الداخل، واضطر إلى التسليم بشروط مهينة، وتنازل عن كل حق له في الخلافة، لكن العيارين لم تهدأ حركاتهم بعد هذا الحدث، فقد اغتنموا فرصة شغب الجند من أجل الحصول على رواتبهم، فانضموا إليهم، ومنعوا الخطبة للمعتز، وتحرك عامة الجانب الغربي، وانتهبوا مراكز الإدارة، فأمر ابن

(1) البواري، جمع بارية، والبارية حصير منسوج من القصب، مشهور في العراق، لا سيما الجنوب منه.

(2) المبيضّة: الذين يرفعون شعاراً أبيض/علم/عكس الشعار العباسي/الأسود/والمقصود بهم هنا، جميع الذين يخلعون السلطة العباسية ويقاتلون ضدها - أنظر العامة في بغداد ص301 - هامش رقم 18.

(3) لنا دراسة/قيد الانجاز/تحمل عنوان (لصوص بغداد في العصر العباسي) سوف نتطرق فيها بالتحليل إلى هذا الموقف.

(4) لنبارك ثورة الحجارة وأبطالها في الأرض المحتلة الآن.

(5) تاريخ الطبري/الجزء التاسع - أحداث سنة 251هـ.

طاهر بإحراق الدكاكين التي على باب الجسر، تأديباً لأصحابها من التجار والعامة الذين ناصروا الجنود[1].

هذه الأحداث وغيرها في مختلف العصور العباسية، أثبتت بأنه أصبح للعامة شأن في تقرير أمور الدولة والحكم، بعد أن مسها سوط التسلط التركي، الأمر الذي مال بميزانه إلى جانب الخلافة الشرعية، وهذا الموقف تضامن فيه عامة سامراء مع عامة بغداد، مما أخاف رجال الجيش من أهل بغداد، فتقرب الخليفة المعتز منهم، بعد تسلمه زمام الخلافة فيها، وهذا الرجل ظل قائماً مدة طويلة، وقد كشف لنا تاريخ التطور الاجتماعي والسياسي لبغداد، أن الحساسية السياسية، من لدن العامة ضد الخلافة العباسية - التركية كانت قابلة للانفجار في أية لحظة، وقد كان الجمهور نقطة التفجير في الأغلب، ففي سنة 269هـ وَثبت العامة بالجند، بعد رمي أحدهم إمرأة بغدادية بسهم، فاستعدي السلطان على رئيس الجندي، فامتنع من تأديبه، بل قام أصحاب الجندي برمي الناس بالسهام، فقتلوا وجرحوا جماعة، فردّت العامة بأن قتلت جنديين، ونهبت دار القائد ودوابه، ففرّ هارباً من بغداد[2]، وفي سنة 279هـ عاد المعتمد من سامراء إلى بغداد وجعلها حاضرة الدولة للمرة الثانية، تقرّباً لأهلها، ولكن ذلك لم يمنع من تفشي روح المعارضة عند البغداديين، ففي سنة 284هـ ثار أهل بغداد بالمعتضد، نتيجة انتصار الخليفة لخدمه، بعد أن صاح بهم الناس (يا عقيق صب ماء واطرح دقيق يا عاق يا طويل الساق)[3] وكانوا يلاحقونهم في الأزقة والشوارع، فاشتكوا للخليفة، فأمر بجماعة من العامة فضربوا بالسياط، مما كان له مردوده العكسي، فتظاهروا في المدينة. وفي سنة 289هـ توفي وصيف الخادم في السجن، وصُلبت جثته على جسر بغداد، فخرجت العامة، وعمدت إلى الجثة، وتماجنت بها، فقد خرج نحو مائة ألف شخص يحملون الجثة، ويصيحون حولها «لقد وجب علينا حق الأستاذ أبي علي وصيف الخادم لطول مجاورته لنا، وصبره لا يُبلي على هذه الخشبة» فلفوه في رداء بعضهم، وحملوه على أكتافهم، يرقصون ويغنون حولهم ويصيحون: «الأستاذ الأستاذ» فلما ضجروا من ذلك طرحوه في دجلة، فغرق في ذلك اليوم منهم قوم في دجلة[4].

---

(1) الطبري/ المكان السابق، والعامة في بغداد/ ص 301.

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ: 7/ 396.

(3) تعليقات البغداديين، إحدى الأساسيات في الفولكلور البغدادي، وهي ظريفة جداً.

(4) المسعودي/ مروج الذهب/ 5/ 171، طبعة الجامعة اللبنانية - بعناية شارل بيلا - بيروت 1974م.

الفصل الثاني

إزدهار بغداد

ما إنَّ استوطنت بغداد، بعد إكمال عمارتها، حتى بدأ العراقيون، من مختلف الجهات يتقاطرون عليها من كل صوب، وشكَّل توافدهم هجرة متواصلة، للاستقرار في بغداد، حتى أن مؤرخها إبن الفقيه يحار في إحصاء عدد الوافدين عليها، يقول[1]: «كثير مما لا نذكره ونحصيه، ولا نعلمه فنستوفيه فيما بين كل بلد وقراه، وكل قرية ونظائرها ممن لا يحصى عددهم، ولا يُعلم كنه عُددهم، إلا خالقهم، مستجيرين بمدينة السلام، فوجدوا محلاً لا تضيق بهم دياره، ولا يمتلي منهم أقطاره، ولا تغلو بكثرتهم أسعاره، ولا يتحاكم في أقواتهم تجّاره، ولا يعجز عن ميرتهم ممتاره (من الميرة)[2]، ولا يحس أهله بالواردين منهم إذا أتوا ولا الصادرين إذا مضوا».

هذا النص يكشف بجلاء تزايد الهجرة إلى بغداد، وتوسع رقعتها الجغرافية، واستقرار أسعارها/ وقتذاك/، وقد أورد ابن الفقيه رقماً تقريبياً إذ لم يكن مبالغاً فيه. أن بغداد استوعبت/ ستة وتسعون ألف ألف إنسان/[3]، ويضيف قائلاً: ثم إذا أضفنا إليهم مثلهم في وقت من الزمان من المستجيرين بهم من أهل البصرة، والأبلَّة، وكور دجلة، وسواد الأهواز، والنهروانات، والزواني وسقي جوخى، وكثير من أودية الفرات، اجتمع من ذلك تقريباً/ ماية واثنان وتسعون ألف ألف إنسان/، وهذا العدد/ في ذلك الأوان/ ليس من اليسير تأمين غذائه ومعاشه، وقد بلغ عدد المنازل، اثني عشر ألف ألف منزل، وزاد عدد الحمّامات على مائتي ألف حمام[4].

---

(1) بغداد ميدنة السلام/ ص93.

(2) هكذا وردت في النص، ولا معنى لها في السياق.

(3) المصدر السابق/ ص99 - 100، وهذا الرقم مبالغ فيه حيث أنه يساوي 96 مليون ربما كان الصحيح 96 ألف. ونحن نعتقد بأن هذه الأرقام جرى عليها زيادة كلمة (ألف) لأن سكان العراق بأكمله لم يلغوا هذا الرقم، ، وكذلك عدد المنازل والحمّامات.

(4) ذات المصدر السابق/ ص91.

وإزاء هذا التوسع العمراني والسكاني لمدينة بغداد، أصبح من الضروري أن يكون لها ظهير إقليمي زراعي، يمدها بما تحتاج إليه من المنتوجات الزراعية - والزراعة وقتذاك كانت اسلوباً رئيسياً في الانتاج، إلى جانب الصناعات الحرفية، فلقد عُرف أن أرض العراق اعتبرت ملكاً مشتركاً للأمة الإسلامية، ولو أنه وجد في العراق أنواع مختلفة من الملكية، حيث كانت شروط استغلال الأراضي تعتمد عادة على أشخاص أصحابها ومراكزهم، كما أن الأراضي كانت مسجلة في ديوان الخراج المركزي في بغداد، كما كانت مسجلة في الدواوين المحلية، كل أرض في منطقتها[1] وقد تطورت الزراعة فيما بعد، تطوراً ملحوظاً، يستدل عليه من خلال تطور عدد وأنواع المحاصيل الزراعية، ففي نادرة لطيفة يوردها إبن الفقيه يذكر[2] أن مهرويه باغيان السلطان، زَعم أنه يعرف بمدينة السلام نيفاً وسبعين صنفاً من التفاح، ثم عدّها، فتبسم أخوه شهريان، ثم قال: كذا وكذا، زيادة على ما قال أخوه بنحو أربعماية نوع وتسعة أصناف ثم يذكر جملة من الفواكه والخضار كثيرة منها، الأترج والنارنج، والزعفران والأقحوان، والفستق واللوز والزعرور والموز، والشاه بلوط والجوز والغبيراء، والجلوز والسدر، والحبة الخضراء، واللقاح والبندق، والبلوط، والمقل والبستان، والهليون والريباس، والفوة والمحروت، والاشترغاز والراس والأنجذان، والعضل والأسقيل، والداذي والبلسخية، والرزين والتمر والقطن.

وما إن أطل القرن الرابع الهجري برأسه على بغداد، حتى كانت هناك ملامح الاقطاع آخذة في التبلور والوضوح، وآسرة علاقات المجتمع وبنيته الطبقية في سياق نسيجها، ومن ثم أصبح الاقطاع أسلوباً رئيسياً للانتاج، تحدد على ضوئه البنية الاقتصادية وتطوراتها في حياة المجتمع العباسي، وقد لوحظ في ذلك القرن خمسة أصناف من الاقطاعات هي: 1 - الضياع السلطانية، 2 - الاقطاعات، 3 - أراضي الملك، 4 - أراضي الوقف، 5 - الأراضي المشاعة[3].

وفي الجانب الاقتصادي الثاني، والذي يعتمد عليه الاقتصاد العباسي إلى جانب

---

(1) القلقشندي/ صبح الأعشى في كتابه الأنشا - 14/ 124، طبعة القاهرة 1919 - 1922م - راجع كذلك د. عبد العزيز الدوري/ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري/ ص25 - مطبعة المعارف - بغداد 1367هـ/ 1948م.

(2) بغداد مدينة السلام/ ص70.

(3) راجع تفصيلات ذلك عند د. عبد العزيز الدوري/ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري/ ص25 وما بعدها.

الزراعة، وهو الاقتصاد المدني، فقد شهد هو الآخر تطوراً ملحوظاً، حيث توسعت التجارة، ونمت الحياة المدنية، وازدهرت المؤسسات المصرفية[1] الأمر الذي رفع مستوى المعيشة في المدن، بينما برز التباين الاجتماعي واضحاً من خلال مداخيل الأفراد، فقد ذكر مسكويه أن واردات بيت المال الخاصة (بالخليفة) للفترة من (269هـ - 320هـ) أي أكثر من ربع قرن كان (89,830,000 ديناراً)، صرف منها 17 مليوناً لأغراض رسمية، بينما صرف الباقي على نفقات البلاط، والتي بلغت (2,880,000 ديناراً) سنوياً، أي (240,000 دينار) شهرياً، كما ذكر مقادير رواتب موظفي الدولة في مختلف الشؤون[2].

كانت التجارة قد نشطت في (ق 3هـ) نتيجة قوة الدولة العباسية من جهة، ومن جهة ثانية كان الموقف التشريعي الإسلامي، لا يتعارض كثيراً مع التجارة والتجار، وتشير المصادر إلى أنه في نهاية (ق 3هـ) أخذت مجموعة ولو قليلة من الأبحاث الفقهية تعلن تبني الفقه للأوضاع الاقتصادية الجديدة، والتي سمحت بالتعامل بقوانين الشريعة، فوضع محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ) كتاباً في المكاسب، وفيه اعتبر التجارة أحد النشاطات الاقتصادية المباحة. كما وضع كتاباً في «المخارج والحيل» الذي اعتبر دليلاً للتجار العراقيين، يساعدهم على تفهم أرحب لنظرة الإسلام إلى البيوع. كما عالج الشيباني العلاقات التجارية بين دار الإسلام ودار الحرب في كتابه (السير). وأخرج الفقه الجعفري التجارة من دائرة المحرمات، ورأى أحد المتصوفين أن على التاجر تعلم البيع والشراء والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس في البيوع، ومعرفة أبواب الربا، ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه[3].

كل هذه التطورات الاقتصادية والتشريعية، انعكست بشكل إيجابي على حياة الناس، وأحوالهم المعاشية، حتى غدت مسألة «المعاش» رخيصة جداً بالقياس إلى ما بعد تفكك الدولة العباسية وسقوطها إبان الغزو المغولي لبغداد سنة 656هـ.

يحكي صاحب «مصارع العشاق» أن فتى هوى جارية، ودفع كل ما يملكه وهو سبعماية دينار، لعله يحصل عليها، فلم يفلح ومات كمداً ووجداً[4] ويورد خبراً آخر يوضح

---

(1) يورد الدوري - جداول للأسعار ولمختلف الحاجيات والبضائع والمواد الزراعية وارتفاع المهور وغيرها - راجع ص239 - 244 من المرجع السابق.

(2) المرجع السابق/ ص249 - 266.

(3) راجع فصل التجارة في العامة في بغداد/ ص120 - 130.

(4) الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج/ مصارع العشاق/ ص5، ط1، مطبعة الجوائب - القسطنطينية 1301هـ.

الأبعاد الاقتصادية المتناقضة بين شخص وآخر، لكنها ترجح نسبة الرخاء كثيراً، يقول[1]:

«عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثني إبراهيم بن ميمون قال: حججت في أيام الرشيد، فبينا أنا بمكة أجول في سككها، فإذا أنا بسوداء قائمة ساهية، فأنكرت حالها، ووقفت أنظر إليها، فمكثت كذلك ساعة ثم قالت:

أعمرو لماذا تجنبتني أخذت فؤادي فعذبتني
فلو كنت يا عمرو خبرتني أخذت حذاري فما نلتني

قال فدنوت منها وقلت: يا هذه من عمرو؟ فارتاعت من قولي وقالت: زوجي، ثم شرحت له ما كان بينهما من ود ومحبة، وأنه تركها ومضى إلى جدة لضيق حالٍ ألمّ به، فقال إبراهيم بن ميمون: أتحبين أن أجمع بينكما؟ قالت: فكيف لي بذلك؟ وظنّتني أهزأ بها، قال: فركبت راحلتي وتوجهت إلى جده، ووقفت في المرفى أتبصر من يعمل في السفن وأصوت: يا عمرو، يا عمرو، فإذا أنا به خارج من سفينته، وعلى عنقه (صُن) فعرفته بالصفة فقلت: «أعمرو علام تجنبتني» فقال: هيّه، هيّه، رأيتها وسمعته منها، ثم أطرق هنيهة، ثم اندفع يغنيه، فأخذته منه وقلت له: ألا ترجع. فقال: بأبي أنت وأمي ومن لي بذلك، ذلك والله أحب الأشياء إليّ، ولكن منع منه طلب المعاش، قلت: كم يكفيك كل سنة؟ قال: ثلاثمائة درهم، فأعطيته ثلاثة آلاف درهم وقلت: هذه لعشر سنين ورددته إليها وقلت له: إذا فنيت وقاربت الفناء، قدمت عليّ فسررتك وإلا وجهت إليك وكان ذلك أحب إليّ من حجّي. هذه الحوادث، تؤكد وجود التناقض في مداخيل الأفراد، كما أشرنا، ومن ناحية أخرى توضح البعد الإنساني وسموه أحياناً على البعد المادي «المالي» وكانت الحياة مليئة بمثل هذه المواقف والعِبر، وهي كثيرة. لقد إزدادت مدخولات الناس، بعد التوسع الاقتصادي التجاري، الذي شهدته بغداد، وراحت تلتفت إلى حياتها الخاصة، فبدأوا بالبيوت، وأخذوا يفكرون بتحسين هندسة بنائها وتهويتها لا سيما في أوقات الصيف القائظ، وعرفوا من عهد المنصور طرقاً للتبريد، فقد كان ينصب الخيش الغليظ على قبة، ثم يبلونها بالماء، فتُبرّد الجو، ثم اتخذت بعدها الشرائح، فاتخذها الناس[2].

إنَّ مسألة التطور الاقتصادي، إنعكست بتناقضاتها على التركيبة الطبقية في المجتمع البغدادي، أكثر من غيره، وبرزت بشكل واضح أبهاء الحكم العباسي ومظاهره الرسمية،

(1) المصدر السابق/ ص158 - 159.

(2) لطائف المعارف للثعالبي/ ص20 - طبعة البابي الحلبي - تحقيق إبراهيم الأبياري/ و آدم ميتز الحضارة الإسلامية في ق 4هـ، 2/ 205 طبعة القاهرة، ط3/ 1377هـ/ 1957م.

وصار التمايز الاجتماعي واضح القسمات، على أساس النسب والمال، ففي العصر العباسي الأول كان التفريق بين العربي والنبطي[1] قائماً، كما أن الفرق بين العرب والموالي لم تزل آثاره باقية لدى البعض، لا سيما وأن بعض المذاهب الفقهية، قد ساهمت، بشكل أو بآخر، ببقائه، فقد جاء عند مالك بن أنس، أنه إذا قيل للرجل من العرب «يانبطي» فإنه يُضرب الحد، ولم يجر ذلك الحكم على بقية الأقوام من غير العرب[2]. وأصبح من الظاهر والمألوف، الدخول على الخليفة، وفق ترتيب معين، يدخل فيه الرجال كل حسب مرتبته، وكان التميّز يجري بمستوى المعيشة، وكان التفريق يجري بين من نشأ في قصور الخلافة، وبين من نشأ بين العامة والبدو، كما كان التميّز قائماً في حقل الأخلاق، فالمعيار الأبوة والنعمة والعِرق والكنية[3].

وأدت التطورات الاجتماعية التي نتج عنها قيام طبقة واسعة من العمال والحرفيين والتجار، إلى إختفاء بعض المعايير الاجتماعية القديمة، كما يقول باحث معاصر[4]. ومنذ القرن الثالث الهجري، أصبح الناس يتعارفون بمهَنهم فيقال: الجواليقي، أو الرفاء، أو الكاتب أو الشاهد أو السقطي، وربما تعارفوا بمواطنهم فكان يقال: البغدادي، والبصري، والموصلي والكوفي والبخاري والسمرقندي[5].

إنَّ إكتمال بناء سلطة الدولة ومؤسساتها، وبروز التمايزات الاجتماعية في بنية المجتمع، أمر له دلالات تاريخية، تؤشر إلى رقي وتطور حضاري، ونهوض صاعد، سوف يسم كل مظاهر الحياة بميسمه، ويُدلل على وجود تناحر اجتماعي، سيفضي بالنتيجة إلى تطور مُطرد، من شأنه أن يحثّ على إنهاض فكري عام.

لقد أصبحت الحياة في ظل الخلافة العباسية، لا سيما في القرن الرابع الهجري، تُشير إلى تأطير واضح في البنية الطبقية للمجتمع، يُحكم بعلاقات (السيد والمسيود) وقد كان للصفوة المثقفة.

من الأدباء والمفكرين، والذين أسسوا إلى وجود ظاهرة ثقافية متميزة، كان للوراقين

---

(1) راجع خبر العباس بن الأحنف وفوز في الأغاني 17/ 69 وما بعدها، طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1389هـ/ 1970م.

(2) أنظر - المدونة الكبرى - 4/ 393 باب «فيمن نسب رجلاً من العرب أو من الموالي إلى غير قومه» الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية سنة 1324هـ.

(3) القاضي التنوخي/نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، 2/ 228 - تحقيق عبود الشالجي 1391هـ/ 1971م. وانظر كذلك فهمي عبد الرزاق أسعد/ العامة في بغداد/ ص57.

(4) فهمي عبد الرزاق سعد/ المصدر السابق - نفس المكان.

(5) راجع ذلك في تاريخ بغداد/ للخطيب البغدادي - فقد ترجم للعديد من الشخصيات وذكرها بألقابها.

دور هام في إبرازها للسطح، من خلال التعامل الثقا - مهني، فيما بين هذه الفئة، وقد استطاع هؤلاء المثقفون وضع اليد على التناحر الاجتماعي القائم، وذكروه في مؤلفاتهم الغنية، الأمر الذي يشير إلى دور هؤلاء في النهضة الثقافية والاجتماعية على حد سواء.

ولقد قسم أبو سليمان السجستاني/رأس مناطقة بغداد/ فئات المجتمع، على أساس أخلاقي منطلقاً من سلوكهم في المجتمع، وعلى أساس التعامل البشري، ضمن مفهوم الصراحة الإنسانية، يقول[1]: فأما الملوك فقد جلّوا عن الصداقة... وأما التنّاء وأصحاب الضياع، فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير، وأما التُجار، فكسب الدوانيق سدَّ بينهم وبين كل مروءة وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة، وأما أصحاب الدين والورع، فعلى قلتهم، فربما خلصت لهم الصداقة، لبنائهم إياها على التقوى... وأما الكتّاب وأهل العلم، فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد، والتماري والتماحك، فربما صحّت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل. يضاف إلى هؤلاء مختلف العمال والكسبة والصنّاع في مختلف المهن، حتى صارت لهم أصناف «نقابات» تنظم شؤونهم، وصار لديهم (حس طبقي) إن جازت التسمية، وأدى هذا الشعور إلى تكتل الأصناف المنظم، وحيث شعروا بدورهم ومقدرتهم.

ثمة حادثة هامة، في هذا السياق يوردها الصولي، يقول[2]: «طالب الديلم التجار بأموال فصار إليهم رجل يُعرف بـ (عبدون) كان هذا متضمناً لأمر الزواريق المصعدة والمنحدرة من مدينة السلام والبصرة، ففتح على الناس أبواباً من البلاء عظاماً، فلحقه قوم من غلمان التمارين وغيرهم في شُميرية، فقتلوه وأخذوا رأسه، فنصبوه في التمارين، فاضطرب الديلم لذلك، وحملوا السلاح وقصدوا التمارين ليحرقوه «يقصد سوق التمارين» ويتعدوا ذلك إلى ما يليهم من أسواق الكرخ، فمنعهم كورتكين/ أحد الديالم، من قواد المتقي بالله/ وضبط الديلم ووجه إلى التمارين أن لا يعاودوا مثل هذا الفعل». وهذه الحادثة جعلت من بقية الأصناف، أن يتخذوا منها عبرة في التراص الطبقي والمهني، كل في مهنته، فلقد حذا الملاحون حذو التمارين في مسألة التضامن فقاوموا طغيان الجند من الديلم في بغداد)[3]، وامتنع الحلاقون عن الحلاقة حتى طالت شعور الناس، ولم يعودوا إلى عملهم إلا بعد أن اعتذر الناس إليهم، وفي سنة 389هـ قاد عمال النسيج حملة تعبئة داخل أفراد صنعتهم ضد الرسوم والضرائب التي أراد صمصام الدولة البويهي أن يفرضها على الثياب

---

(1) أبو حيان التوحيدي/ رسالة في الصداقة والصديق/ ص5 - 6، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني دار الفكر بدمشق 1964م.

(2) الأوراق - أخبار الراضي والمتقي/ ص206 - بعناية ج. هيورث. مطبعة الصاوي بمصر.

(3) المصدر السابق/ ص207.

المنسوجة من الإبريسم والقطن، ونتج عن ذلك اضطرابات واسعة داخل بغداد، اضطر على أثرها صمصام الدولة أن يعدم أربعة من القامة - قادة العمال - كي يهدئ موجة الاضطرابات تلك[1].

أن الشعور الطبقي لدى العمال والصنّاع في مختلف المهن، أخذ يتنامى بصورة واضحة عند مختلف المهن والصناعات، حتى غدا التماسك من مميزات أهل الأسواق، فكان القصابون يتعاطفون مع من تكسد بضاعته، فيخلّون له السوق أو يعملون لحسابه حتى يعتدل وضعه، وقد إنتبه الجاحظ إلى هذه الميزة، وراح يقارنها مع أخلاق الكتّاب، الذين ينتمي إليهم، فينهاهم عن التحاسد ويطلب منهم - أي من الكتّاب أن يحتذوا بهؤلاء القصابين قائلاً[2]: وأنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه، فيتلف ما في يديه، فيخلي له القصابون سوقهم يوماً، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بربحها منفرداً، فيسدون بذلك خلّته، ويجبرون منه كسره)، هذا التضامن والتكافل الاجتماعي، عند أهل الأسواق جعلهم يتقاربون من بعضهم أكثر فأكثر، حتى غدت الحميمية عند أهل السوق الواحد، تظهر فيهم، وقد اشتعلت عدة حوادث في سنة 422هـ، كانت الأسواق مسرحاً لعملياتها، فتضامن أهل كل السوق في القتال، وقد كان للصراع المذهبي/ شيعي - سُني/ أثرهُ في هذه الأحداث، فقد شارك القلاؤون وأهل الكرخ وأهل سوق السلاح وأهل سوق الثلاثاء والأساكفة والرهادرة (صغار الباعة) في إقتتال الأسواق، وفي العام نفسه اقتتل الخلقان وأصحاب الأكيسة في الكرخ في منافسة تجارية، وفي سنة 423هـ قاد أهل الكرخ حملة ضد العيارين الذين سلبوا جزاراً، فاضطر هؤلاء لأن يعيدوا بعض ما أخذوا[3].

هذا الاتجاه الواعي المتنامي في مجتمع بغداد العباسي، وقد خلق حالة من التأزم السياسي بين الناس والسلطة العباسية وأثار سلسلة من الاضطرابات داخل بغداد، كان الجند أبطالها في بعض الفترات، ففي سنة 303هـ، تحرك الجند مطالبين بزيادة رواتبهم، وفي سنة 306هـ طالبوا بأرزاقهم التي لم يقبضوها لثلاثة أشهر، فأقيل الوزير ابن الفرات وأوكلت الوزارة إلى شخصية ضعيفة هو «حامد بن العباس» والذي استعان بدوره بعلي بن عيسى ليقوم بأعمال الإدارة بدلاً عنه، وفي نهاية عام 308هـ شبّت في بغداد انتفاضة عارمة

---

(1) فهمي عبد الرزاق سعد/ العامة في بغداد/ ص176.

(2) رسائل الجاحظ 2/ 200 - 201 - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة 1384هـ/ 1965م.

(3) ابن الجوزي/ المنتظم 8/ 54 - 62 - الطبعة الأولى - حيدر آباد سنة 1359هـ. وكذلك راجع - العامة في بغداد/ ص176.

كان الغلاء سببها المباشر، وقد أشار مسكويه[1] للأسباب الداخلية، مؤكداً إلى أن حامد بن العباس قد ساءه تفرّد على ابن عيسى بتدبير الوزارة، فعزم على أن يوفر له سلطة لدى الخليفة ويبعد علي بن عيسى. فتضمن حامد أعمال الخراج بالسواد والأهواز وأصبهان ودفع أربعمائة ألف دينار زيادة عن متوسط خراجها فما كان من المقتدر، إلا القبول بهذا العرض، رغم تحذير علي بن عيسى، بأن هذا الضمان سيؤدي إلى زعزعة الأوضاع الاقتصادية. ولم تمض أشهر حتى انفجرت العامة والخاصة بسبب الغلاء، وشغبوا شغباً متصلاً، أشرف به النظام على الزوال، وبغداد على الخراب وقد وصف حمزة الأصفهاني[2] خطورة هذه الاضطرابات بأنها أزالت عن الجند والرعية هيبتهم، وأنها كانت فاتحة لسلسلة من الاضطرابات امتدت نحو ربع قرن، بدأت هذه الحركة باجتماع العامة وتظلمهم من زيادة الأسعار، وضجوا في وجه علي بن عيسى، ثم توجهوا إلى دكاكين الدقاقين ببغداد، فنهبوها، وانتقلوا إلى باب الخليفة وعلت صيحاتهم بالاحتجاج، ويشير مسكويه[3] إلى أن ثورة العامة بدأت بخطباء الجمعة، وقطعهم الصلاة، واستلابهم الثياب ورجمهم ممثلي السلطة بالآجر، واجتماع الكثير منهم في المسجد الجامع بدار الخليفة، حتى أنهم وثبوا بالحاجب ورموه بالآجر، ثم ساروا إلى دار حامد، الذي أمر غلمانه برمي العامة بالنشّاب، فقتلوا جماعة منهم، كما أن حامد أرسل جماعة من رجاله فدخلوا المسجد الجامع الغربي على دوابهم وقتلوا جماعة من العامة، فخرج أنصارهم يطوفون بالأسواق، يحملون قتلاهم ويندّدون بالسلطة، وفي اليوم التالي، اجتمع عدد كبير من العامة فأحرقوا وفتحوا السجون، ونهبوا دار صاحب الشرطة ودور غيره، الأمر الذي اضطر معه المقتدر لإنزال قوة من الجند لوقف شغب العامة، لكن الجند شاركوا العامة الثورة، وضج الرجالة المصافية في دار الخلافة ضيقاً بالغلاء، ولم تهدأ ثورة العامة والجند إلا بعد أن أمر المقتدر بفتح الدكاكين والمخازن التي لحامد وللسيدة شغب والأمراء أولاد الخليفة والوجوه من أهل الدولة، بعد أن لاقت فيها بغداد الخراب والدمار طوال أربعة أشهر/ نهاية ذي القعدة - نهاية ربيع الأول/[4].

لقد أصبحت العلاقة بين السلطة العباسية والعامة في بغداد، مشوبة بالحذر

---

(1) تجارب الأمم 1/ 59 - 60 و69 - 73 بعناية آمدروز - مطبعة التمدن - القاهرة 1914 - 1915 - جزءان وملحقان لهما/ ص176 وانظر العامة في بغداد/ ص305.

(2) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء/ ص152 - 153 - منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1961م.

(3) مسكويه/ تجارب الأمم/ 1/ 73 - 74.

(4) هناك تفاصيل هامة عن هذه الأحداث أوردها الأستاذ فهمي عبد الرزاق سعد في كتابه العامة في بغداد/ ص306 - 323 حرية بالمتابعة والتقصي لمن يريد الاستزادة.

والتوجّس، وبدأت ملامح الخوف تظهر من السلطة، فقد أشار مسكويه[1] إلى أنه ضج العامة في سنة 310هـ، نتيجة إعتداء أحد رجال الشرطة على عروس زُفّت إلى زوجها، فغصبها وأدخلها إلى داره، فقامت قائمة الناس، وتدارك الخليفة الأمر بأن أعفى صاحب الشرطة من مهامه.

وقد أثرت التطورات السياسية، هذا الجانب، فصارت السلطة - بشكل أو بآخر - مسؤولة أمام العامة. عن تصرفات جهازها ورجالاتها، وهو ما نفتقر إليه اليوم، وكأن تلك الأحداث ليست من تاريخنا.

تلك كانت بعض الاطلالات على تطور الحالة الاجتماعية والسياسية لبغداد حتى ق 4هـ، وما رافقها من تطور اقتصادي، عكس ظلاله على حياة الناس والمجتمع، وسوف نعرض في الفصل القادم، التطور الثقافي لبغداد، وما رافق هذه الحالة من تطور فكري واقتصادي وروحي أدى إلى وجود حركة أدبية ثقافية وسَمَت العصر العباسي بسماتها.

الفصل الثالث

وصف بغداد

لعب المكان دوراً هاماً في قيام بغداد، تاريخاً وحضارة، فلقد كان لحُسن اختيار المنصور أثرهُ البالغ في نهضتها الثقافية والحضارية والروحية، فلقد كانت بغداد، مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة، وكانت لستين شخصاً فعوضهم المنصور عوضاً أرضاهم[2]، وعندما قرَّ رأيه على المكان، شاور أصحابه فيها فقالوا له تجيئك الميرة في السفن من الصين، والهند والبصرة وواسط في دجلة، ومن أرمينيا وما اتصل بها في تامرا حتى تصل الزاب ومن الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك، إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخرجت القناطر، لم يصل إليك عدوك وأنت من دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق أو المغرب إلا احتاج إلى العبور، فدجلة والفرات خنادق لأمير المؤمنين[3].

---

(1) تجارب الأمم 1/ 121 - 122.

(2) ابن الجوزي - مناقب بغداد/ ص7 - تحقيق محمد بهجت الأثري - إصدار مطبعة دار السلام - بغداد 1342هـ.

(3) المصدر السابق/ ص8.

هذه الآراء من لدن أصحاب المنصور، تعبر عن رؤية راجحة، تُضمر في طياتها أبعاداً اقتصادية وعسكرية واجتماعية، وتكشف عن توسط المدينة العراق، والوصف يظهر إحتضان دجلة والفرات لها، وهذه المسألة تفرض بعداً جمالياً طبيعياً على المدينة من خلال الموقع، قد أدركه المنصور ذاته، وبغية أن يتحسّس طبيعة المكان بجماليتها، أمر أن ينظر إلى المخطط على الطبيعة، قبل الإنشاء، فخُطت بالرماد وأقبل يدخل من كل باب ويمرُّ في فصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، فأمر أن يُحفر الأساس على ذلك الرسم[1] فأنشأت المدينة في سنة 145هـ على شكل «مدينة مدورة» على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الفرات ومجرى دجلة شمالاً وسمّاها مدينة السلام[2].

خضع إنشاء المنصور لبغداد على شكل «مدورة» لبعدين مهمين، الأول أمني - إداري، والثاني جمالي - حضاري، فمن الناحية الأولى يذكر الخطيب البغدادي، خبراً أورده على لسان وكيع يقول[3] إنَّ أبا جعفر بنى المدينة مدورة، لأن المدورة لها معان سوى المربعة، وذلك أن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، والمدور من حيث كل قسم كان مستوياً لا يزيد هذا على هذا، ولا هذا على هذا، وبنى لها أربعة أبواب، وعمل عليها الخنادق، وعمل لها سورين وفصيلين، بين كل بابين فصيلان، والسور الداخل أطول من الخارج، وأمر - المنصور - أن لا يسكن تحت السور الطويل الداخل أحد ولا يُبنى منزلاً، وأمر أن يُبنى في الفصل الثاني مع السور المنازل، لأنه أحصن للسور، ثم بنى القصر والمسجد الجامع.

وهذا الإجراء، هو أمني صرف، وهي حالة كانت سائدة في تلك العصور عند بناء المدن والقلاع والحصون.

أما البعد الثاني لبنائها مدورة، فيتجلى في ملامحها الجمالية والحضارية، حيث أن الطريقة التي سُلكت في تخطيط هذه المدينة ومقارنة لها مع مدن العراق الأخرى، الأقرب إليها كالكوفة والبصرة وواسط وغيرها من المدن الإسلامية، فالفكرة التي أوحى بها المنصور إلى المهندسين لبناء المدينة تبين أن هناك تجاوباً وتمازجاً بين المُوحي والموحى

(1) المصدر نفسه.

(2) انظر - د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة/ دليل خارطة بغداد/ ص23 - مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد 1378هـ/ 1958م. والمحمول الديني واضح في التسمية - دار السلام - انظر الآية 127 من سورة الأنعام.

(3) تاريخ بغداد/ ص72 - 73.

إليه، فقد نقل أنه[1] بعدما رست المدينة على الأرض بالرماد، وضعت فوق تلك الخطوط كرات من القطن، ثم صُبَّ عليها النفط وأشعلت فيها النيران، بغية إبراز شكلها بصورة واضحة أمام المنصور.

وما أن استوطنت المدينة بالناس، حتى بدأت أعمال التشجير والتزيين[2] وحفر الترع والأنهار يمتد إلى داخلها وخارجها، فقد كان يسقي مزارع بغداد الغربية وبساتينها ما يزيد على ثمانية أنهار بين كبير وصغير، غير القنوات التي كانت تجري تحت الأرض في محلة الحربية، أضف إلى ذلك ثمانية أنهار أخرى تسقي مزارع الجانب الشرقي من المدينة[3]، حيث أن الجو في بغداد، شديد الحرارة لجأ البغداديون إلى زرع بغداد وإحاطتها بالأشجار والبساتين لتلطيف جوها، يضاف إلى ذلك، أنهم أخذوا يستعملون جرار الفخار الكبيرة، والمسماة بـ (الكيزان) لتبريد الماء، وقد يضيفون إليه الثلج، وهي ظاهرة مألوفة لا تزال حتى اليوم، وقد قال أبو إسحاق الصابي، يذكر هذه الكيزان والثلج، وهو بالبصرة، وقد حن إلى بغداد[4]:

لهف نفسي على المقام ببغدا ... دَ وشربي من ماء كوز بثلج

وقد عرفت بغداد الديارات والتي كانت من المواضع التي لا تفارقها الخضرة، تحفّها البساتين والحدائق، ومن أشهر الديارات في بغداد الغربية. (دير أشموني) بقطربل، ودير مديان على نهر كرخايا، وفي بغداد الشرقية (دير سمالو) بباب الشماسية على نهر المهدي ودير درمالس ودير الثعالب وغيرها[5]. كما أن الفواكه والغلات الزراعية كانت قد انتشرت زراعتها في بغداد، وعلى جانبيها، وقد ذكر ياقوت الحموي أصنافاً منها، مثل - فواكه منطقة العباسية حيث عُرف بها الباقلي العباسي، واشتهرت منطقة الزندورد في بغداد الشرقية بجودة أعنابها والفواكه والأترج، والأعناب في هذه المنطقة من أجود ما يُحصر ببغداد[6]،

---

(1) د. محمد عبد العزيز مرزوق/ العراق مهد الفن الإسلامي/ ص17 - منشورات وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1971م ولاحظ مخطط المدينة - نموذج رقم (1).

(2) للاستزادة والتفصيل في هذا الجانب، نحيل القارىء إلى الفصل الثالث - من كتاب/ دليل خارطة بغداد/ ففيه معلومات وافية جداً.

(3) انظر - د. مزهر السوداني/ جحفلة البرمكي/ ص10 طبعة النجف - العراق - ط1، 1977م.

(4) الثعالبي - يتيمة الدهر 2/ 244 - الطبعة الأولى - مصر/ 1352هـ/ 1934م.

(5) انظر - الشابشتي - الديارات/ ص3، وص9 وص16 وص18 وص 21 وص30، وغيره/ تحقيق كوركيس عواد - مطبعة المعارف بغداد 1951م.

(6) معجم البلدان 4/ 75 و3/ 154 - منشورات دار صادر - بيروت - 1376هـ/ 1957م وكذلك مزهر السوداني/ جحفلة البرمكي/ ص16.

فهذه المزايا الطبيعية لبغداد، تجعل منها بهجة للنفوس، ومرأىً للرائي، وبستاناً يستراح به، وأداة لتحفيز وتنشيط الذاكرة وتنشيط المخيلة، وتحريك سواكن النفس، وقد كان للمكان أثره في أذهان الناس، من مختلف الأجناس والطبقات والمشارب، حتى غدت حديث السمر للمسافر، وديباجة الأدب للأديب، وقافية الشعر للشاعر، واستهلال الكلام للمترسل، وعنوان البلاغة للبليغ، وصفها الجاحظ قائلاً[1]: «قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالاتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرها من البلدان، فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلاً، ولا أوسع أبواباً، ولا أجود فصيلاً من الزوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنما صُبَّت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً، والدليل على أن اسمها الزوراء، قول سلم الخاسر[2]:

أيـن رَبُّ الـزوراء إذ قـلَّـدتـه الـ مُـلـكَ عـشـريـن حـجـة واثـنـتـان

مدينة جديدة، وأماكن تسر النفس، وخيرات متوفرة. وطبيعة غنّاء، وثقافات مختلفة، وشخصية للدولة قريبة، كل هذه الأمور تفاعلت في بنية المجتمع البغدادي، وأثرت فيه، فرفعت وعيه، وشذبت أخلاقه، من القمة إلى القاع، وظلت الملامح المدنية الجديدة ترتفع بوتيرتها، حتى غدت بعض السمات الاجتماعية تحدد ملامح هذه البيئة البغدادية، وهو ما عُرف - فيما بعد - بـ (الظرف البغدادي) وانتقل صداه إلى بقية الأمصار الإسلامية، وتحدث به الركبان، وهناك وصف دقيق للأخلاق البغدادية أورده ظهير الدين الكازروني في إحدى مقاماته يقول فيها[3]:

«كنت أسمع من جُواب الأقطار، وطرّاق البلاد والأمصار، أن دار السلام هي كعبة الإسلام، وحرم الإمام ومعدن الكرام، ودار الخلافة، ومحل الأمن من المخافة، وبها مقر الملك وسريره، وإمام العصر وأميره، خليفة الله وابن عم نبيه الأواه. تذعن الملوك بالطاعة لسلطانها وتتداكك[4] على أبوابه لتقبيل أركانها، والعدل بها محدود الرواق، والعلم مديد الأطناب في الآفاق والدين منشور اللواء، والإسلام محروس الجناب بالخلفاء، وقُطّانها

---

(1) تاريخ بغداد 1/ 77.

(2) انظر ترجمته في الأغاني 19/ 260 - 287 - بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الكتب المصرية 1391هـ م 1973م.

(3) مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية - تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد/ نشرت في مجلة المورد/ عدد خاص عن بغداد/ المجلد الثامن/ العدد الرابع - 1400هـ/ 1979م. الصفحات من 421 - 440.

(4) يقال: تداك عليه القوم، أي ازدحموا/ هكذا أوردها المحققان في «المورد» ص/ 437 ولم أجدها في (اللسان - مادة دكك).

أعذب الناس أخلاقاً، وأكثرهم حياء وإطراقاً، وأثقب العالم بصيرة، وأعدلهم سيرة، وأصفاهم سريرة، وأدمثهم للصديق، وأحناهم على الصاحب والرفيق، وزاهدهم العلم المشهور، والقدوة المشار إليه في الأمور، وعوامها السوقة، تغتنم مفاكهتهم وتروق مجالستهم، أخلاقهم عذبة للصاحب، وخواطرهم من أعجب العجائب، يسبق إدراكهم البرق اللامع، ويُدهش ذكاؤهم الرائي والسامع، قد اعتدل هواؤها، وطاب فناؤها، وعذب ماؤها، ورقت أسحارها ووفت أشجارها، فهم في خفض من العيش يتقلبون، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[1].

وعن هذه الأخلاق يتحدث ذا النون المصري[2] وهو في مصر يقول[3]:

«من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد، قيل له: وكيف ذاك؟ فقال لما حملت إلى بغداد ورُمي بي على باب السلطان مقيداً، مر بي رجل متّزر بمنديل مصري، مُعتم بمنديل ديبقي، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط، فسألت: هذا ساقي السلطان؟ فقيل لي: لا، هذا ساقي العامة، فأومأت إليه: إسقني. فتقدم وسقاني، فشممت من الكوز رائحة مسك، فقلت لمن معي: إدفع إليه ديناراً. فأعطاه الدينار، فأبى وقال: ليس آخذ شيئاً. فقلت له: ولِمَ؟ فقال: أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً، فقلت: كمل الظرف في هذا».

فالملاحظ، أن هناك تخلُّق عام، دابت عليه بغداد، وصار ملازماً لأبنائها، به يتفاخرون، وعليه يهتدون، نكأن الخروج عنه، هو إخلال بظرفهم، وقد أوضح لنا السقا الذي سقى ذا النون المصري تلك السجايا المتواترة عند عامة بغداد.

وهذا التخلق، تضافرت فيه عدة عوامل، تطرقنا إلى أغلبها في سياق الحديث، وقد توقف عندها غالبية المؤرخين، الذين تحدثوا عن أخلاق أهل بغداد وعاداتهم وأثر البيئة والمكان فيها، وقد سلط الضوء في هذه النواحي الخطيب البغدادي، في أكثر من مكان وموقف، مازجاً بين تأثير المكان وتأثير الإنسان المتبادل على الواقع الاجتماعي، يقول[4]:

«قال أبو الحسين: هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردها الله بها... يقصد بغداد - دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة، والسجايا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 126.

(2) هو «ذو النون بن ابراهيم المصري الاخيمي، أحد العلماء المتصوفة المشهورين - راجع ترجمته في/ طبقات الأولياء/ لابن الملقن/ ص218، منشورات الخانجي بالقاهرة، ط1، 1393هـ/ 1973م.

(3) تاريخ بغداد 1/ 50.

(4) المصدر السابق 1/ 50 - 51.

المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كل صنعة، والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء، والمتعلمين، والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعر، ورواة الأخبار، والأنساب وفنون الآداب، وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها، سيما زمن الخريف، ثم إن ضاق مسكن بساكن، وجد خيراً منه، وإن لاح له مكان أحبّ إليه من مكانه، لم يتعذر عليه النقلة إليه، من أي جانب من جانبيه أراده، ومن أي طرف من أطرافه خفَّ عليه، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بُعد».

وقد افرزت بغداد وبيئتها أعلاماً في الأخلاق والأدب، والفلسفة والعلم، والطب والرياضيات، والفقه وعلوم الدين، أكثر من غيرها، ليس للعرب وحدهم، بل لكل الأقوام الذين عاشوا بها، وتربوا على آدابها، وتتلمذوا في مدارسها، وتخلقوا بأخلاقها، فزهت بهم، وزهوا بها، وراحوا يذكرونها في أشعارهم وآدابهم وفنونهم، فحفظت لهم مدوناتها ما قالوه فيها، وحفظته لهم من نسيان الدهور.

ثمة مسألة هامة رافقت بناء بغداد، وظلت تلازمها حتى اليوم هي: الملامح الاجتماعية، ذات الصبغة الشعبية، فقد رافقتها منذ تجمع الناس للعمل في أساسات مدينة المنصور، وظل هذا التمازج ينمو ويتطور ويتأصل، شيئاً فشيئاً، حتى طبع المدينة بطابعه، وصارت الحميمية الاجتماعية، للمحلة أو الدرب، أو السوق، تدلل على خصوصية معينة لتلك البيئة وتشير إلى أهلها، وقد أورد أبو المطهر الأزدي كثيراً من هذه الطبائع عند أهل بغداد وضواحيها، وملابسهم وثيابهم وبيوتهم، مع فارق التميزات بين مكان وآخر[1] وقد استطاعت معالم المدينة أن تبقى راسخة في أذهان من دخلوها أو وصفوها، تستنطقهم محالها، وتذكرهم جسورها وأسواقها، وتثيرهم أبنيتها وأنهارها، ويتفاخر صاحب «حكاية أبي القاسم البغدادي» بجانبيها على أهل أصفهان، فيقول عن الرصافة[2]: «هل في أصبهان ما يُشبه إن شيتَ من شرقي بغداد - الرصافة - باب الطاق، سوق يحيى، شارع البردان، درب الريحان، درجة يعقوب، طرف الجسرين بين القصرين الزاهر، الشماسية، مربعة الحرسي، سوق الثلاثاء، باب الأذج، الورادين، المأمونية، دار الخليفة».

ثم يعكف على مقارنة أصفهان بالجانب الغربي/الكرخ/يقول: «وإن شيتَ من

(1) راجع «حكاية أبي القاسم البغدادي» ص35 - 48.
(2) راجع «حكاية أبي القاسم البغدادي» ص22 - 23.

غربيها، النُجمي، الرقة، نهر عيسى، نهر طابق، سوق العروس، صف التوزي، درب عون، صينية الكرخ التي تُسمى سوق النحاسين[1]، طاق اللعب الشرقية، سوق الرقائين، سوق الحلائين، قطيعة الربيع، القطيعة المكشوفة، سويقة غالب» وغيرها. وهذه المناطق يكتسب أغلبها صفة شعبية، حتى أن أسماءها باتت معروفة بنمط معين من السلوك الاجتماعي والمهني، يعرفه أهل المناطق الأخرى، من البغداديين وغيرهم.

لقد كانت بغداد، حاضرة في أذهان الناس، منذ نشأتها الأولى، حيث عمَّ الرخاء، وتنشطت الحياة الاقتصادية، يقول داود بن صقر البخاري[2]: رأيت في زمن أبي جعفر المنصور كبشاً بدرهم، وحملاً بأربعة دوانيق[3]، والتمر ستون رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، والرجل يعمل بالروزجار في السور، كل يوم بخمس حبات. وقال الحسن بن سلام: كان ينادي على لحم البقر في جبانة كنده تسعون رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم.

هذه هي صورة مصغرة عن الحياة الاقتصادية اليومية لأهل بغداد، بصورة خاصة، ولأهل العراق، بصورة عامة، ولربما كانت أرخص. وهذه الحالة، تبيّن مدى ازدهار حياة الناس اقتصادياً وركونهم إلى الدعة والراحة، الأمر الذي يحبب لهم بغداد، والتوطين بها، وتفضيلها على غيرها من الأمصار، لذلك ذاع صيتها، وتغنى أبناؤها بها، وذكروها بحلّهم وترحالهم، وانطبعت محالها وأزقتها وحاراتها وأسواقها، في أذهانهم، وصارت مصدر تفنٍ في سفر، وحديث سمار في السهر، وانعكس هذا الأمر على روادها وزوارها، والضاعنين منها، والوافدين عليها، قال أبو الوفاء بن عقيل - أحد قاطنيها[4]: سألني صدر من صدور طريق خراسان عن بغداد وما أدركت بها فقلت: لا أذكر لك أمراً تكاد تستبعده، فأذكر لك محلتي وهي واحدة من عشر محال، كل محلة كبلد من بلاد الشام، وهي المعروفة بـ (باب الطاق) أما شوارعها فشارع ما يلي دجلة، من أحد جانبيه قصور على دجلة، طراز ممتد من عند الجسر إلى أوائل «الزاهر» وهو بستان للملك، نحو مائتي جريب، وجانبه الآخر مساجد أرباب القصور ومساكن غلمانهم، وفي خلال ذلك اصطبلاتهم، ثم يليه من يمنته عند الجسر سوق يحيي، الجامعة بين دور الوزراء والأمراء

---

(1) يعرف الان بـ (سوق الصفافير) ولا زال قائماً في الكرخ.

(2) مناقب بغداد - لابن الجوزي/ ص25 - نشرة محمد بهجت الأثري - منشورات مطبعة دار السلام - بغداد 1342هـ.

(3) الدانق هو سدس الدرهم.

(4) مناقب بغداد/ ص25.

مما يلي الشط، وفي الجانب الغربي لسوق يحيى... الدكاكين العالية والدروب العامرة، من دقاقين وحلاويين، ثم نهاية الدور الشاطئية، دار معز الدولة ذات المسناة، التي عرضها مائة آجرة، وكان لها الروشن البديع، فهذا طراز باب الطاق الشاطىء، فأما دواخلها، فأوائلها العَرَصَة التي هي رحبة الجسر والتي تنقسم إلى شارعين عظيمين، أحدهما للأساكفة، ثم سوق الطير، وهو سوق يجمع الرياحين، وفي حواشيها الصيارف الظرّاف، وأصحاب الطيالس، وفاخر الملابس، ثم سوق المأكول والخبازين والقصابين، وسوق الصاغة، لم يُشاهد أحسن منه بناء شاهق، وأساطين ساج، عليها غرف مشرفة، ثم الورّاقين سوق كبيرة، وهي مجالس العلماء والشعراء، ثم سوق الرصافة، عظيمة جامعة ثم شارع الترب وقصر المهدي وجامع الرصافة، ودرب الروم، وشارع عبد الصمد، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الأجراس الكثيرة) كان هذا الوصف لبغداد الرصافة، أما الجانب الغربي من بغداد، فهو محلة الكرخ، ذلك القسم الهام، والرئيسي والأكبر من بغداد، يقول عنه المتحدث أبو الوفاء[1]: «من الجانب الغربي الكرخ وشاطئه قصور منتظمة ذوات دواليب وبساتين ورواشن متقابلة، وبين يدي ذلك دار خيطيه مشذّبة لرب الدار، مسرجة بالحلية المليحة والرجاشات[2] العجيبة»، ويتوقف ابن الجوزي ملياً مع المتحدث، ليذكر تفاصيل دقيقة عن شواطىء دجلة - في جانب الكرخ، وكأنه يتعشقه، أو عاش فيه أكثرية حياته، فانعكاس المكان، بكل تفاصيله حاضر في الذهن والنص، يقول[3]: «البط يتلاعب في مشرعة الدار الشاطئية، ولربما اختلطت أصوات أغانيها برنيم دواليبها، ونقيق بطّها، وضجة غلمانها وخدمها، ودجلة تنسل بين شاطىء قصورها الشاطئية، ولقد نزلت كثيراً في سُميرية[4] منحدراً فما أزال أسمع هذه الأنغام من شرعة الجسر بباب الطاق إلى باب المراتب، وكان لدور الشط أبواب إلى شوارعها، وعلى كل باب مراكب مندرجة، مهيأة لركوب الظهر، كما بين أيدي رواشنها خيطية أو زيزب[5] لركوب الشط، والناس كأنهم في دعوة، لا تخلو من ختان صبي، أو زفاف امرأة، وفي البيوت مجالس القرّاء على الكراسي بالألحان، وحلق العلاج والصراع، ومسابقة السفن، ومن أحسن القصور كانت د ار الفخرية بالغربي، ودار المملكة بالشرقي، ولم يكن للدار

(1) أبو الوفاء/راجع مناقب بغداد/ص26.

(2) الرجاشات - ما يثير العجب في النفس من زينة الابنية ونقوشها وبديع محاسنها - انظر الهامش رقم 2، ص62 من المصدر السابق.

(3) المصدر السابق/ص27.

(4) السميرية - ضرب من السفن الصغيرة.

(5) أنواع من السفن الصغيرة.

العزيّة مثل دار بلدرك والحريم الطاهري ودوره الشاطئية، وسوره الدائر، وبابه الحديد، ودار الأمير حسن بن إسحق بن المقتدر، الذي فرضت عليه الخلافة فأباها، ووراء الحريم شارع دار الرقيق، وهي محلة كبيرة كثيرة المنازل العجيبة، ثم درب سليمان والمارستان، وسوقه العجيب، ثم دار النقابة الشاطئية»، ويستطرد المتحدث في الإسهاب لوصف جانبي بغداد - الكرخ والرصافة - من خلال ما يحيط بدجلة من أبنية وشوارع ودور وغيرها. يقول: وكنت أسمع من المشايخ أن بدجلة خمسمائة مصفرة[1] مزينة لا يركب فيها إلا ظرّاف التجار والأجناد وأرباب المقاطعات، والرجل وغلامه، والملاحون بالثياب الجميلة، ثم باب البصرة، ذات السكك البعيدة، ومن الجانب الشرقي «الزاهر» بستان عظيم جامع للنخل والأزهار، ووراءه ثلاث محال، سوق السلاح والمخرم وسوق الداية، وتمتد العمارة إلى نهر المعلّى، ودار الخلافة وتاجها العجيب، وهي بنفسها بلد، وباب المراتب، محلة تختص بالكبراء وأرباب المناصب، وباب الأزج والمأمونية، وفي الجانب الغربي قصر عيسى وقصر المأمون والتونة وغير ذلك» ثم يضيف:

«وجمعت الكرخ منازل عجيبة، بديعة البناء، وفيها درب الزعفران وفيه الدار العجيبة، ودرب رياح، وشارع ابن أبي عوف وباب محول، وكان بسور الحلاويين خزانة كتب فيها اثنا عشر ألف مجلد، وكانت أسواق الكرخ، وباب الطاق، لا يختلط العطارون بأرباب الزهائم والروائح المنكرة، ولا أرباب الأنماط بأرباب الإسقاط، وكان لأرباب المروءات دروب تخصهم. ودرب الزعفران بالكرخ لا يسكنه أرباب المهن، بل أهل البر والعطر، ودرب سليمان في الرصافة مقصور على القضاة والشهود وكبار التجار»[2].

إنَّ إبن الجوزي يصور بغداد بكل تاريخها وحضارتها، وكأنه يريد القول، أن بغداد كانت دينه ودنياه، يتعصّب لها من خلال الوصف، فماذا يقول من يُجبر على مغادرتها؟ يقول أحدهم في فراقها[3]:

لعمري لقد فارقتها غير طايع	ولا طيب نفساً بذاك ولا مقِر
فيا ندمي إذ ليس تعني ندامتي	ويا حذري إذ ليس ينفعني الحذر
وقائلة ماذا نأى بك عنهم	فقلت لها لا علم لي فاسألي القدر

(1) نوع من القوارب الصغيرة الخاصة.

(2) مناقب بغداد/ ص27 - 28.

(3) انظر - أبي المطهر الأزدي/ حكاية أبي القاسم البغدادي/ ص25 - بعناية آدم ميتز - طبعة هيدلبرج سنة 1903م.

وسحرت بغداد كل الذين زاروها من الأدباء والشعراء والظرّاف وغيرهم من كافة طبقات الناس وهم الأكثر حنيناً إليها، وفي ذلك يقول ابن الرومي[1]:

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أفنان الشباب تميد

وينقل ياقوت الحموي أبياتاً عن الخطيب البغدادي، ، مؤرخ بغداد عن أبي محمد الباقي[2]:

دخلنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا مكرهينا

ويعلق الخطيب على ذلك بقوله: يوشك هذا أن يكون في بغداد، قيل وأنشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت[3]:

على بغداد معدن كل طيب ... ومغنى نزهة المتنزهينا

سلام كل ما خرجت بلحظ ... عيون المشتهين المشتهينا

دخلنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا مكرهينا

وقد استطاع الخطيب أن يوجز وصفها بقوله[4]: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة أطرارها[5] وكثرة دورها ومنازلها، ودوربها، وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبردُ ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدّة سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارّة المضاجع، دارّة المراضع، خصبة المراتع، موردة المشارع».

هذا الوصف، يجعلك ترسم خطاً بيانياً صاعداً للتطور الاقتصادي، والمنعكس

---

(1) انظر ديوانه 2/ 766 تحقيق د. حسين نصار - مطبعة دار الكتب - القاهرة 1974م.

(2) معجم البلدان 1/ 463 - مادة بغداد/ منشورات دار صادر ودار بيروت 1374هـ/ 1955م.

(3) معجم البلدان/ 1/ 463

(4) تاريخ بغداد 1/ 119 - الطبعة الأولى - مكتبة الخانجي بالقاهرة - والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر 1349هـ/ 1931م.

(5) أطرارها - جمع طر: شفير النهر والوادي، وطرف كل شيء وحرفه - القاموس المحيط - مادة (طرر)، وأهل جنوب العراق يقولون (الطرة) للفلاة الواسعة من الأرض.

بالضرورة على الواقع الاجتماعي، فتزدهر القيم الروحية، فتنهض الصناعات لتلبي الاحتياجات، وتنشط الحياة عموماً.

وفي ضوء هذا النشاط يتآلف الناس، وتُشد الأواصر بينهم، فيأسرهم المكان، وتقودهم الذكرى إليه، يقول يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي ﷺ أيا يونس دخلتَ بغداد؟ فقلت: لا. فقال: ما رأيت الدنيا ولا الناس[1].

ومن هنا ندرك مكانة بغداد في العالم الإسلامي قديماً، الأمر الذي وجّه الكثير لزيارتها والإقامة فيها للتزود في المعرفة والعلوم، فكثر سكانها، وتزاحمت الأبنية فيها، وضاقت شوارعها بالناس، حتى أن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، لما قدمها، ورأى كثرة الناس بها قال: «ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نودي فيهم»[2].

وكان من يغادرها ويبتعد قليلاً عنها، تتحرك سواكن نفسه، ويألفها مأسورة بالحنين، فما كاد الرشيد يغادرها إلى الحج، وبلغ زرود[3] التفت إلى ناحية العراق وقال[4]:

أقول وقد جزنا زرود عشية ... وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا

على أهل بغداد السلام، فإنني ... أزيد بسيري عن ديارهم بُعدا

وعندما ذكرها ياقوت الحموي في معجمه، بدأ الحنين يأخذ بتلابيبه، رغم أنه لم يمكث بها طويلاً، مثل بقية الأدباء والشعراء، وحنينه يخفيه بين جوانحه، دون أن يصرّح به، لكن شواهده الشعرية التي يوردها تفصح عن ذلك[5] رغم أنه، يورد شواهد شعرية أخرى ليس ذاتها.

لكن أبيات الشوق إليها أبلغ وأرق وأوقع، ومن ذلك ما نقله عن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير[6] وطاهر بن المظفر بن طاهر الخازن، وكلاهما يذكر أمكنة معروفة وهامة من بغداد، ويذكرون القصور والشوارع والحارات، ودجلة والجسور، ثم يذكرون أهلها وكرمهم وأخلاقهم، يقول الأول «عمارة»[7].

---

(1) معجم البلدان 1/ 463.

(2) المصدر السابق 1/ 462.

(3) زرود - أرض رملية بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة - ياقوت - معجم البلدان 3/ 139 - مادة زرود.

(4) معجم البلدان 1/ 462 - 463.

(5) راجع على سبيل المثال 1/ 461 - 464.

(6) انظر ترجمته عند المرزباني - معجم الشعراء/ ص247، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة 1354هـ.

(7) معجم البلدان 1/ 23.

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ... على تقلبها في كل ما حين

ما بين قطربل فالكرخ نرجسة ... تندى ومنبت خيري ونسرين

تحيا النفوس برياها، إذا نفحت ... وخرّشت بين أوراق الرياحين

سقيا لتلك القصور الشاهقات وما ... تُخفي من البقر الأنسية العين

تستنّ دجلة فيما بينها، فترى ... أنيقة بزخاريف وتزيين

فيها القصورالتي تهوي بأجنحة ... بالزائرين إلى القوم المزورين

من كل حراقة تعلو فقارتها ... قصرمن الساج عال ذو أساطين

ويقول الثاني (طاهر بن المظفر)[1]:

سقى الله صوت الغاديات محلة ... ببغداد، بين الخلد والكرخ والجسر

هي البلدة الحسناء خصّت لأهلها ... بأشياء لم يُجمعن مذ كن في مصر

هواء رقيق في اعتدال وصحة ... وماء له طعمٌ ألذ من الخمر

ودجلتها شطّان قد نظما لنا ... بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر

ثراها كمسك والمياه كفضةٍ ... وعصباؤها مثل اليواقيت والدر

وحين أخذ الخلفاء بالتحول عنها إلى سامراء تصدّى الشعراء، لهذه الحالة، وانبرى لها من يُحفزهم على البقاء، مصورين الأمر وكأنه شبه خيانة، مذكرين بأن الخروج منها لا يُطمئن، ولكن الدافع السياسي كان أقوى، فغادروها.

ويصف ابن الفقيه هذه الحالة على لسان الشاعر[2] فيقول:

أعاينت في طول من الأرض والعرض ... كبغداد داراً أنها جنة الأرض

سقا العيش في بغداد واخضر عوده ... وعيش سواها غيرصاف ولاغضّ

تطول بها الاعمار إن مياهها ... عذب وبعض الماء أعذب من بعض[3]

تنام بها عين الغريب ولن ترى ... غريبا بأرض الشام يطمع في غمض

فإن خربت بغداد منهم بقرضها ... فما أسلفت الا الجميل من القرض

وإن رميت بالهجر منهم وبالقلى ... فما أصبحت أهلا لهجرٍ ولا بغضٍ

---

(1) المصدر السابق/ 463.

(2) هو عند الخطيب البغدادي - عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي وقيل لمنصور النمري - انظر - تاريخ بغداد 1/ 68 وكذلك بغداد مدينة السلام/ ص40.

(3) ورد هذا البيت عند الخطيب البغدادي 1/ 68 بالشكل التالي: تطول بها الأعمار إن غذاءها

الفصل الرابع

تنامي المعرفة في بغداد

إنَّ التفاعل الاجتما - حضاري في بغداد، ظل يتفاعل إيجابياً مع كل المؤثرات المحيطة به، فلقد إنطلقت الثقافة العربية - الاسلامية، من مكوناتها الأولى أولاً، القرآن والحديث والسنة، حيث شكل المسجد نقطة التجمع الأولى للنشاط الثقافي، وكان بناء الدولة قد شارك فيه أكثر من عنصر، ضموا إلى أحضانها - كالفرس والسريان وغيرهم، بما يحملونه من تراث فكري، ورحب صدر الدولة والمجتمع لهذا التنوع الثقافي المتداخل لكل هؤلاء، فقرّبت الدولة رجال العلم والأدب، وأغدقت عليهم الهبات والعطايا والجرايات، وعُرف ذو الفضل بفضله، فرفع الأديب وأكرم العالم، وجالت صولة الأدب، واختلط العالم بالفقيه، وتناظر العلماء، واختلف الفقهاء، وتوسعت دائرة المعرفة بالتناظر، وعرفت الدولة مجالس المناظرة والمنادمة، وأكبَّ على العلم والتأليف، وقد لعبت الترجمة[1] دوراً بارزاً في تلاقح الثقافات، فقرّبت البعيد، فأصبح في متناول اليد، وحركت العقول وظهرت الفلسفة - فيما بعد - متخطية علم الكلام، وظهرت آراء المذاهب والفرق، وتطاحنت في ساحة النضال الفكري، فتوسعت المدارك، وتلاقحت العقول، وفلسف الدين، وشُرِّحت المذاهب، وراحت ملامح «الآيديولوجيات النظرية» تظهر بجلاء وقد كان للمعتزلة دور بارز في تحريك الوعي الثقافي العام في الدولة الإسلامية، وساهم المأمون في تبني مذهبهم، في مستهل (ق 3هـ) في إنتشاره، وأصبحت بغداد متألقة بشعاع لا مثيل له، في العصر العباسي الأول، وقد شكلت «دار الحكمة» أكبر جامعة في العالم الإسلامي أيام المأمون، وذاع صيتها، وقصدها المتعلمون من مختلف أرجاء الأرض، وبرز العلماء والأدباء والفلاسفة المتكلمين، وظهرت التيارات الفكرية، بمقولاتها وأدبائها، ورجالاتها، فألفت الكتب وانتشرت المعارف، وكان للجدل أثر في انتشار هذه الظواهر، وكانت مهنة الوراقة، قد سارعت بالنمو والتطور فأشيعت الثقافة وانتشرت

---

(1) سوف نفرد في دراسة خاصة، بحثاً مستقلاً عن (مترجمي بغداد) في العصر العباسي.

العلوم، وتحولت المظاهر الثقافية إلى صفة شعبية، متخطية حاجز قصر الخلافة أو بيوت الأمراء، وصارت مطارحات الأدباء ومناظرات العلماء، في بيوتات العامة والخاصة، وشهد سوق الوراقين هذه الظاهرة بشكل يومي[1]. وقد لوحظ أن هناك سيادة للنثر على الشعر في العصور العباسية، نظراً لكون المعرفة، بكافة فروعها تخاطب العقل البشري وهو ما انعكس على كل العلماء والأدباء، فلقد كان العالم باللغة عالماً بالفقه والتفسير، فيما يكون الفيلسوف أشمل من غيره في أكثر العلوم، وكان للأديب الكبير ابن المقفع دوراً هاماً في سيادة نمط خاص من الكتابة، شاع في بدايات الدولة العباسية، واستطاع أن يترك بصماته على الجيل الذي تلاه، ووسع الجاحظ دائرة الكتابة الأدبية، لتشتمل على أغلب حقول المعرفة، ومن ثم كان له الفضل في غربلة التراث الأدبي وتخليصه من ما علق به من شوائب وإقامة معيار منصف عقلاني لمختلف العناصر الثقافية، وتقديم توفيق بين المعارف بطريقة أدبية لإنسان العصر في آنه، فلقد حافظ الجاحظ بوصفه أديباً، قبل كل شيء، على طريقة الكتّاب إلى حد كبير - كما يقول شارل بيللا[2] وكانت «مدرسة الجاحظ» متعددة الاتجاهات، لكن يغلب عليها، أو يلفها الأدب، رغم أنه وسَّعَ نشاطه إلى حقول العلوم والجغرافيا والتاريخ والنقد الأدبي والكلام على الطريقة المعتزلية، باعتباره أحد رجالاتها المعدودين/ في الجانب الأدبي، أكثر منه في الجانب - الفلسفي/ وإليه يعود الفضل، نتيجة ديناميكية عقله الوقاد، بإجاد شكل من الأدب الشخصي الذي ينصب على تصوير الأخلاق والمجتمع، دون الانقطاع عن تكريس جزء من نشاطه للمشاكل السياسية والدينية[3].

إلاأن الأساسيات الثقافية التي أوجدها الجاحظ أظهرت أسلوباً رضياً للكتابة، وهو بهذا الفن يكون قد كسر قيد النثر المسجوع، الذي دأب عليه كتّاب الدواوين منذ أيام الدولة الأموية، وهو أوضح ما يبين في كتابه «البيان والتبيين» وقد تميز اسلوب الجاحظ، في أغلب مؤلفاته بسعة العبارة المؤلفة من جمل مقطعة أو من تفريعات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق بشكل يتألف من أمثالها وحدة كمية، غالباً، متساوية أو متجاورة، وبمعنى يماثل أو مضاد، دون أن تستعمل القافية إلا عرضاً[4].

قلنا أن المعتزلة حركوا الساحة الفكرية في بغداد والعالم الإسلامي، الأمر الذي حفَّزَ

---

(1) سوف نتحدث عن ذلك بشكل موسع في باب (سوق الوراقين).

(2) النثر العربي في بغداد/مقال - مجلة المورد/ : العدد 4 - المجلد 8/ 1979م/ ص485 - 490.

(3) شار بيللا - المرجع السابق.

(4) للإستزادة في معرفة اسلوب الجاحظ - راجع شارل بيللا - النثر العربي في بغداد/ ص487 في مجلة المورد العدد 4 - راجع شفيق جبري - الجاحظ معلم العقل والأدب.

بقية الفرق والمذاهب لأن تعيد النظر في مناهجها الفكرية، وتشحذ همم رجالها، لمجاراة تلك الزوبعة الفكرية التي أثارها المعتزلة في أدبهم وثقافتهم المتنوعة، وقد كان للنظّام الدور الأخطر والأجل في رفع الفكر المعتزلي، بينما سيطر أسلوب الجاحظ على منتصف القرن الثالث وحتى طغى على القرن الرابع وما تلاه، وتلك حقيقة يقر بها الجميع له، ونظراً لميل الناس عامة إلى الأدب، فقد ظهر بعد الجاحظ كتّاب، من بقية المذاهب، حاولوا أن يكونوا نداً للجاحظ أو بموازاته كإبن قتيبة، الذي أوجد شيئاً من عقلانية المنهج، مستفيداً من أزمة الثقة بين المعتزلة والجمهور، وهذا الرجل، كان فقيهاً ونحوياً لذلك كان بعيداً عن الروح التي يحظى بها الجاحظ، ومع ذلك فإنه استطاع أن يُثبت في حدود الثقافة العامة، واستطاع أن يحدد حقلها، مع سيادة بتنمية قوام ثقافته الدينية، في الوقت الذي كان فيه الجاحظ - بوصفه معتزلياً - لم يفصل بطبيعة الحال، الثقافة الدينية عن الثقافة الدنيوية، ولكنه استعان بالعقل والمنطق لاستغلال المنابع العامة للمعارف البشرية فأحسن الإستغلال، وابن قتيبة، بوصفه معتدلاً وضع النقاط على حروف الشريعة الإسلامية، واجتهد في تنسيق الأسانيد وتصنيفها، على أنه شديد الحساسية تجاه التأثير الإغريقي، إذ أعطى الأولوية للسنة الكوفية كما يقول بيللا[1]، وقد استطاع ابن قتيبة أن يجد للكتّاب طريقاً من طرق الأسلوب الكتابي، يحدد لهم عملهم في الدواوين يتلمسونه بشكل واضح، وذلك في كتابه الهام «أدب الكاتب»[2] كما وضع موسوعة أدبية، تُعد من أهم المصادر في المجال الأدبي هي «عيون الأخبار» وكتاب «الشعر والشعراء».

وإلى جانب ابن قتيبة، ظهر معاصره اليعقوبي، ذلك الأديب المؤرخ الذي أسس للتاريخ العام، وبأسلوب أدبي رشيق، يفصح عن سعة النظرة.

وما أن تطورت صناعة الورق في بغداد، حتى أخذ التأليف يشق طريقه بقوة وانتشرت الوراقة، حتى شهدت نهاية (ق 4هـ) أعمالاً ضخمة من الكتب والتصانيف وقد برز اسم ابن النديم ذلك الورّاق الحاذق وصنّف كتابه الأهم «الفهرست» مؤسساً لمنهج مؤدي إلى فهارس أخرى نحت منحاه. فيما راح المسعودي، يختط منهجاً وصفياً في الجغرافية، ممازجاً بين الأدب والتاريخ بصيغ جميلة، وراحت تصنيفات المؤرخين توجد مدرسة خاصة لها، تربع على عرشها الطبري والبلاذري، وظهر ترسل الكتاب على يد الصولي،

(1) شارل بيللا، المرجع السابق/ص488.

(2) عدّ ابن خلدون، هذا الكتاب واحداً من أهم أصول كتب الأدب الأربعة، وهي/ البيان والتبيين للجاحظ، أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وكتاب النوادر لابي علي القالي/ المقدمة/ ص553 - 554 منشورات دار إحياء التراث - بيروت.

فيما أخذ يظهر شكل آخر من التاريخ يمثله أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الهام «الأغاني» الذي جمع فيه أخبار الشعراء والموسيقيين وشخصيات المجتمع الهامة، وحوى هذا الكتاب من المعلومات التاريخية والأدبية، ما لم يحوه أي كتاب آخر مواز له.

فيما قدم قدامة بن جعفر/ نقداً للشعر، وقدم ابن المعتز - طبقات الشعراء - ككتاب يُصف ويهتم بالصور البلاغية، ثم جاء بعدهما أبو هلال العسكري، جامعاً في/ كتاب الصناعتين/ «الكتابة والشعر» مستوحياً في اسلوب الجاحظ، وعارضاً لها بطريقة منهجية قواعد البلاغة العربية، فيما قدم معاصره الباقلاني، الدليل على إعجاز القرآن، بينما عكست الحياة الاجتماعية ظلالها على بعض الأدباء، فصور حياة العامة والخاصة، فهذا الوشّاء يستلهم الجاحظ فيضع كتابه (الموشّى) مسلطاً الضوء على أحوال الأوساط المتميزة ومتأنقي عصره، فيما استطاع أبو المطهر الأزدي تبيان لوحة الحياة البغدادية بكتابه النادر «حكاية أبي القاسم البغدادي» وأظهرت كتابات أبي حيان التوحيدي متانة الاسلوب المتفرد والعبارة المفخمة ذات الطابع الفلسفي، والتي لا تخلو من نقد لاذع لمعاصريه من عليّة السلطة وغيرهم، وهو ما يتوضح في كتابه/ أخلاق الوزيرين/ وتجلت إبداعاته المتنوعة في/ الإمتناع والمؤانسة/ فيما حفُلت «المقابسات» في الأسلوب الفلسفي الموشي بالأدب، وقد ميّز ياقوت الحموي شخصية التوحيدي الفذة بقوله «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»[1].

لقد أغنى التوحيدي النثر العربي بأسلوبه، وعلّم عليه ببَصماته، وهو حقاً سيد الموقف في النثر بعد الجاحظ، لأنه يعترف له بالأسبقية والفضل، ولكن القرن 4هـ، يعترف للتوحيدي بالأولوية دون غيره في هذا الباب، أن سيادة نمط التوحيدي، أغرت كتّاب نثرٍ آخرين بمجاراة أسلوبه بنثر مسجوع، وقد تميز في هذا الباب بديع الزمان الهمداني، مبتكر فن المقامة، ذلك الأدب الناقد والجريء، والذي اكتمل بنيانه فيما بعد - على يد الحريري في (ق6هـ).

أما في باب الفلسفة، فقد شهد القرنان الثالث والرابع الهجريان تطوراً ملحوظاً، أثبت جدارته وخطورته وعلو شأنه على يد الكندي والفارابي والرازي وابن سينا وغيرهم، فيما طغت فلسفة إخوان الصفاء بشعبيتها على كامل (ق 4هـ)، وهي حالة مثلى يصل إليها المجتمع البغدادي، كما برز الخطيب البغدادي في النصف الثاني من (ق 4هـ) ليدون كل أحداث بغداد وتواريخها بموسوعته الشهيرة «تاريخ بغداد» وهي وثيقة هامة لعلمائها وشعرائها وساداتها وخلفائها، تلك هي بغداد بعلومها وثقافاتها، استطاعت أن تشمخ بوجه

(1) انظر ترجمة التوحيدي عند ياقوت في/ معجم الأدباء/ .

التاريخ الحضاري في العالم، وإذا كانت الثقافة هي ما يبقى، حين ننسى كل شيء - كما يقول بيللا، فإنها في بغداد ما يبقى عندما تطرح التوابع عن رضى وطواعية، والخطر يكمن في أن الجوهر يوشك في يد الإغرار أن يرفض لمصلحة التوابع، وهذا ما لم يلبث أن وقع[1].

إنَّ ظاهرة بهذا العمق والإتساع المعرفي والثقافي، لا شك أنها ستَسِم أهل ذاك الزمان بميسمها، وتلفهم في فلكها الواسع، ويجب أن نعترف هنا، أن للسلطة العباسية، دورها المميز والهام في رعاية العلماء والفلاسفة والأدباء، وكان الخلفاء يتذوقون الأدب والعلوم الأخرى والفنون، بذائقة الناقد العارف، وبهذا الصدد ينقل ثعلب بمجالسهِ[2] أن ابن قادم قال: كتب فلان إلى المأمون كتاباً فيه «وهذا المال مالاً من حاله كذا» فكتب إليه: أتكاتبني بكاتب يلحن في كلامه؟ فقال: ما لحنتُ، وما هو إلا صواب. قال ابن قادم فدعاني المأمون، فلما أردت الدخول عليه، قال لي - ذلك الرجل - ما تقول لأمير المؤمنين إذا سألك؟ قال: قلت: أقول له الوجه ما قال أمير المؤمنين، وهذا جائز، قال: فلما دخلت قال لي: ما تقول في هذا الحرف؟ قال: فقلت: الرفع أوجه، والنصب جائز، قال: فقال لي: مُر. كل شيء عندكم جائز. . ثم التفت إلى ذلك وقال: لا تكتبنَّ إليَّ كتاباً حتى تعرضه».

وعلى ما يبدو، أن تاريخ بغداد السياسي، كان له فضل في رفع الوعي الثقافي بكل العلوم من لدن الخلفاء وغيرهم، فحرصوا - الخلفاء - على تعليم أولادهم بواسطة نخبة من العلماء، كل حسب زمانه، فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار. والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي، وعهد بتأديب المأمون إلى اليزيدي وسيبويه، ومن جميل ما يذكر في هذا الجانب، تلك الوصية الهامة التي عهد بها الرشيد إلى مؤدب ولده الأمين ونصها: «يا أحمرُ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فسيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، إقرأه القرآن وعرّفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السُنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القُواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه

(1) راجع مقالته - النثر العربي في بغداد - في مجلة المورد/عدد 4 - ص486 وما بعدها.
(2) انظر - مجالس ثعلب/ص13، القسم الأول - بعناية عبد السلام هارون، ط2، دار المعارف بمصر.

فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[1].

تعكس هذه الوصية مسؤولية الخليفة بالدرجة الأولى إزاء حالة العصر الثقافية والسياسية، فالعلوم والثقافة يريدها الرشيد في أبنائه بهذه الصورة فكيف يجب أن تكون حالة الناس الذين ينادمون الخليفة أو يشرفون على دولته؟ حقاً أنها نظرة واضحة لما يريده العصر من حُسن التأدب والمعرفة بكل الأمور، وقد عُرف عن الرشيد بالذات أنه كان طلاّبه للعلم، قال القاضي الفاضل[2]: «ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك» وهذا الجانب المعرفي الهام في شخصية الرشيد حالة فرضها واقعه الذاتي من جهة، ومن جهة أخرى ارتفاع وتيرة الثقافة في عهده، جعله أن يكون في هذا المستوى من التطور، فقد عرف عنه أنه كان يأتي بنفسه إلى بيت الفضل بن عيّاض[3] إجلالاً له ولعلمه.

وإلى جانب ذلك، فقد كان الرشيد ذوّاقاً للفن، راعياً لأهله، وقد صنّفهم إلى طبقات ومراتب، وهو أول من طلب أن يختار من الأصوات أجملها، يقول إسحاق الموصلي، أن أباه أخبره أن الرشيد أمر المغنين، وهم يومئذ متوفرون أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء، فأجمعوا على ثلاثة أصوات، وكان الرشيد قد طلب من هؤلاء المغنين أن يختاروا له مائة صوت ثم أمرهم باختيار عشرة منها، ثم اختاروا الثلاثة ففعلوا[4].

إنَّ الحسّ النقدي والفني عند الرشيد، يتجلى هنا، فهو من ناحية ثبّت تاريخاً للموسيقى العربية، وبرّز الأصوات المتعددة فيها، وهذا الأمر يعني أرشفة الموسيقى، بشكل أو بآخر، وبنفس الوقت أظهر ما كان مدنوناً في الصدور، من غناء، فأحياه بهذا الإجراء، وهنا يكمن البعد التاريخي، أما من الناحية الثانية فيظهر الذائقة الفنية لديه، من خلال التدرج في إختيار الأصوات، وليس عبثاً أن يُصنف الرشيد المغنين إلى «طبقات» لو

(1) د. أحمد الرفاعي/عصر المأمون/ص174 - 175 - الجزء الأول - ط2، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1346هـ/ 1927م.
(2) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ص294، بعناية محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، 1371هـ/ 1952م - مطبعة السعادة بمصر.
(3) السيوطي - المصدر السابق - ص284.
(4) أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني 1/ 7 - نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط1، ص1345هـ/ 1927/ .

لم يكن لديه الحس النقدي لمعرفة أصول الغناء، ثمة حادثة، ينقلها الجاحظ، يقول[1]: قال - إبراهيم الموصلي: «سأل الرشيد يوماً برصوماً الزامر فقال له: يا اسحاق. ما تقول في ابن جامع؟ فحرّك رأسه وقال: خمرٌ قطربل، يعقل الرجل ويذهب العقل، قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه خوج وكمثري وتفاح وشوك وخرنوب، قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خضابه، قال: فما تقول في عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه» وهذه الأسماء لأشهر المغنين والعازفين الموسيقيين وندماء الخليفة، لذلك يسال واحداً منهم لترجيح الرأي الفني على الذائقة الحسية، والرشيد بهذا الاستنطاق النقدي للفنان، يؤكد معرفته لجوانب الحضارة في مُلكه، والرقي الروحي لدى ندمائه وحاشيته، وبالضرورة انتقال هذه الظاهرة إلى عامة الناس، وهو ما ظهر فعلاً في (ق 4هـ)، وقد استطاع أبو حيان التوحيدي أن يصور هذه الحالة في كتابه الإمتاع والمؤانسة، فهو يذكر أن عدد المغنيات، بالكرخ فقط 460 مغنية قينة و120 حرة و95 من الصبيان سوى الذين لم يستطع أن يُوصل إليه[2].

وعندما وصل المأمون سنة 198 هـ إلى سدة الخلافة، كانت بغداد تشهد أوج ازدهارها في العلم والمعرفة، وأكبّ الناس على العلم والتأليف والترجمة، فنقلت مؤلفات الفلسفة اليونانية والطب والحكمة والسياسة والفلك والمنطق والتنجيم، وألف المسلمون في الفقه والنحو والحديث، وقد اختار المأمون وزراءه وكتابه من عليّة القوم النابهين والمعروفين بالعلم والكياسة[3].

كما عُرف عنه أنه صاحب بلاغة وجهارة وحلاوة وفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة، حتى أن ثُمامة ابن أشرس النميري يقول عنه: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون، وكان المأمون يطرب للطُرف واللغة، وقد قال يوماً لولده: اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم، أنه من أتبع منكم صغار الأمور، تبعه التصغير والتحقير، وكان قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة، وتفرغوا لجلائل الأمور والتدبير،

---

(1) التاج في أخلاق الملوك/ص39 وما بعدها - تحقيق أحمد زكي باشا - ط1، القاهرة 1322هـ/ 1914م.

(2) أبو حيان التوحيدي/ الامتناع والمؤانسة/ 2/ 183 تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، طبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1939م.

(3) انظر - حال الوزراء في أيامه عند ابن الطقطقي/الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية/ ص164 - 170 بعناية محمود توفيق الكتبي - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

واستكفوا الثقات، وكونوا مثل كراع السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها، واعلموا أن أقدامكم إن لم يتقدم بكم فإن قائدكم لا يُقدّمكم، ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه[1]، ويكفي أن نذكر من فضله أن دارالحكمة في عصره قد فاقت كل دور الكتب في العالم الإسلامي وغيره، فقد حوت على مختلف العلوم وأسند رئاستها إلى سهل بن هارون، كما حشر فيها مختلف العلماء ليشرفوا على فروعها وأروقتها ومن أبرزهم. يحيى بن أبي منصور الموصلي المنجم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد في عصره «المأمون» ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج وصورة الأرض، كما كان في دار الحكمة جد أحمد الطيبي المعروف بالصنوبري الحلبي والفضل بن نوبخت وأولاد شاكر وغيرهم، وكان علاّن الشعوبي النسابة المعروف ينسخ في دار الحكمة[2] ويقال أنه رأى حلماً في منامه، وشاهد فيه «ارسطو طاليس» يخطب، وسائله عن الحُسن فقال له: الحسن ما استحسنته العقول، فقلت: ثم ماذا، قال: ما استحسنته الشريعة، قلت: ثم ماذا، قال: ما استحسنه الجمهور، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا، ثم[3]. وعلى ضوء هذه الرؤيا، يستدعي المأمون «علماء دار الحكمة» ويجتمع بهم، ويقرر إرسال وفد علمي إلى ملك الروم، كي ينقل ما يختار من العلوم القديمة ببلد الروم، فيجيبه الملك إلى ذلك، بعد امتناع، فيرسل المأمون الوفد المنتقى والمنتخب إلى هذه المهمة وهم: الحجاج بن مطر وابن بطريق، وسُلّم - صاحب بيت الحكمة -، وقيل أن يوحنا بن ماسويه كان معهم، وغيرهم، فاختاروا ما اختاروه من العلوم، فأوعز المأمون إلى المترجمين، وعلى رأسهم حنين بن إسحاق وكان فتي السن، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي، وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره».

تحقيق الحلم إلى واقع، ليست مسألة سهلة، ولكن العقل المعرفي، هو الأقدر على مثل هذه المهمة، ولولا وجود مثل هذا العقل عند المأمون، لما طبّق هذا الحلم، ولو كان غيره، لكان استدعى منجماً ليُفسر له ذلك الحلم، واعتبره «أضغاث أحلام» لكن القلق المعرفي، الذي يتبلس المأمون، حدا به إلى هذه الخطوة، وألحقها بخطوة أجرأ وأسرع وهي الإصرار على ترجمة تلك العلوم إلى العربية، وبتشجيع سخي، لا يقارب في أيامنا

(1) انظر عصر المأمون 1/ 358 - 359.

(2) ابن النديم/ الفهرست/ ص174 - 175، منشورات المطبعة الرحمانية، وراجع الفصل الثامن/ الحياة العلمية في عصر المأمون/ 1/ 375 وما بعدها.

(3) انظر تفصيلات الخبر عند ابن أبي اصيبعه في/ عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ ص259 - 260 ضمن ترجمة حنين بن إسحاق، وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1965م.

قطعاً، فقد كان المأمون يعطي حُنيناً من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربي مثلاً بمثل، ويقول أبو سليمان المنطقي، أن بني شاكر[1] وهم محمد وأحمد والحسن، كانوا يُرزِقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، في الشهر خمسمائة دينار، للنقل والملازمة[2].

وقد أشارت المصادر[3] إلى أنه نقل من كتب الفلسفة 27 كتاباً، وفي الطب وفروعه 58 كتاباً، وكتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم أكثر من عشرة كتب وهذه الكتب نُقلت عن اليونانية، فيما نقلت عن الفارسية كتباً في الأدب والأخبار والسير والأشعار، وبعضها في النجوم. نقلها آل نوبخت وعلي بن زياد والتميمي وغيرهم أكثر من 20 كتاباً، ونقلت عن الهندية (السنسكريتية) الكثير من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ وكتب الطب، حتى أن يحيى بن خالد استقدم بضعة أطباء إلى بغداد منهم «كنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز» وغيرهم[4] وقد استطاع المترجمون نقل عشرة كتب في الطب من الهندية إلى العربية، وذلك عن طريق ترجمتها إلى الفارسية أولاً ثم إلى العربية[5]، وهذه الحالة تؤرخ تطور مفهوم الترجمة واتساعها بنفس الوقت وازدهارها في عصر المأمون، ومن أبرز ما نقل عن كتب الأدب الهندية 15 كتاباً كان أبرزها - كليلة ودمنة، والسندباد الكبير، وكتاب أدب الهند والصين وغيرها[6] كما نقلت عن النبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية[7].

(1) هم بنو موسى بن شاكر - ثلاثة أخوة اشتهروا بعلم الحساب والهيئة والالات، من عهد المأمون إلى عهد المتوكل، وكانوا يشرفون على حركة الترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد - انظر هامش 1، ص260 - طبقات الأطباء.

(2) طبقات الأطباء/ ص260.

(3) المصدر السابق - في أكثر من مكان، وعصر المأمون/ ص381 - 394 حيث فيه تفصيل بأسماء الكتب المترجمة.

(4) عصر المأمون/ 1/ 388.

(5) المرجع السابق 1/ 390.

(6) راجعها في عصر المأمون 1/ 392.

(7) المرجع السابق 1/ 393.

الباب الثاني

الفصل الأول

تطور صناعة الكتابة في بغداد وظهور الكتّاب

كانت العقيدة الإسلامية ايديولوجيا، والقرآن هو الكتاب المقدس والمرجع الأدبي والدنيوي الأساسي للمسلمين، إلى جانب السنة النبوية، لذلك إنطلقت البدايات الأولى في عملية «النشر والتأليف» بجمع الحديث والسنة النبوية، وتفسيرات الفقهاء لهذه الأحاديث، وكان المسجد الموقع الأول، لبدء عملية جمع هذا التراث وتدوينه، وكان القرآن قد دعا المسلمين بأن يتعلموا القراءة والكتابة، بالمعنى الأوسع، فقد جاء في التنزيل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[1] ويحمل النص القرآني، بالإضافة إلى صفته التقديسية دعوة إلى تعلم مختلف العلوم، وسبرِ أغوار المجهول منها في حياة المسلمين لحفظ دينهم ودنياهم واستقامة معاشهم، يقول أبو بكر الصولي[2]: «ولولا أن من لا يحسن الكتابة يجد من يحسنها معونة وإبانة عنه، لما استقام له أمر، ولا تمَّ له عزم، ولحلَّ محل الصور الممثلة، والبهائم المهملة» ويضيف: ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ الذي علم الكتابة، لذلك غدت مسألة الكتابة وتعلم فنونها، من المسائل الهامة عند المسلمين، عبر مختلف العصور، وعندما نهضت الحضارة الإسلامية، أيام العباسيين، اهتموا بهذا الجانب أيما اهتمام، وقربوا اليهم المشاهير منهم، وجرت الكتابة في عهد العباسيين الأول، على ما كانت عليه عند بني أمية، فهناك الجودة في الخط، ومتانة الاسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته، وكانت أفكارهم لا تزال سهلة، يرمون فيها عن حاضر البديهة، وعفو الخاطر،

(1) سورة العلق، ، الآية: 1 - 5.

(2) أدب الكتّاب/ 22 - بعناية محمد بهجت الأثري - المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر - القاهرة، 1341هـ.

فلم يشاركوا الحكماء في تفكيرهم ولا المناطقة في حُججهم، هذا في أول عهد الدولة العباسية إلا نفر قليل منهم، من أمثال ابن المقفع، وقد كان الكتّاب يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع، أو مثل سائر، أو حكمة رائعة، ثم تطورت هذه الأساليب فيما بعد، حتى برز الفصحاء منهم، ولقد لعبت التيارات السياسية، التي ظهرت في العصور العباسية المختلفة دوراً هاماً في إعلاء شأن الكتّاب والكتابة، وقد كان للمعتزلة قصب السبق في هذا المجال، فقد كانوا أصحاب نحلة، يتوجب إبرازها على الصعيدين السياسي والاجتماعي، وتمكين الجمهور منها، الأمر الذي دعا بقية الفرق إلى منازعتهم الساحة الفكرية، فشحذت الهمم وتفاعلت الحياة الثقافية، وازدهرت بمختلف العلوم، فنشط الكتّاب، وراجت الوراقة، واستدعي العلماء، وعقدت مجالس المناظرة، وبرزت تطفو على السطح الثقافي ركائز أولية للأيديولوجيات السياسية والفكرية المختلفة، وكان «علم الكلام» الاعتزالي، هو الأبرز والأسطع، فحدث تلاقح ثقافي، بين مختلف الثقافات، لا سيما بعد أن ترجمت كتب الفلسفة، وسادت أنماط مختلفة من الأساليب الكتابية، اختلفت من فئة إلى أخرى، ومن كاتب لآخر، فتعددت الأغراض، ومال الكتّاب إلى السهولة والتأنق في اللفظ، والجودة في الوصف، وأطالوا في المقدمات، ونوّعوا البدء والختام والألقاب والدعاء، ومالوا إلى الغلو والمبالغة، لا سيما كتّاب السلاطين والدواوين، وظهر الإطناب في الكتابة فكان صفة غالبة في كل ما شمل من بيعة أو عهد، أو احتجاج أو انتصار، أو تقرير لمذهب، أو استهواء، أو دفعاً لشبهة أو طلباً لنعمة، أو ما يقوم نضالاً أو ما يدعو نزالاً[1]. وبالمقابل أخذت أعلام في الثقافة تبرز، مؤسسة لمنهج في الكتابة، مستدركة لما يتفشى في وسط الكتّاب، من ظواهر سلبية في أساليبهم، وأخذ هؤلاء الأعلام يدركون مسؤوليتهم الثقافية والحضارية، وكان على رأس هؤلاء الجاحظ المعتزلي، الذي بسط أسلوبه على القرن الثالث الهجري، مطالباً الكتّاب باعتماد أساليب، واضحة، ووجه اليهم نقداً في هذا الخصوص، الأمر الذي حدا بهم إلى مراجعة أساليبهم، ، وقد كان الجاحظ يدرك خطر وأهمية كتّاب الخلفاء والأمراء والدواوين فوجه نقده إليهم مباشرة، وألّف في ذلك رسالة عُرفت باسم: «رسالة في ذم أخلاق الكتّاب»[2].

ومن الملاحظ على هذه الرسالة، أن الجاحظ يحطّ من قدر الكاتب فيها، وهو حكم نابع من استقلاليته الفكرية، فهو يقول عنهم: وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك، بل

---

(1) د. رفاعي - عصر المأمون 1/ 173.

(2) نشرها عبد السلام هارون في الجزء الثاني من رسائل الجاحظ - تحت تسلسل 15 سنة 1384هـ/ 1965 م - القاهرة.

يناله الاستبطاء عند أول الزلّة وإن أكدى، ويدركه العزل بأول هفوة وإن لم يرضّ[1]، ويذكر في موضع آخر[2]: «ومع ذلك إنَّ سنخ الكتابة بني على أنه لايتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم، ولم نرَ عظيماً تولى كفاية نفسه، أو شارك كاتبه في عمله، وكل كاتب فمحكوم عليه بالوفاء، مطلوب عليه الصبر على اللأواء[3]، وتلك شروط متنوعة عليه، ومحنة مستكملة لديه»، وهو بهذا يحط من قدرهم، ثم يروح يستهزىء بهم، من خلال موقعهم في السلطة، يقول: ثم هو/الكاتب/مع ذلك في الذروة القصوى من الصَلَف، والسنام الأعلى من البذخ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف، يتوهم الواحد منهم إذا عرّض جبته، وطول ذيله/يقصد ذيل العمامة/ وعقص على خده صدغه، وتحذف الشابورتين على وجهه، أنه المتبوع ليس التابع، والمليك فوق المالك[4].

ومن هذا النص، يتوضح موقف الجاحظ الناقد لزمرة الكتّاب، على الأخص، وللمؤسسة العباسية على الأعم، فهو يأخذ الكل بالجزء، طالما أن الدائرة واحدة، ثم أنه يطالب بأن يكون الكاتب على قدر كبير من الثقافة في علوم عصره، فيقول هازئاً[5]: «ثم الناشيء فيهم إذا وطىء مقعد الرياسة، وتورّك مشورة الخلافة، وحجزت السلة دونه، وصارت الدواة أمامه، وحفظ من الكلام فتيقه، ومن العلم مُلحه، وروى لبزرجمهر أمثاله، ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله، ولابن المقفع أدبه، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته، ظنَّ أنه الفاروق الأكبر. في التدبير، وابن عباس في العلم بالتأويل، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام، وعلي بن أبي طالب في الجرأة على القضاء والأحكام، وأبو الهذيل العلاّف في الجزء والطفرة، وإبراهيم بن سيّار النظّام في المكامنات، والمجانسات، وحسين النجار في العبارات والقول بالاثبات، والأصمعي وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب». وهذه إشارة من طرف خفي إلى الكتّاب لقراءة هؤلاء، وهو يريد بهذا صقل وضع الكاتب الثقافي، فجاء بقلب العبارات اسلوباً، كي لا يتهم بموقف منحاز، وإلا ماذا نسمي استطراداته في ذكر هذه الشخصيات الهامة؟ ثم أنه ينطلق من نفس الموقف لتثبيت ثقافة الكاتب،. وبنفس الأسلوب المعكوس العبارة، والتي يؤخذ منها معناها المقلوب يقول[6]: «أنّه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره، ولا

(1) رسائل الجاحظ 2/ 191 - رسالة في ذم أخلاق الكتّاب.

(2) المصدر السابق.

(3) اللوأة = السوأة، انظر مادة (لوا. . . ملا) في قاموس الفيروز آبادي.

(4) الرسائل 2/ 191.

(5) الرسائل 2/ 191 - 192.

(6) الرسائل 2/ 194.

علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده، فإن وجد الواحد منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ولا لمجيئه منه حلاوة، وإن آثر الفردُ منهم السعي في طلبه الحديث والتشاغل بذكر كتب المتفقهين، استثقله اقرانه، واستوخمه ألاّفه، وقضوا عليه بالإدبار في معيشته، والحرفة في صناعته، حين حاول ما ليس من طبعه ورام ما ليس من شكله».

هذا الموقف النقدي، ينطلق به الجاحظ من ذاته أولاً، ويريد من كتّاب عصره في مستوى العصر ذاته، وأن يخلق «طبقة» من الكتّاب في مستوى معرفته، لأن المسؤولية التي يعيها الجاحظ أكبر من غيره، كمثقف كبير كان قطب الرحى في ثقافة (ق 3هـ) الناهض دوماً إلى الأعلى، ولا يتوقف الجاحظ عند هذا الحد، بل راح يرسم خطىً للكتّاب، لعلهم يترسمونها بعده، فأخذ يذكر لهم مآثر الفطاحل، وكيف تكون أساسات لغتهم في الاسترسال، وأساليب لغتهم في الأطناب وبلاغة المعنى في العبارة، وصاغ ذلك كاملاً في كتابه «البيان والتبيين» كمرجع لعموم الكتّاب؟ ويقول الجاحظ عن واحد من مشاهير أهل العصر في بلاغته، وهو ثُمامة بن أشرس[1] أنه (سأل جعفر بن يحيى، ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّي عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بد له منه، أن يكون سليماً من التكلف، بعيداً عن الصنعة، بريئاً من التعقد، غنياً عن التأويل) وهذه الصفات، كما يقول الجاحظ[2] كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمتُ أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي، كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك.

وهذا الخطاب، يوجهه الجاحظ إلى الفئة المثقفة أولاً، باعتبارهم حملة لواء المعرفة، كي يسلكوا مسلكاً يقتدى به من بعدهم، ويروح يروي للكتّاب، ، بلاغات شبيب بن شبة في الخطاب وجودة الابتداء وحسن السبك ورشاقة الاسلوب، ويوقفهم على تعدد معاني البلاغة وكيف وهو يجتبيه ويدونه كقولهم «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» ثم يوقفهم عند عبد الله بن المقفع كي يأخذوا من أدبه وعلمه، ويشرح لهم كيفية فهمه لمعنى

---

(1) البيان والتبيين 1/ 106 - تحقيق عبد السلام هارون، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة، ط1، القاهرة، 1367هـ/ 1948م.

(2) المصدر السابق 1/ 111.

البلاغة، عندما سئل عنها، قال: «البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الاشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سمعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل»[1].

ومن الملاحظ للمتتبع لكتابات الجاحظ، أنه يريد أن يشذّب ألفاظ الكتّاب، ويهذّب طرائق التعاطي في فن الكتابة، ويصقل مواهب معاصريه، وبحق أن كتابه «البيان والتبيين» هو واحد من أبرز الأعمدة في الأدب العربي، وقد أعطاه ابن خلدون مكان الصدارة الأولى في ذكر «كتب الأدب ودواوينه الأربع»، حيث قال[2]: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم، أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، البيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها» ونحن بدورنا نقول، أن البيان والتبيين للجاحظ، هو حجر الأساس لثقافة ذلك العصر الأدبية (ق 3هـ) حيث كانت أفكار الجاحظ، وخلاصة استنتاجاته قد صبَّها فيه، بعد خبرة ودراية، أراد منها أن يستفاد منه فيه، والكتاب بحمولاته الفكرية مشروع صاغه الجاحظ بطريقة فذّة جعلته من المصادر العليا في عُرف الثقافة.

إنَّ المنطلقات «النظرية» التي جاء بها الجاحظ لاقت صدىً عند أهل ذلك العصر، رغم أن هناك كتّاباً من بقية المذاهب والفرق قد تأخذ عليه نزعته الاعتزالية، فتصد عنه، أو تأمر أتباعها بمجافاته، لكن سطوته الأدبية ظلّت ماثلة في (ق 3هـ)، وتعدتها إلى كامل (ق 4هـ) وما تلاه، ولا يزال أثر الجاحظ، قائماً حتى اليوم في الثقافة العربية.

وبعد الجاحظ، ظهر في النصف الثاني من (ق 3هـ)، كتّاب آخرون، كان يشغلهم الهم الثقافي، وأساليب الكتابة في عصرهم، وهم أيضاً تحسسوا بوادر الخلل والنقص في أساليب الكتابة ولغة الكتّاب، فساهموا بدورهم في تثقيف وعي الكاتب ورفع منزلته الإبداعية، ومن البارزين في هذا الجانب (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة)[3] هذا المؤلف الذي انبرى لتقويم أساليب كتّاب الدواوين بشكل خاص، والكتّاب الآخرين، بشكل عام، إلا أنه، لم يضاهِ الجاحظ في الأسلبة وشكل الترسل، ولكنه لا يقل شأناً عنه

---

(1) المصدر السابق 1/ 112 - 117، حيث يورد الجاحظ نماذج لهذه التعريفات الهامة لمعنى البلاغة.

(2) / مقدمة ابن خلدون/ ص 553 - 554 مصدر سبقت الاشارة إليه.

(3) أنظر ترجمة في وفيات الأعيان لإبن خلكان 3/ 42، طبعة إحسان عباس، منشورات دار صادر ودار بيوت، وانظر كذلك أنباه الرواة 2/ 143

من الناحية الثقافية، فهو الآخر، كان يندفع بحسٍ أدبي، من خلال موقعه كأحد أبرز كتّاب الدولة، فكان يشاهد اللفظ من لدن كتّاب الدواوين والركاكة في أساليب خطابهم اللغوي والنحوي على حدٍ سواء، فأخذ على عاتقه مهمة إكمال شوط الجاحظ الثقافي - المعرفي، وراح يضع أسساً للكتابة، يهدي بها الكتّاب فصنف المصنفات في ذلك، وقد كان لكتابيه «المعارف وأدب الكاتب» أهمية في السياق الذي نتحدث عنه، لا سيما كتابه الثاني/أدب الكاتب/ فهو خاص بالكتّاب، أكثر من كونه عام لبقية الناس، ككتابه المعارف»[1]، وقد انطلق ابن قتيبة في هذا الكتاب، بوضع تصوراته ومفاهيمه لكتّاب عصره ليحذوا حذوه، وقد كانت روح المسؤولية في ذلك تنطلق لديه من شعوره العام، بأن هناك إساءة لمفهوم الأدب، أخذت توجه له، وقد قال في هذا الصدد[2]: «إني رأيت أكثر أهل زماننا»[3] هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين، أما الناشىء منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للإزدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناس، ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين[4]، فالعلماء مغمورون، وبكرّة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير، وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله، وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصاً، وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس، إلى أن يقول: فأبعدغايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط، قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس» ويستطرد في ذلك طويلاً لتبيان نقص الحالة التي يمر بها الأديب، وهذه المقدمة التي أوقفنا عليها ابن قتيبة هي صورة واضحة عن الحالة الثقافية السائدة بعد منتصف (ق 3هـ، ونظراً لكون الظروف الاقتصادية في تلك الفترة هي متطورة، لذلك يستدعي الأمر، أن تكون الثقافة، هي الأخرى ناهضة، كي تجاري حالة السمو الحضاري، ينطلق ابن قتيبة من هذا المنظور ومن زاوية الفهم للشريعة الإسلامية، التي يتأطر فيها، وهو واضح في مقدمته لكتاب أدب الكاتب[5].

وإحساسه في هذا الجانب يتماثل وإحساس الجاحظ في رفع الوعي الثقافي عند الكتّاب أولاً، وعند الجمهور ثانياً، ومن هنا راحت خُطاه تتعقب ظاهرة الكتّاب، وتقف على أسلوب صناعتهم، وألفاظ معاني مفرداتهم، وسطور نصوصهم، وبلاغة مفرداتهم،

(1) راجع مؤلفاته في التراجم أعلاه، وكذلك مقدمة محقق كتابه - أدب الكاتب - ص7م الأستاذ محمد الدالي، ط2 - مؤسسة الرسالة، بيروت 1406 هـ/ 1986 م
(2) أدب الكاتب/ ص5 - 6 طبعة محمد الدالي.
(3) عاش ابن قتيبة في ق 3هـ - حيث ولد في سنة 213هـ وتوفي سنة 276هـ.
(4) المجدود - المحفوظ. والمحدود - المحروم.
(5) راجع ص 6.

فأحصاها بدقة الناقد المتتبع، وراح يعالجها في منهج تعليمي هام، وضحت معالمه في كامل صفحات كتابه (أدب الكاتب) حيث تحدث في 212 باباً[1] من أبواب اللغة والأدب والنحو والصرف وعلوم اللغة الأخرى، إضافة إلى أساليب الترسل والخطابة، وأبواب استخدامات الفقه وكيفية التعاطي مع مفردات العلوم الشرعية والدينية.

وهو ينطلق في هذا الكتاب من مسؤولية حقاً، والنازعة صوب الرقي الثقافي، فهو يرى[2] في كتّاب زمانه، أنهم كسائر أهل ذلك الزمان، قد استطابوا الدعة واستوطؤوا مركب العجز، وأعفوا أنفسهم من كدّ النظر، وقلوبهم من تعب التفكير، حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة، ولعمري كان ذلك. ثم يضيف: فأين همة النفس، وأين الأنفة من مجانسة البهائم؟ وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتّاب، اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه، وارتضاه لسره، فقرأ عليه يوماً كتاباً وفي الكتاب «ومُطرنا مطراً كثر عنه الكلا» فقال له الخليفة ممتحناً له: وما الكلأ؟ فتردد في الجواب، وتعثر لسانه، ثم قال: لا أدري، فقال: سَل عنه، وفي مقام آخر في مثل حاله، قرأ على بعض الخلفاء[3] كتاباً ذكر فيه «حاضر طيءٍ: نصحف تصحيفاً أضحك منه الاخرين»[4].

ومن هذه الوقائع نستدل أن موقف ابن قتيبة من الكتّاب غير مرضٍ، وهو بنفس الوقت يتساوق والجاحظ في نقد المؤسسة العباسية، كسلطة، تتخذ كتّاباً ليسوا بالمقام الصحيح، وهو إساءة واضحة للكاتب «وطبقته»، حتى أنه ليعيب على هؤلاء الكتّاب/ كتّاب السلاطين/ الذين يجهلون عدد أصابع ايديهم، ولا يميزون بين معاني المصطلحات، يقول[5]: «فما رأيت أحداً منهم يعرف فرق ما بين الوكع والكوع، ولا الحنف من الفدع، ولا اللمى من اللطع»[6].

إزاء هذه الظواهر السلبية في مسلكية الكتّاب ولغة صناعتهم، يأخذه الدافع الحضاري، والحس المسؤول لممارسته سلطته الثقافية، ضمن سياق العصر والحالة، فيندفع لتقرير تلك الحالة، على ضوء الوضع السائد في أروقة الدواوين وأجواء الكتّاب

(1) راجع فهرست الموضوعات في طبعة الدالي/ ص635 - 645.
(2) أدب الكاتب/ ص10 - 11.
(3) والكاتب شجاع بن القاسم، كاتب أوتامش التركي في زمن المستعين بالله - راجع الهامش 11 و12 ص10 من «أدب الكاتب».
(4) لفظها الكاتب/ حاء ضرطي/.
(5) أدب الكاتب/ ص11.
(6) راجع معاني هذه الكلمات في/ لسان العرب/.

فيقول[1]: «فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان، وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره، جعلت له حظاً من عنايتي، وجزءاً من تأليفي، فعملت لمُغفل التأدب كُتُباً خفافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن، وأعفيته من التطويل والتثقيل، لأنشّطه على تحفظه ودراسته إن فاءت به همته، وأقيد عليه بها أضل من المعرفة، واستظهر له بإعداد الآلة لزمان الإدانة أو لقضاء الوطر عند تبين فضل النظر، وألحقه - مع كل الحد ويبس الطينة - بالمرهفين، وأدخله - وهو الكودن[2] - في مضمار العتاق».

من هنا، يتبادر إلى الذهن، مدى المسؤولية عند المثقف الكبير، في إدراك حالة عصره. الثقافية والسياسية والاجتماعية، ولكن للفرد دوره في عملية الاستنهاض، فهو إدراك تمكنه في فن الكتابة، بعد أن شاهد حالة التعثر تصيب مجال إبداعه، وهي قد تكون حالة مؤقتة يمكن تجاوزها، لا سيما وأن إيقاع العصر المتصاعد، يفرض حالة «الديناميكية» في كل مظاهر الحياة، ومن هنا رأى ابن قتيبة، أن إنسياقه مع الإيقاع يتطلب منه، أن يمارس نقر إيقاعه الفردي المتناغم مع إيقاع العصر، وفي مجال اختصاصه، فراح ينتقد أولاً حالة الجهل السائدة لدى غالبية الكتّاب، ومقترحاً - بنفس الوقت، العودة إلى أسلافهم، الذين سبقوهم في هذا الميدان، والأخذ عنهم، ضارباً الأمثلة والأدلة، التي يمكن أن يحتذوا بها، وراسماً الخطوات المتمهلة والدقيقة لهم، بادياً بالأسلوب اللغوي لتمتين أسلوبهم العام، منطلقاً، ضمن عرف منهجي، بتتبع أثر الأوائل، ومطبقه على نفسه، يقول[3]: «وقال أبرويز لكاتبه في تنزيل الكلام: إنما الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك بالشيء» فهذه دعائم المقالات، والتي إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم، فإذا طلبت فاسجع[4] وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق».

ويضيف ابن قتيبة إلى جملة هذه القواعد الأسلوبية في الكتابة رأيه في مسألة الإيجاز فيقول: «وهذا ليس بمحمود - يقصد الإيجاز - في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب» وهو ينطلق بذلك من رؤيته إلى أسلوب القرآن البلاغي، حيث اشتمل على التطويل تارة وعلى الحذف في أخرى للإيجاز، وكرر تارة للأفهام وغيره[5]، وهو ينطلق في تقدير مثل

---

(1) أدب الكاتب/ص11 - 12.

(2) الكودن - نعت يطلق على الفرس الهجين، والفيل والبغل والبرذون، انظر مادة (كدن) في القاموس المحيط.

(3) أدب الكاتب/ص19.

(4) السجع، بضمتين - اللين والسهل - راجع مادة (سجع) في القاموس المحيط.

(5) أدب الكاتب/ص19.

هذه الأمور من قاعدة «الكل مقام مقال» وملاحظة كذلك أنه يريد أن يضع شروطاً أساسية كالبديهيات في الفلسفة، والتي فعلاً تحمل مدلولاً فلسفياً ألا وهي «دعائم المقالات» وهذه الدعائم، يجب أن تكون حاضرة في ذهن المنشىء، ومتلبسة لحالته المعرفية، والثقافية، ينطلق منها، وعلى أساسها ينشيء في صناعته، مع الأخذ بعين الاعتبار ثقافة الكاتب[1] وموروثاته الشفهية والتاريخية وغيرها.

نقول، إنَّ ابن قتيبة مارس دوره في تطور ظاهرة الكتابة والكتّاب، وساهم بشكل إيجابي على رفع منزلة الثقافة، وأسس لمنهج معرفي في صناعة الكلمة، وأساليب متكلمها، فأدّى قسطه الواضح - وهو ما سنبينه في الفصل القادم - من خلال القواعد التي وضعها للكتّاب الذين جاؤوا بعده، أو عاصروه، وقد كان الورّاقون، كفئة تتعاطى مهنة الوراقة، وتشترك مع الكتّاب بنسبة عالية، تكاد تصل التماثل، قد استفادوا من هذه القواعد في علمهم وعملهم.

الفصل الثاني

مقومات الكتّاب

في نقده للكتّاب، كان الجاحظ يريد منهم أن يلتفتوا إلى المقومات الأساسية في ثقافة العصر السائدة، وكيفية التعاطي مع الموروث الثقافي الواصل، تاريخاً وأدباً وأخباراً، منطلقاً من أن الكاتب يجب ألا يقنع بالمدح، ولا يشطط في الأهواء، لا سيما في مسألة الحكم على ظاهرة معينة، ففي معرض رده على سائله في مفتتح - رسالة ذم أخلاق الكتّاب - نلتمس منهجاً نقدياً، يلزم به الجاحظ نفسه، ومن سار معه في ميدان الكتابة، وهي رؤية خاصة به، أرادها أن تكون سنّة في كتّاب عصره. يقول[2]: «فعلمت أن فرط الاعجاب من القائل متى وافق صناعة المادح، رسخ في التركيب هواه، ورسبت في القلوب أوتاده، واشتد على المناظر إنهامه، وعلى المخاصم بالحق توقيفه، وكان حُكمه في صعوبة فسخه، وتعذر دفعه حكم الأجسام، إذا لاقى محكم التنزيل».

وعلى هذه الأحكام والافتراضات، يدعو الجاحظ الكتّاب، إلى عدم التعنت بالرأي،

(1) سوف نتطرق إلى ذلك، أكثر تفصيلاً في الفصل القادم من هذا البحث.

(2) رسائل الجاحظ 2/ 187 - 188.

والإنصياع إلى مبدأ الإجماع، ومجانبة الهوى، لتحقيق الموضوعية في الحكم والأسلوب، وهي من أولى الشرائط الواجب رسوخها في منهج الكاتب، ثم يربط الجاحظ منهج الكتابة بأخلاق الكتّاب ويريده أن يكون مرآة عاكسة لفعلهم، وهو يأخذ في ذلك الجانب السلبي في منهجهم، لينقده، وبالتالي يبحث عن النقيض البديل المرجو، يقول[1]: «وأبيّن مع ذلك رداءة مذاهب الكتّاب، وأفعالهم ولؤم طبائعهم وأخلاقهم، بما تعلم أنت والناظر في كتابي هذا/ يقصد رسالته في ذم أخلاق الكتّاب/ أني لم أقل إلا بعد الحجة، ولم أحتج إلا مع ظهور العلة، ثم استشهد مع ذلك الأضداد تبياناً، وأجمع عليه الأعداء إنصافاً، إذا كان في ذلك ما يبهرهم ومن القول ما يسكنهم».

ذلك هو منهج الجاحظ في الكتابة، وهو ما يطالب فيه، ويسعى لتحقيقه، لكنه من الصعوبة بمكان على غيره، ولو وجده عند أحدهم/ كطبقة من الكتّاب/ لما وجّه نقده إليهم، ولو كانوا هم، على نفس الدراية والكفاية، لكفوه مشقة النقد وجهد المتابعة والإحاطة والشمولية، وهو المعروف عنه بسعة الاطلاع وقراءة كل كتاب يقع عليه بصره[2].

ثم يلتفت الجاحظ إلى ناحية أخرى هامة في مذهب الكتّاب، ويقف عندها، هو طبعهم الشخصي، ومسلكيتهم في ميدان الكتابة، وتدني معرفتهم، فيكشف ذلك لهم، لعلهم يأخذون به، يقول[3]: «ومن الدليل على نذالة طبعهم، والعلم بفسالة[4] رأيهم، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه، وقضائهم بالعلم لمن لا يعرفونه، حتى أنهم يضربون بالكاتب المثل فيما بينهم، ويحكمون له بالبصيرة في الادب، على غير معاشرة جرت بينهم، ولا محبة ظهرت له منهم، ليس إلا أن هممهم صغرت عنهم وامتلأت قلوبهم منها، فصار المحفوظ من أقوالهم، والذي يدينون به من مذاهبهم: كيف لا يأمن فلان الخطأ مع جلالته، وكيف ينساغ لأحد تجهيله مع نبله، فإن وقفوا على تمييزه هابوه، وإن دعوا إلى تفهمه أكبروه، وقالوا: لم يُنصب هذا بموضعه إلا لخاصة فيه وإن جهلناها، وفضيلة موسومة وإن قصر علمنا عنها».

مسؤولية الجاحظ، هنا تبدو واضحة جداً، إزاء ظاهرة الكتابة من الناحية المعرفية والمنهجية، ومن الناحية الأخرى، تبدو ملامح الصميمية للإبداع، تدعوه لأن يستهزىء

---

(1) رسائل الجاحظ 2/ 188.

(2) راجع ترجمته عند ياقوت الحموي في/ معجم الأدباء/ 16/ 74 مطبوعات دار المأمون المصرية بإشراف د. أحمد فريد رفاعي.

(3) رسائل الجاحظ 2/ 197.

(4) الفسالة - الضعف.

بالكتّاب والذين هم دون مستوى الاصطلاح ذاته، وروح الحميّة عند الجاحظ، على هذه الظاهرة، تبدو متأججة دائماً، وهو في قلبها كالمحور الذي تدور عليه الرحى، فهو دائم الملاحظة لهم، صافي البال عما يتناقلون، مبحر فيما يكتبون، تتقافز أمامه الهنات فيرصدها ويعلّم على مواضعها، يعنيه الجوهر أكثر من المظهر، وحسه الثقافي، حاضر دائماً في عمق هذه الظاهرة، التي يريد لها أن تتبلور في سعة وعمق نوعي، لا تضخّم ملؤه ورم وانتفاخة شحم، لذلك داعبهم ذات يوم وهو جالس في بعض الدواوين فقال[1]: «خِلق حلوة، وشمائل معشوقة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم فإن ألقيت عليهم الإخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاء، وكنبتة الربيع، يحرقها الهيف من الرياح، لا يستندون من العلم إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة، أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم، الويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون».

أوليس الجاحظ هنا يتكلم بلسان عصرنا؟.. هذا النص يؤكد أنه يعيش بين ظهرانينا، إذن مسؤولية الكتابة، هي مسؤولية قد تكون أكبر من مسؤولية السياسي، إذن لم يقف الجاحظ مكتوف اليد إزاء هذه الظاهرة التي يعشقها، بل امتزج فيها، وساهم بنقدها بروح ملؤها المسؤولية، ومؤلفاته العديدة، تشهد على ذلك، وبتقديرنا، أنّهُ بثّ رسالته بين الملأ، فأوضح منابع سنن الكتابة، وترك باب الإبداع مفتوحاً للقادمين بعده، وترك آثاره شواهد ومراجع، لينتفع بها غيره وعندما جاء اللاحقون عليه، اغترفوا منها، وأشادوا بفضله، حتى وإن خالفوه في المذهب والدين.

إنَّ التأثير المعرفي الذي تركه الجاحظ، ظل سُنّة للكتّاب بكل العصور، وعندما جاء ابن قتيبة حاول ترسم خطاه، وقد أفلح بالكثير منها، وشعوره بالمسؤولية يتماثل وحس الجاحظ، بهذا الباب، وقد أوضحنا في الفصل السابق، الكثير من جهوده في ميدان صناعة الكتابة، فهو الآخر، راح يضع أساسات معرفية لصنعة الكتابة، أراد من خلالها أن يقوّم أساليب الكتّاب، فبدأ معهم باللغة، والتي هي عماد الأدوات في الكتابة، فقال[2]:

«ولكنها - يقصد الكتب التي وضعها - لمن شذا شيئاً من الأعراب، فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الوراء والألف عن الياء وأشباه ذلك».

ومن اللغة ينتقل إلى علم الحساب والرياضيات مؤكداً على النظر في الأشكال لمساحة الأرضين، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحاد، والمثلث المنفرج،

(1) رسائل الجاحظ 2/ 199.
(2) أدب الكاتب/ ص12.

ومساقط الأحجار، والمربعات المختلفات، والقيسي والمدورات والعمودين، ويمتحن معرفته بالفعل في الأرضين، لا في الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين، ومن هذه الأوليات، يرى ابن قتيبة أن ينتقل الكاتب المتعلم إلى مسألة غاية في الأهمية، في زمانه، هي: معرفة أصول التشريع وأحكامه، منطلقاً من الفقه يقول[1]: «ولا بد له من النظر في جُمل الفقه، ومعرفة أصوله من حديث الرسول ﷺ وصحابته»، كقوله: «البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه[2] والخراج بالضمان، وجرح العجماء جبار، ولا يُغلق الرهن، والمنحة مردودة، والمعارية مؤداة، والزعيم غارم، ولا وصية لوارث، ولا قطع في ثمر ولا كثر، ولا قود إلا بحديدة، والمرأة تعاقل الرجل إلى ثلث ديتها، ولا تعقل العاقلة عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً، ولا طلاق في إغلاق، والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا، والجار أحق بصقبه، والطلاق بالرجال والعدة بالنساء، وغير ذلك، وابن قتيبة ينطلق في جملة هذه المعارف، ليؤسس معجماً ثقافياً للكاتب، يستعين به في صناعته، ويتزود به في حياته العملية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يريد الانتماء إلى المصدر الأساسي في ثقافة ذلك العصر، والتي يشكل الفقه والدين، عموداً فقرياً لها، ومن هنا جاء التوكيد الأبرز عند ابن قتيبة، لذلك يعطيه مكان الصدارة في الأخذ، ومن الفقه ينتقل بتوكيداته إلى دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث، كي يتمكن الكاتب من توظيفها في تضاعيف سطوره، ممتثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور وكل هذه الأمور يريدها أن تكون عند الكاتب في فلك عقله، لأن الأمر - كما يقول - مداره على القطب، وهو العقل، وجودة القريحة، فإن القليل منها كافٍ، والكثير مع غيرهما مقصر[3].

ثمة إستدراك جميل، يلتفت إليه ابن قتيبة، هو مبدأ الأخلاق في سلوك الكاتب، قبل التعاطي والأخذ بمنهجه، يقول بهذا الصدد: ونحن نستحبُّ لمن قبل عنّا، وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه، قبل أن يهذب ألفاظه، يصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب - قبل مجانبته اللحن وخطل القول - شنيع الكلام، ورفث المزح[4].

فهو يريد تهذيب أخلاق النفس، قبل تهذيب أدوات الكتابة، ويدعو الكتّاب إلى نبذ

---

(1) أدب الكاتب/ص13.

(2) جاء بصحيح البخاري - كتاب الرهن: إذا اختلف الراهن، والمرتهن ونحوه، فالبينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه - 3/ 116 - نشرة دار الطباعة العامرة - القاهرة 1315هـ.

(3) أدب الكاتب/ص14.

(4) أدب الكاتب/ص14 - 16.

السباب وشتم السلف، وذكر الأعراض بكبير الفواحش، لأنه يؤكد على أن مثل هذه الأمور لا تُرضى لصغار الولدان، ثم يلتفت إلى ناحية مهمة، ينبّه عليها الكتّاب لتلافيها هي، هفوة التقعير في الكلام والتعقيب فيه ويضرب مثلاً في ذلك قول يحيى بن يعمر وهو يخاطب رجلاً تقاضى عنده في شأن زوجته: «إن سألتك ثمن شكرها وشبرك، أنشأت تطلها وتضهلها[1] ويعلق ابن قتيبة على ذلك بالقول[2]:

«فهذا وأشباهه، كان يستثقل، والأدب غض والزمان زمان، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويرونه تلو المقدار في درك ما يطلبون وبلوغ ما يؤملون، ثم يشير على الكاتب، إذا استطاع، أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الأعراب، ليسلم من اللحن وقباحة التقعير، مورداً شاهداً هاماً هو واصل بن عطاء، وكيف سام نفسه للثغة إخراج الراء من كلامه، ولم يزل يروضها، حتى انقادت له طباعه، وأطاعه لسانه، ويضيف: وليس حكم الكتاب في هذا الباب حكم الكلام، لأن الإعراب لا يقبح منه شيء في الكتاب ولا يثقل، وإنما يكره فيه وحشي الغريب وتعقيد الكلام[3]، وسهولة الألفاظ في سياق العبارة عند الكتّاب، كان يشدد عليه ابن قتيبة، في منظورين، معرفي واجتماعي، في الأول تجاوز عقدة التقعير اللغوي والحشو في الاسترسال، والثاني، تبيان القيمة الاجتماعية في أسلوب المخاطبات، وهي حالة طبقية، كانت تلقي بظلالها على الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، لذلك يقترح على الكاتب أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، كي لا يقع - في سياق الاسترسال - في تناقض لفظي أو منهجي فيقول[4]: وربما صدّر الكاتب كتابه بـ«أكرمك الله وأبقاك» فإذا توسط كتابه، وعدد على المكتوب إليه ذنوباً له، قال: «فلعنك الله وأخزاك» فكيف يكرمه الله ويلعنه في حال؟.. وكيف يجمع بين هذين في كتاب؟.

بهذه الالتفاتة، يضعنا ابن قتيبة بتصور واضح للأساليب السائدة في عصره، والتي يعارض سيادة منهجها لطلابه/ الكتبة/ ثم يختم توجيهاته للكتّاب بقوله[5]: «هذا منتهى القول

---

(1) جاء في حاشية أنباء الرواة على أنباه النحاة 4/ 21 ما يلي: الشبر النكاح والشكر البضع، وقال ابن الأعرابي: شكر المرأة - فرجها، وتطلها - يريد تمطلها، وتضهلها - أي تقتر وتضيق عليها/ الهامش رقم 1 من الصفحة أعلاه/نشرة أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1973.م.

(2) أدب الكاتب/ ص16.

(3) المصدر السابق/ ص17.

(4) نفس المصدر/ ص19.

(5) أدب الكاتب/ ص20.

فيما نختاره للكاتب، فمن تكاملت له هذه الأدوات، وأمده الله بآداب النفس من العفاف والحلم، والصبر والتواضع للحق، وسكون الطائر، وخفض الجناح، فذلك المتناهي في الفضل، العالي في ذرى المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بخير الدارين». وبهذا يكون قد أشار بتحمل مسؤوليته كرائد من رواد الكتّاب في (ق 3هـ) ثم يبدأ بسرد أبواب كتابه أدب الكاتب، باباً باباً، وهو بحق كتاب معتمد لمن يريد أن يسمو بحرفة الكتابة.

إنَّ المناهج «المدرسية» - إن صح التعبير - التي أخذت عن الجاحظ ومن بعده ابن قتيبة، جعلت من الكتابة، مهنة، يتعاطاها الكتّاب بجميع «طبقاتهم» وهم بين مختلف الفئات الاجتماعية فهذا يجوّد، وذاك يخطل، والآخر يقوّم، حتى تضافرت كل الجهود لرفع مكانة الكتابة والكتّاب، وما إن أطل (ق 4هـ)، على بغداد، حتى أخذت أسس الكتابة تترسخ عند الكتّاب، وتتمايز بين كاتب وآخر، وكذلك بدأت العلوم هي الأخرى تجد مناهجها وترسخ أقدامها، ويتحمس فيها كتّابها، وثمة إشارة هامة في هذا الباب تركها الجاحظ لمن جاء بعده، وقد أخذ بها اللاحقون عليه، تقول[1]: «إنَّ الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحوّل الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب تشحذ وتفتق، وتشفي، ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه، فإن ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه، فمن كان ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلا في ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد» هذه الوصية، يريد بها الجاحظ التخصص في فن من الفنون، مع موسوعية ثقافية، ما أمكن، تصب في مجرى الفن الواحد، وترفده من جميع الجهات، والتخصص هذا فرضته الحالة الثقافية والسياسية السائدة في هذا العصر، فالفقه مثلاً تميز عن غيره من علوم الدين وأصبح العلماء فريقين، الفقهاء والعلماء، وكانت غالبية طلبة العلم المتكسبين يقصدون الفقهاء لأنهم حملة علوم الشريعة والعبادات، ثم تطور علم الكلام ونهض بعد أن تخلّص من قيود علم الفقه، وظهرت الأفكار الجديدة، وأخذت تبرز على الساحة العلمية أعلاماً بارزة تعلّم بوجودها المعرفي من خلال التخصص ذاته، دائبة السهر في التزود من العلوم وملىء المشكاة بالمعارف، فالعلم يحتاج إلى أهله الكرام، لأنه يأبى/ كما يقول المقدسي[2]/ :

---

(1) الجاحظ/الحيوان/ 1/ 59 - 60، الطبعة 2، بعناية عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي بمصر.
(2) البدء والتاريخ 1/ 4 - 5 بعناية كلمان هور - باريس سنة 1899م.

أن يضع كنفه أو يخفض جناحه، أو يسفر عن وجهه إلاّ لمتجرد له بكليته، ومتوفر عليه بأينيته، معانٍ بالقريحة الثاقبة والرؤية الصافية، مقترناً به التأييد والتسديد، وقد شمّر ذيله وأسهر ليله، حليف النصب، ضجيج التعب، يأخذ مأخذه متدرجاً، ويتلقاه متطرفاً، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام، ومع هجران عادة الشر والنزوع عن نزاع الطبع ومجانبة الألف، وعلى هذا الأساس برز التنافس بين العلماء والأدباء والكتّاب، وأخذ التميّز بين هؤلاء يظهر واضحاً، فصاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً، وكان يتميز عن العلماء في لباسه، فالعلماء يلبسون الطيلسان، متحنكين[1]، ثم برزت ظاهرة ثقافية هامة في هذا القرن هي وجود الطلاب وشيوخهم في مختلف العلوم، وقد كان لحالة الصراع الايديولوجي بين المذاهب المختلفة، أثره الإيجابي في نهضة هذه الجموع من الأساتذة والطلاب، وأغلبهم صاروا علماء وكتّاب، مما أثرى واقع الحال لظاهرة الكتّاب، ثم أشيعت ظاهرة تعاطي الدروس للفقه والكلام وغيره، وكانت المساجد هي مكانهم الأرحب في الأخذ والنقاش، حيث تظهر حلقات الدرس، كل شيخ وتلاميذه تراهم إلى جانب أسطوانة في المسجد، مسنداً إليها ظهره قدر الإمكان، وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء، دوروا وجوهكم إلى المجلس، وكان جامع المنصور ببغداد أشهر مركز للتعليم في دار الإسلام[2].

وفي لجة هذا البحر المتلاطم من التوسع الثقافي والمعرفي، فإن «طبقة الكتّاب» آخذة بالتوسع لا ريب، وهذا الأمر يحتاج إلى رقابة مهنية ومعرفية، كي تحافظ على ضبط مناهج الصنعة، وهو ليس بالأمر الهين، لأنه لا توجد هناك معاهد متخصصة لتخريج كتبة، سوى ما يسمع من محاضرات في المساجد، وتلك عامة، فيما تكون مسألة الكتابة خاصة، لذلك تكون الخامات العبقرية، هي التي تتحسس لهذا الاختصاص، باعتبارها جزءاً منه، وحالة شاهدة عليه، وهو ما كان، فقد أدرك (أبو بكر محمد بن يحيى الصولي) أهمية التصدي لمثل هذه الظاهرة، وكان هو واحد من أبرز أعلامها في الترسل والبلاغة والأدب، فراح يتابع الجاحظ وابن قتيبة في منهجيهما لوضع مناهج مكملة، ويرسم الخطى بروح مسؤولة، فقد كان الصولي على قدر كبير من الدراية والمعرفة بخفايا اللغة وأساليب الترسل في الكتابة، أخذ الدرس عن ثعلب والمبرد[3]، وهما من أئمة اللغة في عصرهما، له من

---

(1) آدم ميتز - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - 1/ 303 - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة - ط3 القاهرة 1377هـ/ 1957م.

(2) آدم ميتز - 1/ 314.

(3) ابن خلكان - وفيات الأعيان 4/ 356 - الترجمة رقم 648.

التصانيف عدة، كلها تدور في شؤون الأدب واللغة وأخبار الشعراء والأدباء، وفنون المعرفة، ثم صار نديماً، لحُسن ظرافته لثلاث خلفاء عباسيين هم الراضي والمكتفي والمقتدر.

ومن واقع المسؤولية لأمر الكتابة، فإن الصولي، يخصص كتاباً هاماً من مؤلفاته، أسماه «أدب الكتّاب» مستدركاً ما فات ابن قتيبة في كتابه «أدب الكاتب» بغية تحقيق المنفعة العامة في هذا الفن، فهو يقول[1]: «وهذا كتاب ألفناه فيما يحتاج إليه أعلى الكتّاب درجة، وأقلهم فيه منزلة، وجعلته جامعاً لكل ما يحتاج الكاتب إليه، حتى لا يعوّل في جميعه إلا عليه».

وهذا الكتاب، هو خبرة جامعة لتطور عصور الكتابة قبله، ووصولها إليها، في شرطه الزمني والتاريخي، وقد أورد فيه حوالي 90 فصلاً قسّمها في ثلاثة أبواب، هو يسميها «أجزاء ثلاثة» والحقيقة، أن الشمولية التي أحاط بها الصولي بهذا الكتاب، لم تترك شيئاً من شأن الكتابة، إلا وجاءت على ذكره، بدءاً من ظهور الكتابة وانتهاء بقط القلم والأدوات وحجم القرطاس وغيره.

ينطلق الصولي من فهمه لخصوصيات الكتابة والكتّاب، فيقول[2]: وبالكتابة جُمع القرآن، وحُفظت الألسن والآثار، ووُكدت العهود، وأثبتت الحقوق، وسيقت التواريخ وبقيت السكوك، وأمن الإنسان النسيان، وقيدت الشهادات، وأنزل الله في ذلك آية الدين، وهي أطول آية في القرآن، ويبدي مشاعره مع هذه الفئة - الكتّاب - حاضاً إياهم على التفرغ لها، والإقبال عليها لأنها من الصناعات الشريفة، ولأنها من أجل ما كدّ فيه الفكر وقطعت به الأيام، ثم يُحفّز الكثير من الناس للخوض في غمارها، قائلاً: وليس يجب لمن صغر من هذه العلوم أن يدع التعلم آيساً من الإستفادة، مولياً من الاستزادة، فربما كان الإنسان مهيأ الذهن لحمل العلم، قريب الخاطر، متقد الذكاء، فيضيع نفسه بإهمالها، ويميت خاطره بترك استعمالها، فيكون كما قال علي بن الجهم[3]:

والنار في أحجارها مخبوءة   ليست ترى إن لم تثرها الأزند

وبهذا يكون منهج الصولي، يعتمد على التجريب في بعض الأحوال، معتبراً أن حالة

(1) أبو بكر الصولي/ أدب الكتّاب/ ص20.

(2) المصدر السابق/ ص24.

(3) نفسه/ ص26 - 27، وراجع ديوان علي بن الجهم/ ص43 - بعناية خليل مردم بك - منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق 1369هـ/ 1949م.

الابداع قد تكون كامنة تحتاج من يحركها، وهذا الموقف، نابع من تجربته الخاصة في ميدان الكتابة، ثم أنه يعتبر الكتابة فوق كل صناعة، وهو منحاز بكلّيته، وقد سما بها أيما سمو وتجاوزت أي عمل آخر، من أعمال الحياة، ويُثبت هذا الموقف، ببيت من الشعر يستشهد فيه على فكرته أو موقفه يقول[1]:

إن الكتابة رأس كل صناعة ... وبها تتم جوامع الأعمال

شكّل الأسلوب مفتاحاً رئيسياً في الكتابة في (ق 4هـ)، الأمر الذي توقف عنده الصولي، وأخذ يعالجه، بطريقة يلزم الكتّاب فيها، بناء على ما يراه هو، وما يرتضيه الجمهور من بعده، وتقبله دواوين الدولة، وفق اعتقاداتها الأيديولوجية والثقافية، لذلك يفرد لهذه الناحية فصلاً من كتابه/ أدب الكتّاب/ يسميه «رسوم الكتّاب» كنقطة أولى في علم التدرج الكتابي، يبدأ الكتّاب منها في تعلم الكتابة، يقول الصولي في هذا الصدد[2]:

«في كتابتهم (بسم الله الرحمن الرحيم) يختار الكاتب أن يبدأ بكتاب/بسم الله الرحمن الرحيم/ من حاشية القرطاس، ثم يكتبون الدعاء من تحته مساوياً. ويستقبحون أن يخرج الكلام عن بسم الله الرحمن الرحيم، فاضلاً بقليل، ولا يكتبونها وسطاً، ويكون الدعاء فاضلاً، وإنما يفعل ذلك بالتراجم، ومن الكتّاب من يرى أن يجعله وسطاً في أسفل الكتاب، بعد إنقضاء الدعاء الثاني، والتاريخ إذا احتاج إلى تبيين نسخة كتاب متقدم أو حساب، ليفرّق بين منزلته من صدر الكتاب وبين عجزه، وقد ذهب إليه قوم، ولا يفسح ما بين بسم الله الرحمن الرحيم وبين السطر الذي يتلوه من الدعاء، ولكن يُفسح ما بين الدعاء إذا استتمَّ وبين سائر المخاطبة، ولا يتجاوز بالدعاء ثلاثة أسطر، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلاّء الكتّاب».

ومن هذه التعليمات في الأسلوب واشتراطاتها الأولية على الكتّاب، يبدأ الصولي بعدما يذكر الأمور الفنية واللغوية، وكيفية توظيفها في النص، من مثل «أمّا بعد» وكيفية البدء في الإنشاء والصلاة على النبي محمد، وبدء الكتابة باسمه، والإنتهاء باسم كاتب الكتاب، وكذلك عن الأئمة بإمرة المؤمنين، والإمامة والتصدير في أول الكتاب، والدعاء في آخره للإمام وولي العهد والوزير واحد. إلا أنهم قالوا: سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وكذلك لولي العهد في التصدير والدعاء الأخير، ولم يقولوا للوزير «وبركاته» ليفرقوا بين المحلين، وكان التصدير ينتهي إلى قوله: «فإني أحمد إليك الله الذي

(1) أدب الكتّاب/ ص28.

(2) أدب الكتّاب/ ص36.

لا إله إلا هو» إلى أن أفضت الخلافة إلى الرشيد فأمر أن يزاد فيه: «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله». فكتب بذلك[1]. ثم يلتفت الصولي إلى أمر الخط مؤكداً على جودته وتحسينه، مورداً الشواهد والأمثال والحكم لما قيل في حسن الخط وقبحه[2] وما قيل في النقط ووصف القلم، حتى ليورد الشواهد الشعرية التي تحبذ للسامع والكاتب حسن الاختيار، من ذلك، قول أبو أسامة الكاتب[3]:

وأعجف مشتق الشباه مقلّم	موشى القرى طاوي الحشا أسود الفم
تبين خفي السر آثاره لنا	ويعرب عن غير الضمير المكتم
يؤدي صحيح القول عنه مخاطبا	بهِ العين دون السمع لا بالتكلّمِ
إذا إستغزرته الكف فاضت سجاله	من الفكر فيض الرايح المتغيّم

وفي الباب الثاني من كتابه، يتطرق الصولي إلى الإنشاء وأهميته عند الكاتب، ثم يعرج على السطر وأصله واستعمالاته[4] وكيفية مقابلة الكتاب على بقية النسخ، والخطأ في الكتابة وكيفية ملافياته، والمشق في الكتابة (أي السرعة) والزلف، أو التجاوز من شيء إلى شيء، وفض الكتاب، أو تنحيت المادة اللآصقة على الدرج من طين وسحات[5] وغيره، ثم ترتيب الكتابة والمحو فيها، ومعنى عرض الكتاب والتدرب عليه[6] ثم نبّه على اللحن في الكتابة وكيفية تجاوزه، والتعلّم والإملاء وطي الكتاب ودرجه، ودرس الكتاب وسرده، وكيفية استعمال الخاتم وسببه، وعنونة الكتاب، ومقادير القراطيس التي يكتب فيها، وغير ذلك من الأمور الخاصة في الكتابة والكتّاب[7]. ثم ينتقل الصولي إلى إيراد نماذج تطبيقية يوردها كشواهد للكتاب كي ينحو منحاها، وفق تسلسل الهرم الطبقي، فيورده مثلاً ما يكتب الإمام إلى ولي عهد المسلمين فيقول[8]، من عبد الله أبي فلان الإمام الراضي بالله أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد وآله»، ثم يكتب بما يراد، ثم يقال: «فاعلم ذلك من

---

(1) أدب الكتّاب/ ص36 - 40.
(2) نفسه/ ص41 - 56.
(3) نفسه/ ص57 - 85.
(4) أدب الكتّاب/ ص118.
(5) السحات - القشرة.
(6) أدب الكتّاب/ ص 120 - 129.
(7) المصدر السابق/ ص129 - 162.
(8) نفسه/ ص163.

رأي أمير المؤمنين، وكتب فلان بن فلان باسم الوزير وباسم أبيه، يوم كذا من شهر كذا، من سنة كذا».

وهذه النماذج خاصة بديوان الخليفة ومخاطباته فقط لمن هم أدنى منه مرتبة اجتماعية أو إدارية، ويُكتب عن ولي العهد مثل ذلك، إلا أنه يجعل مكان أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين، وعلى هذه الشاكلة كتب الإمام الديوانية إلى الوزير، أما مكاتبة الوزراء إلى أمراء النواحي ومن ساواهم فهي على الشكل التالي[1]: «أطال الله بقاءك، وأدام عزك وكرامتك، وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك وعندك». وربما زيدت لفظة ونقصت لفظة، ودون هذا قليل، وأول من كتب «أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه» سليمان بن وهب وكانت «وأعزّه».

وأما مكاتبات الناس إلى الخليفة أو ولي العهد أو إلى الوزير فيكتب فيها: «العبد الله فلان بن فلان إلى كذا أمير المؤمنين، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله»، ويكون ذلك في سطرين، وبعض آخر، ثم يقال: «أما بعد، أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه وتأييده وكرامته وسعادته وحراسته، وأتم نعمته عليه، وزاد في إحسانه إليه بفضله عنده، وجميل بلائه لديه وجزيل قسمه له» ويكون في سطرين، ثم يقال بعد ذلك: «فقد كان كذا» لأن جواب «أما بعد» بالفاء، فقد كان كذا وكذا، فإذا أتى على جميع المعاني المحتاج إلى مكاتبة فيها فبلغ إلى الدعاء قال: «أتم الله على أمير المؤمنين نعمته، وهنّاه كرامته، والبسه عفوه وعافيته وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وكتب فلان يوم كذا في شهر كذا، وإلى ولي العهد والوزير مثل ذلك، إلا أن الفرق بين الإمام وبينهما أن يُكتب إلى الإمام مع السلام وبركاته، وفي آخر الكتاب، مثل ذلك، ويحذف وبركاته إلى هذين في التصدير، ويثبت في آخر الكتاب[2]. ويكاتب الوزير أيضاً الإمام بغير تصدير، إذا لم تكن الكتب منشأة من الدواوين، ويكاتب الوزير في الحوائج بغير تصدير، وإذا كوتب أمير أو قاض يقال: «أطال الله بقاء الأمير أو القاضي» لم يُقل أما بعد، ولا سلام على أحدهما. أما مكاتبة النظراء تحتمل كل شيء، على حسب المودة[3].

وثمة مسألة هامة ينبه عليها الصولي بصدد طريقة الكتابة وعُرفها هي، قراءة الكتاب

(1) نفس المكان.

(2) أدب الكتّاب/ص164.

(3) المصدر السابق/ ص165.

بعد إنشائه وكتابته، أو ما يعرف اليوم «مراجعة الكتاب» وهي مسألة هامة، تحكم الكاتب بمراجعة أفكاره وأسلوبه، وتفقّد مكمن السهو، إن وجد، وهو عرف يأخذه من مصدر السنّة يقول[1]:

عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي عليَّ، فإذا فرغت قال: «اقرأه، فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه»[2]، وهو إنما ينطلق من هذه الزاوية، لأنه يخاطب عقولاً تأدلجت بالعقيدة والشريعة الإسلامية، ثم أنه يعطيه صفة «السنّة» كي يُثبّت فيه المنهج، وتلك خصيلة محمودة، يتوجب الأخذ بها، وهو يصرّ عليها ويستشهد برأي أحد الكتّاب السابقين عليه يقول[3]:

ألمح كتابك حين تكتبه ... واحرسه من وهم ومن سقط

واعرضه مرتاباً لصحته ... ما أنت معصوم من الغلطِ

والدلالة النقدية في هذا البيت، حريٌ أن يؤخذ بها، لأن مبدأ الشك في صحة المعلومات إذا إنطلق منه الكاتب، يؤدي به إلى اليقين لصحة الحدث والواقعة، ومن هذا الجانب يكون التأكيد بعرض ما يُكتب لشخص آخر مطّلع، بنفس الفن، كي تكون سلامة الأفكار والنقل والتدوين، وبتقديرنا، أن هذا المنهج في الكتابة، لهو أمر يدلل على حرص الكتّاب - في ذلك الوقت - على اليقين والصدق فيما يكتبون، وكأن الأمر المستقبلي - لتطور الحضارة والثقافة، يعنيهم بالمقام الأول.

ومن هذه الزاوية بتحمل مسؤولية الكتابة، يتعرض الصولي إلى فئة من الكتّاب تدعي تعاطي الكتابة وهم لا يحسنوها[4]، وهو ينحو في الاتجاه منحى الجاحظ في الإزدراء والتندّر على أمثال هؤلاء الكتّاب فينقل ما قاله الشعراء في هجوهم، فمن ذلك قول أحدهم:

حمار في الكتابة يدّعيها ... كدعوى آل حرب في زيادِ

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو غرّقت ثوبك في المداد

ولا يكتفي الصولي بذلك، بل يأخذ الأمرعلى عاتقه، لتخليص حقل الكتابة من هؤلاء

---

(1) المصدر نفسه.

(2) راجع - الترمذي - باب القرآن 11.

(3) أدب الكتّاب/ص165.

(4) المصدر السابق/ص170.

الأدعياء فيمارس بحقهم النقد اللاذع، وبالوسيلة الأكثر انتشاراً - الشعر - في ذلك الوقت، فهو يقول: ولي أبيات في بعض الكتّاب[1]:

إن كانت الكتبة بالشوم	ورقة الأخطار واللومِ
فصغر الحلقة حتى ترى	وأنت معلوم كمعدومِ
فأنت لا شك على ما أرى	أكتب من في العرب والرومِ
الدهر ذو ظلم ولكنّهُ	منك تشكّى حال مظلوم
يأنف أن تحيا ولكنّه	تحت قضاء فيك محتوم

ثم بعد ذلك، ينتقل إلى مسألة الدعاء ولغته في المكاتبات كقولهم «أطال الله بقاءك» وكيف قُبلت وأُخذت، وعورضت وقبحت على اعتبار أنها من مفردات الزنادقة[2] ويشدد في ذكر التاريخ ذاكراً بعض لهجات القبائل في فهمه، ومعناه لغة، يقول[3]: «ويقال ورّخت الكتاب توريخاً، لغة تميم وأرخته تأريخاً لغة قيس»، ويذكر بأن العرب غلّبت الليالي على الأيام في التاريخ، لذلك تكون مشاهدة الهلال إحدى الدلائل لتثبيت التواريخ فيقولون في ذلك «وكتب ليلة الجمعة غرّة كذا، ومستهل شهر كذا، ومَهل شهر كذا»[4].

ثم لم ينس الصولي تطور الظواهر الثقافية في آنه، وكيفية التعاطي معها إيجابياً، لا سيما مسألة الثقافات الأخرى الوافدة على بغداد من رومية وفارسية وهندية وغيرها، فينتبه إلى موضوع الترجمة، مجارياً الجاحظ في هذا المجال[5]، إلا أن ما وصلت إليه الحضارة في زمن الصولي، هي أبعد مما في زمن الجاحظ، لذلك ينبّه الكتّاب إلى الكيفية المنهجية التي يتوجب على الكاتب أن يعمل بها، يقول[6]: «أصل هذه اللفظة فارسية/ الترجمة/ وكذلك الترجمان، وقد تكلمت بها العرب بعد ذلك وعرّبتها، ويضيف: وإنما ذكرتها هنا لأني أحب أن لا يصفّر كتابي هذا من شيء يحتاجه الكاتب». ثم يروح يسرد كيفية البدء بالترجمة، وهذا يدلل على شيوع الترجمة والعمل بها بين الكتّاب والورّاقين، ثم يذكر الديوان وكيف تم العمل به عربياً بعد أن كان فارسياً[7].

---

(1) أدب الكتّاب/ ص171.
(2) المصدر السابق/ ص172 - 175.
(3) نفسه/ ص178.
(4) نفسه/ ص180 - 181.
(5) راجع كتاب الحيوان للجاحظ 1/ 75 - 78.
(6) أدب الكتّاب/ ص186.
(7) المصدر السابق/ ص187 - 195.

وفي الباب الثالث - من كتابه «أدب الكتّاب» يوجه الصولي عنايته إلى كتبة الحساب أكثر من غيرهم، مبتدءاً بالمال وكيفية حسابه وجبايته، وما هي ثقافة الكاتب في ذلك، مؤكداً على فهم الأحكام الشرعية ووجودها في التطبيق، وحسابات الخراج وغيرها من الأمور[1]، ثم يفرد فصلاً خاصاً للمحاسبين، مورداً لهم الشواهد والبيانات للتعلم والأخذ عنه[2]، ثم يخصص الفصول الأخيرة من كتابه إلى أحرف اللغة وكيفية نقصانها وإسقاطها في منهج الكتابة[3].

وبهذا الكتاب يكون الصولي، قد أبرأ ذمته، لأنه أراد لعصره ما تمنّاه لنفسه، وقد كان منفعلاً ومتفاعلاً مع روح العصر الذي كان يعيشه، وأتمّ رسالة سابقيه الجاحظ وابن قتيبة في هذا المجال.

وعلى الصعيد الثقافي الآخر، أثرت ظاهرة ثقافية أخرى في نمو وتطور المعرفة بشكل عام، وتطور وعي الكتّاب والمثقفين، بشكل خاص، تلك هي «ظاهرة المجالس والندوات» حيث كان يطرح فيها الأستاذ، أو العالم آراء ليناقش عليها، وتبدأ عملية الصراع الفكري تأخذ مجراها، في عملية ثقافية صاعدة، فاسحة المجال لتلاقح الأفكار، من شتى الاتجاهات والمشارب وقد كان لمجالس النحو أهمية فائقة، في شحذ أذهان الكتّاب، وأقلامهم، فهذه المجالس، كانت تناقش أسرار اللغة العربية، وما فيها وما دخل عليها، فتبين وحشي الكلام، وتقوّم نطق المتكلمين وألسنة الشعراء والأدباء، وكان لاختلاف المدرستين النحويتين - البصرية والكوفية - أثره الأبلغ في تطور علوم العربية عامة، والنحو، بشكل خاص، فقسم المتخاصمين إلى فريقين، جذب حولهم أشياعاً وأتباعاً من شتى المذاهب الفكرية، فهذا الكاتب يشايع تلك المدرسة، والآخر ينضم إلى المدرسة الأخرى، وهذا يقيس على مبدأ سيبويه، والآخر يناصر عليه بمذهب عمرو بن العلاء، وبالتالي ينقسم العراق نحوياً، قسم يأخذ بنحو الكوفة، والآخر يلتزم بنحو البصرة، الأمر الذي يحرك بقية الأمصار الإسلامية، لأن تدخل في حلبة الصراع الفكري، وتعطي للنحو حقه، من هذا الصراع، وهذه المسألة الثقافية الرائعة، عادت بباحثي تلك العصورمن العودة إلى الموروث الجاهلي، وتقصي الحقائق فيه، ومن ثم إثارة الفكرة عن طريق شواهد الشعر الجاهلي، واعتماد لغة الأعراب فيصلاً في قضايا الخلاف النحوي، وهذه «الخلافات» أثرت اللغة العربية ولقد كان الخلفاء العباسيون، رُعاة هذه المجالس،

---

(1) أدب الكتّاب/ص198 - 234.

(2) نفسه/ص338 - 343.

(3) نفسه/ص243 - 259.

وتجري المناظرات بحضورهم، وقد اشتهرت حادثة هامة في مسألة الخلاف النحوي بين شيخ المدرسة الكوفية في النحو الكسائي وبين شيخ المدرسة البصرية في النحو سيبويه[1] وبحضرة الرشيد.

وقد كان لهذا اللقاء وقعهُ المدوي على علماء اللغة وشيوخها في حواضر وبوادي الخلافة العباسية برمتها، وتناولته الأقلام، وجاءت على ذكره المصادر في مختلف العصور[2]، وقد استفاد طلاب علم النحو وغيرهم من هذا اللقاء الثقافي التاريخي الهام، ولا يزال صداهُ يتكرر ويدرس ويبحث حتى هذا اليوم، والواقعة نقلتها المصادر على النحو التالي: قال أبو إسحاق الزجاجي[3]:

حدثني أبو العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) وأبو العباس محمد بن يزيد (المبرّد) وغيرهما قال: قال الفراء: قدم سيبويه على البرامكة، فعزم يحيى البرمكي على الجمع بينه وبين الكسائي، فجعل لذلك يوماً، فلما حضر تقدمت والأحمر - يقصد خلف الأحمر - وكانا من أنصار الكسائي، وضمن المدرسة الكوفية - قال: فدخلنا، فإذا تمثال في صدر المجلس، فقعد عليه يحيى، وقعد إلى جانب التمثال جعفر والفضل، ومن حضر بحضورهم، وحضر سيبويه، فأقبل عليه الأحمر، فسأله عن مسألة أجاب فيها سيبويه، فقال له: أخطأت، ثم سأله عن مسألة ثانية فأجابه فيها، فقال له: أخطأت، ثم مسألة ثالثة فأجابه فيها، فقال له: أخطأت. فقال سيبويه: هذا سوء أدب..

قال الفراء: فأقبلت عليه فقلت: إن في هذا الرجل حداً وعجلة، ولكن ما تقول فيمن قال: هؤلاء أبون، ومررت بأبين، كيف تقول مثال ذلك من رأيت أو أويتت قال: فقدر فأخطأ، فقلت: أعد النظر، ثلاث مرات يجيب ولا يصيب، قال: فلما كثر ذلك قال: لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره. قال: فحضر الكسائي، فأقبل على سيبويه فقال: تسألني أو أسألك؟ فقال: لا بل سلني أنت، فقال الكسائي: ما تقول، أو كيف تقول: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور[4] فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي. ولا يجوز النصب، فقال له الكسائي: لحنت، ثم سأله عن

---

(1) انظر مقدمة عبد السلام هارون لكتاب سيبويه 1/ 8 طبعة عالم الكتب بيروت.

(2) انظر على سبيل المثال: معجم الأدباء - لياقوت الحموي، والاشباه والنظائر للسيوطي، وبغية الوعاة للسيوطي أيضاً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومجالس العلماء للزجاجي، ومجالس ثعلب وغيرها من المصادر.

(3) مجالس العلماء/ ص8 - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة الكويت 1962 والاشباه والنظائر للسيوطي 3/ 15 - طبعة حيدر اباد - الدكن - سنة 1360هـ.

(4) تُعرف هذه المسألة بـ«المسألة الزنبورية» بين الكسائي وسيبويه، وكثيراً ما ترد بهذه التسمية.

مسائل من هذا النوع مثل: خرجت فإذا عبد الله القائمُ أو القائمَ؟ فقال سيبويه: في كل ذلك بالرفع دون النصب، فقال الكسائي: ليس هذا كلام العرب، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب. فدفع سيبويه قوله، فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمن ذا يحكم بينكما؟ فقال الكسائي: هذه العرب ببابك قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم، فيُحضرون ويسألون. فقال يحيى وجعفر: لقد أنصفت، وأمر بإحضارهم، فدخلوا وفيهم أبو فقعص، وأبو زياد وأبو الجراح، وأبو ثروان، فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله: قال: فأقبل يحيى على سيبويه فقال له: قد تسمع أيها الرجل. قال: فاستكان سيبويه، وأقبل الكسائي على يحيى فقال: أصلح الله الوزير، إنه قد وفد عليك من بلده مؤمّلاً، فإن رأيت ألا تردّه خائباً. فأمر له بعشرة آلاف درهم. فخرج وصيّر وجهه إلى فارس، فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة[1].

هذه الواقعة، رغم أهميتها اللغوية، إلا أنه جرى فيها الافتراء على العلم والمعرفة، فالكسائي كما يُظهره النص قد حاك خيوط «مؤامرة لغوية» كي ينتصر فيها على سيبويه، ليثبت تفرده في علم النحو، ولم تكن المزاحمة على لقمة السلطان عن تفكيره مطلقاً، أما سيبويه فترك البصرة ومات بعد قليل وهو ابن 22 سنة[2]، وهذا الأمر يكشف الموقف الأخلاقي عند النحاة، وكان سيبويه من أقرب المقربين إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي فقد كان يقول له عند مقدمه عليه «مرحباً بزائر لا يمل»[3].

وعليه يثني المبرد، وفيه يقول الزمخشري[4]:

ألا صلى الإله صلاة صدق ... على عمرو بن عثمان بن قنبر[5]

فإن كتابه لم يُغن عنهُ ... بنو قلمٍ ولا أبناء منبر

وما يعنينا في هذه المسألة هو البعد المعرفي وإقبال الناس على مثل هذه الأمور، والتناظر فيها، والخوض في غمارها. مما جعل السلطة ترعاه في قصورها، بل وتأخذ به، وتجعله سنة يومية، في مسار حياتها، فأين اليوم نحن منها؟

---

(1) الزجاجي - مجالس العلماء/ ص8 - 9.

(2) انظر - بغية الوعاق للسيوطي/ ص366 - ط1 - القاهرة سنة 1326هـ.

(3) بغية الوعاة - نفس المكان.

(4) بغية الوعاة/ ص366.

(5) عمرو بن عثمان بن قنبر، هو اسم سيبويه، وكنيته أبو بشر.

وعلى هذا النمط من المطارحات الفكرية تجذرت ظاهرة «المناظرات والمجالس» في أكثر من مكان في بغداد وفي غيرها من المدن الإسلامية، وبقيت هذه الظاهرة ملازمة لكل العصور العباسية، وأدرك العلماء والأدباء والفقهاء، وغيرهم في صفوف المعرفة، ما لهذه المجالس من أهمية ثقافية وحضارية، فأخذوا ينشؤنها بشكل شخصي، كل حسب درايته ومعرفتته في علم من العلوم، فهذا «ثعلب» يعقد مناظراته ومجالساته لطالبي الأدب والنحو، فيقيم فيما يُعرف بـ «المنتدى الأدبي» اصطلح عليه بـ«مجالس ثعلب» اشتملت هذه المجالس على ضروب شتى من علوم العربية، وضمّت في تضاعيفها كثيراً من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين، أولاً: باعتباره أحد أعلام هذه المدرسة، إضافة إلى استشهاداته ببعض آراء أهل البصرة[1]، واشتمالها على الكثير من النوادر والأشعار والأخبار للأوائل قبله، والمعاصرين له.

وثعلب هذا كان - كما يقول الخطيب البغدادي[2] - ثقة حجة، ديناً صالحاً، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، والمعرفة بالغريب، ورواية الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ مُذ هو حدث، ويقال أن ابن الأعرابي كان يشك في الشيء فيقول له: ما عندك يا أبا العباس في هذا؟ ثقة بغزارة حفظه، وُلد في سنة 200هـ، يقول هو عن نفسه[3]: طلبت العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين، وابتدأت بالنظر في حدود الفراء وسني ثمانية عشر سنة، وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي عليّ مسألة للفراء إلا وأنا أحفظها، وأحفظ موضعها من الكتاب، ولم يبقَ شيء من كتب الفرّاء في هذا الوقت إلا قد حفظته.

هذه المسألة جديرة بالتوقف قليلاً فهي تدلل على أهمية التخصص في فن واحد، ثم أنها تبين كيف يستطيع المثقف أن يدرك أسرار لغته، منذ الصغر، والتفقه باللغة ليس من الأمور السهلة، فثعلب يؤكد تلمذته على منهج أحد أكبر علماء اللغة العربية وهو الفرّاء، وتمكن تماماً من إدراك هذا المنهج من خلال حفظه لكل مساءلة وكتب هذا الشيخ العالم باللغة.

وليس ذلك فحسب، فثعلب، أراد بحسنِ حافظته وإدراكه أن يعوّد الكتّاب الآخرين منهج التتلمذ على الطريقة والشيخ، في علم معين، ويظل يسير فيها ويرفدها بشكل متواصل، يقول في هذا الصدد[4]: كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل، فصرت إليه، فلما دخلت عليه قال لي: فيم تنظر؟ فقلت: في النحو والعربية، فأنشدني:

---

(1) انظر عبد السلام هارون - مقدمة مجالس ثعلب 1/ 24.

(2) تاريخ بغداد 5/ 205.

(3) تاريخ بغداد/ نفس المكان السابق.

(4) تاريخ بغداد 5/ 205.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ، ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى ولا أن ما تخفي عليه يغيبُ
لهونا عن الايّام حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذنوب

يبدو أن ظاهرة المناظرات اللغوية بسطت هيمنتها على طول القرنين الثالث والرابع الهجريين وظل اختلاف النحاة في أمور النحو مسألة قائمة الحضور، على أساس المدرستين، الكوفية والبصرية، وسحب هذا الاختلاف خيوطه على بقية العلماء والكتّاب، وثعلب نشأ وتعلم على نحو الكوفيين، لذلك نحا منحاهم في التصدي لعلماء البصرة، فقد كان بينه وبين المبرد - شيخ النحو في البصرة وقتها - منافرات كثيرة، والناس مختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه، وهذه المسألة تدلل بعمق على متابعة جمهور الناس أمور الثقافة وشؤون أصلها، فمثلاً جاء أحدهم إلى ثعلب وقال: يا أبا العباس قد هجاك المبرد، فقال بماذا؟ فأنشد[1]:

أقسم بالمبتسم العذبِ ومشتكى الصب إلى الصبّ
لو كتب النحو عن الرب ما زاده إلا عمى القلب

وعلى ما يبدو، أن ثعلب أدرك الدسيسة وحمق القادم عليه وجهالته فقال: أنشدني من أنشده عمرو بن العلاء:

شاتمني عبد بني مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ومن يعض الكلب إن عضّا؟

وبلغ شغف الناس بمثل هذه «المجالس والمناظرات» حداً ملك ألبابهم، فراحوا يتعقبون أخبار العلماء، وأوقات مناظراتهم، ويتنافسون لحضورها، وحث الآخرين عليها، ومن مختلف المراتب الاجتماعية، يقول[2] أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر قال لي أبي: حضرت مجلس أخي محمد بن عبد الله بن طاهر، وحضره أبو العباس أحمد بن يحيى «ثعلب» وأبو العباس محمد بن يزيد «المبرد» النحويان، فقال لي أخي: قد حضر هذان الشيخان وأنا أحب أن أعرف أيهما أعلم، أو نحو هذا من الكلام، فاجلس في الدار الفلانية - قد سمّاها - ويحضر هذان الشيخان بحضرتك ويتناظران. قال: ففعلت ما أمر وحضرا، فتناظرا في شيء من علم النحو مما أعرفه، فكنت أشاركهما فيه، إلى أن دقّقا فلم

(1) تاريخ بغداد 5/ 208.
(2) المصدر نفسه.

أفهم، ثم عدت إليه بعد انقضاء المجلس، فسألني فقلت: إنهما تكلما فيما أعرف فشاركتهما في معرفتي، ثم دقا فلم أعرف ما قالا، ولا والله يا سيدي ما يُعرف أعلمهما إلا من هو أعلم منهما، ولست ذاك الرجل، فقال لي أخي: أحسنت والله، هذا أحسن - يعني إعترافه بذلك -[1].

والجميل في ذلك أنهم - أي الناس - يتثاقفون مع هؤلاء العلماء ولا يتجاوزونهم بالمطلق، حتى أنهم يتهيبون في تقييم الشخصية العارفة، فقد سُئل أبو بكر بن السراج عن أي الرجلين أعلم، ثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما..

وثمة موقف آخر هام، برز عدد المتعلمين من جمهور الناس هو الحرص على العالِمَ وتدوين نتاجه قبل موته، كي يستطيع نفس العالم مراجعته وتشذيبه وتهذيبه، وهذه الحالة، أرقى من الأولى - أي ظاهرة التثاقف مع العلماء - لأن حس المسؤولية فيها يتخطى الحالة الفردية، فعندما مات المبرد وقف رجل على ثعلب فقال[2]:

بيت من الآداب أصبح نصفه ... خرباً وسائر نصفه فسيخرب

مات المبرد وانقضت أيامه ... ومع المبرد سوف يذهب ثعلب

وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه ... إذ كانت أنفاس مما يكتب

ويرتفع حس المسؤولية عند الناس إزاء العلماء، ويظلون يفكرون فيهم وفي طرق معيشتهم، فتأخذهم الحمية لطرح ذلك على الخليفة، باعتباره راع، والراعي مسؤول عن الرعية، ومن هذا الباب، طرح أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني أمر ثعلب أمام الموفق بالله، فأخرج له رزقاً (راتباً) سنياً سلطانياً، فحسن موضع ذلك من أهل العلم والادب كما يقول الخطيب[3]: فعلاً كان للجمهور موقف واضح من العلماء، وشاركهم في ذلك السياسيون، والموقف أعلاه أسطع دليل، والسياسي في هذا الموقف منقاد للمثقف.

إن هذه العلاقة الحضارية المعرفية، المتبادلة بين العالم والجمهور، بُنيت بموقف معرفي أملاه الواقع والعالِم، على حد سواء، فالجمهور واعي مهمة العالم، والعالم يدرك مسؤوليته إزاء الجمهور، مما شكل وحدة معرفية متجانسة ذات قطبين، يطوّر أحدهما الآخر، وسنضرب مثالاً على ذلك بشخصية ثعلب نفسه، قال ابن قفرجل[4]: حدثنا محمد

(1) تاريخ بغداد 5/ 209.
(2) تاريخ بغداد 5/ 209.
(3) نفس المصدر.
(4) تاريخ بغداد 5/ 210 - 211.

بن يحيى قال: كنا يوماً عند أبي العباس أحمد بن يحيى - ثعلب - فضجر. فقال له شيخ خضيب من الظاهرية: لو علمت مالك من الأجر في إفادة الناس العلم لصبرت على أذاهم، فقال ثعلب: لولا ذاك ما تعذبت، ثم أنشد بعقب هذا:

يعابثن بالقضبان كل مفلّجٍ ... به الظلم لم تفلل لهن غروب

رضاباً كطعم الشهد يحلو متونه ... من الصرأو غصن الأراك قضيب

أولئك لولاهن ما سقت نضوة ... لحاج وما استقبلت برد جنوب

وعندما مات ثعلب سنة 291هـ[1] قام أحد تلاميذه فرثاه، فقال[2]:

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب ... ومات أحمد أنحى العجم والعرب

فإن تولى أبو العبّاس مفتقداً ... فلم يمت ذكره في الناس والكتب

لقد طغت ظاهرة «المجالس والمناظرات» على الحياة العامة، وصار صاحب المجلس يُنظر إليه على أنه من رعاة العلم والأدب، فتنافس الخلفاء في هذه المسألة من خلال تطور هذه المجالس في آنه، حتى أن خلفاء الأندلس الأمويين، نحوا منحى الخلافة في بغداد في هذا المشوار، وتكاد بعض الشخصيات الثقافية أن تتفرد بفن واحد أو عدة فنون في مجالسها فالأصمعي، كانت أغلب مجالسه تدور حول أخبار الشعر والشعراء، حيث أنه كان أفطن أهل زمانه في رواية الشعر، وقد كان مجلس الرشيد يضمّه، ثم إنتقل مع أبناء الرشيد في مجالسهم بعده، فكان ذات يوم عند عيسى بن جعفر، إذ دخل المفضّل بن محمد بن يعلى بن سالم المعروف بـ«المفضل الضبّي»[3] وهو أحد علماء اللغة والشعر والأخبار وأيام العرب، فتناظر مع الأصمعي، فأنشد المفضّل بيت أوس بن حجر:[4]

وذات هدم عار نواشرها ... تصمت بالماء تولباً جذعا[5]

فقال الأصمعي: هذا تصحيف، لا يوصف التولّب بالاجذاع، وإنما هو «جدعا» والجدع: السيء الغذاء، قال فجعل المفضل يشغب، فقلت له: تكلم كلام النمل وأصب،

---

(1) تاريخ بغداد 5/ 212.

(2) المصدر السابق 5/ 210.

(3) انظر ترجمته في «المفضليات» ص/ 24 - 25، بعناية أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون - ط3، دار المعارف المصرية 1964م.

(4) الجاحظ/ الحيوان 4/ 25 - 27، ومجالس الزجاجي/ ص7.

(5) الأجذاع = جمع جذع، بالتحريك، وهو من الحافر ما كان في الثالثة/ اللسان - مادة - جدع جذع/ وفيها البيت ذاته.

ولو نفخت في شبّور يهودي[1] لم ينفعك شيئاً.

صارت هذه المجالس، أندية ثقافية هامة، ومراجع لا يستغنى عنها، مما دفع بالكثيرين من مهتمي اللغة والادب لتدوينها، وقد شملت كتابات الجاحظ الكثير منها، لا سيما «الحيوان والبيان والتبيين» فيما خصص الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق) كتابه «مجالس العلماء» لتدوين مثل هذه «المناظرات والمجالس» وأرشفتها، لأنها - إضافة إلى ما تحويه من أخبار وبلاغة وشعر ونثر - أصبحت من الشواهد، لحالة ذلك العصر، وبها من الدلائل لمختلف العلوم ما لا يمكن وصفه، ويصح أن يطلق عليها «دائرة معارف» عن حياة سابقيهم ومعاصريهم بمختلف العلوم، انظر لهذا المجلس/ مجلس أبي عطاء مع أبي صفوان/ [2].

(قال إبن الكلبي عن أبي عطاء الاعرابي قال: أتيت أبا صفوان[3] أيام قسّم المهدي للاعراب، فقال لي أبو صفوان، وكان يمتحن الناس: ممن أنت؟ قلت: من بني تميم. قال: فأي تميم قلت: ربابي، قال: فما عملك وأين بلدك؟ قلت: بالدجنتين. قال: فما كنت تصنع؟ قلت: كنت أعالج الابل. قال: فلك بها علم؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني عن حقة حقت على ثلا ث حقاق قال: فقلت له: سألت خبيراً بهذا هذه بكرة كانت معها بكرتان في ربيع واحد، فارتبعن، فسمنت قبل أن تسمنا، فقد حقت عليهما واحدة، ثم ضبعت ولم تضبعا، فقد حقت عليهما حقة أخرى، ثم لقحت ولم تلقحا، فهذه ثلاث حقات، فقال: لعمري أنت منهم).

ففي هذا المجلس المتناظر فيه، لوحده، تبرز عدة أمور، منها معرفة الإنسان، والعمل وطبيعة المهنة، وفهم الطبيعة الكونية في عالمي النبات والحيوان وتقلبات الجو، إضافة إلى الفصاحة والبيان، وجزالة الاسلوب، ومعرفة دقيقة بمخارج اللغة، إضافة إلى إتقاد الذهن.

إنَّ المسؤولية في تقصي الظاهرة الثقافية، دفعت بالكثير إلى تنشيطها والمساهمة فيها،

---

(1) الشبّور = البوق.

(2) الزجاجي - مجالس العلماء/ ص345 - المجلس رقم (154) من طبعة عبد السلام هارون الكويتية 1962م.

(3) شاعر أعرابي من بني أسد. أورد له القالي في الأمالي 2/ 227 - طبعة دار الكتب المصرية - ط3، القاهرة 1244هـ/ 1926م. قصيدته «المقصورة»:

نـــات دار لـــيـــلـــى وشـــط الـــمـــزار ... فـعـيـنـاك مـا تـطـعـمـان الـكـرى

وهي طويلة جداً بلغت 65 بيتاً، ونظرا لاهميتها، فقد ذكرها البكري في سمط اللالىء/ ص865 وما بعدها. بعناية عبد العزيز الميمني القاهرة 1354هـ/ 1935م.

فهذا أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري يتصدى لمفاهيم حسن البلاغة واستخداماتها في لغة الشعر والنثر، موضحاً أهمية منهج الجاحظ في باب البلاغة والفصاحة وحاذياً حذوه، بجهد رفيع، أوضح فيه ما يحتاج إليه الكتّاب في صنعتهم للكلام، نثره ونظمه، أسماه «كتاب الصناعتين - الشعر والكتابة - «يقول هو عنه[1]:

«كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام، نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهدار، وجعلته عشرة أبواب، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً» وهذا يعني أن استمرار التواصل الثقافي بحرص ومسؤولية يمليه الوعي الحضاري في كل ذات مدركة، وبعد العسكري بحوالي نصف قرن يبرز عبد القاهر بن عبد الرحمن أبو بكر الجرجاني، هذا المثقف الموسوعي، الذي كان يعرف فنوناً عديدة، وماهراً فيها، وكان من كبار أئمة العربية - كما يقول ابن شاكر الكتبي[2]، وقد أفرد الكثير من التصانيف الخاصة في علوم العربية، ليفيد القراء والكتّاب على حد سواء، من أشهرها «المغني في شرح الإيضاح» في نحو 30 مجلداً وإعجاز القرآن، وكتاب عن العروض، وأسرار البلاغة وغيرها[3] وقد أعطى الجرجاني جهداً منقطع النظير في مسألة البلاغة واللغة في التمييز بين مفرداتها النثرية والشعرية، ضمن أسس وموازين جمالية، يمكن للكاتب أن يستخدمها بعناية ودقة، لتفضيل حسن الكلام عن قبيحه، أو بمعنى آخر نقد الكلام في أساليب الكتابة والخطابة، يقول[4]: «. . . ومن هنا يتبين للمحصل، ويتقرر في نفس المتأمّل، كيف ينبغي أن يحكم في تفاضيل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان، ومن التبيّن الجلي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ، كيف والألفاظ لاتفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب». وهذه التوجيهات النقدية، يصوغها الجرجاني بأمثال وحكم شتى ضروب الأمثلة والشواهد في اللغة البلاغية ومتجانساتها المتعددة الصور، من تجنيس وتصريح وتورية وغيرها. كل ذلك ليرفع من قدر الأديب والكاتب في صناعته وقوله.

---

(1) العسكري/ كتاب الصناعتين/ ص5 - الطبعة الأولى - مطبعة الجمالي والخانجي/ 1320هـ.

(2) فوات الوفيات 2/ 369-370، تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر - بيروت، وانظر الأعلام للزركلي 4/ 48 طبعة دار العلم للملايين - ط5 - 1980 بيروت.

(3) فوات الوفيات 2/ 370.

(4) الجرجاني - أسرار البلاغة/ ص3، بعناية هـ، ريتر، طبعة استانبول سنة 1954م.

وعلى غرار ظاهرة «المجالس والمناظرات» كانت هناك «مجالس الشعر والغناء» تلك الظاهرة الفريدة والأكثر غناء روحياً من بقية الظواهر الثقافية والحضارية، والتي استطاعت أن تخلق عمالقة في الغناء والموسيقى العربية، مما دفع أبي الفرج الأصفهاني، أن يفرد واحداً من أهم الكتب والمصادر في المكتبة العربية إلى اليوم هو كتاب الأغاني، لمتابعة تطور هذه الظاهرة، وكشف كل وجوه الحياة من خلال حياة المغنين والمغنيات، وما يدور في مجالس سمرهم عند الخلفاء والوزراء، وانعكاس ذلك على العامة، بشكل إيجابي. حتى غدت ظاهرة الغناء مألوفة في بغداد، وذات حظوة وتقدير، كصناعة مجيدة محبّبة، والحق يقال، أن الرشيد، كان مرهف الإحساس لسماع الغناء وتفضيل أهله، فقد عُرف عنه أنه جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان، فكان ابراهيم الموصلي واسماعيل أبو القاسم ابن جامع وزلزل المعروف بمنصور الضارب في الطبقة الأولى، وكان زلزل يضرب ويغني ابراهيم وجامع عليه، والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة، أصحاب المعازف والونج والطنابير، وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم[1]، وقد تفشت هذه الظاهرة في (ق4 هـ) بشكل ملفت للانتباه بين أوساط العامة في بغداد، حتى أنه أحصي فيها من المغنين والمغنيات في جانبيها - الكرخ والرصافة - 460 مغنية (من الجواري) و120 مغنية (من الحرائر) و95 (من الصبيان)، ما عدا الذين لم يتمكن من الوصول إليهم[2]، فمثل هذه الظاهرة، انعكست بتجلياتها على الأدباء والكتّاب والشعراء والمؤرخين، فذكروها بكتبهم، ويُعد كتاب الأغاني أوثق مصدر يمكن الرجوع إليه للكشف عن هذه الظاهرة وهو يقع في 24 مجلداً ضخماً.

وثمة مسألة هامة أخرى، رفعت واقع الظاهرة الثقافية في العصور العباسية، وأثرت الأدب والفكر، على حد سواء، هي التصوف والمتصوفة التي ظهرت في بدايات (ق 3هـ) فقد ساعدت على نشر الأدب وجعله شعبياً، كما ساعدت على نشر الكتب وصبغها بصبغتهم، وقوّت مبدأ النقد في شتى العلوم، مما ساعد على تقوية المذهب الواقعي الطبيعي كما يقول متز[3].

إنَّ جملة هذه الظواهر الثقافية، في العصور العباسية المختلفة، إزدانت في القرن

(1) انظر التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ/ ص37 - 39، بعناية أحمد زكي باشا، ط1، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة 1322هـ/ 1914م.

(2) أبو حيان التوحيدي/ الإمتاع والمؤانسة 2/ 183 - طبعة أحمد أمين وأحمد الزين - القاهرة 1939م.

(3) آدم ميتر - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 425 - ط3 ترجمة أبو ريدة - القاهرة 1377هـ/ 1957م.

الرابع الهجري، وانعكست على مجمل الكتّاب، في أدبهم وترسلهم، حتى أصبحت رسائل (ق 4هـ) آية من ازدهار الفن الإسلامي، ومادتها هي أنفس ما عالجته يد الفنان وهي اللغة، حيث تجدت فيها رشاقة اليد والفكر، وامتلكت ناصية البيان في صورته الصعبة، وتلاعبهم بذلك تلاعباً، وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه، لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير، ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس، ومنهم الخصيبي، وابن مقلة والمهلبي، وابن العميد، هذا الذي يصفه صاحب «اليتيمة»[1] بأنه «عين الشرق ولسان الجبل، وعماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزراء، والضرب في الآداب بالسهام الفائزة، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية، يُدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ والرئيس، وعنه قيل «بدت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» ويلي هذا الوزير وزير آخر كانت الكتابة هي الصنعة التي عرف بها هو الصاحب بن عباد والذي أثنى عليه الثعالبي بقوله[2]: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان. . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، كان نادرة عطارد في البلاغة وواسطة عقد الدهر في السماحة، جلب إليه من الآفاق وأقاصي البلاد كل خطّاب جزل، وقوّال فصل، وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام وبدائع الأفهام، وثمار الخواطر، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول، وذوب العلوم ودُرر القرائح، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر[3]، ثم ظهرت أعلام شامخة في الكتابة ومنها في هذا القرن، من أمثال ابراهيم بن هلال الصابي الذي قُلد ديوان الرسائل، وكان أكبر المنشئين في النصف الثاني من (ق 4هـ)، وقد عرضت عليه الوزارة إن هو أسلم فرفضها[4] ثم علا نجم الكاتب أبو بكر الخوارزمي، وسطع ضياء برق بديع الزمان الهمداني، وراحت «مقاماته» تفرض نفسها في مجالس الأدب وعند مختلف الطبقات، فيما ظهر في معرة النعمان، كاتباً فيلسوفاً اسمه أبو العلاء المعري، ذاك الذي عجزت عنه التوصيفات في المدح والثناء عليه، يقول عنه ناصر خسرو[5]: «إنَّ فضلاء الشام والمغرب والعراق، يقرون أنه لا نظير في هذا العصر (ق 4هـ - ق 5هـ) ولن يكون له نظير».

---

(1) يتيمة الدهر - للثعالبي 3/ 137 وما بعدها، ط1، مطبعة الصاوي 1353هـ/ 1934م.

(2) يتيمة الدهر 3/ 169 وما بعدها.

(3) لقد عايش أديب القرن الرابع الهجري، أبو حيان التوحيدي، الوزيرين الاخرين، فلم يحسنا رفاده، فقال فيهم ما قال، في كتابه الرائع (مثالب الوزيرين) وكانا يستحقان ذلك، لما بهما من لؤم وبخل.

(4) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 2/ 20 وما بعدها وآدم ميتز 1/ 430.

(5) سفرنامة/ ص11 - بترجمة د. يحيى الخشاب - ط1 - مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1364هـ/ 1945م. وانظر آدم ميتز 1/ 444.

ثم تشهد بغداد وتقر وتستسلم لترسل أبو حيان التوحيدي، فقد سيطر سيطرة الأستاذ على ملكة اللغة، وبلغ الشأو الأعلى في النثر، حيث أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، دون تكلف ولم يكتب في النثر العربي بعده، ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً من مزاج صاحبه كما كتب أبو حيان وقد أحسن متز بنعته للتوحيدي عندما قال: «ربما كان أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق»[1] ومن يقرأ للتوحيدي «البصائر والذخائر» أو «الامتناع والمؤانسة» أو «رسائله» أو «المقابسات» فإنه لا شك سيؤخذ باسلوبه الساحر الأخاذ، ويحكم له بالسيادة الأدبية على (ق 4هـ) دون منازع. ولكن أهل الأدب في زمانه، لم يعطوه حقه، بغضاً وحسداً، لا سيما الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد فقد أذلآه، فكان يورّق لهما، فنفر من مهنة الوراقة وجفاها، ولازم شيخه، أبو سليمان السجستاني، رأس مناطقة بغداد، وقد عكس التوحيدي آلامه من أهل عصره بأدبه، فجاءت رسائله، لوعة صادقة عما يكابده من حنق وضيق، فهو يقول[2]: «ومن أين يُظفر بالغداء من كان عاجزاً عن الحاجة، وبالعشاء وإن كان قاصراً عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طريق للستر لا للتجمل، وكيف يهرب من الشر المقبل، وكيف يهرول وراء الخير المنهر، وكيف يستعان بمن لا يعين، ويشتكي إلى غير رحيم، ولكن حال الجريض دون القريض[3]، ومن العجب والبديع أنّا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة، والغيظ والكمد والتوقد، وكأني بغيرك إذا قرأها/ الخطاب موجه للمتلقي/ تقبضت نفسه عنها، وأمرس نقده عليها، وأنكر على التطويل والتهويل بها، وإنما أشرت بهذا إلى غيرك، لأنك تبسط من العذر، ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، وإطلاعك على دخيلتي، واستمراري على هذا الانفضاض والعوز للذين نقضا قوتي، ونكثا مرّتي، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى، وحجباني عن الأسى[4]، لأني فقدت كل مؤنس، وصاحب ومرفق ومشفق، والله.. لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن إتفق فبقال أو عصّار أو ندّاف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي، أسندني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، مجتلفاً[5] على الحيرة، محتملاً

---

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 424 وراجع كذلك 1/ 447 وما بعدها من نفس المرجع.

(2) انظر - رسالة الصداقة والصديق/ ص6 - 8 بعناية د. إبراهيم الكيلاني - دار الفكر - دمشق 1964م. وقد أوردنا هذا النص كشاهد أدبي للتوحيدي، يفي بالغرض في هذا المقام.

(3) مثل يضرب لأمر يعوق دونه عاشق، والجريض = المغموم/ انظر القاموس - مادة جفض.

(4) الأسى = من المواساة للشخص/ انظر مادة - سوأ - في اللسان.

(5) مجتنفاً = مائلاً.

الأذى، يائساً من جميع ما نرى، متوقعاً ما لا بدّ من حلوله، فشمس العمر على شفاء وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص».

على هذه الشاكلة والديباجة، كان سمو الأدب، وصراط الكتابة يثبّت عند التوحيدي، ويتمنهج عند مالكي دربه في الترسل والانشاء، إلا أن التوحيدي الشامخ بأسلوبه قد سيطرت عليه سوداوية الحياة، وخسة السلاطين والكتّاب من أهل زمانه، فيزدري الوجود، ويلوي العنان عن ناصية الأدب، في آخر حياته، فيحرق في ساعة غضبه كتبه، ولا يُعرف كم هو قدرها ومقدارها، فيعاتبه القاضي أبو سهل علي بن محمد على فعلته هذه، فيجيبه[1]: وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برّح بي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به علي، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة نحوي ما نال قلبك، والتهب في صدرك من الخبر الذي عنى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار، وغسلها بالماء، فعجبت من إنزواء وجه العذر عنك في ذلك» ثم يبدأ يشرح له أهمية العلم إذا نفع يقول[2]:

«إنَّ العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلا على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً» إلى أن يصل إلى الغاية المقنعة لديه، والتي أدت به إلى حرق الكتب فيقول: ومما شحذ العزم على ذلك، ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً ورئيساً منيباً، فشق عني أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تفحصوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، ثم يقول معبراً عن معاناته من عشرة الناس الذين عاشرهم أكثر من عشرين سنة، ولا يجد منهم صافي الوداد: فإن قلت: ولم تسمهم بسوء الظن، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها - يقصد كتبه - لأناس جاورتهم عشرين سنة، فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم، بعد الشهرة والمعرفة، في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم»[3].

---

(1) انظر - رسائل التوحيدي/ ص161. بعناية د. ابراهيم الكيلاني.
(2) المصدر السابق/ ص162 - 163.
(3) راجع بقية الرسالة في المصدر السابق على الصفحات 164 - 170.

هذه الرسالة للتوحيدي، هي إعتراف ومذكرات على حالة العصر السياسية والاجتماعية التي كان يعيشها، ومن خلالها يظهر النفاق الواضح بين المثقفين، أكثر من بقية فئات الشعب، ولو لم يجد التوحيدي أن أدبه/ في ذلك الوقت/ لم ينفعه بشيء لما أقدم على حرق مصنفاته، وهي إدانة جريئة لأحوال ذلك الزمان، رغم التطور الهائل في صنوف المعرفة والثقافة، ولكن التناقض الاجتماعي، كان يحرك الناس بالاتجاه السياسي، أكثر بكثير من الاتجاه الثقافي، ولو أن الأدب ظل يقارع كل هذه الظواهر، ويتخطى كل الحواجز، فقد وصل إلينا وهو يصور كل حياة الناس، ويدين ويقيم الحد على هذه الحالة أو تلك، وهي أمانة، استطاع التوحيدي وأشباهه أن يحفظها لنا عبر الأجيال والعصور.

الفصل الثالث

أدوات الكتابة

كان للكتّاب والورّاقين الدور الأهم في تطور الظاهرة الثقافية بأكملها، فهذا يؤلف، وذاك ينسخ وآخر يجلّد، ورابع يخط، حتى أنك عندما تمر بسوق الورّاقين، تشاهد نشاطاً كخلايا النحل، إلا أنه في صنعة الكتابة، والتي هي أحلى من العسل، عند البعض، وأمرّ من العلقم عند البعض الآخر. وعلى أية حال، لقد أوضحنا في الفصل السابق، عوامل نهوض الكتابة وأسباب بروزها، وأهم المناهج التي رُسمت للكتّاب.

ولما صارت الكتابة مهنة يُعتاش منها، تطلب الأمر أن تكون هناك سوق خاصة لأهل هذه الصناعة، يوفر لهم ما يحتاجونه من الأدوات التي تساعدهم على إتمام عملية الكتابة، لذلك أنشىء سوق الورّاقين[1] في ربض وضّاح، وفيه أكثر من مائة حانوت كما يقول اليعقوبي[2] وبهذا السوق يجد الكاتب، ما يحتاج إليه من أدوات الكتابة، والتي هي: الأقلام والحبر والدواة، والسكاكين لقط الأقلام وغيرها من الأمور الثانوية، إضافة إلى مواد الكتابة والتي يُشكل الورق مادتها[3] الأساسية.

---

(1) سوف نفرد باباً خاصاً بسوق الورّاقين، نظراً لأهميته في بنية البحث هذا.

(2) كتاب البلدان ص245، مطبوع على ذيل - الأعلاق النفيسة، لابن رسته - ليدن - بريل 1891م. وراجع كذلك دليل خارطة بغداد ص86، للدكتور مصطفى جواد وأحمد سوسة مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد 1378هـ/ 1958م.

(3) سيكون الجزء الثالث من هذه الدراسة خاص بصناعة الورق، نظراً للأهمية التي ينطوي عليها تاريخياً وحضارياً.

ونظراً لأهمية كل أداة من أدوات الكتابة، سوف نفرد لكل منها نقطة محورية، بغية الإحاطة، بكل أداة.

1 - الأقلام:

تمتد تاريخيتها في الاستخدام منذ السومريين وأهل العراق القديم، فقد كانوا يتخذونها من الحديد والخشب، يُضغط بها على الطين، فترسم الحروف أو الخطوط، وكان للقلم عندهم أشكال، منها المثلث والمربع، وكان أما ثقيلاً أو خفيفاً من الطرفين، وأخيراً، صُنع ثقيلاً من طرف دون الآخر، حتى تبرز الخطوط، وهذا ما توضحه الخطوط المسمارية في العراق[1].

وعندما جاء الإسلام، كانت آيات القرآن الأولى عرجت على ذكر القلم، فقد ورد في التنزيل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2]، فيما تذكر أحاديث السنة، على لسان محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد: «إنَّ أول ما خلق الله اليراع، ثم خلق من اليراع القلم، فقال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: ما هو كائن، قال: فَزَبَرَ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

ويروى أن الله خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة[3] وهذا الاسقاط الأسطوري للقلم يعطيه الأهمية والتعظيم، وجلالة القدر في الفهم الإسلامي لوظيفته ومعناه، ويشرح القلقشندي هذا البعد منطلقاً من الآية أعلاه قائلاً[4]: «واعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة، إذ هو المباشر دون غيره، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان» وعلى هذا الأساس، يعتقد القلقشندي أنه أُقِسمَ به، ويستعير للتعبير عن هذا الشرف للقلم، قول أبي الفتح البُستي[5]:

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم ... وعدّوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتّاب عزاً ورفعة ... مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وجاءت للقلم عدة تسميات منها: «المِزبر» بكسر الميم، وهو مأخوذ من قولهم:

---

(1) سهيلة الجبوري/ الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق ص119 - بغداد 1381هـ/ 1962م.

(2) سورة القلم، الآية: 1.

(3) القلقشندي/ صبح الأعشى 2/ 435 - طبعة القاهرة 1331هـ/ 1913م.

(4) صبح الأشعى 2/ 435.

(5) المصدر السابق.

زبرت الكتاب، إذا أتقنت كتابته، ومنه سميت الكتب زُبراً كما جاء في القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] وسمي القلم قلماً، إما لاستقامته، أو لأنه مأخوذ من «القلام» وهو شجر رخو، أو لقلم رأسه والقلم قبل بريه يسمى قصبة ولا يسمى القلم قلماً حتى يُبرى، وكأن اشتقاق القلم من التقليم، ومنه تقليم حافر الدابة، ومنه قلمت ظفري[2].

ويتعدى معناه، إلى غيره من المعاني، جاء في لسان العرب: والقلم: الزلم، والقلم = السهم، الذي يجال بين القوم في القِمار، وجمعها أقلام، وإنما قيل للسهم القلم، لأنه يقلم، أي يبرى.

ويُسمى الوعاء الذي توضع فيه الأقلام «مقلمة»[3].

قيل لأعرابي: ما القلم؟.. ففكر ساعة، وقلب يده، ثم قال: لا أدري، فقيل له: توهمه. فقال: هو عودٌ قُلِّم من جوانبه كتقليم الظفر، فسمي قلماً[4].

وقد ارتضوا للقلم مواصفات عديدة، دأبوا على الالتزام بها، كالصلابة واللين، والرشاقة لجسم العود والاستواء في القصبة، والشق المستوي، وتجاوز القط عند العقدة، وغيرها من الأمور، وقد أورد الصولي أربعة أبيات شعرية، جمعت الكثير من مواصفات القلم، وهي لأبي أسامة الكاتب[5]:

وأعجف مشتق الشباة مقلم ... موشى القرى طاوي الحشا أسود الفم
تبين خفي السرّ آثاره لنا ... ويعرب عن غير الضمير المكتم
يؤدي صحيح القول عنه مخاطباً ... به العين دون السمع لا بالتكلم
إذا استغزرته الكف فاضت سجاله ... من الفكر فيض الرايح المتغيِّم

وقد كان كبار الكتّاب والولاة والأمراء والسلاطين، ومن ذوي الشأن، وأصحاب الحرفة، ينتبهون إلى كتّابهم الأدنى - المتعلمين - عند الكتابة، فيدلون لهم بإرشاداتهم، منذ الخطوات الأولى لتعلم الكتابة والخط، يقول إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه يعلمه الخط[6]: «ليكن قلمك صلباً، بين الدقة والغلظ، ولا تبرهِ عند عقدة، فإن فيه تعقيد

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 196، وراجع القلقشندي - صبح الأعشى 2/ 434.
(2) الصولي - أدب الكتاب/ ص87. والقلقشندي 2/ 440، وسهيلة الجبوري - الخط العربي/ ص119.
(3) مادة (قلم).
(4) صبح الأعشى 2/ 440.
(5) أدب الكتاب ص85.
(6) صبح الأعشى 2/ 440.

الأمور، ولا تكتب بقلم ملتوي، ولا ذي شق غير مستوي، وإن أعوزك البحري والفارسي، واضطررت إلى الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل إلى السمرة».

ونظراً لكثرة الكتّاب والورّاقين، وسعة انتشار الكتابة، فقد راح الكتّاب الكبار يبحثون عن المواصفات الأجود لاختيار أقلامهم، فهذا الأصمعي يسأل العتابي وهما بدار الرشيد عن الأنابيب - القصب - الأصلح للكتابة والأصبر عليها، فيجيبه: ما نشف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه، من التبرية القشور، الدرية الظهور، الغضية الكسور[1].

وقد أصبحت هذه المواصفات، إحدى الثوابت في اختيار الأقلام، وأصبح التهادي لهذه الأنواع من الأمور المرغوب فيها، والمطلوب الذي يرام، لا سيما وأن بعض الأقاليم والأمصار الإسلامية، ينبت فيها قصب تتوفر فيه تلك المواصفات، فهذا كاتب يُدعى علي بن الأزهر يكتب إلى صديق له، يطلب منه أقلاماً، يقول[2]:

«أما بعد، فإنّا على طول الممارسة لهذه الكتابة، التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوسم، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب، وجدنا الأقلام الصخرية أجرى في الكواغد، وأمرّ في الجلود، كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس، وألين في المعاطف، وأشدّ لتصرف الخط فيها، ونحن في بلد قليل القصب رديئة، وقد أحببت أن تتقدم في اختيار أقلام صخرية، وتتنوّق/ من الأناقة/ في اقتنائها قبلك، وتطلبها من مظانها ومنابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيمّن باختبارك منها الشديدة الصلبة، النقية الجلود، القليلة الشحوم، الكثيرة اللحوم الضيقة الأجواف، الرزينة المحمل، فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحفاء، وأن تقصد بانتقائك الرقاق القضبان، المقومات المتون، الملس المعاقد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، المستحكمة يبساً، وهي قائمة على أصولها لم تُعجّل عن إبّان ينعها، ولم تؤخرّ إلى الأوقات المخوفة عليها من خضر الشتاء، وعفن الأنداء، فإذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً، قطعاً رقيقاً، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية/ ووجهتها مع من يؤدي الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها/[3] وتكتب معه بعدتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان».

إن هذه الرسالة هي الأوضح إبانة لمواصفات الأقلام، وما يرجوه الكتّاب من القلم

(1) صبح الأعشى 2/ 441.

(2) صبح الأعشى 2/ 441.

(3) سقط هذا النص من صبح الأعشى، وأثبته ابن عبد ربه في العقد الفريد 4/ 200 طبعة أحمد الزين وأحمد أمين وإبراهيم الأبياري - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1363هـ/ 1944م.

الذي يكتبون فيه، والحقيقة أنها، تثبت بين سطورها قاعدة لاختيار القلم ونوعيته ومادته.

ثم راعوا فيها خواصاً أرادوا بها تحقيق التفاعل النفسي بين القلم والكاتب لتأليف وحدة إيقاعية متكاملة لهيجان الفكر وسهولة نقلها بالأداة على الورق أو الكاغد، لذلك قال ابن الزيّات[1]: خير الأقلام ما استحكم نضجه وخف بزره، قد تساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها، ومتباين أضوائها وأنحائها، حتى إذا بلغ أشدّه واستوى، وشقّت بوازله، ورقت شمائله، وابتسم من غشائه، وتأدّى من لحائه، وتعرى عنه ثوب المصيف بانقضاء الخريف وكشف عن لون البيض المكنون والصدف المخزون، قطع ولم يعجل عن تمام مصلحته، ولم يؤخّر إلى الأوقات المخوف عاهاتها عليه من خصر الشتاء، وعفن الأنداء، فجاء مستوى الأنابيب معتدلها، مثقّب الكعوب مقومها».

ورأى الكتّاب والمجودون من أساتذة الخط أن تكون هناك رعاية لشفة القلم، لأنه فيها يُرسم الحرف، بكل ألوانه، وأشكاله، وعلى ضوئها يتحدد نوع الخط، يورد القلقشندي[2] رأياً هاماً، يقول: (أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام، التي جرى الإصطلاح عليها بين الكتّاب) أي أن القصبة المعدة للكتابة، يجب أن يكون رأسها - في القط - يؤدي لكتابة نوع معين من الخطوط، فأعظمها وأجلها - كما يقول القلقشندي، هو قلم الطومار[3] حيث أنه أكثرها مساحة في القرض، وهو قلم كانت الخلفاء تعلم به في المكاتبات وغيرها، وهذا القلم يتخذ من لب الجريد الأخضر، ومن القصب الفارسي، ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به، ويجري المداد فيه[4].

وعندما يجير الحديث عن الأقلام، فإن ذيوله تنجر على الخطّاطين الذين روّضوا القصب لأياديهم، وجعلوها مطايا سهلة الانقياد لأناملهم، وهو ما كان فعلاً، حيث أنهم أوجدوا أقلاماً لكل نوع من الخط، وعلى هذا الأساس، فإن إبن مقلة - الوزير الخطاط - يرى أنه[5]: ينبغي أن تكون أقلام الكاتب على عدد ما يؤثره من الخطوط، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبري لنوع الخط الذي هو بصدد أن يحتاج إلى كتابته ليجده مهيئاً، فلا يتأخر لأجل برايته).

---

(1) صبح الأعشى 2/ 443.

(2) صبح الأعشى 2/ 454.

(3) راجع ج4/ الخطاطون/ من هذه الدراسة، كي تقف على أنواع الخطوط التي كانت مستعملة وقتذاك.

(4) راجع مواصفات هذه الأقلام عند القلقشندي - صبح الأعشى 2/ 454 وما بعدها.

(5) صبح الأعشى 2/ 455.

أما طول القلم، فكان للخطّاطين السبق في هذه الناحية، لأنهم أمهر من بقية الكتّاب في تحديد أبعادها الهندسية، يقول ابن مقلة[1]: أحسن قدود القلم أن لا يتجاوز به الشبر بأكثر من حلقته[2]، فيما قدرت مساحة ريشة الطومار من الخطوط - الأقلام - في ضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة/ من شعر البرذون/ في مثلها خمسمائة وستة وسبعين شعرة وهو طولها - وهنا التقدير لحرف الألف في الخط، وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه في الطومار وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة وكذلك الجميع[3] أي في بقية الأقلام، وفي طول الأقلام، قال أحدهم[4]:

فتى لو حوى الدنيا لأصبح عارياً من المال معتاضاً ثياباً من الشكرِ
له ترجمان أخرس اللفظ صامت على قلب شبر بل يزيد على الشبرِ

وعلى ما يبدو أن مسألة أطوال الأقلام وأعراضها، كان له علاقة بجودة الخط وسرعة الكتابة وما شابه ذلك، وهو ما يحتاجه الورّاقون والكتّاب بوجه عام، ومن خلال التجربة في الكتابة، حمدوا بعض مواصفات الطول أو القصر، في القلم، وعلاقة ذلك بسيطرة الأنامل عليه، يقول الشيخ عماد الدين الشيرازي[5]: أحمد الأقلام ما توسطت حالاته في الطول والقصر، والغلظ والدقة، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل، فيبقى مائلاً إلى ما بين الثلث، والغلظ المفرط لا تحمله الأنامل.

فيما يرى أحد المتمنهجين على أسلوب ابن مقلة في الخط وهو الشيخ محمد بن العفيف[6] في هذا المجال أن «صنعة مسكة بالإبهام - يقصد القلم - والوسطى، وتكون السبابة تمنعه من الميل والاضطراب، وتكون مبسوطة غير مقبوضة، لأن ببسط الأصابع يتمكن الكاتب من إدارة القلم، ولا يتكيء على القلم الاتكاء الشديد المضعف له، ولا يُمسك الإمساك الضعيف فيضعف إقتداره في الخط، لكن يجعل الكاتب اعتماده في ذلك معتدلاً، وأما حاله في الصلابة والرخاوة فإنه تابع للصحيفة، لأنها إذا كانت لينة، احتاجت

---

(1) انظر مرتضى الزبيدي - حكمة الإشراق/ ص71 - حققها عبد السلام هارون، ونشرها في - نوادر المخطوطات - المجموعة الخامسة - ط1 - منشورات مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد - القاهرة 1373هـ/ 1954م.

(2) الحلقة = فتحة رأس القلم.

(3) صبح الأعشى 2/ 454 - 455 وفي ج4 الخطاطون من هذه الدراسة توضيحات وافية عن طول الخطوط وأنواعها وأسمائها.

(4) صبح الأعشى 2/ 444.

(5) صبح الأعشى 2/ 444.

(6) الزبيدي/ حكمة الإشراق/ ص71 - 72، وصبح الأعشى 2/ 454.

أن يكون في الأنبوب لين، وفي لحمه فضل، وفي قشره صلابة» وإن كانت صلبة (الصحيفة) احتاجت أن يكون في الأنبوب يبس وصلابة، ويشرح ذلك بأن العلة في ذلك أن حاجته من المداد في الصحيفة الرخوة أكثر من حاجته إليه في الصحيفة الصلبة، فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الإستمداد، ويكون في الصحيفة الصلبة ما وصل إليها من القلم الصلب الخالي من المداد كافياً.

وهنا نتلمس خاصية أخرى بعد طول القلم، هي صلابته ولينه وتأثير ذلك في عملية الكتابة تبعاً للورق المستخدم، وهذه المسألة تريك مدى الاهتمام في الكتابة من الناحية المهنية والاسلوبية، بل وتضع قواعد عملية لتطوير تلك الحالة، وعلى هذا الأساس قال إسحق بن حمّاد: القلم للكاتب كالسيف للشجاع، ويناصره في هذا المعنى قول الضحاك بن عجلان: يامن تعاطى الكتاب، أجمع قلبك عند ضربك القلم، فإنما هو عقلك تظهره[1] وهذا الإيحاء النفسي العميق هو كشف لحالة التوحد مع الكتابة والقلم.

وأوجز قاعدة، في اختيار الأقلام من ناحية الطول والعرض، هي ما يراها الخطّاطون في عملهم، لذلك حدد إبن مقلة ذلك بقوله: خير الأقلام ما كان طوله من ستة عشر اصبعاً إلى اثنتي عشر، وامتلاؤه ما بين غلظ السبابة إلى الخنصر، وهذا الوصف - كما يقول القلقشندي[2] جامع لسائر أنواع الأقلام على اختلافها.

لقد اهتم الكتّاب، بكافة أصنافهم، بالقلم من كل الوجوه، كما أوضحنا، ولكنهم أعطوا عناية خاصة لمسالة بري القلم، لأنها تحدد شكل الخط، أولاً، وتبرز مهارة الكاتب ثانياً، وتؤكد على جودة عمل الكاتب ثالثاً، كما أنها تشكل قاعدة اختبارية ثابتة لعموم الكتّاب، لذلك فطن الجميع لها في أولى مراحل الكتابة، وبدايات النشىء للتعلم لقواعد الخط، وهي بهذا المعنى، تدخل في أصول الكتابة، من الناحية الفنية والمهنية، حتى أنها غدت من متمايزات الكتّاب فيما بينهم، وبها يعرف الحاذق دون سواه، بل إنها أصبحت مصدر تنظير عند شيوخ الكتابة والكتّاب، وهي أوضح في عمل الخطاطين، لأنهم بها أدرى، وأكثر تعاطياً فيها، ومن الذين نظّروا للبري، شيخ الكتّاب في العصر العباسي أبو بكر الصولي في كتابه «أدب الكتّاب» وجاراه ابن عبد ربه الأندلسي في «العقد الفريد» ومنهجها بشكل معرفي ودقيق، القلقشندي في «صبح الأعشى» حيث أنه استوفى الكثير مما قيل فيها من قبل سابقيه، والذين جاؤوا بعده، قد أخذوا منه، وكانوا صدى له، لا سيما

(1) حكمة الإشراق/ ص72.

(2) صبح الأعشى 2/ 444.

مرتضى الزبيدي في «حكمة الاشراق في كتّاب الآفاق» ومن جاء بعده[1].

اشتق الإصطلاح من الفعل «برى، يبري، برياً» والبري، والنحت[2] يقال: بريت القلم أبريه برياً وبراية، غير مهموز، وهو قلم مبري، قال الشاعر[3]:

يا باري القوس برياً ليس يحكمه   لا تفسد القوس، أعط القوس باريها

ويقال أيضاً، بروت القلم والعود بروا، بالواو، والياء أفصح[4].

وأصبحت مسألة بري القلم عند الكتّاب المجيدين جزءً من خلاله ومسلكيته، يقول الحسن بن وهب[5] «يحتاج الكاتب إلى خلال، منها جودة بري القلم وإطالة جلفته، وتحريف قطته، وحس التأني لامتطاء الأنامل، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف، والتحرز عند فراغها من الكشوف، وترك الشكل على الخطأ والاعجام على التصحيف». وعملية قط القلم أو بريه، هي عملية يراد منها حسن أداء الأداة في يد المؤدي بالكتابة، على أن مسألة البري ليست فقط قطع القصبة لجهة معينة بل يجب أن يكمل ذلك إرهاف جوانب القط وشق الرأس، كي يستوعب القلم المداد اللازم لكتابة كلمة أو حرف، يقول مسلم بن الوليد الأنصاري[6] في صفة بري القلم: «حرّف قطة قلمك قليلاً ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما استودعته إلى مقصده، وشق في رأسه شقاً غير عاد ليحتبس الاستمداد عليه، ورفع من شعبتية ليجمعا حواشي تصويره، فإذا فعلت ذلك استمد القلم برشفه بمقدار ما احتملت ظبته فيحتئذ يظهر به ماسداه العقل، وألحمه اللسان، وبلته اللهوات، ولفظته الشفاه، ووعته الأسماع، وقبلته القلوب».

و قد كان بعض الكتّاب يجيد الخط ولا يجيد بري القلم فيُبرى له، واعتبر ذلك عيباً ونقصاً في مهنته، حتى أن البعض يرفض بري القلم لغيره، لأنه يرى فيه شيء من الامتهان. قال بعضهم[7]:

---

(1) من المعاصرين الذين رددوا مقولات القلقشندي سهيلة الجبوري في «الخط العربي وتطوره في العصور العباسية» ومحمد طاهر الكردي في «تاريخ الخط العربي وآدابه» و«حس الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة».

(2) اللسان - مادة - بري.

(3) صبح الأعشى 2/ 445.

(4) المصدر السابق.

(5) نفس المصدر

(6) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص86.

(7) الصولي - المصدر السابق/ ص87.

لم تَرنى قط بارياً قلماً في بريه كل مهنة وضعه
ما كل من يحمل الحسام لكي يردي به، سنه ولا طبعه

ويقول أحدهم في ذم كاتب لا يجيد بري قلمه[1]:

دخيل في الكتابة ليس منها فما يدري دبيرا من قبيلِ
إذا ما رام للانبوب برياً تنكب عاجزا قصد السبيلِ
فكائن ثم من قطع رحيب لأصبعه ومن قلم قتيلِ

ولغرض تجنب هذه «الارباكات المهنية» راحوا ينصحون تلاميذهم وزملائهم من الكتّاب، بالاعتناء والتروي في القَطّ، وصاغوا مجموعة من المقالات «شعارات» تحفّز الجميع على الأخذ بها والتذكير في شؤون المهنة، فمن ذلك ما خطه ابن مقلة، وهو شيخ شيوخ الكتّاب، حيث قال[2]: «ملاك الخط حسن البراية، ومن أحسنها سهل عليه الخط، ومن وعى قلبه كثرة أجناس قط الاقلام كان مقتدراً على الخط، ولا يتعلم ذلك إلا عاقل» وبهذا التحفيز، ربط ابن مقلة عملية قط القلم بالوعي المعرفي، أي أنه فرض مسألة القط فرضاً، واضاف إلى هذا الفرض شرطاً آخر هو، «العقل» وبهذا يكون قد أحكم منهجاً إبداعياً، يتطلب من الكاتب الأخذ به إذا كان عاقلاً. وعلى هذا المنوال ينشىء المقر العلائي ابن فضل الله أحد تلاميذ ابن مقلة في «منهج الخط» قاعدة «فقهية» إن جاز التعبير، ولكن في مجال إبداع القلم فيقول[3]: «من لم يحسن الاستمداد، وبري القلم، وإمساك الطومار، وقسمة حركة اليد حال الكتابة، فليس هو من الكتابة في شيء».

وهذا التلميذ الشيخ، يتشدد أكثر في منهجه، فالكاتب - الخطاط - عنده، هو من يتقن فنية الكتابة بوسائل الكتابة، فكل الأمور المذكورة في منهجه أعلاه، تدلل على ذلك، وعلى ما يبدو أن هذا التشدد، هي حالة فرضت نفسها على عموم الكتّاب - وقتذاك - لبيان الغث من السمين، أولاً، والحس الحضاري، عند هؤلاء الشيوخ جعلهم يدركون أهمية تطور فن الكتابة من خلال هندسة حروفها[4].

يُتابع أساطين الحرف منهجهم جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد آخر، وكل منهم يتابع سلفه، وظل الشعار المحفز، هو الحملة الأنفع في تطور مسار القلم، فهذا الضحاك بن

(1) المصدر السابق/نفس المكان.
(2) حكمة الاشراق/ص78.
(3) صبح الأعشى 2/ 445.
(4) سيجد القارىء في ج4 الخطاطين، تفصيلات أهم وأشمل في هذه النواحي.

عجلان إذا أراد أن يبري تلماً توارى بحيث لا يراه أحد - خشية الزلل في عملية البري - ويقول: الخط كله القلم، ويشايعه بنفس الطريقة الأنصاري ويزيد عليه بأنه إذا أراد القيام من الديوان قطّع رؤوس الأقلام حتى لا يراه أحد[1]. وقال إسحاق بن حماد... وهو من المتأخرين[2]: «لا حذق لغير مميز لصنوف البراية» وهنا إشارة إلى وجود درجة في الكتابة هي - الحذق -[3] أو المهارة في الصنعة، وهي مرتبطة أشد الارتباط ببري القلم: لذلك - كما أوضحنا سلفاً - بأن مسألة «البري» هي مسألة اختيارية للكاتب، بها يميز ويعرف، وقد كانت محط إهتمام الجميع، شيوخاً وتلاميذ فقد شاهد إبراهيم بن المحبس رجلاً يأخذ على جارية قلم الثلث، فقال له: أعلمتها البراية؟ قال: لا، قال: كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برايته؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط[4] وبهذا الصدد قال شيخ الخطاطين علي بن هلال المعروف بـ (ابن البواب)[5]: «كل قلم تقصد جلفته فإن الخط يجيء به أوقص» ويعلق القلقشندي على هذه العبارة بالقول: «الوقص، قصر العنق، ولذلك سمي (متفاعلن) في عروض (الكامل) إذا حذفت منه التاء أوقص، وكأنه يريد بالقصير، ما دون عقدة الإبهام.

وقال ابن البربري: إياك والحرف في البداية، وترك التجويد لها، ومن فسدت آلته فسد عمله ويضيف أحد تلاميذ ابن مقلة وهو - الشيخ ابن العفيف: إذا طالت البراية جاء الخط بها أخف وأضعف وأحلى، وإذا قصرت جاء الخط أصفى وأثقل وأقوى[6].

وبغية أن تكون هناك دقة في البراية، وقاعدة يسير عليها الكتّاب، فقد قسموا البري إلى القط والنحت، وقد وضع الوزير الخطاط ابن مقلة، قاعدة بذلك تقول[7]: «النحت نوعان: نحت حواشيه ونحت بطنه. أما نحت حواشيه، فيجب أن يكون متساوياً من جهتي السن معاً، ولا يحمل على إحدى الجهتين فيضعف سنّه، بل يجب أن يكون الشق متوسطاً لجلفة القلم دقّ أو غلظ. قال: ويجب أن يكون جانباه مسيفين، والتسييف أن يكون أعلاه ذاهباً نحو رأس القلم أكثر من أسفله، فيحسن جري المداد من القلم، قال: وأما نحت بطنه، فيختلف بحسب اختلاف الأقلام، في صلابة الشحم ورخاوته، فأما الصلب الشحمة، فينبغي أن ينحت وجهه فقط، ثم يجعل مسطحاً، وعرضه كقدر عرض الخط الذي

---

(1) صبح الأعشى 2/ 446.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) الحاذق = الماهر - انظر - الفيروز آبادي - القاموس المحيط - مادة - حذق.

(4) صبح الأعشى 2/ 446.

(5) حكمة الاشراق/ ص79، وصبح الأعشى 2/ 448.

(6) حكمة اشراق/ ص79.

(7) صبح الأعشى 2/ 449.

يؤثر الكاتب أن يكتبه. وأما رخو الشحمة، يجب أن تستأصل شحمته حتى تنتهي إلى الموضع الصلب من جرم القلم» ويعطي ابن مقلة ملاحظة مهنية هامة على العبارة الأخيرة تقول: لأنك إن كتبت بشحمته تشظى القلم، ولم يَصفُ جريانه».

وهذه القاعدة في البري، تنسحب على جميع أنواع الأقلام - الخطوط - وعلى أنواع القص المستخدم في كتابة تلك الخطوط، والحقيقة أن ابن مقلة هو أميز لغيره في استخدام مختلف الأقلام، نظراً لكثرة ممارسته لها، حيث أنه كان إمام الخط في زمانه، وإليه آلت رئاسة الخط العربي[1] لذلك فإنه أدرى من غيره في التعامل مع مختلف أنواع القصب، وهو الأعرف بشؤون القط، وعليه سار الكتّاب في زمانه وبعده، في القط والبراية ومسك القصبة وخط القلم، يقول ابن البربري[2]: «لا تقطع البراية، ولا تخالف بين حدّي القلم، فإن ذلك حياكة، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول» وهذا الكلام يحمل شيئاً من التندر مع الثبات المعرفي بالشيء، ويضيف ابن البربري ملاحظات أخرى على عملية القط والبري، تستجيب لأنواع الخطوط المستخدمة في زمانه، فمن ذلك قوله[3] «ثم الجلفة على أنحاء: منها أن يرهف جانبي البري، ويُسمَّن وسطها شيئاً يسيراً، وهذا يصلح للمبسوط والمعلّق والمحقق[4]. ومنها ما تستأصل شحمته كلها، وهذا يصلح للمرسل والممزوج والمفتح[5]. ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن، وهذا يصلح للطوامير[6] وما شابهها. ومنها ما يرهف من جانبي وسطه. ويكون مكان القطة منه، أعرض ما تحتها، وهذا يصلح في جميع قلم الثلث[7] وفروعه.

وأوجدوا مسمّيات للقط شكلت بديهيات عند الكتّاب، بكل فئاتهم، يستخدمونها في بري أقلامهم ويتعاطون الحديث بها، في لجة عملهم، منها - المحرف، والمستوي والقائم، والمصوب، وأجودها عندهم المحرفة المعتدلة التحريف، وأفسدها المستوي، لأنه أقل من المحرف تصرفاً[8].

ومع هذه القطّات، أوجدوا أدوات للقط أطلقوا عليها اسم «المِقَطّ» راعوا فيها بعض

---

(1) سجد القارىء ترجمة لحياته الفنية والسياسية في ج4 (الخطاطون) من هذه الدراسة.
(2) صبح الأعشى 2/ 449.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) أنواع من الخطوط العربية.
(5) أنواع أخرى من الخطوط.
(6) نوع سلطاني من الخطوط - كان يكتب به للخليفة في «ديوان الإنشاء».
(7) الثلث - من أشهر الخطوط العربية.
(8) حكمة الاشراق/ ص79.

المواصفات التي تنسجم ومادة القلم، وشكل القطة أو البري، وبهذا الجانب، يركن مهنياً إلى ابن مقلة أيضاً، فهو حقاً خبير الأقلام وشؤونها، فقد قال مرة لأخيه: «إذا قططت القلم فلا تقطه إلا على مقط أملس صلب، غير مثلم ولا خشن، لئلا يتشظى القلم، واستحد السكين حداً، ولتكن ماضية جداً، فإنها إذا كانت كالة جاء الخط رديئاً مضطرباً، وتضجع السكين قليلاً إذا عَزمت على القط ولا تنصبها نصباً»[1].

وعلى المقط، يعلّق إبن العفيف بالقول[2]: «يتعين أن يكون من عود صلب كالأبنوس والعاج، ويكون مسطح الوجه الذي يقطع عليه، ولا يكون مستديراً».

ومن بري القلم إلى الشق، في راس القلم، وهي الخطوة الثانية، يقول ابن مقلة[3]: «لو كان القلم غير مشقوق ما استمرّت به الأنامل ولا اتصل الخط للكاتب، ولكثر الاستمداد، وعدم المشق، ولمال المَداد إلى أحد جانبي القلم على قدر فتل الكاتب له» أي أن الشق بمثابة الميزان للمداد، وقد رأى الكتاب في صفة هذا الشق، أن يكون هناك تناسب في قدره وطوله، وحسب نوعية القصب المستخدم. يقول ابن مقلة[4] ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته، ورخاوته. فأما المعتدل فيجب أن يكون شقّه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها، والمعنى فيه، أنه إذا زاد على ذلك انفتحت سنّا القلم حال الكتابة، وفسد الخط حينئذ، وإذا كان كذلك أمن من ذلك، وأما الصلب فينبغي أن يكون شقّه إلى آخر الفتحة، وربما زاد على ذلك بمقدار إفراطه في الصلابة، وبغية إدراك وفهم ذلك عند الكتّاب فقد لجأ أحدهم - وهو الشيخ علاء الدين السومري - إلى نظم أرجوزة في صفة شق الأقلام، كي تكون مساعدة في ذلك يقول فيها[5].

واعلم بأن الشق أيضاً يختلف ... بحسب الأقلام، فافهم ما أصف
فإن يكن معتدلاً لا شقّ الى ... مقدار ثلث الجلفة انقل واقبلا
والرخو للنصف أو الثلثين زد ... والصلب بالفتحة الحق تستفد
وربما زادوا على ذاك إذا ... أفرط في الصلابة، أعرف ذا وذا

وقد أدرك كتّاب ذلك الزمان أهمية الشقّ بالنسبة للحرف غير العربي، الأمر الذي يعني أن فئة المترجمين من الكتّاب هي الأخرى أدلت بدلوها في هذا المعنى، وقد انتبه

---

(1) حكمة الإشراق/ ص79 - 80.
(2) المرجع السابق/ ص80.
(3) صبح الأعشى 2/ 450.
(4) المصدر السابق - نفس المكان.
(5) نفسه 2/ 451.

جيداً لهذه المسألة الخطاط البغدادي - ابن البوّاب، التلميذ المجوّد لابن مقلة، والفائق عليه، في منهج الخط حيث يقول[1]: «ويجوز أن يكون الأيمن/يقصد من القلم/أغلظ من الأيسر دون العكس على كل حال، وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية، فإنه يكون بالعكس من ذلك، لأنه يقوي الاعتماد على اليسار دون اليمين». وهذه النقطة - بتقديرنا - هي اكتمال لحال تطور فن القلم، صناعة وكتابة وقفزة فنية مدركة.

وبغية المعرفة الدقيقة والشاملة لما تحتاجه البراية فإنهم وقفوا على صفات القلم فيما يتعلق بها، وما لكل من سنّي القلم من الحروف، وأعطوا أسماء لصفات وأوجه كل جانب أو حافة من القلم، كي تدرك أثناء القط. لأنه على أساسها يفهم نوع البري، يقول الشيخ عماد الدين بن العفيف[2]: «من لم يدر وجه القلم، وصدره وعرضه، فليس من الكتابة في شيء». فوجهها عند ابن مقلة حيث تضع السكين وأنت تريد قطه، وهو ما يلي لحمة القلم، وأما صدره، فهو مايلي قشرته، وأما عرضه فهو نزولك فيه على تحريفه. ثم قال: وحرف القلم هو السن العليا وهي اليمنى[3].

ومن هذه القواعد والتسميات عرجوا على وضع مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطة، وعلى أساس كل نوع من أنواع الأقلام - الخطوط - متخذين من قلم الطومار قياساً يتبع[4].

ثم ذكروا المقلمة - وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام، وعدها البعض منهم، من أدوات الكتابة فيما أعرض البعض الآخر عن ذلك[5].

السكين - أو المدية - وهي الآلة الثالثة التي تندرج في عملية قط الأقلام، يلفظها الجاحظ بـ (المدية) وتقال بضم الميم وفتحها وكسرها، وتجمع على مدى، وهي السكين[6]. والسكين في الأصل لفظ مذكّر، قال أبو ذؤيب الهذلي[7]:

يرى ناصحاً لي ما بدا فإذا خلا فذلك سكّينٌ على الحلق حاذق

---

(1) صبح الأعشى 2/ 451.
(2) صبح الاعشى 2/ 453.
(3) المصدر السابق.
(4) راجع ذلك عند القلقشندي في صبح الاعشى 2/ 454 - 455.
(5) راجع صبح الاعشى 2/ 455، فيه بعض التفصيلات.
(6) القلقشندي 2/ 455.
(7) صبح الاعشى 2/ 455 - 456 واللسان - مادة - سكن.

وتؤنث إذا لفظت مدية قال صاحب «اللّسان» تذكر وتؤنث وأورد شاهداً على التأنيث أنشده الكسائي[1]:

فعيّث في السنام، غداةُ قُرٍ بسكين موثّقة النصاب

قال إبن الأعرابي: لم أسمع تأنيث السكين، وقال ثعلب: قد سمعه الفرّاء، قال الجوهري: والغالب عليه التذكير[2] والسكين مؤنثة في اللهجة البغدادية.

وسميت «مدية» أخذاً من مدى الاجل، وهو آخره، لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره، وسميّت سكيناً لأنها تسكن حركة الحيوان بالموت، ونصاب السكين أصلها[3].

وارتبطت السكين بأدوات الكتابة، وهي الظل للقلم دائماً، فهي التي تشحذه وترهفه، لذلك سموها «مسن الأقلام» قال بعضهم[4]: هي مسن الأقلام، تستحد بها إذا كلّت، وتطلق بها إذا وقفت وتلمها إذا تشعثت، فتجب المبالغة في سقيها وإحدادها ليتمكن من البري، فيصفو جوهر القلم، ولا تتشظى قطته، وينبغي على الكاتب أن لا يستعملها في غير البراية لئلا تكل يقول الصولي[5]: «وأشعرت السكين، جعلت لها شعيرة، وهي الحاجة بين آخر الحديد وأول النصاب، وأقبضت السكين جعلت لها مقبضاً، ويستطرد الصولي في وصف السكين ومواصفاتها قائلاً: ويقال هذا حد السكين وشفرته وظبته وغرّته وغراره وذبابه، فضبته: طرفه، والجمع ظبّات، وشفرته حده، من أوله إلى آخره، وغراره وشفرته واحد، وذباب كل شيء حده، وأكثر ما يوصف به السيف من الحد يجوز في السكين».

وقد وصف إبن حجة الحموي في «الخزانة» سكيناً فقال[6]: «وينتهي وصول السكين إلى قطع المملوك بها أوصال الجفاء، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البر والشفاء، وتالله ما غايت إلا وصلت الأقلام من تعثرها إلى الجفا، وزرقاء كم ظهر للبيض منها ألوان خرساء، وفي العجائب أنها لسان كل عنوان، ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذل بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب، كم أيقظت طرف القلم بعدما حظر، وعلى الحقيقة ما رؤى مثلها قط، وكم وجد بها الصاحب في المضاتق نفعاً، وحكم بحسن

---

(1) اللسان - مادة «سكن»؛ وصبح الأعشى 2/ 456.

(2) اللسان - مادة «سكن» -.

(3) صبح الأعشى 2/ 456..

(4) المصدر السابق.

(5) أدب الكتّاب/ ص117.

(6) انظر - محمد طاهر الكردي/ حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة/ ص39 - 40/ ط1، الباب الحلبي - مصر 1357هـ/ 1983م.

صحبتها قطعاً، ماضية العزم، قاطعة السن، فيها جذوة الشباب من وجهين، لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين، وأنملة صبح دفعت سواد الدجى، فعودتها بالضحى والليل إذا سجى، ولسان برق أمت في ظلمات الليل فتنكرت أشعة الأنجم، وما عرف منها سهل هذا، وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربها الحد، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا الجزر والمد، ومن أجل ذا تدخل في مضايق ليس للسيف فيها قط مدخل، وكل ما يفعله تزجره، والرمح في مقصده مطول إن هجعت بخفها، كانت أمضى من الظرف، وكم لها من خاصة حازت بها الحد على السيف، تنسي حلاوة العسل فلا يظهر لطوله طائل، وتغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل، إن مرت بشكلها المحنى تركت المعادن عاطلة، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادلة، شهد الرمح بعدالة، أنها أقرب منه إلى الصواب، وحكم لها بصحة ذلك قبل أن تستكمل النصاب، ما طال في رأس القلم شدة إلا سرحتها بإحسان ولا طالت كتاباً إلا زالت غلطة بالكَشط من رأس اللسان، تعقد عليها الخناصر لأنها عدّة وعدّة، تالله ما وقعت في قبضة إلا أطال لسانها، وتكلمت بحدة إن دخلت إلى القراب، وكانت قد سبكت على الدخول، وأبرزت من خيمة كان على طلعتها قبول، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وبإقامتها لحد الأقلام على مواظبة الخمس، وكم لها من عجائب صار بها جدول السيف في بحر غمده كالغريق، ولو سمع بها قبل ضربه ما حمل التطريق، فلو عارضها أبو طاهر[1] لعركت من قوسه الاذنين وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين، فإن جذبت إلى مقاومتها، وكان لك يد تمتد وصلت السكين إلى عظم، وصار عليك قطع وانتهى أمرك إلى هذا الحد، وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، ولو لمحها الفاضل[2] لحقق قوله إن خطر سكينه كل، أو أدركت إبن نباتة[3] ما أقر برسالة السيف وفل وقال لقلم رسالته: اطلق لسانك بشكر مواليك وأخلص الطاعة لباريك».

الحقيقة أن هذا الوصف للسكين، كان شاملاً لكل مواصفاتها وفوائدها واستخداماتها، ولا غرو في ذلك، فإن الواصف - إبن حجة الحموي - هو واحد ممن

---

(1) قد يكون أحد كتاب الدولة العباسية المشهورين.

(2) يقصد القاضي الفاضل - الكاتب الشهير ووزير صلاح الدين الأيوبي.

(3) أحد الشعراء والبلغاء المشهورين وهو يعرف بـ«ابن نباتة المصري» وقد أورد له ابن حجة الحموي هو والقاضي الفاضل، رسائل في وصف السيف ومفاضلته بالقلم - راجع ثمرات الأوراق المسطر على هامش كتاب «المستطرف من كل فن مستظرف» للأبشيهي/ ص123 وما بعدها. منشورات دار الفكر - بيروت.

تعاطوا مهنة الكتابة، وعرفوا فضل أدواتها ولا ريب أن السكين كانت إحدى الأساسيات في أدوات الكتابة، وبها يكمل القلم مهمته، ومن دونها يحجم عن مهمته بعد حين، وقد أحسن أحد الكتّاب في وصفها شعراً فقال على لسانها[1]:

أنا إن شئت عدّة لعدوّ ... حين يخشى على النفوس الحمام
أنا في السلم خادم لدواة ... وبحدّي تقوّم الأقلام

ونظراً لأهمية السكين ووجودها المصاحب مع عدة الكتابة، صارت تهدى[2] وتسرق وتحاف[3] وترصد، وتشترى، فمن ذلك، أن أحد كتّاب الدواوين في (ق 4هـ) قد سرق سكيناً من الشاعر المعروف كشاجم، فغضب عليهم وقال[4]:

يا قاتل الله كتّاب الدواوين ... ما يستجيزون من حدّ السكاكين
لقد دهاني لطيف منهم ختل ... في ذات حد كحد السيف مسنون
فابتزينها ولم أشعر به عبثا ... ولست ولو ساءني ظنٌّ بمغبون
وأقفرت بعد عمران بموقعها ... منها دواة فتى بالكتب مفتون
يبكي على مدية أودى الزمان بها ... كانت على جائر الأيام تعديني
كانت تقوّم أقلامي وتُتحفها ... برياً وتسخطها قطاً فترضيني
وأُضحك الطرس والقرطاس عن حلل ... تنوب للعين من نور البساتين
وإن قشرت بها سوداء عن صحفي ... عادت كبعض خدود الخُرّد العين
جزع النصاب لطيفات شعائرها ... محسّنات بأصناف التحاسين
هيفاء مرهفة، بيضاء مذهبة ... قال الاله لها سبحانه كوني
مخطوفة الخصرتحكي في تخصّرها ... خصر البديع، بديع في الخفاتين

---

(1) صبح الأعشى 2/ 457.

(2) أهدى أحدهم سكيناً إلى ابن حجة الحموي - صاحب الثمرات والخزانة - فقال شعراً ونثراً من ذلك/ راجع - حسن الدعابة/ ص40 - 41.
سكين قطع الملوك بها أوصال الجفاء وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البر والشفاء

(3) تحاف = بلغة أهل جنوب العراق - ترصد للسرقة، بعد تحديد سالك السطو، والحوف في اللغة - الميل - انظر اللسان - مادة (حيف).

(4) انظر ديوانه/ ص473 - 475، قافية النون - تحقيق خيرية محمد محفوظ - منشورات وزارة الاعلام - بغداد 1390هـ/ 1970م. وانظر كذلك زهر الآداب وثمر الألباب/ لأبي إسحاق الحصري القيرواني 2/ 140 تحقيق زكي مبارك - منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر/ ط1 - 1925م وكذلك/ حسن الدعابة ص41 - 42.

كأنها حين يشجيني تذكّرها ... في القلب مني وفي الأحشاء تغريني
لكن مقطّي أمسى شامتا جذلا ... وكان في ذلّة منها وفي هون
فصين حتى يضاهي في صيانته ... جاهي لصونيه عمّن لا يدانيني
فلست عنها بسالٍ ما حييّت ولا ... بواجدٍ عوضاً منها يسلّيني
فلو يراد فداء ما فجعت به ... منها فديناه بالدنيا وبالدين

وحسن استخدامها في أمور الحياة، جعل الكثير من الأدباء والندماء، يحسن التعبير عنها في كل موقف، فمن ذلك ما قاله أحمد بن يوسف وهو جالس بين يدي المأمون حينما سأله عن السكين، فناولها له، وقد أمسك أحمد بنصابها، وأشار إليه بالحد، فنظر إليه المأمون نظر منكر فقال: لعل أمير المؤمنين أنكر علي أخذي النصاب، وإشارتي إليه بالحد، وإنما تفاءلت بذلك أن يكون له الحد على أعدائه، فعجب المأمون من سرعة فطنته ولطيف جوابه[1] وقال كاتب في وصفها[2]: «سكين ذات منسر بازي، وجوهر هوائي، ونصاب زنجي، إن أرضيت أولت متناً كالدهان وإن أسخطت أتقت بناب الأفعوان، سكين أحسن من التلاق وأقطع من الفراق، تفعل فعل الأعداء وتنفع نفع الأصدقاء، هي أمضى من القضاء، وأنفذ من القدر المتاح، وأقطع من ظبة السيف الحسام، وألمع من البرق في الغمام، جمعت حسن المنظر، وكرم المخبر، وتملكت عنان القلب والبصر، لم يحوجها عتق الجوهر إلى إمهاء الحجر».

رأينا فيما تقدم أن هناك عدة عمليات فنية، استنبطها الكتّاب من ظروف مهنة الكتابة، كأنواع القصب، وكيفية استخدام القط والمقط وفنية إمساك السكين والقطع فيها، وهذه العمليات المتوالية تشير إلى التفكير الدائم بتطوير أداة الكتابة الرئيسي «القلم»، وهذه المسألة، لم تكن حصراً وحكراً على كتّاب الدولة العباسية في بغداد، بل هي همٌّ مشترك عند أمراء وكتاب الممالك الإسلامية الأخرى، إن كانت في الأندلس أو في مصر الفاطمية، وقد لعب التنافس السياسي، فيما بين هذه الدول، دوراً إيجابياً في تطور مجمل الصناعات والعلوم، وقد كان للقلم، حضوره في هذا التنافس، نظراً لما هو عليه من تسيير شؤون الملك، وبغية إيجاد تفرد معين، في فن أو علم مخصص، لهذه الممالك، تنافس به حكومة بغداد العباسية، فقد إنبرت الدولة الفاطمية في مصر، لإثبات قدرتها في مجال

(1) زهر الآداب 2/ 140.
(2) زهر الآداب 2/ 141.

التنافس في صناعة القلم، فقد أشار القاضي النعمان بن حيون المغربي[1] إلى أن المعز لدين الله الفاطمي طرح فكرة صناعة «قلم الحبر» حيث قال: «نريد أن نعمل قلماً يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده داخله، فمتى شاء الإنسان كتب به، فأمده وكتب بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المداد، وكان القلم ناشفاً منه، يجعله الكاتب في كمه، أو حيث شاء، فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يبتغي منه ويراد الكتابة به، فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنّا سبقنا إليها، ودليلاً على حكمة بالغة لمن تأملها، وعرف وجه المعنى فيها».

ويضيف القاضي النعمان، تعقيباً على قول المعز قال: «فما مر بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة به، معمولاً من ذهب، فأودعه المداد، وكتب به فكتب، وزاد شيئاً من المداد على مقدار الحاجة، فأمر المعز بإصلاح شيء منه، فأصلحه. وجاء به فإذا هو قلم يقلّب في اليد، ويميل إلى كل ناحية، فلا يبدو منه شيء، فإذا أخذه الكاتب وكتب به، كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك عن المداد»[2].

وعلى ما يبدو أن دواوين الدولة العباسية في ذلك الوقت (ق 4هـ) لم تعر ذلك أي اهتمام، وأضربت على ذكره، ولم تتعاطَ فيه، بل استمرت في استخدام القصبة، وتفننت في ذلك وأوجدت منها أنواعاً للخطوط، بل أوجدت مدرسة للخط في بغداد، كان على رأسها عبد الله بن مقلة، الوزير الخطاط، ثم انتقلت إلى يد المجود الأحذق، ابن البوّاب، وانتهت رياسة هذه المدرسة إلى ياقوت المستعصمي[3] وعن هذه المدرسة، أخذ العالم الإسلامي أصول الخط العربي وقواعده.

ما قيل في الأقلام

قالوا: القلم أحد اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات

---

(1) كتاب المجالس والمسايرات/ ص319 - 320، الجزء الخامس عشر، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي - منشورات الجامعة التونسية - 1978م.

(2) وبهذا الاختراع، يكون المعز لدين الله الفاطمي (319 - 365هـ/ 931هـ - 975م) هو أول مخترع لقلم الحبر، وهو سابق على اختراع القلم الخازن للحبر في أوروبا بثمانية قرون، حيث يشار إلى قلم (F.B foelsn) سنة 1809. ثم قلم (J.sheffer) (سنة 1819، انظر بهذا الصدد - الهامش رقم ا من ص 319 من كتاب «المجالس والمسايرات» وانظر ترجمة المعز في الاعلام، للزركلي 7/ 365، ط5، طبعة دار العلم للملايين - بيروت 1980م.

(3) تتبع ذلك معنا في ج4 (الخطاطون) في هذا البحث.

مختلفة، من معان معقودة بحروف معلومة مؤلفة، متباينة الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكير ونتاجها التدبير، تخرس منفردات، وتنطق مزدوجات، بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن محدودة ولا حركات ظاهرة خلا قلم حرّف باريه قطته ليعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرّد ما انتشر عنه إليه، وشقّ رأسه ليحتبس المداد عليه، فهنالك استمدّ القلم بشفّه، ونثر في القرطاس بخطّه، حروفاً أحكمها التفكّر وجرى على أسلّة الكلام الذي سداه العقل وألحمه اللسان، ونهسته اللهوات، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفاء، ودعته الأسماع على أنحاء شتّى من صفات وأسماء، وفيه قال أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي[1].

وأسمر طاوي الكشح أخرس ناطق ... له ذملان في بطون المهارقِ

إذا استعجلته الكفّ أمطر وبله ... بلا صوت إرعاد ولا ضوء بارقِ

إذا ما حدا عزّ القوافي رأيتها ... مجلية تمضي أمام السوابقِ

كأن عليه من الدجى الليل حلّة ... إذا ما استهلّت مزنه بالصواعقِ

كأن اللالي والزبرجد نطقه ... ونور الخزامى في عيون الحدائقِ

حدّث محمد بن أحمد الأنصاري قال: دخل عيسى بن قرخا نشاه على جارية هي تكتب خطاً حسناً فقال[2]؟

سريعة جرى الخط تنظم لؤلؤاً ... وينثر درّا لفظها المترشف

وزادت لدينا حظوة ثم أقبلت ... وفي أصبعيها أسمراللون مرهف

وقال أحد الورّاقين، يصف قلمه ويمدحه ويذكر اسغناءه[3]:

يا مجيري من سطوة الأمراء ... وعميدي في نوبة اللاواء[4]

والذي صان حرّ ديباجة الوجـ ... ـه عن الأسخياء والبخلاء

والذي لا أزال أنعت في الشعـ ... ـر وأطريه غاية الإطراء

وسفيري بما أريد من الأمـ ... ـر إلى إخوتي من الأدباء

والذي لا زال يخبر في المهـ ... ـرق عن سالف الأنباء

---

(1) العقد الفريد 4/ 191 - طبعة القاهرة 1363هـ/ 1944م.

(2) الصولي - أدب الكتّاب/ ص84.

(3) الصولي/ نفس المكان.

(4) اللأواء: الشدة.

والـذي مـا أبـتـعـثـتـه اسـتـن كـالـمـثـا قـب يـغـرى دجـنـة الـظـلـمـاء

وقال عبد الله بن المعتز في قلم القاسم بن عبد الله:

قـلـم مـا أراه أو فـلـك يـجـ رى بـمـا شـاء قـاسـم ويـدور
راكـع سـاجـد يـقـلّـب قـرطـا سـاً كـمـا قـلّـب الـبـسـاط شـكـور

وفيه يقول:

عـلـيـم بـأعـقـاب الأمـور كـأنـه لـمـخـتـلـفـات الظن يسمع أو يرى
إذا أخـذ الـقـرطـاس خـلـت يـمـيـنـه يـفـتـح نـوراً أو يـنـظـم جـوهـرا

وقال ابن الرومي مفضّلاً القلم على السيف[1]:

لـعـمـرك مـا لـسـيـف سـيـف الـكـميّ بـأخـوف مـن قـلـم الـكـاتـب
لـه شـاهـد أن تـأمـلـتـه ظـهـرت عـلـى سـرّه الـغـائـب
أداة الـمـنـيّـة فـي جـانـبـيـ ـه فـمـن مـثـلـه رهـبـة الـراهـب
ألـم تـر فـي صـدره كـالـسـنـا ن وفي الردف كالمرهف القاضب

وقال أبو أسامة الكاتب ملغزا عنه[2]:

وأعـجـف مـشـتـق الـشـبـاه مـقـلّـم موشى القرى طاوى الحشا أسود الفم
تـبـيـن خـفـيّ الـنـسـر آثـاره لـنـا ويهرب عن غير الضمير المكتم
يـؤدي صـحـيـح الـقـول عنه مخاطباً به العين دون السمع لا بالتكلم
إذا استغزرته الكف فاضت سجاله من الفكر فيض الرايح المتغيّم

دخل محمد بن ذؤيب العماني الراجز على الرشيد فأنشدهُ إرجوزة يصف فيها فرساً شبّه أذنيه فيها بقلم محرّف[3]:

كـأن أذنـيـه إذا تـشـوفـا قـادمـة أو قـلـمـا مـحـرّفـا

فقال له الرشيد: دع - كأن - وقل «تخال أذنيه إذا تشوّفا» حتى يستوي الأعراب.

---

(1) أدب الكتّاب/ ص 85؛ وديوانه/ ص269 - الجزء الثاني - تحقيق كامل كيلاني - منشورات المطبعة التجارية بمصر.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) ذات المصدر/ ص86.

وأورد القلقشندي جملة أبيات في مفاخرة القلم، منها قول ابن الرومي[1]:

أن يخدم القلم السيف الذي خضعت لـه الـرقـاب ودانـت خـوفـه الأُمـم

فالموت - والموت لا شيء يغالبه مـا زال يـتـبـع مـا يـجـري بـه الـقـلـم

كـذا قـضـى الله لـلأقـلام مـذ بـريـت أن السيوف لها - مذ أرهفت - خدم

ويقول أحدهم في فضل القلم وتفوّقه على السيف في الرهبة، وزيادة في الجد والكرم[2]:

فـلـكـم يـفـل الـجـيـش وهـو عـرمـرم والـبـيـض مـا سـلّـت مـن الأغـمـاد

وهـبـت لـه الأجـسـام حـيـن نـشـابـهـا كـرم الـسـيـول وصـولـة الآسـاد

وقال العلوي وهو يصف القلم وتأثيراته في المشرق والمغرب[3]:

وعـريـان مـن خـلـعـة مـكـتـس يـمـيـس مـن الـوشـي فـي يـلـمـقٍ[4]

تـحـدّر مـن رأسـه ريـقـة تـسـيـل عـلـى ذروة الـمـفـرقِ

فـكـم مـن أسـيـر لـه مـطـلـق وكـم مـن طـلـيـق لـه مـوثـقِ

يـقـيـم ويـوطـن غـرب الـبـلاد ويـنـهـي ويـأمـر بـالـمـشـرقِ

قـلـيـل كـثـيـرضـروب الـخـطـوط وأخـرس مـسـتـمـعِ الـمـنـطـقِ

يـسـيـر بـركـب ثـلاث عـجـال إذا مـا حـدا الـفـكـر فـي بـيـرقِ

وقال آخر في وصف القلم[5]:

وبـيـت بـعـلـيـاء الـعـلاة بـنـيـتـه بـأسـمـر مـشـقـوق الـخـيـاشـم يـرعـف

كـأن عـلـيـه مـلـبـسـا جـلـد حـيّـة مـقـيـم فـمـا يـمـضـي ومـا يـتـخـلّـف

جليل شؤون الخطب ما كان راكبا يـسـيـر وان أرجـلـتـه فـمـضـعّـف

وقال أبو تمام حبيب ابن أوس الطائي في مدح قلم محمد بن عبد الملك الزيات[6]:

---

(1) صبح الأعشى 1/ 45؛ ديوانه 3/ 372 بعناية كامل كيلاني.

(2) المصدر السابق/نفس المكان.

(3) العقد الفريد 4/ 191 - 192.

(4) اليلمق = القباء - فارسي معرب يلمه.

(5) العقد الفريد 4/ 192.

(6) من قصيدة مطلعها: (متى أنت عن ذهلية الحيّ ذاهل . . . وقلبك منها مدّة الدهر آهل) انظر القصيدة =

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

له الخلوات اللاء لولا نجيّها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل[1]

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنى اشتارته أيدٍ عواسل

له ريقة طلّ ولكن وقعها ... بآثاره في الشرق والغرب وابل

فصيح إذا استنقطته وهو راكب ... وأعجم أن خاطبته وهو راجل

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرقت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل

إذا استغزر الذهن الذكيّ وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل

وقد رفدته الخنصران وشدّدت ... ثلاثٍ نواحيه الثلاث الأنامل

رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضنىً وسمينا خطبه وهو ناحل

وأنشد البحتري لنفسه يصف قلم الحسن بن وهب[2]:

وإذا تألّق في الندى كلامه الـ ... مصقول خلت لسانه من عَضْبه

وإذا دجت أقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى في كتبه

باللفظ يقرب فهمه في بعده ... منّا ويبعد نيله في قربه

حكم فسائحها خلال بنانه ... متدفّق وقليبها في قلبه

كالرَوض مؤتلقا، بحمرة نوره ... وبياض زهرته وخضرة عشبه

أو كالبرود تخيّرت لمتوّج ... من خاله، أو وشيه، أو عصبه

وكأنها والسمع معقود بها ... شخص الحبيب بدا لعينِ محبّه

وقال ابن عبد ربّه الأندلسي في وصف القلم[3]:

بكفّه ساحر البيان إذا ... أداره في صحيفة سحرا

= رقم (129) في ديوانه 3/ 112 - 113. البيت رقم 30 وما بعده، بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - منشورات دار المعارف بمصر 1964م وانظر كذلك - العقد الفريد 4/ 192.

(1) لم يورد صاحب العقد الفريد هذا البيت، وتخطاه لما بعده.

(2) من القصيدة رقم 55 والتي مطلعها (من سائل المعذر عن خطبه. . . أو صافح لمقصّر عن ذنبه)، انظر ديوانه 1/ 163 - 166 - بعناية حسن كامل الصيرفي - منشورات دار المعارف بمصر - 1963م - وانظر العقد الفريد 4/ 193.

(3) العقد الفريد 4/ 193.

ينطق في عجمة بلفظته ... نصمّ عنها وتسمع البصرا
نوادر يقرع القلوب بها ... أن تستبنها وجدتها صورا
نظام درالكلام ضممنهُ ... سلكاً لخط الكتاب مستطرا
إذا امتطى الخنصرين أذكرمن ... سحبان فيما أطال واختصرا
يخاطب الغائب البعيد بما ... يخاطب الشاهد الذي حضرا
ترى المقادير تستدّف[1] له ... وتنفد الحادثات ما أمرا
شخت[2] ضئيل لفعله خطر ... أعظم به في ملمة خطرا
تمج فكّاه ريقة صغرت ... وخطبها في القلوب قد كبرا
تواقع النفس منه ما حذرت ... وربما جنت به الحذرا
مهفهف تزدهي به صحف ... كأنّما حليّت به دررا
يكاد عنوانها لروعته ... ينبيك عن سرّها الذي استترا

ومن أحسن ما شبّهت به الأقلام قول ذي الرمّة[3]:

كأن أنوف الطيّر في عرصاتها ... خراطيم أقلام تخطّ وتعجم

ومثله قول عدّي بن زيد الرّقاع في ولد البقرة[4]:

تزجي أغنّ كأن أبرة روقه ... قلم أصاب من الدّواة مدادها

وقال الخليفة المأمون[5]:

كأنما قابل القرطاس إذ نشفت ... منها ثلاثة أقلام على قلم

لم تقف أوصاف القلم عند عصر من العصور، بل تعدته إلى غيره، وصار أدباء كل عصر يتغزلون أو يتلاغزون به، فهذا الحريري (ق 6هـ) يردد رجع صدى (ق 4هـ) في وصف القلم في إحدى مقاماته[6] ملغزاً فيه القول شعرا[7]:

---

(1) تستدفّ = تسهل وتستقم.

(2) الشحت = بالفتح ويحرّك - الدقيق الضامر لا هزالاً.

(3) العقد الفريد 4/ 194.

(4) المصدر السابق، وأدب الكتّاب للصولي/ ص79.

(5) نفسه.

(6) المقامة الثانية والاربعون، المعروفة بـ«النجرانية».

(7) مقامات الحريري/ المقامة 42/ ص465 - 466 طبعة المطبعة الحسينية المصرية 1348هـ/ 1929م.

ومــأمــوم بــه عُــرفَ الإمــام   كـمـا بـاهـت بـصـحـبـتـه الـكـرام
لــه إذ يــرتــوي طــيــشــان صــاد   ويــسـكـن حـيـن يـعـروه الاوام[1]
ويـذري حـيـن يـسـتـسـقي دمـوعـا   يــرقــن كــمــا يــروق الابــتــســام

وقال أبو هفّان وهو يصف القلم بيد الكاتب[2]:

وإذا أمـرّ عـلـى الـمـهـارق كـفـه   بأنامل يحملن شختا مرهفا
ومـقـصّـرا ومـطـوّلا ومـقـطّـعـا   ومـوصـلا ومـشـتّـتـاً ومـولّـفـا
كـالـحـيّـة الـرقـشـاء إلا أنـه   يـسـتـنـزل الأروى إلـيـه تـلـطـفـا[3]
يـهـفـو بـهـا قـلـم يـمـجّ لـعـابـه   فـيـعـود سـيـفـاً صـارمـا ومـثـقّـفـا

وقال بعض الورّاقين الشعراء في وصف أقلامه[4]:

إذا ما التقينا وانتضينا صوارما   يكاد يصمّ السامعين صريرها
تساقط في القرطاس منها بدائع   كمثل اللآلي نظمها ونثيرها

وقال حمّاد الدمشقي يصف قلما[5]:

لـلأيـم بـعـثـتـه وشـقّ لـسـانـه   ولـه إذا لـم يـجـرهـا أطـراقـه
كـالـحـيّـة الـنـضـنـاض إلا أنـه   من حيث يجري سمّه درياقه

وقال ابن أبي البغل الكاتب المعروف في (ق 4هـ) في وصف القلم[6]:

أصـمٌّ مـن الـمـنـادى لا يـجـيـب   بـه تـخـبـو وتـشـتـعـل الـخـطـوب
ضئيل الجسم أعلم ليس تخفى   عليه غيوبنا تخفي القلوب
تـــراه راجـــلا لا روح فـــيـــه   ويـحـبـيـه ويـنـطـقـه الـركـوب
يـبـيّـن لـسـانـه مـا كـان سـودا   مـعـارفـه ويـخـرسـه الـمـشـيـب
يـقـسّـم فـي الـورى بـؤسىً ونـعـمىً   ويـحـكـم والـقـضـاء لـه مـجـيـب

---

(1) الأوام = العطش.

(2) العقد الفريد 4/ 197.

(3) الأروى = جمع كثرة للأروية، وهي أنثى الوعول.

(4) العقد الفريد 4/ 198.

(5) زهر الآداب 3/ 37.

(6) حسن الدعابة للكردي/ ص45.

عجبت لسطوة فيه وضعف ... وكل أموره عجب عجيب

وقال أبو هلال العسكري[1]:

انظر إلى قلم ينكّس رأسه ... ليضمّ بين موصل ومفصّل

تنظر إلى مخلاب ليث ضيغم ... وفرارمستون المضارب مفصل

يبدو لناظره بلون أصفر ... ومدامع سود وجسم منحل

فالدرج أبيض مثل خدّ واضح ... يثنيه أسود مثل طرف أكحل

قسم العطايا والمنايا في الورى ... فإذا نظرت إليه فاحذر وأمل

طعمان شوب حلاوة بمرارة ... كالدهر يخلط شهده بالحنظل

فإذا تصرّف في يديك عنانه ... ألحقت فيه يائساً بمؤمّل

ومذللا بمعززٍ ولربما ... ألحقت فيه معززا بمذلل

وقال محمود بن أحمد الأصفهاني في وصف القلم[2]:

أخرس ينبيك بإطراقه ... من كل ما شئت من الأمر

يذري على قرطاسه دمعة ... يبدي بها العين وما يدري

كعاشق أصفى هواء وقد ... نمّت عليه عبرة تجري

يبصره في كل أحواله ... عريان يبكي الناس أو يعرى

يُرى أسيرا في دواة وقد ... أطلق أقواما من الأسر

أخرق لو لم تبره لم يكن ... يرشق أقواما وما يبري

كالبحر إذ يجري وكالليل إذ ... يغشي وكالصارم إذ يفري

وقال الفضفاضي[3]:

في كفّه أخرس ذو منطق ... بقافه واللام، والميم

شبرا، إذا قيس، ولكنّه ... في فعله مثل الأقاليم

محرّف الرأس ومسودّه ... كإبرة الروس من الريم

---

(1) حسن الدعابة ص25.

(2) حسن الدعامة/ ص25.

(3) أدب الكتّاب/ ص78.

وكتب أبو بكرالصولي إلى أبي علي محمد بن علي في أيام - ابن الفرات الأولى قصيدة منها[1]:

مشف على الرأي نظّار عواقبه ... إذا تشابه وجه الرأي واحتجبا

في كفّه صارم لانت مضاربه ... يسوسنا رغبا ان شاء أورهبا

السيف والرمح خدّام له أبدا ... لا يبلغان له جدّاً ولا لعبا

يرمي فيرضيهما عن كل مجترم ... ويعصيان على ذي النصح أن غضبا

تجري دماء الاعادي بين أسطره ... ولا يحسّ له صوت إذا ضربا

فما رأينا مداداً قبل ذاك دماً ... ولا رأينا حساما قبل ذا قصبا

وقد شككنا فما ندري لشربته ... أنظم الدرّ في القرطاس أم كُتُبا

والقول في القلم شعراً، كثير جداً، ونكتفي بهذا القدر من تلك الشواهد الشعرية فيه.

2 - الدواة

يقال: دواة ودويات في أدنى العدد، وفي الكثير دويٌ ودوىً، بضمّ الدّال وكسرها[2]، وقال صاحب المتن[3]: «الدواة، هذه المتخذة لمدة القلم في الكتابة»، أوّل بعض المفسرين قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[4] بأن «النون» هي الدواة، وعلى أية حال فإن الدواة هي أم آلات الكتابة وسمطها الجامع لها، حتى أن ابن سابور يقول: «مثل الكاتب بغير دواة كمثل من يسير إلى الهيجاء بغير سلاح»[5].

ويرادف الدواة المحبرة، والجمع محابر، مع اختلاف في وضعهما كما سيأتي.

وبالنظر لأهمية الدواة بالنسبة للكتّاب والورّاقين ودواوين الوزارة، فقد إتخذت صناعتها من أصناف معيّنة من الخشب، مثل: الأبنوس والساسم والصندل، فيما تطوّر معدن صناعتها فيما بعد، فقد غلب على الكتّاب المتأخرين اتخاذ المحابر من النحاس

(1) أدب الكتاب/ ص80.

(2) القلقشندي - صبح الأعشى 2/ 431.

(3) متن اللغة - للشيخ أحمد رضا - مادة (دوي) منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1377هـ/ 1958م، وراجع كذلك الفيروز آبادي - القاموس المحيط - مادة (دوي) وعلى ما يبدو أن أغلب المعاجم اللغوية - اللسان - القاموس - لم تتوقف عندها، نظراً لكونها معروفة كأداة لجمع المداد (الحبر).

(4) سورة القلم، الآية: 1.

(5) صبح الأعشى 2/ 430 - 431.

الأصفر والفولاذ، وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها[1]، لكن الملاحظ أن النحاس كان أكثر استعمالاً، والفولاذ أقل لعزته ونفاسته، ولكنه كان يخصص بأعلى درجات الرياسة كالوزارة وما ضاهاها، أما محابر الخشب، فقد بطل استعمالها، إلا الأبنوس والصندل الأحمر، فقد قال القلقشندي أنه إختص باستخدامهم قضاة الحكم وموقعوهم وبعض شهود الدواوين[2]. وأصحابنا الورّاقون كانوا إلى الخشب أميل، وأكثر استخداماً.

ولكون الدولة تعطي هيبة لطقس الكتابة وموضع الكاتب، فقد مال غالبية الكتّاب إلى تحليتها وزركشتها بالحلي، كالذهب والفضة، وغيرهما من المعادن، وفي هذا قال الحسن بن وهب؛ وهو من جلّة الكتاب في العصر العباسي: «سبيل الدواة أن يكون عليها من الحلية أخف ما يكون ويمكن أن تحلّى به الدّوى في وثاقة ولطف، ليأمن أن تنكسر أو تنقصم في محلة.

وأضاف: «وحق الحلية أن تكون ساذجة بغير حفر ولا ثنيات فيها، ليأمن من مسارعة القذى والدّنس إليها، ولا يكون عليها نقش ولا صورة»[3].

هذه المواصفات التجميلية للدواة، جعلت القلقشندي أن يسقط عليها بتعليقاته شيئاً من محمولة الآيديولوجي - الديني، حيث أشار[4]: «وحق هذه الحلية مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه، دون الفضة والذهب، على أن بعض الكتاب في زماننا[5] قد إعتاد التحلية بالفضة، ولا يخفى أن حكم ذلك حكم الضبّة في الإناء فتحرم مع الكبر والزينة وتكره مع الصِغرِ والزينة، والكبر والحاجة، وتباح مع الصغر والحاجة من كسر ونحوه، كما قرّره أصحابنا الشافعية، نعم يحرّم التكفيت بالذهب والفضة، وكذلك التموية إذا كان يحصل منه بالعرض على الناس شيء».

وكان لحجم الدواة أثره في اختيارها بالنسبة للكاتب أكثر من غيره كالوزراء وكتّاب الدواوين، وقد إلتفت الصولي إلى ذلك موضحاً أهمية الحجم حيث أشار إلى أن (حكم الدواة أن تكون متوسطة في قدرها، نصفاً في قدّها، لا باللطيفة جداً فتقصر أقلامها، ولا بالكبيرة فيثقل حملها، لأن الكاتب - ولو كان وزيراً له مائة غلام مرسومون بحمل دواته -

---

(1) نفسه 2/ 431.

(2) نفسه 2/ 432.

(3) المصدر السابق/ نفس المكان.

(4) المصدر السابق/ نفس المكان.

(5) يقصد القرن 8 هـ - حيث أنه ولد سنة 756هـ - 821هـ/ راجع الزركلي 1/ 177.

مضطر في بعض الأوقات إلى حملها ووضعها ورفعها بين يدي رئيسه، حيث لا يحسن أن يتولى ذلك منها غيره، ولا يتحملها عنه سواه، وأن يكون عليها من الحلية أخف ما يتهيأ أن يتحلى الدوى به)[1].

وارتأوا أن يكون طولها بمقدار عظم الذراع أو فويق ذلك قليلاً لتكون مناسبة لمقدار القلم، وقد أشار القلقشندي[2] إلى إختلاف مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة. من التدوير والتربيع، يقول:

فأمّا كتّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين، لطيفة القدّ، طلباً للخفّة، ولأنهم إنما يتعانون في كتابتهم الدّرج[3]، وهو غير لائق بالدواة في الجملة، على أن الصغير من الدرج لا يأبى جعله في الدواة المدوّرة. وأمّا كتّاب الأموال فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا، وليجعلوا في باطن غطائها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب بهذه الدواة في القطع، وعلى هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم وموقّعوهم دويّهم، وينبغي للكاتب أن يجتهد في تحسين الدواة وتجويدها وصونها، وقد جعلوا ذلك من منابع وعيهم ولزاميّات خواطرهم، يقول المدائني:[4].

جوّد دواتك واجتهد في صونها ... انّ الدويّ خزائن الآداب

ومن هذه الزاوية في الاهتمام بالدواة، فإنها صارت محطّ أنظار الكتّاب، والبضاعة النفيسة التي تعشقها روح الكاتب، لذلك بدأ تبادل الهدايا بها، قال أبو الطيب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد الكاتب، جملة أبيات في دواة من الأبنوس محلاّة أهداها لأحد أصدقائه[5]:

لم أرَ سوداء قبلها ملكت ... نواظر الخلق والقلوب معا
لا الطوّل أزرى بها ولا قصرٌ ... لكن أتت للوصول مجتمعا
فوقك جنح من الظلام بها ... وبارق بائتلاقها، لسعا
خذها لدرّ بها تنظّمه ... يروق في الحسن كل من سمعا

(1) الصولي - أدب الكتّاب/ ص96.
(2) صبح الأعشى 2/ 432 - 433.
(3) الدرج = الذي يكتب فيه - وهو في العادة اسطواني على شكل لفيفة - والدّرج - بالتحريك، يقال أنفذته في درج الكتاب أي في طيّه/ اللسان - مادة (درج).
(4) صبح الأعشى 2/ 433.
(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

أما المحبرة المفردة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها كما يقول القلقشندي[1]: فمنهم من رجّحها ومالوا إلى إتخاذها لخفة حملها وقالوا: بها يكتب القرآن والحديث والعلم، وكرهها بعضهم واستقبحها من حيث أنها آلة النسخ الذي هو من أشدّ الحِرف وأتعبها وأقلها مكسباً وتشاءموا منها كثيراً، يروى أن شعبة/أحد رجالات الحديث/ رأى في يد رجل محبرة فقال له: إرم بها فإنها مشؤمة لا يبقى معها أهل ولا ولد ولا أم ولا أب[2]، والشؤم هذا نابع من كون صاحبها يرتزق منها في صنعة الوراقة المتعبة لأهلها.

ما قيل في الدواة

قال أحدهم في وصف الدواة[3]: الدواة من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عتاد، وللمخاطر زناد، وغدير لا يرده غير الأفهام، ولا يمنح بغير أرشية الأقلام، دواة أنيقة الصيغة، رشيقة، مسكيّة الجلد، كافورية الحكاية، غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتساق سحب البلاغة من قراره، دواة تداوى مرض عفاتك وتداوى لقلوب عداتك، على مرفع يؤذن بدوام رفعتك، وارتفاع النوائب عن ساحتك، ومواد كسواد العين وسويداء القلب، وجناح الغراب ولعاب الليل، وألوان دهم الخيل، مداد ناسب خافية الغراب، واستعار لون شرخ الشباب، وأقلام جمّة المحاسن، بعيدة عن المطاعن، تعاطي الكاسي، وتمانع النافر القاسي، أنابيب ناسبت رماح الخط في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحديد في لمعانها، أقلام، كأنها الأميال استواء والآجال مضاء، بطيئة الخطى، قوية القوى، لا يشطبها القسط، ولا ينشعب بها الخط، أقلام بحرية، موشية الليط، رائعة التخطيط، قلم معتدل الكعوب، طويل الأنبوب، باسق الفروع، روى الينبوع، هو أولى باليد من البنان، وأخفى للسرّ من اللسان، هو للأنامل مطيّة، وعلى الكتابة معونة مرضية، نعم العدة القلم.

وقال أبو الفتح كشاجم فيها مركزاً الوصف على المحبرة[4]:

محبرة جاد لي بها قمر	مستحسن الخلق مرتضى الخلق
جوهرة حصني بجوهرة	ناطت له المكرمات في عنقي
بيضاء والحبر في قرارتها	أسود كالمسك جدّ منفتق

---

(1) صبح الأعشى 2/ 433.

(2) المصدر السابق 2/ 434.

(3) حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة/ ص33 - 34.

(4) أنظر ديوانه/ ص368 - 369 قافية القاف - المقطوعة رقم (358).

مـثـل بـيـاض الـعـيـون زيّـنـه ... مـسـودّ أشـبـاهـه مـن الـحـدق
كـأنـمـا حـبـرهـا إذا نـشـرت ... أقـلامـنـا طـلّـة عـلـى الـورق
كـحـلٍ مـرتـه الـدمـوع مـن مـقـلٍ ... نـجـل فـأوفـت بـه عـلـى يـقـقِ[1]
خـرسـاء لـكـنّـهـا تـكـون، لـنـا ... عـونـاً عـلـى عـلـم أفـصـح الـنـطـقِ

قال الصولي: أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال: أنشدني أبو هفان[2]:

آلـة الـمـجـلـس الـطـريـف إذا مـا ... كـانـت فـيـه الـدواة والأقـلام
يـتـهـادى فـيـه الـبـلاغـة والآ ... داب مـنـثـورهـا مـعـا والـنـظـام

وقال الصولي: أما المشهود مما قيل فيها، فشعر بعض الكتّاب، وقد أهدى دواة محلاة بذهب وهي من الأبنوس[3]:

وقـد بـعـثـنـا إلـيـك أمّ الـمـنـايـا ... والـعـطـايـا نـجـيّـة الأحـسـاب
تـتـزيّـا بـصـفـرة وكـذا الـزن ... ج تـزيـا عـجـبـا بـصـفـر الـثـيـاب
ريـقـهـا ريـق نـحـلـة مـع صـاب ... حـين يـجـري لـعـابـهـا في الـكـتـاب
فـي حـشـاهـا لـغـيـرحـرب حـراب ... هـنّ أمـضـى مـن مـرهـفـات الـحـراب

وقال ورّاق فيها ملغزا المعنى[4]:

ومـا أمّ أولاد ولـمّـا تـلـدهـم ... عقامَ إذا ما استنجدت لم تكلم
وأولادهـا خـرس ويـأتـيـك عـنـهـم ... أحاديث من أيام طسم وجرهم[5]
إذا استعجلوا في حالة أرقلت بهم[6] ... أثـانـي مـن لـحـم كـريـم ومـن دم

وقال علي بن الصباح في وصف دواة[7]:

دواة حـديـد زيّـن الله خـلـقـهـا ... بـكـفّ فـتـى حـلـو الـكـتـابـة حـاذق

---

(1) يقق = شديد البياض، يقال لجمارة النخلة، اللسان - مادة (يقق).
(2) أدب الكتّاب/ ص92.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) نفس المصدر السابق/ ص92 - 93.
(5) طسم وجديس - قبائل من عاد أنقرضوا، وجرهم حي من اليمن وهو ابن قحطان بن عامر - راجع الأنساب للسمعاني.
(6) ضرب سريع من السير - راجع الهامش رقم 2 من ص93 - أدب الكتّاب.
(7) أدب الكتّاب/ ص93.

تدير العطايا والمنايا حرابها ... إذا طعنت في شاكلات المهارق

وقال أحمد بن إسماعيل واصفاً القلم وملغزاً بالدواة[1]:

في كفه مثل سنان الصعدة ... أرقش، بز الأفعوان جلده
يلتهم الجيش اللهام وحده ... كأنه متشح ببرده
لو صادم الطود المنيف هدّه ... أو صافح السيف الحسام قدّه
يأوى إلى طير له معده ... يمزج فيه صبره بشهده
ترضعه من مقلة مسوده ... يمدّها جار كثيف العدّه
كأنه الليل إذا استمده ... مقلتها مكحولة بندّه

قال أبو بكر الصولي[2] حدثني أحمد بن محمد الأنصاري قال: قيل لورّاق: ما تشتهي؟ فقال: قلماً مشاقاً، وحبراً براقاً وجلوداً رقاقاً، وأورد لأحدهم في وصف المحبرة:

ولقد غدوت إلى المحدّث آنفا ... فإذا بحضرته ضباء رتّع
وإذا ضباء الأنس تكتب كلّ ما ... يملي وتحفظ ما يقال وتسمع
يتجاذبون الحبر من ملمومة ... بيضاء تحملها علائق أربع
من خالص البلّور غيّر لونها ... فكأنها سبج يلوح ويلمع
إن نكسوها لم تمل ومليكها ... فيما حوته عاجلاً لا يطمع
ومتى أمالوها لرشف رضابها ... أدّاء فوها وهي لا تتمنّع
فكأنها قلب رصين سرّه ... أبدا ويكتم كل ما يستودع
يمتاحها ماضي الشباة مزلّق ... يجري بميدان الطروس فيسرع
رجلاه رأس عندها لكنّه ... يلقاء برد حفاة ساعة يقطع[3]
فكأنه والحبر خضّب رأسه ... شيخ لوصل خريدة يتصنّع
لم لا ألاحظه بعين جلالة ... وبه إلى الله الصحائف ترفع

---

(1) نفس المصدر السابق/ ص93 - 94.

(2) أدب الكتّاب/ ص 95 - 96.

(3) اضطرب عجز هذا البيت في أدب الكتّاب/ ص96، وأثبتناه على نسخه - طاهر الكردي/ حسن الدعابة/ ص35.

وقال أحد الورّاقين في وصفها[1]:

تـرى الـرشـا والـحـبـل انـبـوبـة | يـقـلـّب مـاءً أسـوداً مـن قـلـيـب
روض الـنـدى يـنـبـت زهـر الـلـهـى | وهـذه تـنـبـت زهـر الـقـلـوب

وقال أحمد بن ثور يصف ناقته[2]:

كـأن تـوشـي أقـرانـهـا | إذا مـا تـشـحـن مـخـطّ الـدوى

حدّث أحمد بن يزيد المهلبي قال: حدّثني أبو هفّان قال: سألت ورّاقاً عن حاله فقال: عيشتي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من المسطرة، وجاهي أرق من الزجاج ووجهي عند الناس أشدّ سواداً من الحبر، وحظي أحقر من شق القلم، وبدني أضعف من قصبة، وطعامي أمرّ من العفص، وسوء الحال ألزم لي من الصبغُ فقلت له: عبّرت عن بلاء ببلاء[3].

وقال ورّاق في وصفها[4]:

وسـوداء مـقـلـتـهـا مـثـلـهـا | وأجـفـانـهـا مـن لـجـيـن صـقـيـل
وإذا ذرفـت عـبـرة خـلـتـهـا | كـغـالـيـة فـوق خـدّ أسـيـل

ووصفها آخر بقوله[5]:

ولـجّـة بـحـر أجـم الـعـبـاب | بـادٍ وأمـواجـه تـزفـر
إذ غـاص فـيـه أخـو غـوصـة | سـريـع الـسـبـاحـة مـا يـفـتـر
فـأنـفـس بـذلـك مـن غـائـص | بـديـع الـكـلام لـه جـوهـر
وأكـرم بـبـحـر لـه لـجّـة | جـواهـرهـا حِـكـم تـنـتـشـر

ووصفها ابن كريم[6]:

ومـسـودّة قـد خـضـعـت حـالـهـا | ورويـت مـن قـعـر لـهـا مـنـبـسـطِ
خميص الحشا يروي على كل مشرب | امـيـنـا عـلـى سـرّ الأمـيـرالـمـسـلـط

(1) أدب الكتّاب/ ص97.
(2) نفس المصدر السابق/ ص98.
(3) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص97.
(4) الكردي/ حسن الدعابة/ ص35.
(5) الكردي/ حسن الدعابة/ ص36 - وأصلها عند الصولي/ أدب الكتّاب/ ص94.
(6) المصدر نفسه والمكان.

وأوجز أحد الورّاقين القول بها، وقد راح يتغزل بها شغفاً[1]:

وما روض الجنان وقد زهاه ندى الأسحار يأرج بالغداةِ
بأضوع أو بأسطع من نسيم توديه الأفاوه من دواة

وختم القول فيها الشيخ شمس الدين بن المزيّن حيث قال على لسان الدواة[2]:

إن السعادة حيث كنت مقيمةً والبحر أخبار الندى عنّي روى
كم من عليل مقاصد أبرأته فأنا الدواة حقيقة وأنا الدوا

ويلحق بالدواة آلات فرعية تكمّل عملها، وتكون جزءاً منها، وهذه الآلات هي:

أ - **الجونة**: وهي التي فيها حقّ المداد، وينبغي أن يكون شكلاً مدوّر الرأس، تجتمع على زاويتين قائمتين، ولا يكون مربعاً على حال، لأنه إذا كان مربّعاً يتكاثف المداد فيه، فإذا كان مستديراً كان أنقى للمداد وأسعد في الاستمداد[3].

ب - **اللّيقة**: هي ما اجتمع في رقبة الدواة من سوادها بمائها، جاء في اللسان[4] ألاق الدواة ليقا، وألاقها إلاقة فلاقت: لزق المداد بصوفها، قال ابن الأعرابي: دواة ملوقة أي مليقة إذا أصلحت مدادها، والإصطلاح جاء من معنى اللزق واللصق، يقال في اللغة، ألاق الدواة، أي أدار المداد فيها حتى لصق وعلق، حدّث الأصمعي قال: قدمت على الرشيد في بعض قدماتي فقلت: (ما ألا تتني الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين) فلما خرج قال: ما معنى «ألا قتني»؟ قلت: ما ألصقتني بها ولا قبلتني[5]، يقول أبو بكر الصولي[6]: والصواب المختار أن يقول: ألقت الدواة فأنا مليق لها وهي ملاقة، وأنشد للكسائي:

لو يكتب الكتّاب عرفك فرغوا ليق الدوّى وأنفدوا الأقلاما

واعتبر البعض أن اللّيقة هي الكرسف نفسه[7] فيما ميّز الصولي ذلك بالقول[8]:

---

(1) المصدر نفسه.
(2) ذاته.
(3) حكمة الإشراق/ ص73.
(4) مادة (لوقَ).
(5) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص99.
(6) المصدر السابق/ نفس المكان.
(7) صاحب حكمة الاشراق/ ص73.
(8) أدب الكتّاب/ ص100.

الكرسف: القطن خاصة دون غيره، ثم صاروا يسمون كل شيء وقع موقعه في الدواة من صوف وخرقة كرسفاء واضاف: كرسفت الدواة: جعل لها كرسفا، والجمع كراسف، واستشهد بقول وهب الهمداني:

سحاب حكى القرطاس لون صبيره[1] وعـاد بـه جـو الـعـواصـف أكـلـفـا

إذا كـتـبـت فـيـه يـد الـبـرق أسـطـرا يـلـبـس وجـه الأرض بـالـثـلـج كـرسـفـا

وسميت الليقة، لأنها تلاقي الدواة بالنقس وهو المبراد[2] واشترطوا أن يكون الكرسف في نهاية ما يكون من السواد، والليقة التي فيها الكرسف في نهاية اللين والنعمة، والأجود أن تكون مستديرة، لأن الصولي يرى في ذلك أن يسميها الكاتب (روق القلم)[3].

ويضيف: ولا يلحق كلفة ولا إبطاء في الاستمداد، وأن حفر الموضع الواقع على الليقة من الغطاء وغشي بأرق ما يكون من الفضة، حتى إذا أطبقت الدواة، تجافى ذلك الموضع عن الليقة، فلم ينله شيء من سوادها، كان أدعى للنظافة والسلامة، وأكثر الدوّي لا تسلم منها ما لم تكن على ما وصفنا، وثمة اشتراط آخر رآه أساطين الكتابة في العصر العباسي، هو عمليّة تعهّد الليقة والكرسف بالملح والكافور، وأن تغيّر في كل يومين أو ثلاثة، وربما أغفل ذلك، فاستكرهت الرائحة، وظهر من نتنها ما يخجل له[4]، وهذه المسألة - أي نتن الدواة - كثيراً ما كانت تأتي باللوم والشؤم على صاحبها، وربما تعرّض للفصل والاقصاء من وظيفته، فمن ذلك ما نقله الصولي عن بعض الكتّاب الذين أهملوا جوانب دواتهم قال[5]: تهيأ ذلك على بعض الكتّاب حتى ظنّ رئيسه أنه أبخر، فشكا ذلك إلى نديم له فقال النديم: ما عرفت ذلك منه ولكن لعله أغفل ذلك من أمر الدواة وتفقدها؟ فقال الرئيس: عذره في بخره أبسط عندي منه في نتن دواته، لأنه في ذلك مضطر، وهو في هذا مختار، ثم قبل نديمه على ذلك، فلم يجر عليه بعد، وهذه الحالة كانت محط ازدراء للكتّاب من قبل الشعراء، وهو ما يعكس شيئاً من روح التندر عليهم، يقول أحد الشعراء في هذا المعنى يهجو كاتباً[6]:

دخـيـل فـي الـكـتـابـة لـيـس مـنـهـا فـــلا فـكـــر يـــعـــد ولا بـــديـــه

---

(1) الصبير - السحابة البيضاء، والتي يصير بعضها فوق بعض.

(2) سهيلة الجبوري - الخط العربي وتطوره/ ص138.

(3) أدب الكتّاب/ ص100.

(4) أدب الكتّاب/ ص101.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) المصدر السابق نفسه.

تشاكل أمره خلقاً وخُلْقا ... فظاهره لباطنه شبيه
كأن دواته من ريق فيه ... تلاق فنشرها أبدا كريه

فيما يرى الحسن بن وهب أن اكتمال الأخلاق الحميدة يجب أن تكون في الكاتب وأدواته جزء من أخلاقه حيث يقول[1]:

مداد مثل خافية الغراب ... وقرطاس كرقراق السحاب
وأقلام كمرهفة الحراب ... وألفاظ كأيّام الشباب

واللّيقة، لا تستحق هذا الاسم حتى تلاق في الدواة بالنقس، وهو المداد، كما يقول الجاحظ[2]، وقد رأى بعض الكتّاب أن تؤخذ الليقة، أو الكرسف، من الحرير والصوف والقطن والبرس والطوف والعطب، والأولى أن تكون من الحرير الخشن، وعللوا ذلك بالقول[3]: لأن انتفاشها في المحبرة وعدم تلبدها أعون على الكتابة.

والملاحظ أن كبار الكتّاب من المتقدمين والمتأخرين، ركّزوا على الاهتمام بالليقة، وتشددوا في ذلك كثيراً، الأمر الذي يعكس بعده الاجتماعي على المهنة، إضافة إلى بعده الإبداعي، فقد تواصوا بها جيلاً بعد جيل، وشيخاً بعد شيخ، وكاتباً بعد آخر، حتى أنك تحسّ أن الليقة هي الأساس بالدواة، وبتقديرنا أن «التفاعل الكيمياوي» بين المواد التي تصنع منها الليقة والحبر، وتفاعلها مع الهواء، قد تفسد حتى مجلس الكتابة، ومن هنا جاء التشديد علي العناية بها، قال أحد الكتّاب: ويتعيّن على الكاتب أن يتفقد الليقة ويطيبها بأجود ما يكون، فإنها تروح على طول الزمن[4]. وقد ربط بعض الكتّاب جودة الكتابة والكاتب مع جودة التفقد للدواة، واعتبروها جزءاً من الظرف، وقد قال قائلهم[5]:

متظرّف شهدت عليه دواته ... أن الفتى لا كان غير ظريف
أن التفقّد للدواة فضيلة ... موصوفة للكاتب الموصوف

فهذه المباراة الأخلاقية - الفنية، كانت تساعد الكثيرين من الكتّاب والورّاقين على الاهتمام بأدواتهم، والتفقد الدائم لها، حتى أن بعضهم كان يطيّب دواته بأطيب ما عنده من

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) صبح الاعشى 2/ 458.
(3) المصدر السابق 2/ 459.
(4) صبح الأعشى 2/ 459.
(5) المصد نفسه.

طيب نفسه، وسألوه عن ذلك فقال[1]: لأني أكتب بها اسم الله تعالى واسم رسوله ﷺ واسم أمير المؤمنين (أطال بقاءه) وربما سبق القلم بغير إرادتنا فنلحسه بألسنتنا ونمحوه بأكمامنا.

هناك شروط فرضها شيوخ الكتّاب في خصوص الدواة والليقة تتشكل بها قواعد السلوك، فمن ذلك ما قاله الشيخ علاء الدين السرّمرّي[2]، نسبة إلى سامراء، أوسرّ من رأى، يتعيّن على الكاتب تجديد الليقة في كل شهر، وأنه حين فراغه من الكتابة يطبّق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه فيفسد الخط، ونظم في ذلك أرجوزته فقال:

وجـدّد الـلـيـقـة كـل شـهـر فـشـيـخـنـا كـان بـهـذا يُـغـري
لأجـل مـا يـقـع فـيـهـا مـن قـذى فـيـنـتـشـي مـن ذاك فـي الـخـط أذى

وانعكس هذا المحمول الأخلاقي والفني، على الحياة العامة، بشكل أو بآخر، حتى أن معلمي الصبيان كانوا يزجرون صبيانهم من البصق بالدواة[3].

ومع هذه الاهتمامات بالدواة والليقة، ركّز الكتّاب على عملية الإستمداد من الدواة، كي تأخذ المسألة بعداً فنياً وجمالياً تنسجم وتلك التعليمات، فقد قال المقر العلائي بن فضل الله[4]: «ينبغي للكاتب أن لا يكثر الإستمداد، بل يمدّ مدّا معتدلاً، ولا يحرك الليقة من مكانها، ولا ينثر بالقلم، ولا يرد القلم إلى الليقة، حتى يستوعب ما فيه من المَداد، ولا يدخل منه الدواة كثيراً، بل إلى حد شقّيه، ولا يجوز ذلك إلى آخر الفتحة».

وإستزادة لموضوع «الليقة» هناك «مخطوطة صغيرة» بعنوان: «أنواع اللّيق وكيفية إعمالها» حققها الأستاذ بروين بدري توفيق ونشرها بمجلة «المورد العراقية»[5]، من المفيد جداً إيرادها، نظراً لكونها تحقّق الفائدة المعرفية، وبنفس الوقت تكشف مدى الأهمية الجمالية والمهنية للورّاق والكاتب في كيفيتِهِ لإستخدام أدواته. يقول نص المخطوط: .

قال المفيد: «ينبغي لمن أراد عمل اللّيق والأصباغ أن يبتدي: أولاً، بتدبير الصمغ العربي المحلول، وهو أن تأخذ من الصمغ العربي الأبيض المعقرّب[6] ما إخترت، فتدكّهُ

---

(1) المصدر نفسه.

(2) صبح الأعشى 2/ 459 - وحكمة الإشراق/ ص75.

(3) صبح الأعشى/ نفس المكان.

(4) حكمة الإشراق/ ص75.

(5) راجع العدد 4 - المجلّد 14 لعام 1985 - من ص 267 - ص 274.
والمخطوطة تقع في 10 أوراق، وهي فصل من كتاب لمؤلف مجهول، توجد في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد برقم (141).

(6) هو الصمغ المأخوذ من شجرة القرظ، ولونه لون الزجاج الصافي، والمعقرّب = المعوّج.

ناعماً، وتنخله ثم تبله بالماء الصافي في وعاء زجاجي. ثم أنه يعطي لكل جزء منه ثلاثة أجزاء من الماء، وسُدَّ رأس الإناء، وتُعلِّقهُ بالشمس نهاراً كاملاً، ثم تحرّكه حتى انه يختلط في بعضهِ البعض وتتركهُ حتى يركد، ثم أنك تأخذ منه بقدر ما تحتاج إليه لإصلاح الليق والأصباغ والإدهان، فإن جفَّ تدهن من فوقهِ بالسندروس[1] المحلول فإنه لا يعود يزول ذلك الدهن ولو غسلته بالماء، فاعلم ذلك».

صفة ليقة حمراء

يؤخذ من الزنجر الأحمر «كبريت الزئبق» ويسحق ناعماً ثم يُصبُّ بماء حب الرُمّان الحامض، أو بماء الليمون، ويقلب عليه الماء ويُغسل غسلاً جيداً، وتصفيّه بعد أن تتركهُ ساعة حتى أن يركد، ثم يُسحق على صلاية مانع[2] أو صلاية ناعمة ملساء وأسقيهِ بالماء قليلاً قليلاً وأنت تسحقه إلى أن لا يعود يشرب شيء من الماء، ويبقى كأنه كالحريرة.

فحينئذ: يلقي عليه الصمغ المحلول واسحقهُ به قوياً، حتى أنه يدخل في أجزائه، فإن أردتهُ ليقة تركتهُ على ليقة حريرة مفولة في حُقّ زجاج واكتب ما أردت، وأن أردتهُ المدهان[3] فمشية بالقلم الشعر[4] على ما اخترت من الدهان وغيره. فاعلم.

صفة ليقة صفراء

«يؤخذ الزرنيخ الأصفر الذهبي المورق، يُطحن ويُنخل ثم يُسحن على صلاية مانع بالماء حتى لا يعود يتسرب شيء، وألق عليه الصمغ المحلول إلى حيث يُرضيك فارفعته لحاجتك أما الكتابة أو الدهان فاعلم ذلك».

ليقة أخرى صفراء

«إذا عدم الزرنيخ الأصفر إسحق الإرسفيداج العراقي[5] والقِ عليه الزعفران الجنوبي، والقِ عليه الصمغ المحلول واكتب به عوضاً عن الزرنيخ الأصفر. فاعلم ذلك».

---

(1) السندروس: نبات مادة راتنجية تستخرج من شجرة لها خاصية جذب دهن يقال له دهن الصواني، راجع - أحمد عيسى/معجم أسماء النبات/ ص37. وقال داود: أن هذه الشجرة توجد في إرمينيا، وأجودهُ أصفر برّاق، تذكرة داود 1/ 202.

(2) صلاية مانع = حجر المسن.

(3) المدهان: آلة المدهن، قارورة الدهن.

(4) القلم الشعر: وهو عود الزعفران المُسمّى الشعر.

(5) الإسفيداج: هو كاربونات الرصاص القاعدية، ويعرف بإسم سبداج.

ليقة خضراء زرعي

«يؤخذ الزرنيخ الأصفر المسحوق الناعم، وألقِ على كل مثقال منه وزن ربع درهم نيلة هندية[1] واسحقه إلى حيث يعجبك لونه في الخضرة الزرعية وينزل عليه الصمغ المحلول، وافعل بهِ ما أردت، إمّا الكتابة أو للدهان».

صفة ليقة زنجاري

«يسحق الزنجار العراقي سحقاً ناعماً، ثم تُلق عليه ماء الصمغ المحلول وافعل بهِ ما شئت، واكتب بهِ في الليق أو الدهان، فاعلم ذلك».

صفة ليقة فستقي

«وهو أن تلقي على [تلك] الليقة الزنجاري بخل دانقين زعفران جنوبي فإنه يُحسن ويرضيك لونه، فاعلم ذلك».

صفة ليقة بيضاء

«يؤخذ الأسفيداج العراقي، يسحق ناعماً بالصمغ الأبيض المحلول إلى حيث يُحسن بياضه».

صفة ليقة لازوردي

«وهو أن تلقي على كل درهم أسفيداج ربع درهم نيلة هندية واسحقهُ جيّداً في صلاية مانع حتى أنَّهُ يبقى شبه الآزورد، فاعمل منه ليقة أو بطانة للدهان واطرش فوقه بالآزورد».

صفة ليقة حمراء

«يُسحق [الإسفيداج] واطرح عليه قطعة نيلة هندية واجعله إمّا ليقة أو دهان».

---

(1) النيلة: وتعرف بالوسمة أو النيلج، وهي أسماء لنبات له ساق فيه صلابة، ولونه مائل للزرقة، وعند غسل ورقهِ تجلو ما عليه من زرقة، أنظر: يوسف التركماني/المعتمد في الأدوية المفردة، ص531.

صفة ليقة فاختي

«إلقي مقطرة من الحبر على درهم من السليقون[1] أو شيئاً يسيراً من النيلة الهندية المحلولة. تم ذلك».

صفة ليقة عودي

«إسحق الزرنيخ الأحمر سحقاً ناعماً، وألق عليه أدنى ما يكون من الحبر، وخذ الأحمر وألقِ عليه الأصفر والمداد، وذلك جميعهُ بعد التصميغ، واعلم أن جميع الألوان يتولّد بعضها من بعض، إذا ألقيت على بعضها البعض باختلاف الأوزان».

صفة ليقة وردي

«يؤخذ [مقدار] من الزنجفر والإسفيداج واسحقهما واجعلهما في إناء وصمغهما، فإن أردت الوردي عميق، فاعمل الأحمر أكثر، وأن أردته صافي، فاعمل الأسفيداج أكثر».

صفة ليقة نارنجي عميق

«يؤخذ من السليقون يسحق ويعمل عليه ماء الصمغ المحلول، وتكتب بهِ يجيء مليح».

صفة حل الذهب للّيق

«إذا أردت ذلك، فخذ زبدية (إناء) صفتي، زرقاء، ملساء، ناعمة، وتطرح في وسطها عشرة أوراق ذهب مصري [و ت ط ر ع ل ح م][2] حزوية عسل نحل، وتمرس الجميع فيه قليل قليل، حتى أن ينحل جميعه، فاغسل عنهُ حلاوة العسل بالماء، واتركه يرسب، وصفّ عنه الماء، وألق عليه وزن حزوبه[3] صمغ عربي محلول، واكتب به، فإذا أجف اتركهُ

---

(1) السليقون: وهو الإسرنج، ويعمل منه الحبر الأحمر: انظر - أبو عمران القرطبي: شرح العقار/ ص170.

(2) هكذا وردت في الأصل.

(3) حزوبة: مكيال مصري يساوي 1/ 16 من القدح، ويساوي 6% لتر، أو ما يعادل 129. و.لتر. انظر: فالترهانتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي/ عمان 1970/ ص62.

ساعة، واصقله بحجر الجزع[1] يكون قد عمل منه مصقلة، فإنه يظهر لونه ويأتي كما تحب وتختار، فاعلم ذلك».

صفة ليقة فضيّة

«يؤخذ أوراق الفضّة، إعمل بهم مثلما عملت بالذهب سواء، واعمل عليهم الصمغ واكتب بِهِ تجيء نقية بيضاء مليحة، فاعلم ذلك».

صفة حَلْ جميع المعادن

«إذا أردت فخذ حجر المحك، وحك عليه أي معدن شئت، فإنه ينحل بحالهِ أول بأول، حتى لا يبقى من ذلك الحجر شيء، تُقطِّر عليه من الصمغ المحلول وتكتب به، فإذا أجف أصقله، فإنهُ يظهر لونهُ أي حجر كان نحاس أحمر كان أو أصفر، أو حديد أو غير، فإنه يظهر مليح».

صفة لصاق الذهب

«يؤخذ غري السمك ويبرش ويجعل في الماء ويكون بالزعفران، ويرفع على النار لينه، حتى يأخذ له قوام، ثم تتركه يبرد، فإذا برد يؤخذ قلم شعر يعمل في ذلك الغري والزعفران، ويمش على موضع تريد تحل فيه الذهب على الورق، كذلك حتى يفرغ موضع تريد عمله، فإذا أردت أن تلصق الذهب، ندّي الموضع بالزعفران، ويلصق من فوق الذهب، فإذا جَفْ فاصقلهُ بالجذعِ أو بالحجر الصرف، فإنه يملس ويحسن».

آخر مثلهُ

«يؤخذ الكَلَخ[2] الأبيض ويُحَلْ بخل خمر، ويترك ساعة حتى يذوب ثم اكتب به ما شئت على قوس أو كتاب، والصق عليه أوراق الذهب أو الفضّة فإنّه جيّد يغني عن غِراء السّمك، وكذلك تعمل بأوراق الفضة».

---

(1) حجر الجزع: الجزع - كلمة عربية، تعني (إنقطع) وهو حجر مشطب فيه كالعود بين بياض وصفرة وحمرة وسواد، وإذا جلي على (العشر) نوع من الخشب، بالعسل، أشرق وأنار، انظر - تذكرة داود 1/ 106.

(2) الكَلَخ: وهو الأشق، لزاق الذهب، لأنه يُلحمهُ كالتنكار، وإسمهُ بمصر: الكلخ، وباليونانية «أمونيافيون» وهو صمغ يؤخذ بالشرط من شجرةٍ صغيرةٍ دقيقة الساق مزغبة إلى بياض، زهرها بُني، حمرة وزرقة، تكون بجبال الكرخ وأجودهُ الأبيض اللّين السريع الإنحلال.

ومن الآلات الملحقة بالدواة «الملواق» وهو عود من الخشب، يشبه مرود المكحلة، اشتقّ اسمه من الفعل «لوق»[1] وهو على وزن/ مفعال/ لأنه من أسماء الآلة، وسمّي بهذا الاسم، لأن به تلاق الدواة، وأحسن أصنافه ما يكون من الأبنوس، لكي لا يغيّره لون المداد ويكون مستديراً، مخروطاً، عريض الرأس نحيفه[2].

والكتّاب الأوائل، وشيوخ الصنعة من أمثال الصولي يسمونه «محراك الدواة» ويستند الصولي في هذه التسمية إلى مسمّيات كتّاب عصره ويستشهد بشعر أحدهم[3]:

بدر من الديوان لم يخترم	ضياءه بالنقص أفلاكه
صيّر جسمي قلما هجره	يردى دم العشاق سفاكه
وقلب الهجر هواه كما	يقلّب الكرسف محراكه

ومن الآلات الأخرى التي قد تلحق بالدواة «المرفع» ويكاد ينحصر استخدامه عند الكتّاب المترفين، وخدمة السلطان وذوي الجاه، ويعرّفه الصولي بقوله[4]: المرفع: ضرب من الكبر، وفضيلة في الآلة، وترفّه مفرط لا يليق بذوى التقدم في العمل، والصبر عليه والتجرد له، وما يسرع إليه إلا كل ذي نخوة ورياسة محدثة، وهو أحسن في مجالس الخلوات منه في الجماعات/ ثم يستطرد الصولي شارحاً بعض مواصفاته واستخداماته فيقول: فأمّا مجالس الرياسة والجدّ في الأعمال فلا موقع له فيها.

قال أحمد بن إسماعيل[5]: قلّما رأيت سيداً رئيساً يجعل بين دواته وبين الأرض موقعاً في مجالس رياسته، وإذا عجز الكاتب عن الاستمداد من الدواة على الأرض فيغنم[6] رفعها إلى يدهِ بهذه الآلة، وتقريب متناولها، فهو عمّا سوى ذلك من تمشية الأعمال وتنفيذ الأمور أعجز، وعلى ما يبدو أن هذه الآلة، لم يستسغها الكتّاب في عملهم، لذلك كثر فيها القول والهجاء، وتندروا على مستخدميها، فمن ذلك ما هجى به أحدهم[7]:

---

(1) راجع اللسان - مادة (لوق).
(2) حكمة الاشراق/ ص75.
(3) أدب الكتّاب/ ص112 - 113.
(4) المصدر السابق/ ص111.
(5) أدب الكتّاب/ ص111.
(6) هكذا وردت وقال عنها المحقق - بهجت الأثرى - كذا - في الهامش رقم 2 من ص111 أدب الكتّاب، ولعلها: فينعم.
(7) أدب الكتّاب/ ص111.

إني (ابتليت)[1] بجاهل متغافل ... متكلف في فعله متصنّع
حاز الكتابة حين فضّض مرفعا ... وجرت أنامله بخطّ مسرع
متتايه في الحفل يبغي عزّة ... فيدلّ في مرأى هناك ومسمع
فكلامه دون المدى متواضع ... ودواته للطرف فوق المرفع

قال الصولي[2]: حدّثني أحمد بن محمد بن إسحاق قال: دخلت أنا وابو علي ابن المرزبان على يحيى بن مناوة الكاتب، وبين يديه مرفع قد قارب صدره، عليه دواته، فقلت لابن المرزبان: أما ترى هذا المرفع؟ هذا مرفع وصاحبه رقيع لا رفيع.

وقيل لبعض الرؤساء - وقد جعل دواته على مرفع - : ما كلّ الأجلاء تفعل هذا؟ فقال: من جلس على فرش تعليّه قليلاً بعدت عليه مسافة الاستمداد، فأمّا من كان على حصير أو سماط فلا عذر له فيه[3].

ووصف بعضهم مرفعاً مفضضاً واحتجّ له فقال[4]:

قرّب البعد مركب لدواة ... ملجّم من حلية بلجام
فضّة تستضيء في أبنوس ... مثل ضوء الإصباح في الأضلام
كخوان الطعام سهل للآكـ ... ـل منه ما كان صعب المرام

ومن الآلات الأخرى التي تدخل ضمن مجموعة الدواة هي: المرملة، أو المتربة، وهو الاسم القديم لها، حيث جعلت آلة للتراب، إذ كان هو الذي يترب به الكتب، والمرملة تشتمل على شيئين: الأول: الظرف الذي يجعل فيه الرمل، وهو المسمّى بذلك، ويكون من جنس الدواة، خشباً أو نحاساً ونحوهما، ومحلها من الدواة ما يلي الكاتب ممّا بين المحبرة وباطن الدواة، ممّا يقابل المنشأة آلة أخرى، سيأتي ذكرها - ويكون فيها شبّاك يمنع وصول الرمل الخشن إلى باطنها، وربما اتخذت مرملة أخرى أكبر من ذلك تكون في باطن الدواة لإحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصغرها. والمرملة الكبيرة - كما يقول القلقشندي[5] تستخدم عند أرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم تقارب حبّة

---

(1) سقطت من البيت، وأشار إليها المحقق، ومن دونها لا يستقيم الوزن، أنظر الهامش رقم3، ص111.
(2) أدب الكتّاب/ ص112.
(3) المصدرالسابق.
(4) أدب الكتّاب/ ص112.
(5) صبح الأعشى 2/ 464؛ وسهيلة الجبوري/ ص128.

الرارنح، لها عشق في أعلاها، قال القاضي شهاب الدين إبن بنت الأعز لغزاً فيها[1]:

ظريفة الشكل والتمثال قد صنعت تحكي العروس ولكن ليس تغتلم
كأنها من ذوي الألباب خاشعة تبكي الدماء على ما سطّر القلمُ

القسم الثاني من المرملة يسمى: المرمل، وقد اختار الكتّاب لذلك، الرمل الأحمر دون غيره، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل، وغيره ما كان دقيقاً، وهو على أنواع: الأول: ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق لجبل المقطم في الديار المصرية وهو أكثر الأنواع وأعمّها وجوداً، والثاني: يؤتى به من الواحات، وهو رمل متحجر شديد الحمرة يتخذ منه الكتّاب حجارة لطافاً تحتّ بالسكين ونحوها على الكتابة، النوع الثالث: يؤتى به من جزيرة ببحر القلزم/ من نواحي طور سيناء/ وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران وله بهجة على الخط، إلا أنه عزيز الوجود، الرابع: رمل بين الحمرة والصفرة، به شذور بصاصة يخالها الناظر شذور الذهب، وهو عزيز الوجود جداً، وبه يرمّل الملوك من شابههم[2].

المنشاة: وهي آلة تتخذ لمزج النشأ ببعض المواد الأخرى، قال عنها القلقشندي[3]: تشتمل على شيئين، الأول: الظرف - وحاله كحال المرملة في الهيئة والمحل من الدواة، من جهة الغطاء إلا أنه لا شبّاك في فمه ليتوصل إلى اللصاق، وربما اتخذ بعض ظرفاء الكتّاب منشاة أخرى، غير التي في صدر الدواة من رصاص على هيئة حُقّ لطيف، ويجعلها في باطن الدواة كالمرملة المتوسطة، فإن اللصاق بها قد يتغيّر بمكثه في النحاص بخلاف الرصاص.

الثاني: ويسمى - اللّصاق: وهو على نوعين: أحدهما النشأ المتخذ من البرّ، وطريقه أن يطبخ على النار كما يطبخ للقماش، إلا أنه يكون أشدّ منه، ثم يجعل بالمنشاة، وهو الذي يستعمله كتّاب الانشاء، ولا يعولون على غيره، لسرعة اللصاق به، وموافقة لونه للورق في نصاعة البياض، والثاني: المتخذ من الكثيراء، وهو أن تبل الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللّصاق ثم تجعل في المنشأة، وكثيراً ما يستعمله كتّاب الديّونة، وهو سريع التغير إلى الخضرة، ولا يسرع اللصاق به، ورأوا أن يستعمل في اللصاق في الجملة الماورد والكافور لتطيّيب رائحته[4].

---

(1) صبح الأعشى/ نفس المكان.
(2) صبح الأعشى 2/ 469؛ وسهيلة الجبوري/ ص129.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) صبح الأعشى 2/ 470.

ومن الآلات الأخرى، التي تنتظم في سلك الدواة هي: المِلزمة: وهي آلة تتخذ من النحاس ونحوه، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرج حال الكتابة ليمنع الدرج من الرجوع على الكاتب، ويحبس بمحبس على الدفتين[1].

وما يلحق بالدواة آلة أخرى تسمّى: المفرشة، وهي آلة تتخذ من خرق الكتّان، بطانة وظهارة، أو من صوف ونحوه، تفرش تحت الأقلام، وما في معناها ممّا يكون في بطن الدواة[2].

وهناك الممسحة: وتسمى الدفتر أيضاً، وهي آلة تتخذ من خرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أو حريراً وغير ذلك من نفس القماش، يمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد وتكون مدوّرة مخزومة من وسطها، وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة الدواة، يقول فيها القاضي الفاضل[3].

ممسحة نهارها يجنّ ليل الظّلم
كأنها مذ خلقت منديل كمّ القلم

وممّن مدح الممسحة المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، حيث قال فيها[4]:

ومَمسحة تناهى الحسن فيها فأضحت في الملاحة لا تبارى
ولا نكرُ على القلم الموافى إذا في وصلها خلَعَ العِذارا

وينتظم في مجموعة الدواة، آلة صغيرة تسمى المسقاة، تتخذ لصبّ الماء في المحبرة، ويطلق عليها أحياناً اسم «الماورديّة» لأن الغالب أن يجعل في المحبرة عوض الماء ماورد لتغليب رائحتها، وأيضاً فإن المياه المستخرجة كماء الورد والخلاف والريحان ونحو ذلك لا تحلّ الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء، وتتخذ هذه الآلة، كما يقول القلقشندي من الحلزون في الغالب[5]، والذي يخرج من البحر المالح، وربما صنعت من النحاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج المحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة.

---

(1) صبح الأعشى 2/ 470.
(2) المصدر السابق.
(3) صبح الأعشى 2/ 471.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر السابق.

وتضم إلى الدواة آلة المسطرة، وهي آلة من خشب، مستقيمة الجنبين، يسطّر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلّقاتها، وأكثر من يحتاج إليها المُذهّب[1].

ومن آلات الدواة الأخرى المصَقَّلة، وهي آلة يصقل بها الذهب بعد الكتابة[2]، وهي من الآلات الأساسية للخطّاطين، ذلك الصنف المبدع من الورّاقين.

وهناك المسَنّ، وهو آلة تتخذ لإحداد السكاكين، وهي نوعان: أكهب[3] اللون ويسمى الرومي، وأخضر وهو على نوعين: حجازي، وقوصي، والرومي أجودها، والحجازي أجوده الأخضر[4].

ومن النوادر اللطيفة التي كانت الدواة سبباً رئيسياً فيها، حادثة ذكرها إبن عبد ربّه الأندلسي[5]، قال فيها: «أتى وكيع بن الجراح رجل يمت إليه بحرمةٍ، فقال لهُ وكيع: وما حرمتك؟! قال: كنت تكتب من محبرتي عند الأعمش. فوثب وكيع ودخل منزلهُ ثم أخرج لهُ بضعة دنانير وقال له: أعذر فما أملكَ غيرها».

كما عُرف عن تلاميذ المسلمين إذا ما مات أستاذهم «المُلا - المعَلّم» كسروا محابرهم وأقلامهم وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصياح[6].

لقد ذكرنا في مستهل هذه الأداة، ما يُلحق بها من أدوات، وذكرنا منها الليقة، والجونة والملواق، والمرملة والمنشأة، والممسحة والمسقاة والمسطرة والمصقلة، ثم عثرنا على مخطوطة «منهاج الإصابة في معرفة الخطوط والكتابة - لمؤلفه محمد بن أحمد الزفتاوي - محققٌ ومنشور من قبل الأستاذ هلال ناجي»[7] وفيها إضافات هامة على أدوات الكتابة التي تُلحق بالدواة، مع إرجوزة شعرية تصف كل الأدوات التي تبدأ بحرف «الميم»سوف نوردها كاملة، زيادة في الإفادة ومتعة في الذكر والإسلوب.

---

(1) المصدر السابق/ ص472.

(2) صبح الأعشى 2/ 472.

(3) الكهبة: غبرة مشربة سواداً في ألوان الابل وهو لون ليس بخالصٍ في الحمرة/ اللسان - مادة (كهب)، وهو ما يعرف اليوم باسم «المبرد الحديدي».

(4) صبح الأعشى 2/ 472.

(5) انظر - العقد الفريد 2/ 201، طبعة القاهرة 1949م.

(6) آدم ميتز - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - 1/ 333، طبعة القاهرة 1957م.

(7) نشرها في مجلة «المورد» العراقية عدد خاص بالخط العربي، العدد 4 لسنة 1986م/ ص185 إلى ص 190.

ومن هذه الأدوات من ذوات «الميم» في أوّلها[1]:

1. مجمع: وهي دواة مربعة وأحياناً مسبّعة تصنع من نحاس أو غيره.
2. محبرة: إسم لوعاء الحبر.
3. مركب: هو الحِبر ذاته، وسمي مداداً أيضاً.
4. مشاق حرير: وهي «الليقة» نفسها.
5. مفرشة: هي قطعة قماش، أو ما شاكل ذلك، تجعل في باطن الدواة كالوقاية تحت ما سيوضع فيها من آلات الكتابة.
6. الملواق: ذكرناه سابقاً وهو آلة تنظف بها الدواة إذا علاها دنس وتغير لونها.
7. ملصقة: آلة يلصق بها حالة الكتابة.
8. المَسَنْ: آلة لإصلاح السكين.
9. مُموَّه: آلة ينقل بها الماء إلى الدواة إذا أراد إصلاحها، تارة تكون من النحاس، أو من الحلزون، أو غيره.
10. مقص: هو آلة لتسوية أوراق الدفاتر وغيرها وإصلاحها.
11. مرفع: آلة لوضع الشمعة عليها ليلاً، لاحتمال أن ينظر إلى الكتابة فيه لمُهمّ.
12. مبرد: لتسوية رؤوس الجرائد والدفاتر.
13. مستحد: هي آلة «سكين» كالمسن.
14. ميقات: وهو بيت أبرةٍ لطيف، لمعرفة القبلة والوقت لأجل الصلاة.
15. منقذ: آلة لطيفة الشكل «لاحتمال أن يكون - الكاتب - صيرفيّاً، ولا يخفى ما في ذلك من الثقل بالدواة لفظاً ومعنىً».
16. مَحَكّ: آلة لفحص الذهب.
17. مرآة عيون: إن كان الكاتب ضعيف البصر «يعني شبه عوينات طبيّة».
18. مقط: آلة لقط الأقلام.
19. ممسحة: للأقلام.
20. مقلمة لطيفة: توضع الأقلام داخلها. وهذا من المستهجنات التي لا يحتاج إليها.

---

(1) مخطوطة - منهاج الإصابة - المنشورة بمجلة المورد - العدد 4 ص188. كما تجدر الإشارة هنا إلى بحث السيدة (نضال عبد العالي أمين) الموسوم ب (أدوات الكتابة وموادها في العصور الإسلامية) والمنشور بنفس عدد مجلة المورد أعلاه من الصفحات 131 - 136.

21. ملقاط: آلة يلقط بها بقايا ما يظهر بالورق أثر الكشط.

22. مكّشط: آلة لمحو ما يراد إزالته من الكتاب.

23. مزبر: وهو القلم.

24. منفذ: آلة لخرق الأوراق عند إنتظامها ويشكّها «فيه».

25. ملف: لحفظ الخيط الذي يضبط الجرائد وغيره.

26. مكنزة: كالمنشأة.

27. مزودة: وعاء لوضع الحبر للزيادة عند الإحتياج وهو من المستغنى عنه.

28. مصقلة لطيفة جداً: لإصلاح موضع الكَشط حتى يناسب صقل الورق فلا يظهر.

29. مبكرة: إذا كان الكاتب ممّن يحتاج إلى البيكار في كتابته وهي من الزوائد.

30. مسطرة: لتسطير الأوراق، وهذه من عبث الإحتفالات ببطن الدواة.

31. محفظة: هي من الأشياء الزائدة داخل الدواة.

32. محكّة: لإصلاح رؤوس الجرائد والدفاتر - كالمبرد -.

33. منكّاش: للأسنان.

34. ملصقة: لضبط الأدوات.

35. مخياط: وهي الأبرة توضع في الدواة لخياطة الدفاتر.

36. مردنة: كالملعقة للأذان.

37. ميزان لطيف: خاص لوزن الذهب.

38. مسواك: عود من العوسج أو غيره، تستاك به الأسنان.

39. مشرط: يشرط به الكتب من الرسائل المختومة، وقد يستغنى عنه بالسكين.

40. مبرد: آلة معروفة.

41. مشط لطيف: لتسريح اللحية.

42. مبير: كالمنفد، ماسورة كالملف[1]

وقد نظّم العلاّمة البليغ، نخبة الفضلاء الشيخ نور الدين علي العسيلي، فَسَحَ الله في مُدّته، إرجوزةً في جميع «الميمات» التي تكون في الدواة، نوردها هنا، وفق ما جاءت بتحقيق

(1) تلك هي الأدوات التي ذكرتها المخطوطة، راجع مجلة المورد العدد (4)، لسنة 1986/ ص187 إلى ص 189.

الأستاذ هلال ناجي[1] إستكمالاً للفائدة، وكنص تاريخي هام، في شرح أدوات الكتابة.

تقول الإرجوزة:

حمدٌ لمن علّمنا بالقلم ... وعَلَّم الإنسانَ ما لم يعلم

وخصَّهُ بالنطقِ والكتابة ... كيما ينال « »[2]

وإن من أشرف أوضاع البشر ... رسم الكتاب فهو وضعٌ يعتبّر

فمن هنا تنفّسن الكتّابُ ... فيما « »[3]

فودعوا دويهم تبيماً ... لما ذكرنا أربعين مِيَمَاً

لكنّ فيها الغثَّ والسمينا ... وما ترى « »[4]

كمصقل وبرودٍ ومكحلة ... والحقَّ أن مثلَ ذا لا أصلَ لَه

فالعزم أن نبدلهُ والنيّة ... بمالهُ علاقة « »[5]

حتى يرى أظرفُ مِمّا اشتهرا ... وهذه عِدُّتها كما ترى

محبرةٌ مركبٌ ملاق ... هو الذي في « »[6]

مرسلة مزودة مُجففة ... لرملهم وهو بهذا وصَفَه

ومرود محدّد ومزبرٌ ... لقلم ومجرد « »[7]

مرشة ممسحة ومكشرة ... ومغرزٌ ومقسمٌ ومسطره

ملزمة ومكبس ملّف ... مصفاة حبرٍ « »[8]

ومنفذٍ ومكشط ومديه ... وهي برسم ما تروم بريه

كذا مِنٌّ مستجد ومقط ... وقلم الطرحِ « »[9]

وملزقٌ ومخيط مشك ... مقطّع كتب ليسَ فيها شك

ومركز لما عليه توضع ... رؤوس الأقلام « »[10]

كذلك المرآةُ والمقصُّ ... ثمَّتَ محراكٍ عليه نَصّوا

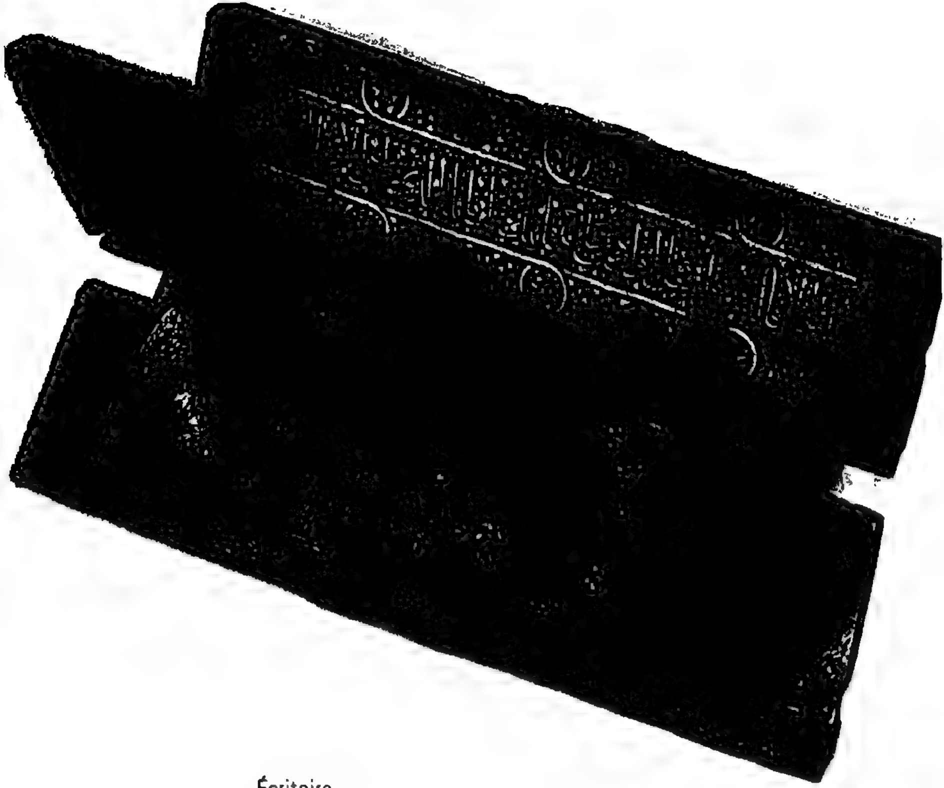
محفظة ومجمع منشار ... يقطع أوصال « »[11]

كذاك ملقاطٍ لما شان القلم ... مصقلة تكمل النظم وتُتمُ

---

(1) المصدر أعلاه، ص189.

(2 - 11) هذه الكلمات الساقطة من النص، والمحصورة بين الأقواس، هكذا وجدها المحقق هلال ناجي وكان بإمكانه الإجتهاد، لوضع كلمات تكمل المعنى والسياق، لو كان قادراً على «نظم الأراجيز» ومعرفة بحورها الشعرية، ونحن لم نتصرف بالنص، لأن المحقق أولى به.



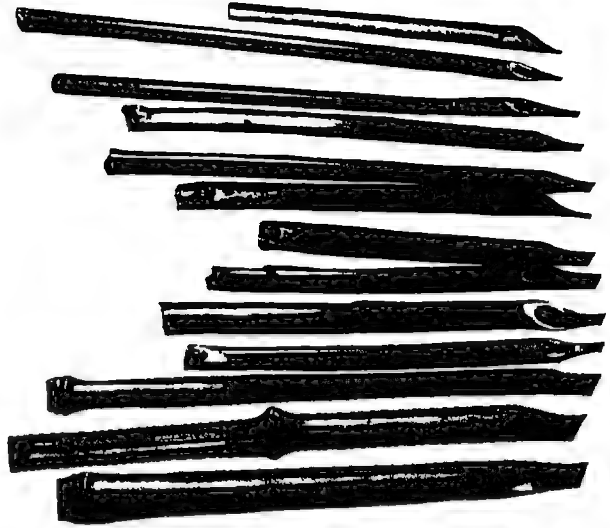
Écritoire.
Syrie ou Égypte, 1304,
musée du Louvre, Paris.

محبرة ومحفظة قصب
٧٠٤ هـ ١٣٠٤م من مصر أو سوريا
محفوظة بمتحف اللوفر - باريس

المصدر: الخط العربي - لحسن المسعود

لكل اسلوب قصبة خا
ولكل اسلوب عدة حج
من القصب . -٢٣-

aque style a son roseau — ou
sque. Mais chaque style a
ılement plusieurs grosseurs
caractères ; il nécessite donc
sieurs roseaux (23).



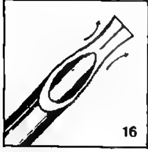
قصبة للخط الفارسي

يعمل بعض الخطاطين قصبة خاصة للخط الفارسي ، لأنه يكتب اعتياديا بقصبتين ،واحدة أصغر من الاخرى بنسبة الثلث -٢٤ و ٢٥-

شكل ـ ٧٧٧ ـ

المصدر - ناجي زين الدين - بدائع الخط العربي / ص ٤٢٤

نَحْت :



تُنْحَت الجَوانب برقّة وَرَهافة ، وَلابُد أن يَكون النَحت مُتَشابهًا مِنَ الجهتين - ١٦ -

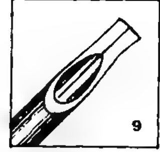
Taille
Tailler avec douceur les deux côtés du roseau de façon semblable (16).

قَطّ :

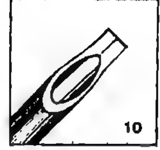
بِسكين حَاد ، وَبضَغطةٍ وَاحدةٍ قويَة على المَقَطة ، يَجب أن يُقْطَع مِنقار القصَبة حَسَب الاتجاه المَطلوب ، أي إن إتجاه السكين وَدرجَة إنحرَافه اثناء قط منقار القصَبة يُحددان نَوعيّة اسلوب الخَط - ١٧ -



Coupe
Poser le roseau sur la plaquette de coupe : il est ainsi stabilisé. Puis donner un coup sec en biais sur le bec, avec un canif bien aiguisé (17).


9

Fente
Fendre le dos du roseau en son milieu. La fente sera longue pour un roseau dur (9) et courte pour un tendre (10). Toujours relativement à la dureté du roseau, on fera l'incision un peu plus courte pour une main lourde (11) que pour une main légère (12).
Mais certains calligraphes préfèrent décentrer la fente vers la partie A (13, 14, 15), car c'est la partie B qui travaille le plus (14). La fente sera (côté A) située aux 4/10 de la largeur totale du bec (15).


10


11

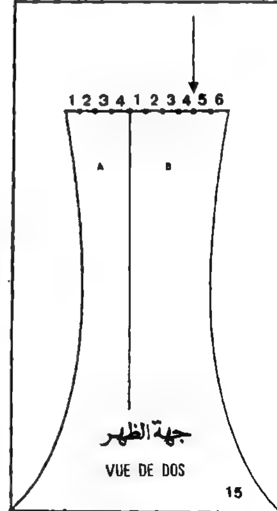
شَقّ :

يُشَقّ ظهر القصبة في الوسط ، ويكون طول الشّق بحسب صلابة القصب فان كانت القصبة قويّة يكون الشق طويلا - ٩ - وإن كانت القصبة رخوة فيكون الشق صغيرا - ١٠ - وإن كانت القصبة متوسطة الصلابة فيكون الشق ما بينهما .

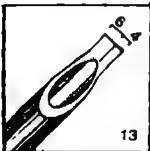

12

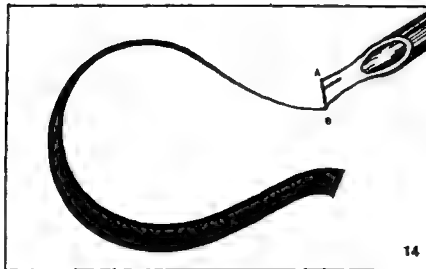
يُفضّل لليد الثقيلة شقٌ صغير - ١١ - ولليد الخفيفة شقٌ طويل - ١٢ -

ولا يكون الشقُ دائمًا في الوسط ، إذ يُفضّل بعض الخطاطين تكبير الجزء الأعلى من منقار القصبة ، لانهُ يؤدي أعمالا أكثر من الجزء الأسفل - ١٣ و ١٤ - ويكون موضع الشق على المنقار بنسبة تقريبيّة تشابه الرسم - ١٥ - .



15


13



14

3 - الحبر

لقد اجتهد الورّاقون في أمور مهنتهم، حتى عرفوا دقة تفاصيلها ومكوناتها، وأوجدوا المسوّغات لديمومة مهنتهم - الوراقة - فعرفوا أصنافاً من كل أداة من أدواتهم، وتوصلوا إلى أسرار، لم يهتد غيرهم إليها، لأنهم تعايشوا معها، ونبهتهم تلك الأدوات إلى ما يمكن الاستعاضة عنه، والبديل عوضاً منه، فتفننوا وأجادوا، واخترعوا وأضافوا، ومن ذلك ما أوجدوه من أنواع الحبر، وما يلائم كل نوع من أنوع الورق والقرطاس والأديم والجلود والمواد الأخرى التي كانوا يستخدمونها في الكتابة، وقد اهتدوا إلى إكتشاف الأحبار من مختلف النباتات والبقول والمعادن وغيرها، وهذه الاكتشافات في صناعة الحبر، كانت وليدة الحاجة، من جهة، ومن جهة ثانية، كان لتطور قوى الانتاج وازدها الحضارة، أثره البالغ في رفع وعي الناس، ليتساير وحركة التطور الصاعدة - وقتذاك - ونظراً لأهمية الكتابة والكتّاب في تيسير أمور الملك فمن البداهة، أن تكون صناعة أدوات الكتابة في أولويات الأمور، الواردة في أذهان الكتّاب، حتى أن قوى المعارضة الإسلامية في العصر العباسي، كان لها الدور الإيجابي في اكتشاف «الحبر السري» وهي بهذا تكون قد أدّت قسطها في دفع عجلة التطور إلى أمام، بعكس حالة المعارضة القائمة الآن في أثناء المعاصر، فهي تقتل حالة الابداع عند المبدع.

والحبر - مادة أساسية في عمل الكتّاب والورّاقين، وارباب الرياسة والسياسة، واصطلاح الحبر، يشاطره في المعنى المَداد، ويتوحّد معه في التقبل الذهني عند الكتّاب، فقد جاء في اللسان[1]: الحِبر: الذي يكتب به وموضعه المحبرة، قال ابن سيده: الحِبرُ المَداد، والحِبرَ والحَبْرُ: العالم، ذميّا كان أو مسلماً، سأل عبد الله بن سلام كعباً عن الحبر، فقال: هو الرجل الصالح. وكان يطلق على عبد الله بن عباس، حبر الأمة، أو المحبَر، وكان يقال لطفيل الغنوي في الجاهلية، محبّر، لتحسينه الشعر، وهو مأخوذ من التحبير وحسن الخطّ والمنطق.

والحبر هو الظل الملازم للدواة وعدّة الكتابة، وبها يتصل كاتصال التوريق بالكتابة والورّاقين بالكتّاب، كما يقول الصولي، ويضيف[2]: وبالحبر تكتب المصاحف والسجلات وما يراد بقاؤه.

وسمّي الحبر حبراً لتحسينه الخط في قولهم: حبرت الشيء تحبيراً وحبرته حبراً: زينته

(1) مادة (حبر).

(2) أدب الكتّاب/ص 103 - 104.

وحسّنته، والاسم الحبر، قال ابن أحمر[1]:

لبسنا حبره حتى اقتضينا ... بأعمال وآجال قضينا

وقيل: الحبر مأخوذ من الحبار، وهو أثر الشيء، كأنه أثر الكتابة[2].

فيما رأى المتأخرون من الكتاب[3] أن الحبر أصله اللون، يقال: فلان ناصع الحبر، يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء، قال ابن أحمر[4] يصف المرأة:

تتيه بفاحم جعدٍ ... وأبيض ناصع الحبرِ

قال المبرّد[5]: قال التوزّي: سألت الفرّاء عن المداد، لم سمي حبراً؟ فقال: يقال للمعلّم حَبر وحِبر بفتح الحاء وكسرها، فأرادوا مداد حبر، أي مداد عالم، فحذفوا مداد وجعلوا مكانه حبراً، وقال المبرد[6]: وما أحسب أنه سمّي بذلك لأن الكتاب يحبّر به، أي يحسّن.

وجاءت تسمية المداد، لأنه يمدّ القلم، أي يعينه، قالوا: وكل شيء «مددت به شيئاً فهو مداد»، قال الأخطل[7]:

رأت بارقات بالأكف كأنها ... مصابيح سرج أوقدت بمداد

ويسمّى الحبر: نِقْسٌ ونَقسٌ: بكسر النون وفتحها، وسكون القاف، وسين مهملة، والكسر أفصح - كما يقول القلقشندي،، ويجمع على أنقاس[8].

وقد أضفى الإسلام جانباً روحياً على الحبر لطالب العلم وليس لسواه، فقد ذكرت المصادر[9] أنه «يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهيد يوم القيامة، فيوضع أحدهما في كفّة

---

(1) المصدر السابق/ ص104.

(2) المصدر نفسه.

(3) القلقشندي، ومن عاصره، انظر صبح الأعشى 2/ 461.

(4) ابن أحمر/ شاعر جاهلي، يكنى أبا الخطاب، أدرك الإسلام وأسلم، توفي على عهد عثمان بعد أن بلغ سناً عالية، انظر ترجمته في معجم الشعراء للمرزباني ص24، تحقيق عبد الساتر أحمد فراج، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1960م.

(5) صبح الأعشى 2/ 461.

(6) المصدر السابق.

(7) نفس المصدر/ ص460.

(8) نفس المصدر والمكان.

(9) صبح الأعشى 2/ 461.

الميزان والآخر في الكفة الأخرى، فلا يرجح أحدهما على الآخر»، وهذا الإسقاط الديني، من جانب التشريف للعلم والعلماء.

قال بعض الحكماء: صورة المداد في الأبصار سوداء وفي البصائر بيضاء[1]. ومن هذه الناحية أختير اللون الأسود للحبر، وفضّل على بقية الألوان، وتدرجوا في تلاوينه فيقال: أسود قاتم، وهو أول درجة السواد، وحالك وحانك وحُلكوك، وحُلبوب، وداجٍ، ودجوجي، وديجور، وأدهم، ومدهام، وهذه التسميات قال بها المدائني[2].

نظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر المداد، وهو يستره منه، فقال له[3]: يا هذا إن المداد من المروءة، وأنشد أبو زيد:

إذا ما المسك طيّب ريح قوم كفتني ذاك رائحة المداد
وما شيء بأحسن من ثياب على حافاتها حمم السواد

ومن هذا المنطلق راح الكثير من الأدباء والكتّاب لا يخجلون من وجود آثار الحبر على ملابسهم وأيديهم وقراطيسهم، فقد قال بعضهم[4]: عطروا دفاتر الآداب بسواد الحبر. وكان في حجر ابراهيم بن العباس قرطاس يشق فيه كلاماً فأسقط، فمسحه بكمّه، فقيل له: لو مسحته بغيره؟ فقال: المال فرع والقلم أصل والأصل أحقّ بالصون من الفرع وأنشد في ذلك:

إنما الزعفران عطر العذارى ومداد الدوي عطر الرجال

وصارت مسألة وجود الحبر على ثياب الكاتب صفة مميزة يتباهى بها الكثير من الكتّاب والورّاقين، قال أحدهم[5]:

من كان يحجبه أن مسّ عارضه مسك يطيّب منه الريح والنّسما
فإن مسكي مداد فوق أنملي إذا الأصابع يوما مسّت القلما

على أن بعضهم قد أنكر ذلك وقال: المداد في ثوب الكاتب سخافة ودنارة منه وقلة نظافة، وقال أبو العالية: تعلمت القرآن والكتابة وما شعر بي أهلي، وما رؤى في ثوبي

---

(1) صبح الأعشى 2/ 461.
(2) نفس المصدر/ ص463.
(3) ذات المصدر/ ص462.
(4) صبح الأعشى 2/ 462.
(5) نفس المصدر والمكان.

مداد قط، وأنشدوا[1]:

دخيل في الكتابة يدّعيها ... كدعوى آل حرب في زياد
يشبّه ثويه للمحو فيه ... إذا أبصرته ثوب الحداد
فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو لطّخت ثوبك بالمداد

وقال ابن الوردي يصف كاتباً إنقلب الحبر على ثوبه[2]:

إنقلب الحبر على ... ثويك فابشر بالارب
فحبر كل كاتب ... ريح إذا هو إنقلب

وأنشد محمد بن موسى الرازي لحمد بن مهران[3] أبياتاً في لطخ الحبر بالثياب:

لا تجزعنّ من المداد ولطخه ... ان المداد خلوق ثوب الكاتب
وأبهج بذلك أن لله زينّة ... هبة من الله الجواد الواهب
لولا المداد ويسرنا بدليله ... ما صحّ في مال حساب الحاسب
ولمّا تبيّنت الأمور لطالب ... ولكان شاهدنا شبيه الغائب

ثم دأب الكتّاب والورّاقون على التغزل بالحبر والتهادي فيه، لا سيما إذا كان قد علق بكبار الكتّاب، أو الذين اتخذوا الكتابة مهنة، قال أحمد بن اسماعيل[4]:

وإذا نمنمت بنانك خطاً ... معرباً عن اصابة وسداد
عجب الناس من بياض معان ... يجتنى من سواد ذاك المداد

حتى أنّهم قالوا: «المداد خضاب الرجال»[5] كي يثبتوا حالة التعايش معه، وارتباطه بحياتهم الإبداعية والمعاشية، وبهذا الصدد يقول إبراهيم بن العباس[6]:

إذا ما لفكر أظهر حسن لفظ ... وأدّاه الضمير إلى العيان
رأيت حلي البنان منورات ... تضاحك بينها صورالمعاني

---

(1) نفس المصدر والمكان.
(2) حسن الدعابة/ ص37.
(3) أدب الكتّاب/ ص103.
(4) المصدر السابق/ ص101.
(5) أدب الكتّاب/ ص102.
(6) المصدر نفسه.

وقال ضياء الدين المناوي يصف حبراً له وتغزّل فيه[1]:

وعندي حبر ودت العين لونه ... سواداً وترضاه الحسان خضابا
غداً سائلاً من فرط سقم ورقة ... وأصبح للسمرّ الرقاق رضابا
كأني لما بتّ اشكو صبابتي ... إلى الليّل بالأشواق رقّ وذابا

وأهدى الشيخ برهان الدين القيراطي حبراً لأحد أصدقائه وكتب مع الاهداء[2]:

ليراعكم أهديت إنسان النظر ... شباب طرس شاب من فرط الكبر
أرسلته عبدا دعوه عنبرا ... إذ فاح طيب نشره بين البشر
أقلامه أخذته حال كتابة ... سبُحا وألقته على طرس درر
ويودّ مرسله إلى أبوابكم ... لو زاد فيه سواد قلب أو بصر
ليل وإن أبدى لنا ألفاظكم ... في صبح طرس أبيض قالوا سحر

وأصبحت مسألة «الحبر» وفضائله، تدار على كل لسان، فمن ذلك ما قاله فارس بن حاتم[3]: «ببريق الحبر تهتدي العقول لجنايا الحكم، لأنه أبقى على الدهر، وأنمى للذكر، وأزيد للأجر». وقال القلقشندي[4]: واعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الربع، وأنشد لبعضهم:

ربع الكتابة في سواد مدارها ... والرّبع حسن صناعة الكتّاب
والربع من قلم تسوّى بريه ... وعلى الكواغد رابع الأسباب

ووصلت الحال ببعض الكتّاب لأن يطلب من صديق له حبرا، للدعاية من جهة، ولضيق الحال من جهة أخرى، فقد كتب جعفر بن حدّار بن محمد إلى دعلج بن محمد يستهديه مدادا[5]:

يا أخي للوداد لا للمداد ... وصديقي من بين هذا العباد
والذي فيه ألف يجد طريف ... قد أُمدّت بألف مجد تلاد
أنا أشكو إليك حال دواتي ... أصبحت تقتضي قميص حداد

(1) حسن الدعابة/ ص38.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) صبح الأعشى 2/ 462.
(4) نفس المصدر السابق 2/ 463.
(5) نفس المصدر السابق والمكان.

وغدت إعارة الحبر والمحبرة من المكارم والظرف التي تحكى في المجالس، فقد ذكر أن وكيع بن الجراح أتاه رجل يدعى أنه يمت إليه بحرمة، فقال له: وما حرمتك؟ فقال: كنت تكتب من محبرتي عند الأعمش، فوثب وكيع ودخل منزله، ثم أخرج له بضعة دنانير وقال له: أعذر فما أملك غيرها[1].

وساهم الشعراء في رفع منزلة الحبر، فهذا ابن الرومي يصف حبر أبي حفص الورّاق[2]:

كأن ألوان دهم الخيل حبر أبي حفص لعاب الليل
يسيل للاخوان أي سيل بغير ميزان وغير كيل

وقال أحد الورّاقين في الحبر، واصفه بأنه جامع لكل الحروف باسمه[3]:

جمعت حروف الحرف في الحبر كلها ولولا شقائي ما عرفت المحابرا
وقد زاد بي الاخفاق في كل موطن لحملي في كميّ إليه الدفاترا
وسطّر في أثناء قلبي تعلّلا طلابي لما أن عرفت المساطرا

صناعة الحبر

لبّت صناعة الحبر ما كان يحتاجه الكتّاب وأصحاب الدواوين من حاجات كانوا بأمسّ الحاجة إليها، وقد استخدم الكتّاب والوراقون المواد المتيسّرة في حياض بيئتهم، من نبات ومعادن وغيرها، بحيث أنهم استطاعوا أن يجدوا لكل نوع من الأوراق أو الجلود أو الكاغد، حبراً خاصاً به، وقد دخل الماء والنفط والعسل والملح والصمغ والعفص وغيرها من المواد في تركيبه[4]، إذ توصلوا إلى عدة طرق في صناعته، فمن ذلك ما أورده القلقشندي حيث قال[5]: «واعلم أن المواد لذلك منها ما يستعمل بأصله ولا يحتاج فيه إلى كبير علاج وتدبير، كالعفص والساج والصمغ، وما أشبهها، ومنها ما يحتاج إلى علاج وتدبير وهو الدّخان، حيث يتوخى فيه أن يكون من شيء له دهنيّة ولا يكون من دخان شيء يابس في الأصل، لأن دخان كل شيء مثله راجع إليه، كما يقول أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب[6].

(1) العقد الفريد 4/ 201.
(2) انظر ديوانه - قافية اللام، وراجع الصولي، أدب الكتّاب/ ص94.
(3) أدب الكتّاب/ ص95.
(4) انظر صبح الأعشى 2/ 464 - 465.
(5) المصدر السابق 2/ 464.
(6) المصدر نفسه.

وقد كان صنّاع الحبر الجيّد يتكتمون في إنشاء طرق صناعته، كي لا تسرق منهم، وهو أمر معروف لديهم، بغية الحفاظ على الجودة والامتياز عند هؤلاء، إلا أن الكتّاب الحاذقين يعرفون كيف يتوصلون بهم ويسرقون منهم/ براءة الاختراع/ ، يقول أحمد بن يوسف الكاتب[1]: كان يأتينا في أيام خمارويه[2] بمداد لم أر أنعم منه، ولا أشد سواداً منه، فسألته من أي شيء استخرجته، فكتم ذلك عني، ثم تلطفت به بعد ذلك، فقال لي: من دهن بزر الفجل والكتّان، أضع دهن ذلك في مسارج وأوقدها، ثم أجعل عليه طاساً حتى إذا نفد الدهن، رفعت الطاس، وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربي، قال: وإنما جمعه بماء الأس ليكون سواده مائلاً إلى الخضرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير.

ثم انتبهوا إلى النباتات والغلاّت واستخرجوا منها الحبر، وذلك عن طريق الدخان، يقول صاحب الحليّة[3]: إن شئت أخذت من دخان مقالي الحمّص وشبهه، وتلقي عليه الماء، وتأخذ ما يعلو فوقه، وتجمعه بماء الآس والعسل والكافور والصمغ العربي والملح، وتمدّه وتقطعه شوابير، وقد توصل الوزير الخطاط ابن مقلة إلى أجود الطرق لانتاج أجود أنواع المداد في حينه (ق 4هـ) حيث أنه يرى أن أجود المداد ما اتخذ من سخام النفط وبالطريقة التالية: يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاد نخله وتصفينه، ثم يلقى في طنجير، ويصبّ عليه من الماء ثلاثة أمثاله، ومن العسل رطل واحد، ومن الملح خمسة عشر درهماً[4] ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهما، ومن العفص عشرة دراهم، ولا يزال يساط على نار لينة حتى يثخن جرمه، ويصير في هيئة الطين، ثم يترك في إناء، ويرفع إلى وقت الحاجة[5]. وقد رأى المتأخرون من الكتّاب «كصاحب الحلية والصبح»، أن العملية لا تنحصر في سخام النفط فقط، بل تتعداه إلى دخان غيره، بإضافة الكافور إليه لتطيّب رائحته، والصبّر ليمنع من وقوع الذباب عليه، وقيل أن الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب[6].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) خمارويه بن أحمد بن طولون (250 - 282هـ/ 864 - 896م) أنظر الأعلام للزركلي 2/ 324 - ط5، دار العلم للملايين.

(3) صبح الأعشى 2/ 464.

(4) ظل التعامل بمكاييل الدراهم عند أهل العراق حتى السبعينات من القرن المنصرم، وكثيراً ما يستعمل الباعة المتجولون هذه المكاييل، ومنها مكيال يعرف بـ«ست دراهم» وقد أصبح الآن من الفولكلور.

(5) صبح الأعشى 2/ 465.

(6) نفس المصدر السابق.

ونتيجة الاختبار والتعامل مع الورق في الحبر، اكتشفوا أن حبرهم هذا يقبله نوع معيّن من القراطيس، فيما يرفضه الكاغد، أو بعض الرقوق، لذلك اهتدوا إلى طرق أخرى لتصنيع أصناف مختلفة من الأحبار، فالحبر الذي يناسب الكاغد - أي الورق - هو حبر الدخان، وهو يصنع على الطريقة التالية[1]: يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل يدقّ جريشاً، وينقع في ستة أرطال ماء، مع قليل من الآس «المرسين» اسبوعاً، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفى من مئزر، ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفّى ثانياً، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي، ومن ألزاج القبرصي كذلك، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدم ذكره، ما يكفيه من الحلاكة، ولا بدّ له من ذلك من الصّبر والعسل، ليمتنع بالصّبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر (ثلث أوقية)[2]، بعد أن تسحق الدخان بكلوة كفّك بالسكر النبات، والزعفران الشعر والزنّجار، إلى أن تجيد سحقه، ولا تصحنه في صلاية ولا هاون يفسد عليك.

أما الحبر الذي يناسب الرق، فأطلقوا عليه اسم «الحبر الرأس» ولا يدخل الدخان فيه لذلك يجيء بصّاصاً برّاقاً، وبه أضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه، وهذا الحبر يفسد الكاغد، وطريقة تحضيره تتمّ على النحو التالي[3]: يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيجرش، ويلقى عليه من الماء العذب ثلاثة أرطال، ويجعل في طنجير، ويوضع على النار، ويوقد تحته بنار ليّنة حتى ينضج، وعلامة نضجه، أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بصّاصة، ثم يلقى عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق، ومن الزاج أوقية، ثم يصفّى ويودع في إناء جديد، ويستعمل عند الحاجة.

وهناك نوع آخر من الحبر، أطلقوا عليه اسم «حبر سفري» يصاحبهم في حلّهم وترحالهم، يعمل على البارد، من غير نار، حيث يؤخذ العفص فيجرش جرشاً جيداً، ويسحق لكل أوقية عفص درهم واحد من الزاج، ودرهم من الصمغ العربي، ويلقى عليه، ويرفع إلى وقت الحاجة، فإذا احتيج إليه صبّ عليه من الماء قدر الكفاية واستعمله[4].

الحبر السري، هو أحد مكتشفات الفرق الإسلامية المعارضة للسلطة العباسية[5]،

---

(1) صبح الأعشى - نفس المكان السابق.

(2) في الأصل بياض، وقد أشار إليها محققوا - صبح الأعشى في الهامش - انظر 2/ 466.

(3) صبح الأعشى 2/ 466.

(4) صبح الأعشى 2/ 466.

(5) راجع الرسالة 7 و8 من رسائل أخوان الصفا - المجلد الأول.

حيث أنهم وجدوا «تضمين الأسرار في الكتب» من المهمات التنظيمية الملحة، يقول ابن عبد ربّه الأندلسي[1]: قد تعلّقت العامة بكتاب إسماعيل بن محمد القمي والحسن بن عبد الله الأصبهاني[2]، بطريقة تضمين الأسرار في الكتب، ففيه أدب تجب معرفته، يقول ابن عبد ربّه الأندلسي: كان أبوحاتم سهل بن محمد، قد وصف لي منهما أشياء جليلة من تبديل الحروف، وذلك ممكن لكل إنسان، غير أن اللطيف من ذلك أن تأخذ لبنا حليباً فتكتب به في القرطاس، فيذر المكتوب له عليه سخنا من رماد القراطيس فيظهر ما كتبت، ويضيف: وإن شئت كتبت بماء الزاج الأبيض، فإذا وصل إلى المكتوب إليه أمرّ عليه شيئاً من غبار الزاج، وإن أحببت أن لا يقرأ الكتاب بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة[3].

قد تابع أساطين اليراع في بغداد ما بدأه الأوائل، أيام العباسيين، وساروا على منوالهم، في الطريقة والتحضير لأنواع من الحبر، فهذا هاشم محمد الخطاط البغدادي، يحذو حذو شيخه الأول ابن البواب[4]، وهو - أي هاشم - واحد من أشهر الخطاطين في العالم العربي، في القرن 20/يسير على ذاك المنهج العباسي وفق الطرق التالية، يقول[5] في أنواع الحبر، وهي سبعة لديه عرفها، النوع الأول: يؤخذ من العفص، بعد دقّه إلى أن يكون مسحوقاً ناعماً، ثم يمزج من ماء الورد ويوضع في الشمس لمدة (40) يوماً في أيام الصيف، ومن ثمّ يصفّى ويكتب به. والنوع الثاني: ويسمى - حبرالرز - ويكون لونه (قهوائي) غامق - بني - يصنع بتحميس الرز على النار، وذلك بعد غسله وتيبيسه، حتى يكون لونه أسوداً، وتظهر منه مادته الدهنية، ومن ثمّ يدقّ حتى يصبح مسحوقاً ناعماً في هاون خشبي، وهو ما يعرف بـ (الجاون، أو المهباش) أو من الرخام، ولم يستعمل هاون معدني خوفاً من تأثيره على المواد المسحوقة، ثم يضاف لمسحوق الرز مقدار من الماء، ويضاف له كمية من الصمغ العربي بنسبة 30%، وإذا ظهر لون هذا الحبر خفيفاً، سارع الخطاط إلى وضعه في الشمس، حتى يصبح لونه غامقاً. والنوع الثالث: هو حبر زيت

---

(1) العقد الفريد 4/ 190.

(2) راجع ترجمتها في «الفهرست» لابن النديم.

(3) العقد الفريد 4/ 190.

(4) انظر ترجمته في بحثنا هذا، في ج4 الخطاطون.

(5) في حديث للسيدة سهيلة الجبوري، وقد أوردته في دراستها القيّمة - الخط العربي وتطوره في العصور العباسية/ ص123 - 126، وأوردته أيضاً في دراسة لها نشرتها في مجلة/ كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد 4/آب 1961، الصفحات (467 - 468).

الزيتون، يتمّ تحضيره بحرق الزيتون، ويؤخذ (النيليج)[1] الناتج عن حرقه، ويمزج من الصمغ العربي بنسبة 40% ثم تخلط بالماء لمدة أسبوع، حيث ينتج حبر ذو لون مقارب للأسود، إلا أنّه لمّاع جداً. والنوع الرابع: هو حبر البصل، أو الحبر السري، ويعدّ بطريقتين: الأولى: يؤخذ عصير البصل ويكتب به، وعند القراءة تحمّى الورقة على النار، فتظهر الكتابة واضحة، وهو يستعمل للرسائل السرية. والطريقة الثانية: هي بدقّ قشور البصل الأحمر بصورة متواصلة، حتى يصبح كتلة متراصة «شبه عجينة» تباع على هذا الشكل للخطاطين، فإذا أريد الكتابة بها وضعها على النار مع إضافة شيء من الماء حتى تذوي، ومن ثم يبدأ بالكتابة، وهذا الحبر يكون لونه بني، «قهوائي»[2]. النوع الخامس: حبر الباقلاء، ويتم تصنيعه بتنقيع الباقلاء «الفول» لمدة 40 يوماً في الشمس ويؤخذ ماؤهُ، ويصنع هذا الحبر في الصيف عادة، وذلك لشدة حرارة الشمس في بغداد، ويضاف له الصبغ العربي بنسبة 20%.

النوع السادس: وهو ما يعرف بـ (الحبر الحديدي) حيث يصنع بإضافة الحديد إلى ماء الورد ويوضع في الشمس لمدة شهر، ليتأكسد، ويجفّ ماؤه، ثم يخلط بالماء وفق نسب معيّنة ويصفّى بعد ذلك لإخراج المواد الحديدية، ثم يضاف الصمغ العربي بنسبة 20%. النوع السابع: حبر الذهب، تستعمل في صناعته صحائف رقيقة جداً من الذهب الخالص، حيث تخلط هذه الصحائف مع الصمغ العربي، بنسب معيّنة، وذلك بعد إذابة ذرات الذهب، ويخلط في إناء بلوري، ويحرّك بالسبابة، وبعد إذابة ذرات الذهب بالصمغ، يضاف له كمية من الماء لكي يطفو الصمغ العربي، ويترسب الذهب في قعر الإناء، ويترك لمدة 24 ساعة يم يسكب ذلك الماء عن الذهب المترسّب في الاناء، ويوضع غيره حتى يتأكد الصانع من الصمغ العربي، ثم يؤتى بغرى السمك الجاف[3] ويذوّب بالماء الساخن جداً، ثم يضاف إلى الذهب المصفى من الماء والصمغ العربي، وحينئذ يصبح حبراً معداً للكتابة والتزويق.

وطريقة استعمال الحبر الذهبي كانت مقتصرة على الإنشاء والديونة كما يقول

---

(1) بذور بعض النباتات الخاصة بصبغ الألوان، معروف في العراق كثيراً، والنيلج هو نتتاج المادة المحروقة من تلك البذور.

(2) لا يزال هذا الحبر مستعملاً وقد رأت - سهيلة الجبورى - لوحة من كتابة هذا الحبر عند الخطاط هاشم محمد البغدادي.

(3) غرى السمك الجاف، مادة لزجة مستخرجة من جسم السمك، يستعمل بدلها الآن مادة جيلاتينية.

القلقشندي[1] وفي فواتح الكلام، أي في «الترويسة» والطغراوات وفي الأسماء الجليلة، وكانت طريقة صنعه والكتابة فيه، هي بحلّ ورق الذهب - وقتذاك - والذي كان يستعمل في الطلاء ونحوه، ويجعل مع شراب الليمون الصافي النقي، وينقل في إناء صيني أو نحوه، حتى يضمحل جرمه فيه، ثم يصبّ عليه الماء الصافي النقي، ويغسل من جوانب الإناء، حتى يمتزج بالماء والشراب، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ثم يصفّى الماء عنه، ويؤخذ ما رسب في الاناء، فيجعل في مفتلة زجاج ضيقة الأسفل، ويجعل معه قليل من الليّقة، والنزر اليسير من الزعفران، بحيث لا يخرجه عن لون الذهب، وقليل من ماء الصمغ المحلول، ويكتب به، فإذا جفّ صقل بمصقلة من جزع حتى يأخذ حدّه، ثم يزمّك[2] بالحبر من جوانب الحرف[3]. وهناك صنف ثان يكتب به افتتاحيات للأبواب والفصول وابتداءات الكلام والبسملة وغيرها، هو اللازورد .وأنوع كثيرة، وأجودها المعدني، ويأتي ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة كما يقول القلقشندي[4]، وإنما يستعمل في الدهانات ونحوها، وطريقة الكتابة به هو أن يذاب الماء وينقي عليه قليل من الصمغ العربي، ويجعل في دواة، كتلك المستخدمة للذهب، وكلما رسب حرّك بالقلم، ولا يكثر به الصمغ كي لا يسوّد ويفسد، كما يوجد صنف ثالث يستخدم في هذه الافتتاحيات هو الزّنجفر، وأجوده المغربي، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتى ينعم، وإن سحق بماء الرمّان فهو أحسن، ثم يضاف عليه ماء الصمغ، ثم يلاق بليقة كما يلاق الحبر، ويجعل في دواة ويكتب به[5]، والصنف الرابع لكتابة هذه الافتتاحيات هو: المغرة العراقية، وهي خاصة بكتابة نفائس الكتب الخاصة بمراسلات الملوك، وطريقة الكتابة بها كما في الزنجفر[6].

ألغاز في أدوات الكتابة

بسبب العمل الروتيني لعمل الورّاقين والكتّاب، ولغرض تجاوز مثل هذه الحالات في العمل، فإنهم يتبادلون الأحاجي والألغاز فيما بينهم، مقتلة للوقت ليس إلاّ، ونظراً لكون حالة الأدب قد تلبست الجميع، من أدباء وورّاقين، فإنهم يستخدمون أدبهم المهني، في

(1) صبح الأعشى 2/ 466.
(2) الزّمك = إدخال الشيء بعضه في بعض - أنظر اللسان - مادة (زمك).
(3) صبح الأعشى 2/ 467.
(4) المصدر السابق.
(5) المصدر نفسه.
(6) نفس المصدر 2/ 468.

هذه المُلح والنوادر، فمنها الأدب الرفيع، ومنها الشعر الخليع، ومنها النادرة الحذقة، والجميل في الأمر: أن حوانيت الورّاقين، بعد العمل اليومي لهم، تشكل شبه منتديات ثقافية، وهو ما انتبه إليه أبو حيان التوحيدي، وحكى عنه كثيراً[1]، ولا غرو في ذلك، فما من ورّاق إلا وتجمّع عنده الكثير من الأدباء، والعلماء والشعراء[2]، فيتطارحون ويتهاجون ويتلاغزون، وقد كانت أدوات الكتابة، مفصلاً رئيساً في ألغازهم، فاتخذوا منها مطيّة لشعرهم، ونادرة حاضرة البديهة في ألسنتهم، فقد قالوا الألغاز في الورق وأنواع القراطيس، والدوى والسكاكين، والأقلام والمحابر، والحبر والقصب، وشاعت هذه الظاهرة في سوق الورّاقين، وتعدتها إلى بقيّة الأسواق والصناعات الأخرى، وعمّت سائر المدن الإسلامية في الشام ومصر وغيرها، وقد تبرّع السعاة في نقل هذه الألغاز، من بلد إلى آخر، وانعقدت حولها مجالس الأدب للردّ والإجابة، وهذه الظاهرة ما زالت حتى اليوم يتعاطاها أهل جنوب العراق والفرات الأوسط، وشكل هذا النوع من الأدب ما يعرف بـ«شعرالاخوانيات» فيما بعد، فمن ذلك ما قاله أحدهم في الورق[3]:

وشيء بلا جرم يصلب تارة ... ويقطع حينا في حضور وأسفار
ومن قدم قد بيّض الله وجهه ... على أنه ما انفك يوما عن القار[4]

وقال آخر في الدواة[5]:

ململة الجبين مورودة الدهر ... ومحمرّة الأذنين مفتوحة الفم
لها صنم كالديك ينقر جوفها ... تساوي إذا قومتها نصف درهم

وكتب الشيخ بدرالدين الدماميني لغزاً في دواة وجهّزه إلى أمين الدين صاحب ديوان الإنشاء في الشام[6]:

كتبت وأعذاري إليك تقرر ... ونظمي بها يا كاتب السرّ يجهرُ
أتتك بأبيات المعاني قرضتها ... وحكت حبير اللفظ وهو محررُ
وحليّت أهل العصر إذ كنت خاتما ... لهم فعليك الآن يعقد خنصرُ

(1) راجع كتابه الهام «المقابسات».
(2) سوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل في باب سوق الورّاتين من هذه الدراسة.
(3) حسن الدعابة/ ص42.
(4) هنا كناية للتعبير عن الحبر الأسود، شبّه بالقير.
(5) حسن الدعابة/ ص42.
(6) المرجع السابق/ ص43.

وما أنت إلا البحر جاش عبابه ولكن رأينا منك علماً يجسرُ
فما كلمة أفديك دام اعتلالها وفيها دواء ان عراها تغيرُ
ويحفظها ذو السروهي التي وشت وذلك من عادتها ليس ينكرُ
وما مسّها إلاّ وجادت بنقسها وصحف ترى المقصود بالنقس يظهرُ
وتحمل سمرالخط رايات ملكها على الرأس عبّاسيّة حين تخطرُ
كحيلة طرف تعشق العين شكلها ويحسن مرآها إذا ما تحبرُ
مونثة قد ذكرتنا بلونها عهود الصبا والشيء بالشيء يذكرُ
وكم قد رآنا ريقها من مسلسل يلذّ به في الذوق وِردٌ ومصدرُ
وكم لاقت الأحبار منها محاسناً فعادت لها الجهال بالعيّ تحصرُ
مسوّدة أن ترضَ فالعيش أخضرٌ وأن غضبت فالموت لا شكّ أحمرُ
ويعذب للسمر الرقاق رضابها فتنهل منها مورداً لا يكدرُ
لقد أحكمت والنسخ ما زال دأبها بذلك قد جاء الكتاب المسطرّ
وما هي إلا ذات مترية غِدت وكم ذي غنى عن قصدها ليس يفترُ
ولسنا نراها غير سائلة ولم تفه بسوال فاعترانا التحيّرُ
فأنعم بحل اللغز ياخيرُ منعمٍ فأنتَ بهِ والله أجدى وأجدرُ
فلا زالت الأقلام تسعى لشكركم على رأسها طول المدى لا تقصرُ

فكتب إليهِ أمين الدين جوابه بعد أيام، فقال[1]:

مواقع أقلام لها الفضل ينشر وروضة آداب بها القلب يجبرُ
تحرر معنى حسنه نسج وحدةٍ فيا حبذا الاسكندري المحررُ
تشقّ على الأفهام شقة شأوها فكم من بليغ عن مداها يقصرُ
أتت سهلة الألفاظ منوعة الذرا حمُاها من العلياء لا يتسوّرُ
تشيرإلى الحبلى التي عزّ وضعها فأحشاؤها فيها الأجنة تقبرُ
ينامون لا تغشاهم سِنة الكرى فان هبّ فرد ظل يسمى ويحضرُ
وان ارشفته من زلال رضابها تهادى بها نشوان يمشي ويعثرُ
وأمّا إذا اعتموّا السواد فكلهم خطيب له فوق الأنامل منبرُ

(1) حسن الدعابة/ ص44.

وينطق عن علم وِطول نباهةٍ وعمّا رآه في المنام يعبرُ
تطاول سمرالخط أنّى تشامخت سمّوا ومع هذاعلى الطول تقصرُ
وكلّ بني الآداب تلفي بيوتهم تقام بها بين الأنام وتعمرُ
فأكرم بما قد ولّدته وانشأت وربّت، ويكفيها بذلك مفخرُ
تحية وجهي أن جلست ووجهها تجاهي وجاهي عندها ليس يحقرُ
وقد فتحت فاها فقالت وقصّرت وأنّى استقالت فهي في ذاك تعذرُ
فلا زلتم أهل الجمال وخيركم لدى النقص مثلي فهو حظّ موفرُ
بمدحكم الأقلام يضحك سنّها بحقٍّ وأفواه الدواة تقطرُ

لم تتوقف ألغازالورّاقين عند أداة واحدة من أدواتهم، بل تعدى ذلك إلى كل الأدوات المستخدمة في مهنتهم، وقد أعطوا القلم، الشيء الكثير من هذه الألغاز واستفاضت آثارهم الأدبية في ذكر ذلك، ويجب أن لا ننسى أن الورّاقين، كان بينهم من كبار الأدباء والمحدّثين، والشيوخ، والقضاة، اسمع أحدهم ماذا يقول في القلم بصيغة اللّغز[1]:

فلا هو يمشي لا ولاهو مقعد وما أن له رأس ولا كفّ لامسِ
ولا هو حيّ لا ولا هو ميّتٌ ولكنه شخص يرُى في المجالسِ
يزيد على سمّ الأفاعي لعابه يدبّ دبيبها في الدُجى والحنادس
يفرّق أوصالا لصمت بجنبه وتغرى به الأوداج تحت القلانس
إذا ما رأته العين تحقر شأنه وهيهات تبدو النفس عند الكرادس

ولغزّه آخر قائلاً[2]:

وأرقش مرهوف الشباه مهفهف يشتت شمل الخطب وهو جميعُ
تدين له الآفاق شرقا وغربا وتعنو له ملاكها وتطيعُ
حمى الملك مفطوما كمكان تحتمي به الأسد في الأجسام وهو وضيعُ

فأجاب آخر على نفس المنوال:

وساكن رمس طعم عند رأسه إذا ذاق من ذاك الطعام تكلّما
يقوم ويمشي صامتا متكلّماً ويرجع في القبرالذي منه قوّما

(1) حسن الدعابة/ ص44 - 45.
(2) المرجع السابق.

وليس بحيّ يستحقّ كرامة ... وليس بميّتٍ يستحقّ الترحّما

وقال إبن أبي البغل الكاتب في القلم، وهو من مشاهير ذلك الزمان، ويعدّ بطبقة التوحيدي:

أصمّ عن المنادى لا يجيب ... به تخبو وتشتعل الخطوب
ضئيل الجسم أعلم[1] ليس تخفي ... عليه غيب ما تخفي القلوب
تراه راجلا لا روح فيه ... ويحييه وينطقه الركوب
يبين لسانه ما كان سودا ... مفارقه ويخرسه المشيب
يقسّم في الورى بؤسي ونعمي ... ويحكم والقضاء له مجيب
عجبت لسطوة فيه وضعف ... وكل أموره عجب عجيب

ووصفه أحدهم مشبّهاً إياه بالعاشق تارة، وبالواشي تارة أخرى، يقول[2]:

سألتك ما واش يراد حديثه ... ويهوى الغريب النازح الدارإفصاحه
تراه مدى الأيام أصفر ناحلا ... كمثل عليل وهو قد لازم الراحة

وقال آخر ملغّزاً المعنى:

وطائر في وكره نائم ... يطير في الأرض بأسراره
حياته في قطع أوداجه ... وعيشه في قطّ منقاره
يكرع من مستنقع القارَكي ... يأخذ بالمنقار من قاره[3]

وتنادم ورّاقون ذات مساء، ، وجروا على ذكر القلم في آثار كبار الأدباء والشعراء، فقال أحدهم: لقد قرأت أبياتاً في لغزالقلم لجمال الدين بن نباته[4]:

مولاي ما اسم ناحل دنف ... وما به علّة ولا سقم
لسان قوم فإن حذفت وان ... صحفت بعض الحروف نهوفم

وقال ورّاق آخر: سمعت بباب الطاق، أن أحدهم سمع الحريري ذكر القلم في مقاماته فقال[5]:

---

(1) أعلم، أي مشقوق الشفة. (2) المرجع السابق/ ص46.

(3) شبّه الحبر بالقار (الزفت) بجامع السواد في كل منهما.

(4) راجع ديوانه، وكذلك حسن الدعابة/ ص46.

(5) انظر المقامة رقم 42 المعروفة بـ«النجرانية»، وحسن الدعابة/ ص47.

ومأموم به عرف الإمام   كما باهت بصحبته الكرام
له إذ يرتوي طيشان صاد   ويسكن حين يعروه الأوام[1]
ويذرى حين يستسقي دموعا   يرقن كما يروق الابتسام

ومن جميل ما جاء في باب الألغاز في ذكر أدوات الكتابة عند الورّاقين، وتناقلوه بأخبارهم الأدبية، نوادرهم الملاح، ما كتبه الشيخ جمال الدين محمد بن أحمد الشاهد سؤالاً، بعث به للشيخ عبد الرحمن المرشدي، ملغّزاً في القلم، قال[2]:

وجيه الدين يا رأس الموالي   وقرّة عين أرباب المعالي
ومن ببديع منطقه يرينا   بيانا للمعالي في الأمالي
ومن من نثره زهرُ الليالي   ومن من نظمه عقد اللآلي
ومن ألفاته فاقت غصونا   ومن نوناته شبه الهلال
فهذي أطلعت أدبا نثيرا   وتلك سمت علوا عن مثال
إليك لغزت في شيء براه   البرايا وهو صنعة ذي الجلال
ويحدث راكعا فيتمّ فرضا   ولا تقضى ويقدّم وهو تال
ومن أهل اليمين على بساط   السجود ولا يميل إلى الشمال
وخالي الجوف ذا وضع ثلا   ثي له التصريف في ملأ ومال
يجود واسع الأحرار حتّى   غدا كالعبد في أيدي الموالي
ولا يختار من مولاه عشقا   سوى فضل الكتابة بابتهال
خطيب في البلاغة لا يداني   كتوم السرِّ ثبّات المقال
كما اختلس المحيّا من ضمير   قسيم القطع في قطع الوصال
وان حققت فهو أمين سرّ   رشيد وهو هادٍ من ضلال
يقري زاهدا لكن رأينا   ملابسه من القصب العوالي
أفدنا عنه أوصافاً حِسانا   تناديه المجالس في المحال
وواسطه غدا هو عن ضمير   فأظهر ما أريد من المنال
جعلت لسانه عنّي اليكم   رسولاً شارحاً في الرقّ حالي

(1) أي أنه يعتريه ويصيبه العطش، أي أنه حين يجف من المداد يترك الكتابة ويسكن/ أنظرها من المقامة المذكورة.

(2) حسن الدعابة/ ص47 – 48.

لأنشر من مطاوي الفضل عنكم ... بملتبسِ الاجابة عن سؤالي

فأجابه الشيخ عبد الرحمن المرشدي قائلا[1]:

سطور في طروس كالآلي ... أم الأيّام نيطت بالليّالي

حتى وصل إلى قوله الذي يرد به على ما طلب سائله فأوضح:

ونبدي في الخطاب جواب لغز ... به ألغزت ياعين الأهالي
فقد سرّحت طرف الطرف فيه ... ورضت أبيه الصعب المنال
فألفى الفكر أوّله محيطا ... وثانية يشير إلى اللّيالي
وثمّ بثالث مقياس موسى ... فكم تصيفه أعيا المعالي
قصير كأن جدع الأنف منه ... لأمرِما نفاق على الطوال
لفيف وهو مفروق تراه ... وأجوف سالما من ذي اعتلال
صحيح حين تكسره، تجده ... يزد كمّاً وكفّاً به نغالي
خطيب والسوّاد له شعارٌ ... إلى العبّاس يعزى أم لآل
يرى من قبل باريه وهذا ... وأيم الله من قسم المحال
وكم عندي له وصف بديع ... ومعنى لم أضمنّه مقالي
لكوني بالأهمّ غدوت مغرى ... وعن فنّ المداعبة اشتغالي
ولولا خشية العزوى لعجزٍ ... لما أخطرته حيناً ببالي
فدونك نبذة فيها اكتفاءٌ ... لمن رام الجواب عن السؤال
وتأخير الجواب لعذر بأس ... أصاب جوانحي فأساء حالي
فكن لي عاذرا فالعذر بادٍ ... ومقبول لدى أهل المعالي
وصلّى الله ما خطّت سطور ... بأقلام البلاغة في مجال
على طه ختام الرسل طرّا ... وأهليه الكرام أولى الجلال

(1) المرجع السابق/ ص48 - 49.

الفصل الرابع: مُلحق:

«نَظمُ لئالىء السَمط في حُسْنِ تَقويم بديع الخط»

للقسطالي

إستكمالاً للحالة المعرفية لمسارات تطور فنيّة الكتابة العربية وأدواتها، وتمشياً مع الحالة الموسوعية في بحثنا هذا، أضفنا «هذا الملحق» كتتمّة لموضوعة أدوات الكتابة في الثقافة العربية، إذ نُشاهد ونلمس التأثير الثقافي لمهنة الورّاقة العباسية حتى عصورٍ قريبة، فناظم هذه الإرجوزة «القسطالي» قد تُوفي سنة 1256هـ، أي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، الأمر الذي يشير بوضوح إلى هذا الإمتداد الثقافي حتى آننا المعاصر، وأردنا أن نضيف تلك المعلومات الواردة في الإرجوزة «للقارىء الكريم» لذلك أضيفت كملحق باعتبار أن محققها الأستاذ «هلال ناجي» كان الأسبق في نشرها في مجلة المورد - العراقية - العدد 4 عدد خاص بالخط العربي - الصادر عام 1986، وعلى الصفحات 173 - 184، ولذا توجبت الإشارة وفضل السبق.

نظم لئالىء السمط

في حُسْنِ تقويمِ بَديعِ الخَطِّ

نَظَمَها سَنَة ١٢٢٤هـ

أبوُ العَبّاس أحْمَد بن مُحَمَّد الرِّفاعي القَسطالي

المُتَوَفِّي سنة ١٢٥٦هـ

حقّقها هلال ناجي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي النص

مصنف هذه المنظومة أبو العباس أحمد بن محمد القسطالي المنتهي نسبه بسيدي أحمد الرفاعي الأندلسي الغرناطي القادم من العدوة الأندلسية.

وقد جمع شرف الأصل وشرف العلم فكان فقيهاً كاتباً شارك في كثير من الفنون ومن تصانيفه منظومته التي ننشرها اليوم أول مرة، وقد شرحها شرحاً حافلاً سماه «حلية الكتاب ومنية الطلاب».

وكان من شيوخه في هذا الفن السيد المعطى مريتو الرباطي والشيخ عبد السلام سباطة الأندلسي والشيخ الرهوني والقاضي ابن العروصي.

وكان المترجم ذا خط حسن في غاية الجودة، وكان في جملة كتّاب مولانا سليمان، وهو أخو السلطان مولاي هشام جد الأسرة المالكة الحالية في المغرب، وعينه لتعليم أولاده، ثم استعمله في ولاية فاس سنة 1232هـ ثم عزله لعجزه عن القيام بالخطة وولى مكانه الحاج محمد الصفار عام 1233هـ وبعد عزله عن ولاية فاس عاد لمرافقة السلطان أبي الربيع ثم السلطان مولاي عبد الرحمن وأولادهما إلى أن توفي سنة 1256هـ رحمه الله.

وقد ذكر الناظم في مقدمة شرحه أن سيد عمر بن سيدي المكي قد حضّه على نظم

هذه المنظومة في علم الخط، فكان لها قبول حسن في أقطار المغرب وشهرة واسعة، وكان الناظم شاعراً، فمن شعره يخاطب معاصره ابن عمرو الشهير قال:

لمّا ركبتَ من العلياء ذروتها ... المجدَ قنّتَه، هام الورى فيكا
وصرت تخطو السهى والشمس في شرفٍ ... فازداد غيظاً لما أوليتَ جافيكا
لا زال مجدك عين العزّ تحرسه ... والسعد يخدمه والله كافيكا[1]

مخطوطات الكتاب

اعتمدنا في نشرتنا هذه على مخطوطتين مغربيتين تضمهما الخزانة العامة في الرباط أولاهما: مخطوطة «حلية الكتاب ومنية الطلاب» المرقمة 254 د - الرباط وهو شرح للارجوزة.

يشغل نص الإرجوزة الصحاف 291 - 298 منها. وقد سميناها النسخة الأولى، والثانية: مخطوطة رقمها 1649 محفوظة في الخزانة العامة بالرباط تضمنت النص لوحده دون شرح، وقد سميناها النسخة الثانية.

وقد ثبتنا اختلاف النسختين في الهوامش.

وبعد: فهذا أوّل نص مغربي منظوم في الخط ينشر في زمننا هذا، وأني أهديه إلى صديقي المحقق المؤرخ المغربي الدكتورعبد الهادي التازي تحية أخوة موغلة عبر الزمن، وأسأل الله أن ينفع بها هواة الخط إن شاء الله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

هذا نظم لئالي السمط في حسن تقويم بديع الخط للفقير المذنب الراجي عفو مولاه ورحمته أحمد بن محمد الرفاعي الحسني غفرالله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.

1 - قال الرِفاعيُ الفقيرُ أحمدُ ... الله جل وتعالى أحْمَدُ
2 - مُصَلّياً على الرسولِ الهادي ... المُصطفى سيّد كل هاد

---

(1) انظر ترجمته في مخطوطة «الاغتباط في أعلام الرباط» وبعض أخباره في «الاستقصا» للناصري وكتاب «الجيش العرموم» لاكنسوس.

4 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية: يقول نجل الرفاعي أحمد.

3 - وآلــهِ صـفـوة خـلـقِ الـلـهِ وصـحـبـهِ ذوي الـعـلا والـجـاه

4 - وبعد فاعلم أنّ حسن الخطّ اجـل مـقـتـنـى وخـيـر اعـطـي

5 - فكم سما إلى العلا من رامَهُ ونـال مـنـه الـعـزَّ والـكـرامـهُ

6 - وحـسـبـهُ أثـنـى عـلـيـهِ اللهُ في الذكر بالحكمةِ واجتباهُ

7 - بـقـولـه: يـزيـد مـا يـشـاءُ فـي خـلـقـه ويـؤتـي مـن يـشـاء

8 - وهـو مـا اختصّ بـه الانـسـانُ كـالـعـقـل يـشـهـد بـذا الـعـيـانُ

9 - وأنـنـي لـمـّا رأيـتُ الـنـاسـا قـد شـربـوا مـن الـونـى أكـواسـا

10 - وقَصُرَتْ هِمَمُهمْ وما اعتنى بـالـخـطّ مـنـهـم أحـدٌ ومـا اقـتـنـى

11 - وهـجـروا سـرّه دون عـذرِ ونـبـذوه مـن وراء ظـهـرِ

12 - وأعرضوا كل الاعراض عنه ومـا رووا مـمّـا رويـت مـنـه

13 - حتى غدا بغربنا مفقودا وكـاد لـم يـكـن بـه مـوجـودا

14 - قمتُ لذا نظمتُ فيه ارجوزه قـريـبـة ألـفـاظـهـا ومـوجـزه

15 - سمّيتها «نظمُ لئالي السمطِ في حسن تقويم بديع الخطّ [291]

16 - قَلَدْتُها الجيدَ من الولدان زيـدةٌ فـي الـحـسـنِ والـمـعـانـي

17 - وللمؤدّبين تاجاً قد علا رؤوسَـهـم فـخـيـرهـم قـد كـمـلا

18 - نظمتها على ما بي من عيب مُـبْـتَـغِـيـاً بـهـا رضـاءَ الـربِّ

19 - والله أرجو أن تكون نافِعَهْ لـي ولـهـم وكـلّ خـيـرٍ جـامِـعَـهْ

---

4 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: للظرف والذكا غدا كالشرط.

8 - البيت ساقط من النسخة الثانية.

10 و11 - البيتان ساقطان من النسخة الثانية.

12 - رواية العجز في النسخة الثانية: ونسوا كل الخيرات منه.

13 - رواية البيت في النسخة الثانية:

حـتـى غـدا بـغـربـنـا كـالـعـنـقـا يُـسـمـع فـي الـورى ولـيـس يُـلـقـى

14 - رواية العجز في النسخة الثانية: الفاظها قريبة.

16. رواية البيت في النسخة الثانية:

جـعـلـتـهـا لأصـغـرِ الـولـدان تَـبْـصِـرَةً رائـقـة الـمـعـانـي

17 - البيت ساقط من النسخة الثانية.

18 - صدر البيت في النسخة الثانية: نظمتها خالصة من قلبي.

20 - [ومن يريدها من المؤدّبين   والمؤمنين وجميع المسلمين]

تقويم السطور وتسويتها

21 - السطرفي اصطلاحهم خطٌ وَصَلْ   ما بين نقطتين عن ذاك حصلْ

22 - وكونه خطاً رقيقاً صافياً   مستحسن ولا يكون خافيا

23 - بحيث يرشد البنان لالتئامْ   تلك الحروف في اتساق وانتظامْ

24 - كسلك عِقْدٍ من لئالي الدّرِ   في جيد لبّات ذواتِ الخِدْرِ

25 - فإن أضفته وصار اثنينِ   فاجعلهما إذاً مُوازيينِ

26 - وإنْ جمعتَ فكذاك والتزمْ   تساوي كلهم وعَدِّلْ واحتكمْ

تقويم القلم وكيفية قبضه

27 - من قَصَبٍ يكون فَهْوَ خَيْرُ   مِنْ ذَهَبٍ وذاك فيه سِرٌّ

28 - وانحُ برأسِهِ أعالي القَصَبَهْ   مصطفيا له أجلّ انبوبه

29 - كالرمح في التقويم حادّ الراس   سليق صَدْرٍ لا ترى من باس

30 - ذا فضلةٍ من لحمهِ وقشرته   بذاك تعجبُ إذاً من جرْيَتهْ

31 - وسَوِّ في البَرْيِ جَريدَ تَيْهِ   من غير مَيْلٍ نحو حافتيه

32 - وإنْ اردْتَ أمْنَهُ من كَسْرِ   وقتَ الكتابةِ يميناً أجْرِ

33 - وبعضُهم إلى اليسار ينحرفْ   لحكمةٍ زائدةٍ بها عُرفْ

---

20 - البيت زيادة من النسخة الثانية لذا وضعناه بين عضادتين.

21 - رواية العجز في النسخة الثانية: ما بين نقطتين امتدّ واتصل.

23 - رواية البيت في النسخة الثانية:

وكونه خطا رقيقا خفيا   مستحسن ولا يكون واهيا

26 - رواية العجز في النسخة الثانية: فذاك ملتزم.

28 - في النسخة الثانية: أجلُ انبيه.

29 - في النسخة الثانية:

كالرمح في القوام حاد الراس   طويل صدر مفتض للباس

32 - البيتان 32 و33 موضعهما بعد البيت 37 في النسخة الثانية.

34 – وقبضةُ القلم شيءٌ مُعْتَمَدْ فاعنَ بها فانّها أمرٌ أكد [393]

35 – فَصَفِّفَتَ الأربعَ من بنانِكْ منعطفاً بها إلى جنانكْ

36 – واقرن إبهامك براس الشاهدْ كحلقةٍ واجعله خير راشد

37 – بينهما معتدا على الوسط لاكن على راسه والشد وسط

الدواة وما يتعلق بها

38 – يقال للدواة نون «والرقيم» هكذا أُلْفِيَ بدفترٍ قديمْ

39 – جمع دَواتٍ دَوَيات نادوا وهي التي يُرى بها المداد

40 – وان أُلبقت فهي من مليقه وصُوفة المدادِ هي اللّيقة

تقويم الحروف القائمة

41 – أول ما يبدو من الحروف ألف قائمٌ بين الصفوف

42 – أجل ما انتصب واستقاما وخير خطّ في اعتدالٍ قاما

43 – الألِفُ الحائزُ قصب السبْقِ بسجدةٍ سَجَدَها للحقّْ

44 – يشهدنا بأن الله واحدُ ما إن له من وَلَدٍ ووالدْ

45 – واللاّم مثله بلا تناه وارسم كذاك بإسم الله

46 – واتبعنْ في الوصف هاء واقفهْ وهي لاسفل اليسار عاطفه

47 – كالها من الحياة في الوقف ولا تجعل انبويا فَحَسِّن عملا

---

36 – الشاهد: معناه راس السبابة لكونه هو الأصبع المتحرك عند التشهد في الصلاة. ورواية العجز في النسخة الثانية: خير زائد.

37 – رواية عجز البيت في النسخة الثانية: لكن على رأسه انحط وانبسط.

38 – رواية عجز البيت في النسخة الثانية: كذاك ألفي.

39 – رواية عجز البيت في النسخة الثانية: وهي التي يلقى.

41 – البيت زيادة من النسخة الثانية ولا وجود له في الأولى.

42 – البيتان 42 و43 ساقطان من النسخة الثانية.

45 – رواية صدر البيت في النسخة الثانية: اللام مثله في الاشتباه.

46 – رواية عجز البيت في النسخة الثانية: تكون من أسفلها منعطفه.

47 – بعد البيت السابع والأربعين أربعة أبيات في النسخة الثانية لا وجود لها في الأولى وهذا نصّها: =

48 - ودون ذي الحروف في القيام با وتـا وثـا والـيـا ونـون نـسـبـا

49 - والسّين والشين كذا ولهما ثـلاث أسـنـان لـكـلّ مـنـهـمـا

50 - وأظهرِ السّين كما في الخبرِ واتـبـع الـشـيّـن لـهـا فـي الأثَـرِ

51 - واستحسنوا إلتواء رأس اللاّمِ ورأس اولـى الـسـيـن خُـذْ نـظـامـي

تقويم الحروف المفتوحة

52 - الـمـيـم دائـرة تـامـة بـدتْ صـغـيـرة عـلـى بـيـاضٍ احـتـوتْ

53 - فإن تكن صدرا فنصف دائره وترها السطر ووسطى دائره [293]

54 - لاكن ذي فوق وتحت جائيَةْ والسطر قطرها وحتى التاليه

55 - ومثل ميمِ أوّل السطر ترى واو بـالـيـمـيـن قـوسـه جـرى

56 - والفاء مثل الميم أيضاً جاءتْ لاكـن لـهـا سـاق عـلـيـهـا قـامـتْ

57 - قد وصلت بالسطر والقاف الوسطْ كـذا وان اخـرتـهـا دع الـنُـقَـطْ

58 - والساق منهما كقوس ظهرت من يـمـنـة الـوتـر لـلـسـطـر جـرت

= هـاذي حـروف قـائـمـات غـايـةْ وهـي بـيـن الـسـطـور مـثـل الـرايـه

ودونـهـا فـي الـوصـف بـاءٌ مـطـلـقـةْ والـنـون والـيـاء الـغـيـر مُـتَـمَـرِّقـة

ومـثـل ذاك الـتـاء قُـلْ والـثـاءْ والـسـيـن والـشـيـن كـذاك جـاءوا

لـكـنّ كـلّ واحـدٍ مـن ذيْـنِ ثـلاث أسـنـانٍ بـدون مَـيْـنِ

48 - هذا البيت ساقط من النسخة الثانية.

49 - البيت ساقط من النسخة الثانية.

50 - بعد البيت الخمسين بيت في النسخة الثانية ساقط في الأولى ونصّه:

وكلها في الوصف ثلث اللام أو ربعه فامشِ على نظامي

51 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: وراس أولى السين بالتنام

52 - رواية البيت في النسخة الثانية:

الـمـيـم دارة قـل صـغـيـره جـداً ولا تُـلـفـى قَـط كـبـيـره

53 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية:

فـإن تـرى أولـى فـنـصـف ذاك

54 - رواية البيت في النسخة الثانية:

لـكـن ذي أعـلـى وتـحـت جـائـيـه يـقـطـرهـا الـسـطـر وحـتـى الـتـالـيـه

59 - وهاء يا أيّها قُلْ دائرتين صغرى بوسط كبرى متصلتين
60 - وأيّه الساحر كالمثلّث حُدث زوايا، فَكُنْ ذا باعث
61 - وهكذا الهاء من اسم الجلالةْ فاعنِ بفتحها تحز جلاله
62 - وخذ من الدائرة العظيمةْ ثلثها لصادٍ مستقيمه
63 - والضاد والظاء كذا والطاءِ وذان خطٌ لهما وفاء
64 - والسطر هو وَتَرٌ للكُلِّ إيّاك أن تحيد عن ذا الاصل
65 - والعين إنْ تَكُ بِوَسط الكلمةْ مثلث الزوايا ليست قائمه
66 - ساقاه بالجنب واعلى قاعده وصله بالسطر وصُنْ ذا الفائده
67 - كذاك إنْ تك أخيرة وَ رُ دْ تعريقها نحو اليسار فلتُقَدْ

تقويم الحروف المشقوقة

68 - الدال شكلها كقوس فاعلما وقطرها إلى اليسار بمّما
69 - حتى إذال جاز محيط قوسه تنابزا به لنحوٍ عكسه
70 - وبعضهم يجعلها كطائره لها جناحان وصدر طايره
71 - والذال مثلها يزيد نقطه بوسط القوس ترى منحطّة

---

59 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: صغرى في وسط كبرى أي موصولتين.

61 - رواية البيت في النسخة الثانية:

أعني كالها من اسم الجلاله فاعن بفتحها تكسى حلاله

62 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: وذان بالرقبة حقاً جاءوا.

65 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: الغير القائمه.

66 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية: والأعلى قاعده.

68 - البيت ساقط من النسخة الثانية، وبعده بيتان في النسخة الثانية لا وجود لهما في النسخة الأولى وهما:

الدال يظهر كشبه القوس محيطها شزر البمار فاكس
وراسها اليمين أعني الاسفلا قرت بالسطر ومبرة تلا

69 - رواية البيت في النسخة الثانية:

حتى تجاوز محيط قوسه منعطفاً بذلك لعكسه

70 - رواية الصدر في النسخة الثانية: كالطائرة.

71 - رواية الصدر في النسخة الثانية: قد زاد نقطة.

72 - والياء من«الذي»كذاك لاكن ... معكوسةً بدون نقط كائن [294]

73 - وقد يُرى دال كراءٍ رفعا ... رأس له ما إنْ تَراه مُنِعا

74 - كدال مَهْدٍ ومُحَمَّدٍ وما ... اشبهه والذي خيرا قدَّمَا

75 - والكاف فوق السطرخط اتْلِفْ ... به مُوازٍ له طوله ألف

76 - مُتَصِّلاً بقوس ربع دائرة ... تحيط لليسرى وقيت الدائره

77 - وابداؤهُ من أعلاه غير قاسمْ ... له وثغره الزهي باسمْ

78 - والعينُ قوسٌ تنتمي للكبرى ... محيطها مُحَدَّبٌ لليسرى

79 - طَرفُها الأسفلُ بالسطر اتّصَلْ ... ومنه خطّ لليسارِ قد وَصَلْ

80 - وذا إذاكانت في الخط صدرا ... كعين عبلا وكعين عذرا

81 - وغين غيب وبنقطة جلا ... كفلك كوكبُهُ الأوْجَ علا

82 - وشطر سين حَرْبة للرايةْ ... جيمْ بدا حقّ له درايه

83 - والحاء والخاء كذاك الْحِقَنْ ... مُفَرّقاً لراسها أو الْصِقَنْ

84 - واختر من الوجهين أولهما ... فهوالذي تجده افضلهما

تقويم الحروف المعرّقة

85 - الراء قوس وهي ربع دائره ... راسها بالسطر وتحت سائره

86 - واحكم كذا للزاي واجعل نُقْطَتَهْ ... ظاهرةً فوق وعَدِّل صُورَتَهْ

87 - والنون في التعريق نصف دايره ... ليس لها قرنٌ للأعلى ظاهرةْ

88 - وامنع أخيرها لئلا يَتَّصِلْ ... بالسطرواجعله قريباً مُنْفَصِلْ

89 - واللّام والقاف كذا والياءْ ... ما بين سطريها لها إنتهاءْ

90 - بحيث إن وقع تحتها أَلِفْ ... لم يختلط معها وذا حُكْمٌ أُلِفْ

91 - وارفع قرين الياء كالمثلثِ ... واعطف وعرّق وعن الشيخ ابْحَثِ [295]

---

76 - رواية البيت في النسخة الثانية: دائرة قطرها كالدال وقيت دائرة.

80 - رواية العجز في النسخة الثانية: كعين عند وكعين عذرا.

84 - رواية العجز في النسخة الثانية: تلفيه أفضلهما.

86 - رواية العجز في النسخة الثانية: وبيّن صورته.

87 - رواية العجز في النسخة الثانية: بأعلى شائره.

92 - والسين والشين إن كانا طَرَفًا … كالياءِ في الرفع وَدَعْ ما انعطفا
93 - والصاد والضاد كنونٍ مُبيحا … وارْدُدْ عنانَ قلمٍ إنْ جَمَحا
94 - ونونٌ إنْ قَرَّبْتُ منها أُخرى … أو شبهها فلْتَك أمُّ الأخرى
95 - ولا تُقاطعْ أو تُطابِقْ حَرْفَنا … لآخرٍ فذاك شينٌ يُلْقَى
96 - والحاءُ والجيمُ والخا إنْ عُرِّقتْ … فَثُلْثُ قوسٍ لليسار رَجَعَتْ
97 - ومثلُها عَيْنٌ وغَيْنٌ وقَعَا … في طَرَفٍ من غيرخَلْفٍ فاسمعا

تقويم لام الألِف

98 - خَطَّان رأساهُما قد تُفَرَّقا … واتُّطِعا من أسْفَلٍ واعتنقا
99 - واجتمعا ناعجب لقاطعينِ … مجتمعين متعانقينِ
100 - وإنْ لويت رأسَ كُلٍّ منهما … أو واحدٍ أحْسَنْ من تركهما

تقويم حروف التركيب

101 - واحرف التركيب عند الكَتَبَة … جيم وحا وخا كخاء الخَشَبَة
102 - وكمحمّد وكالجنّاتِ … ما قبلها فوق السطور ياتي
103 - مُتَصِلاً بغيرِ رَفْعٍ يبدو … لراسها فذاكَ فيه قَيْدُ
104 - كذاكَ إنْ حرفان قبلُ سَبَقا … كحاءِ سَبِّحْ واعطف وعرِّقا
105 - وبعضهم السينُ في السطرِيَضَعْ … كالشيخ مروان والبا قد رَفَعْ
106 - ويجري ذا في حاءِ مصبحينَ … والصالحاتِ وكمصبحينَ

---

92 - رواية الصدرفي النسخة الثانية: إن كانت طرفا.
93 - رواية العجز في النسخة الثانية: قد جمحا.
94 - رواية البيت في النسخة الثانية: ونون قد. . . . . قلب الاخرى.
96 - رواية البيت في النسخة الثانية: والجيم والحاء. . . فُتِحَتْ.
97 - رواية العجز في النسخة الثانية: في طرف وقد مضى ذا فاسمعا.
103 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: لراسها واعطف للسطر واحْدَ.
104 - رواية العجزني بالنسخة الثانية: واجبد وعرقا.
106 - رواية البيت في النسخة الثانية: مصبحينا. . . كمصلحينا.

107 - وحاءُ حمرا قد تُرى مُرَكَّبَهْ على تيك الميم رواهُ الكَتبَهْ
108 - وراءها ركب واعل الطرفا منها وذاك حَسَنٌ قد وُصِفا
109 - واللامُ مِنْ عَلى وصلّى وبَلى فوق قرين الياء سِرّهُ اجتلى [296]
110 - وحاز هذا السرَّ بين الناسِ أندلسٌ ولم يكنْ بفاسِ
111 - وفاءُ جَرٍّ إنْ تكنْ مقطوعهْ محمولة وقد تُرى موضوعهْ
112 - كفاءِ في الأرض وفي الجنّات محمّد مع آله الثقاتِ
113 - وياء يرتضي اجعلنْ في السطرِ وفوقها ما قبلها فَلْتَدْرِ

إلتساق الحروف وانتظامها

114 - قد مثّلوا الحروف بالجواهرْ والمنظر بالسمط وهذا ظاهر
115 - بَلْ للحروف عندهم استمرارْ أوْدعَها من الورى المختارْ
116 - فإن كتبتَ فاجعل الحروفا في وسط السطْر ولا تحيفا
117 - وسوِّ ما بين الحروف في النظامْ من غيرزيدٍ يبدو أو نقصٍ يُرامْ
118 - سيّان ما قد كان منها متصل بغيره أو كان عنه منفصل
119 - وذا المسمى عندهم في الأصلِ بالنظم إلا إنْ يكن كالفَصْلِ
120 - وقائم الحروف سوِّ قامتهْ مع أخيه واحْذَرَنْ تفاوتَهْ
121 - بحيث لو أتت عليه مسطره مرّت براسهم غير مسفره
122 - والزم أخي حروفَ ربع الدائره ما بين سطريك اجعلنه آخره
123 - كذاك في التعريق ميمٌ تاليَهْ فهي من أقطاب الحروف العاليه
124 - إن التزمتَ ذا بخطّك ترى سراً وهو معنى قصّر من روى

---

107 - رواية العجز في النسخة الثانية: من فوق ميمها رواه الكتبه.
114 - رواية البيت في النسخة الثانية: للجواهر... وذاك ظاهر.
117 - رواية العجز في النسخة الثانية: من غير زيد يلفى.
122 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: واجعله آخره.
123 - رواية العجز في النسخة الثانية: لكن قطريها من أعلى دآنيه،
وبعدها بيت في النسخة الثانية لا وجود له في الأولى ونصه:
وقد تعرق الأبسر على شرط بأن ترى كميمِ أولا

125 - وقد يزيد الخطَّ حُسْناً حرفُ	إذا التوى يُحار فيه الوصفُ
126 - كطاء سلطان سطا وَلَطُفا	خطه واصطفى وطاء لطفا
127 - وهاء هادٍ وبهاء استحسنوا	إلتواءها ومذهبي قد احسنوا
128 - لاكنّ في التوائها تفصيلا	فاشرب إذا ما شئت سلسبيلا [297]
129 - كما لوى الشيخُ الوزيرُ الكاتبْ	كافَ هنالك لله كاتبْ
130 - والخط أنواعهُ لا تنحصرُ	أفرادها يَقْصُرُ عنها الخَبَرُ
131 - لاكن خيره الذي انتمى إلى	أندلسٍ فَسَرُهُ قد اجتلى
132 - واقتبسوا من نورهم أهل (سُلا)	فخطّهم قدما ووقتا قد غلا
133 - كابن الفقيه المرتضى الجريري	وكالسوسي ذي البها المنيرِ
134 - فضّل هذا مولانا الامام	عن غيره «سليمانُ» الهمام
135 - واشتهرت به رباطُ الفتحِ	عند أناس منحوا بفتحِ

126 - رواية البيت في النسخة الثانية: سلطان سما. . . . خطه وازدهى.

127 - رواية البيت في النسخة الثانية: وبهاء حسّنوا إذا التوى.

129 - في النسخة الثانية يقع البيت 137 بعد هذا البيت المرقم 129.

131 - رواية العجز في النسخة الثانية: أندلس فحسنه.

132 - الأبيات من 132 - 136 ساقطة من النسخة الثانية.

133 - سَلا: مدينة مغربية معروفة. .وابن الفقيه المرتضى الجريري والسوسي: قال الناظم عنهما في شرحه ما نصه: «إن أهل سلا اقتبسوا من خط أهل الأندلس سراً ونوراً من قديم وفي وقتنا هذا علوا به وسموا على كل خط له سر وبهاء. وذلك كخط الفقيه العلامة التحرير الاديب النبيه الشهير أبي عبد الله سيدي محمد بن الفقيه الجريري النسب السلوى الدار رحمه الله فإن خطّه كان شبيهاً بخط أهل الأندلس في غاية الإبداع والترقيم، وكخط الفقيه العدل البركة سيدي محمد فتحا ابن علي السوسي النسب السلوى بالدار رحمه الله كان خطه في غاية الحسن وغاية التهذيب والتنقيح عليه طلاوة وبهجة، تفرّدَ بذلك وليس في وقتنا من يلحق شاوه ولا يَدعي ذلك لما خصه الله به من البهاء والنور وكمال الصناعة الهندسية في الكتابة من النظم والاتساق وبديع التركيب وفي غاية التساوي في الأبعاد، يسحر الناظر ويأخذ بالخاطر رحمه الله.

134 - الإمام سليمان: هو أخو السلطان مولاي هشام الذي هو جَد الاسرة المالكة الحالية في المغرب. وكان الإمام سليمان المذكور قد جمع خطوط أهل مدن المغرب وانتقدها فتخير منها خط أهل سلا ورباط الفتح، ثم من هذين اختار خط السوسي هذا رحمه الله.

135 - رباط الفتح: عاصمة المملكة المغربية

136 - وأرجو ربّي أن أكون منهمُ فينظموا جوهري في سلكهُمُ

137 - والسرُ في الشيخِ لا بُدَّ منهُ فبه قسمو فابحثن عنه

138 - وهذه النبذة فيه كافيه طالبها يجني بها أما لِيَهْ

139 - نظَمْتُها غُرةَ شُكْرٍ لامعه مع أربعٍ من السنين واقعه

140 - أبياتها قوم قد احتووا على سرٌ وادركه من تَبَتَّلا

141 - وهاهنا قد تمَ ما قصدتُ من صنعة الخط كما أردتُ

142 - وذاك مع جهلي الذي اتَسمْتُ به وفرقتي لمن أحْبَبتُ

143 - وأسئل الرحمان جمع الشَمْلِ بالأهل والمنشا وكل أمل

144 - والختم بالحسنى مع الزيادة بجاه طه صاحب السيادة

145 - محمدٍ نبيّنا المختارِ شفيعنا من زفرات النارِ

146 - صلّى عليه ربنا وسلما وآله ماسحّ سَحبٌ وهَمَا

147 - وصحبه ذوي العلا ومن تلا فنال من حسن الختام آملا

كملت بحمد الله وعونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين(*) [298].

---

139 - رواية العجز في النسخة الثانية: مع سنة بعدها هي رابعة، وهذا البيت يؤرخ تاريخ نظم هذه القصيدة، يقول الناظم: نظمت هذه القصيدة غرة عام شكر. الشين بألف، والكاف بعشرين والراء بمائتين، وقوله: مع أربع من السنين واقعه، أي يزداد على عدد لغز شكر أربع سنين مرّت ووقعت بعد هذا العدد ومجموع ذلك 1224 من تاريخ الهجرة النبوية الشريفة، وقوله: غرة، أي في شهر محرم.

140. رواية البيت في النسخة الثانية: أبياتها يقوى بها الذي (. . . . .) إلى الكتابة عليها وسما.

وفي البيت لغز أيضاً يقول الناظم: إن عدد أبيات هذه الارجوزة هو العدد الواقع على هذه الحروف الثلاثة (قوم)، القاف بمائة والواو ستة والميم أربعون، فمجموع ذلك مائة وستة وأربعون هذا هو عدد أبياتها. ثم وصف هذا اللغز بقوله: احتووا على سر يعني أن قومها أي الطالبين لها إذا حصلوا هذا احتووا على سرها، وأدرك هذا السر من انقطع إلى معرفته وتحصيله.

142. رواية العجز في النسخة الثانية: لما أجبلت.

(*) عبارة الختام في النسخة الثانية كالآتي:

إنتهت بحمد الله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بدءاً وختاماً. .

مصادر بحث – ج1 – المقدمات الحضارية والتاريخية

– أ –

1 – الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح.

* المستطرف في كل فنٍّ مستظرف – منشورات دار الفكر – بيروت، والمطبعة الميمنية بالقاهرة 1314هـ.

2 – إبن الأثير: عز الدين أبو المحاسن علي بن أبي الكرم الشيباني.

* الكامل في التاريخ – 12 مجلد – منشورات دار صادر، بيروت 1385هـ/ 1965م.

3 – الأزدي: أبو المطهّر محمد بن أحمد.

* حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم ميتز، طبعه هايدلبرغ، سنة 1902م.

4 – الأصفهاني: حمزة،

* تاريخ سني ملوك الأرض – منشورات مكتبة الحياة – بيروت 1961م.

5 – الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمن.

* كتاب الأغاني – 24 مجلد – طبعة دار الكتب المصرية – ط1، وطبعة أحمد الشنقيطي – القاهرة – 1345هـ/ 1927م.

6 – إبن أبي أُصيبعه، موفق الدين، أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء – تحقيق نزار رضا – منشورات مكتبة الحياة – بيروت 1965م.

7 – إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفا.

* تحقيق – خير الدين الزركلي، طبعة مصر – عام 1347هـ/ 1928م.

8 – أمين: نضال عبد العالي.

* أدوات الكتابة وموادّها في العصور الإسلامية – دراسة نشرت في مجلة المورد – العراقية. عدد خاص بالخط العربي – العدد 4 – المجلد 15، السنة 1407هـ/ 1986م.

- ب -

9 - براندت: د. إيفلين كلينكل.

* رحلة إلى بابل القديمة - ط1 - دمشق 1984م.

10 - البُحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي.

- *ديوان البحتري - 4 أجزاء - تحقيق حسن كامل الصيرفي. منشورات دار المعارف بمصر 1963م.

11 - البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل

* صحيح البخاري - 8 أجزاء - طبعة القاهرة 1315هـ.

- بروين: بدري توفيق.

* تحقيق مخطوطة - أنواع اللّيق وكيفية إعمالها - نشرها في مجلة - المورد - العراقية، العدد 4 مجلد 14، السنة 1985م.

12 - بيدرسون، يوهانس.

* الكتاب العربي منذ نشأته حتى عصر الطباعة، دمشق، 1989م، ترجمة د. حيدر غيبة.

13 - بيلاّ، شارل.

* النشر العربي في بغداد - دراسة نشرها في مجلة المورد - العراقية، عدد خاص عن بغداد - العدد 4 - مجلد 9 - عام 1400هـ/ 1979م.

- ت -

14 - التنوخي: القاضي أبو المحسن الحسن بن علي «البصري»

* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة - 8 أجزاء - تحقيق عبود الشالجي، بيروت - 1391هـ/ 1971م.

15 - التوحيدي: أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس.

* رسالة في الصداقة والصديق - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، منشورات دار الفكر - دمشق 1964م.

16 - الإمتاع والمؤانسة - 3 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1939م.؟

17 - مثالب الوزيرين، تحقيق د. ابراهيم الكيلاني - دمشق 1965م.

18 - أبو تمّام: حبيب إبن أوس الطائي.

* ديوان أبي تمام - 4 أجزاء - شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبدو عزام منشورات دار المعارف المصرية - القاهرة 1964م.

- ث -

19 - الثعالبي: أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

- 1. يتيمة الدهر - 4 أجزاء - طبعة الصاوي المصرية - سنة 1352هـ/ 1934م.

- 2. لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، طبعة البابي الحلبي - القاهرة - 1960م.

21 - ثعلب: أبو العبّاس يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني.

* مجالس ثعلب - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات دار المعارف بمصر.

- ج -

22 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب.

- 1. كتاب الحيوان - 7 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون، طبعة البابي الحلبي المصرية.

- 2. التاج في أخلاق الملوك - تحقيق أحمد زكي باشا - ط1 - القاهرة، سنة 1346هـ/ 1927م.

- 3. رسائل الجاحظ - جزءآن - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة 1384هـ/ 1965م.

- 4. البيان والتبين - 3 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - ط1 - القاهرة 1367هـ/ 1948م.

26 - جبري، شفيق.

* الجاحظ معلم العقل والأدب - دمشق 1962م.

27 - الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن.

* أسرار البلاغة - تحقيق هيلموت ريتر - استانبول 1954م.

28 - إبن الجهم - علي، الشاعر العبّاسي.

* ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق 1369هـ/ 1949م.

29 - جواد - د. مصطفى - وأحمد سوسة.

* دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً، مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد، 1378هـ/ 1958م.

30 - إبن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

- 1. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء - ط1 - حيدر آباد 1358م.
- 2. مناقب بغداد - تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات مطبعة دار السلام - بغداد 1342هـ.

32 - الجبوري - سهيلة

* الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق - بغداد سنة 1381هـ/ 1962م.

- ح -

33 - الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحرامي.

* مقامات الحريري - الطبعة الحسينية بمصر 1348هـ/ 1929م.

34 - الحموي - إبن حجّة، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد.

* ثمرات الأوراق في المحاضرات، منشورات دار الفكر - بيروت بدون تاريخ.

35 - الحموي: د. خضر.

* التفاعل القانوني في حوض البحر الأبيض المتوسط، دراسة مقارنة للقوانين منذ 5 آلاف سنة، بيروت 1996م، طبعة خاصة بالمؤلف.

36 - الحموي - ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

- 1. معجم الأدباء - 20 جزءاً - تحقيق أحمد فريد رفاعي - منشورات دار المأمون المصرية، 1357هـ/ 1938م.
- 2. معجم البلدان - منشورات دار صادر - 8 أجزاء - بيروت 1374هـ/ 1955م

- خ -

38 - خاليدوف، المستشرق الروسي - أنس باقيفيج - بالروسي .(X. A. B).

* دراسات في تاريخ الثقافة العربية - منشورات معهد الإستشراق الروسي - موسكو - 1982م.

39 - خسرو - ناصر، الرحالة أبو المعين القُباديانى المروزي.

* سفر نامة - ترجمة وتحقيق د. يحيى الخشّاب - ط 1 - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة عام 1364 هـ/ 1945 م

40 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد - 14 مجلد - ط 1 - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر - 1349هـ/ 1931م.

41 - إبن خلدون: العلامة عبد الرحمن بن محمد المغربي.

* مقدمة إبن خلدون - منشورات دار إحياء التراث العربي - بيروت بدون تاريخ.

42 - إبن خُلّكان - أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر - بيروت - بدون تاريخ.

- د -

43 - دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته - 20 مجلد -.

44 - الدوري - د. عبد العزيز.

- 1. مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي - ط2 - بيروت 1978م.
- 2. تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري - منشورات مطبعة المعارف - بغداد - 1367هـ/ 1948م.

46 - ديمتريفا - ل. ف - المستشرقة الروسية.

* المخطوطات من الكتب التركية والعربية - بحث منشور في «مخطوطات الكتب في ثقافة الشعوب» منشورات معهد الإستشراق - موسكو 1987م.

- ذ -

- لا يوجد

- ر -

47 - إبن رُسته: أبو علي أحمد بن عُمر.

* الأعلاق النفيسة - طبعة ليدن 1891م.

48 - رشيد، د. فوزي.

* الشرائع العراقية القديمة - منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية - مطبعة الرشيد - بغداد 1979م.

49 - رضا: الشيخ أحمد.

* متن اللغة، منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1377هـ/ 1958م.

50 - إبن الرومي: أبو الحسن علي بن العبّاس بن جريج «الشاعر».

* ديوان إبن الرومي، تحقيق د. حسين نصّار - منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة، 1974م.

51 - الرفاعي: د. أحمد فريد.

* عصر المأمون - 4 أجزاء - ط1 - منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1346هـ/ 1927م.

- ز -

52 - الزبيدي: محب الدين أبو الفيض السيد مرتضى الحسيني الواسطي.

- 1. حكمة الإشراق، تحقيق عبد السلام هارون، من نوادر المخطوطات المجموعة 5 - ط1 - منشورات مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد سنة 1373هـ/ 1954م.

- 2. تاج العروس - ط1 - المطبعة الخيريّة بمصر، سنة 1306هـ.

53 - الزفتاوي: محمد بن أحمد

* منهاج الإصابة في معرفة الخطوط والكتابة - تحقيق هلال ناجي نشرها في مجلة - المورد - العدد الخاص بالخط العربي - عدد 4 - السنة 1986م.

54 - الزجّاجي: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق.

* مجالس العُلماء - تحقيق عبد السلام هارون - الكويت 1962م.

55 - الزركلي - خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء كبيرة - ط5 - دار العلم - بيروت 1980م.

56 - زيّات: حبيب.

* الوراقة والورّاقون في الإسلام - منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت 1947م، بحث قصير نشر في مجلة المشرق لعام 1947م.

57 - زين الدين - المهندس ناجي المصرف.

- 1. مصوّر الخط العربي، منشورات المجمع العلمي العراقي ببغداد 1388هـ/ 1968م - ط1 منشورات مكتبة النهضة ببغداد - ط2 - 1974م.
- 2. بدائع الخط العربي - وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1973م.

- س -

59 - السّرّاج: الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين.

* مصارع العشّاق - ط1 - مطبعة الجوائب - القسطنطينية 1301هـ.

60 - سعد: فهمي عبد الرزاق.

* العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، منشورات الدار الأهلية للتوزيع - بيروت 1983م.

61 - السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 أجزاء - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني منشورات محمد أمين دمج - بيروت. بدون تاريخ.

62 - السوداني: د. مزهر.

* جحظة البرمكي، حياته وشعره - طبعة النجف العراقية - ط1 - 1977م.

63 - سيبويه: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر.

- * كتاب سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة عالم الكتب، بيروت. بدون تاريخ.

64 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الشافعي.

- 1. تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - ط 1 - مطبعة السعادة بمصر 1371هـ/ 1952م.

- 2. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - ط 1 - مصر 1326هـ.

- 3. الأشباه والنظائر - 3 أجزاء - طبعة حيدر آباد - سنة 1360هـ.

67 - ستيبتشيف - د. الكسندر.

* تاريخ الكتاب - جزءان - ترجمة محمد الأرناؤوط، منشورات الكويت 1993م

- ش -

68 - الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد.

* الديارات - تحقيق كوركيس عوّاد - مطبعة المعارف - بغداد 1951م.

69 - الشوك: د. علي.

* المدارس السومرية وتعليمها - مقال - جريدة الحياة ليوم 14/ 3/ 2006م.

- ص -

70 - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب.

- 1. الأوراق - أو - أخبار الراضي والمتقي - جزءان - تحقيق ج هيورث، دار مطبعة الصاوي بمصر - ط 1 - 1934م.

- 2. أدب الكتّاب - تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر - 1341هـ.

- ض - و - ظ -

- لا يوجد

- ط -

72 - الطائي: د. محمد باسل.

* توزيع الكون بين الغزالي وابن رشد - مقالة مجلة آفاق الثقافة والتراث - دبي - العدد 46 - السنة 12/ يوليو 2004م.

73 - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير.

* تاريخ الرسل والملوك - 10 أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم منشورات دار المعارف بمصر - القاهرة - 1968م.

74 - إبن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا.

* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق محمد توفيق الكتبي - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر - بدون تاريخ.

- ع -

75 - إبن عبد ربّه: أبو عمر محمد الأندلسي.

* العقد الفريد - 7 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الإبياري. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1363هـ/ 1944م.

76 - العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل.

* كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر - ط1 - مطبعة الجمالي والخانجي القاهرة 1320هـ.

77 - العلموي: الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد.

* المعيد في أدب المفيد والمستفيد - ط1 - تحقيق أحمد عبيد منشورات المكتبة العربية بدمشق 1349هـ.

- غ -

- لا يوجد

- ف -

78 - إبن الفقيه الهمداني: أحمد بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الإخباري.

* بغداد مدينة السلام - تحقيق د. صالح أحمد العلي - منشورات وزارة الإعلام - العراقية - بغداد 1977م.

79 - الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب - العلاّمة اللغوي.

* القاموس المحيط - ط2 - منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت 1407هـ/ 1987م.

- ق -

80 - إبن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري.

* أدب الكاتب - تحقيق محمد الدالي - ط2 - منشورات مؤسسة الرسالة - بيروت 1406هـ/ 1986م.

81 - القدسي: أبو زيد أحمد بن سهل البلخي.

* البدء والتاريخ - جزءان - تحقيق كلمان هور - باريس 1899م.

82 - القرآن الكريم.

83 - القفطي: الوزير - جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* إنباه الرواة علي أنباء النحاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة - 1369هـ/ 1950م.

84 - القسطالي: أبو العبّاس أحمد بن محمد الرفاعي.

* مخطوطة نظم لئالىء السمط في حُسنِ تقويم الخط، تحقيق هلال ناجي - نشرها بمجلة - المورد العراقية - العدد الخاص بالخط العربي، العدد 4 - المجلد 15 - السنة 1407هـ/ 1986م.

85 - القلقشندي: الشيخ أبو العباس أحمد.

* صبح الأعشى في كتابة الإنشا - 13 جزء - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة - ط1 1340هـ/ 1920م.

86 - القيرواني: الحصري أبو إسحاق أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرىء الضرير.

* زهر الآداب وثمر الألباب - 4 أجزاء - تحقيق د. زكي مبارك، منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر - ط1 - 1925م.

- ك -

87 - الكازروني - ظهير الدين.

* مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية - تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد - نشرت في مجلة المورد - العراقية، عدد خاص عن بغداد - العدد 4 - مجلد 8، 1400هـ/ 1979م.

88 - الكتبي، محمد شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر.

* فوات الوفيات - 5 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر دار بيروت - بدون تاريخ.

89 - الكردي: محمد طاهر بن عبد القادر المكي الخطّاط.

- 1. حُسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة - طبعة البابي الحلبي بمصر 1357 هـ/ 1938م.

- 2. تاريخ الخط العزبي وآدابه - ط1 - القاهرة 1358هـ/ 1939م.

91 - كشاجم: أبو الفتح محمود بن الحسين السفدي بن شاهين.

* ديوان كشاجم - تحقيق خيرية محمد محفوظ - منشورات وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1390هـ/ 1970م.

- ل -

- لا يوجد

- م -

92 - المرزباني: أبو عبد الله محمد بن عمران.

* معجم الشعراء - منشورات مكتبة القدسي - القاهرة 1354هـ. تحقيق عبد السلام أحمد فراج.

93 - مالك إبن أنس: الإمام.

- *المدونة الكبرى - ط1 - منشورات المطبعة الخيرية بمصر 1324هـ.

94 - مرزوق: د. محمد عبد العزيز.

* العراق مهد الفن الإسلامي - منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد 1971م.

95 - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر - 4 أجزاء - مطبوعات الجامعة اللبنانية بعناية شارل بيلاً - بيروت 1974م، وطبعة باريس ودار المعرفة 1403هـ/ 1982م.

96 - المسعود - الخطّاط حسن.

* الخط العربي - منشورات فلاماريون - باريس 1981م.

97 - مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب.

* تجارب الأُمَمْ - جزءان - تحقيق أمدروز - القاهرة 1314هـ/ 1915م.

98 - المغربي: القاضي النعمان بن حيون - قاضي قضاة الدولة الفاطمية.

* المجالس والمسايرات - تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي منشورات الجامعة التونسية 1978م.

99 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد.

* المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار - المعروف بالخطط المقريزية - 4 أجزاء - منشورات مطبعة النيل بمصر 1364هـ.

100 - إبن المُلَقّن: سراج الدين، أبو حفص عُمر بن علي بن أحمد المصري.

* طبقات الأولياء - تحقيق نور الدين شريبّة - ط 1 - منشورات مكتبة الخانجي - القاهرة 1393هـ/ 1972م.

101 - إبن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري.

* لسان العرب - 14 مجلد - طبعة دار صادر - بيروت.

102 - مؤلف مجهول:

* أخبار الدولة العباسية - تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد العزيز المطّلبي - بيروت 1971م.

103 - ميتز: آدم - المستشرق.

* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - جزءان - ط3 - ترجمة عبد الهادي أبو ريدة - القاهرة 1377هـ/ 1957م.

104 - ميشيرسكايا. ي. ن: المستشرقة الروسية.

* مخطوطات الكتب في ثقافة الشعوب - منشورات معهد الإستشراق بموسكو، موسكو 1987م.

- ن -

105 - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.

* الفهرست - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

- و -

- لا يوجد مصادر

- هـ -

106 - هانتس - فالتر.

* المكاييل والأوزان الإسلامية - ترجمة كامل العسلي، عمّان 1970م.

- ي -

107 - 10اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن نافع.

* البلدان - طبعة ليدن 1891م وطبعة النجف - ط3 - 1377هـ/ 1957م.

المصادر الأجنبية

1 - J. Gerny: Peaper and books in Ancien Egypt. London 1952.

2 - F.Milku. J: Handbuch der bibliothek, Swissenschofl 1955.

3 - R.S.Mackenes: Four great Libraries of Madieval. «Baghdad the library quarterly - 2/1930 No 3 - p. 279-292.

4 - Negebauer, O.A: «Astronamical coneiform texets Lund humpherys, 3vols, London 1995.

المجلات الدورية والصحف

1 - مجلة المورد - العراقية - فصلية - العدد 4 - مجلد 14 لعام 1985م.
2 - مجلة المورد - العراقية - فصلية - العدد 4 - خاص بالخط العربي - عدد 4 مجلد 5 العالم 1986.
3 - مجلة المورد - العراقية - فصلية - العدد 4 - مجلد 8 - عدد خاص عن بغداد لعام 1400هـ/ 1979م.
4 - مجلة آفاق الثقافة والتراث - مجلة فصيلة تصدر عن مركز جمعة الماجد - دُبي - العدد 46 - السنة 12 - يوليو/تموز 2004م.
5 - جريدة الحياة - اليومية - لندن - عدد يوم 14/ 3/ 2006م.

تم الجزء الأول

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية - الإسلامية

الجزء الثاني

ظهور مهنة الوراقة

الباب الخامس

ظهور مهنة الوراقة

الفصل الأول

تمهيدات تاريخية

لعب الإسلام - ديناً وحضارة - دوراً هاماً في تنشئة الثقافة العربية - الإسلامية، ورعايتها والحفاظ عليها، فقد ارتبط القرآن باللغة العربية، وبهذا الارتباط أصبح التواشج الروحي - الزمني، في وحدة متكاملة لا تعرف الانفصال والتجزّؤ، فقد جاء في التنزيل: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[1]، وبذلك توجّب على اللغة العربية وناطقيها، أولاً: أن يكونوا بمستوى هذا النزول والتميّز، من جهة، ومن جهة أخرى، عليهم فرض تحدّ حضاري مقابل الديانات السماوية الأخرى التي كانت سابقة على الإسلام من يهودية ومسيحية، لذلك نرى البدايات عند الصحابة والتابعين، قد إنصبّت على جمع القران وتدوينه، بالأمور الممكنة - وقتذاك - وشكلت عظام الجمال وأوراق سعف النخيل، وجلد الحيوانات والرقوق، المواد الأساسية الأولى لتدوين القرآن، واستمرت هذه العملية أثناء حياة النبي محمد ﷺ وحتى وفاة عثمان بن عفان/ الخليفة الثالث/ ، لقد عنت مسألة جمع القرآن وتدوينه، رؤية أولية في العمق الحضاري للإسلام، إذ جسدت بهذه الخطوة اللبنات الأساسية لتكوين العقل العربي - الإسلامي، فقد حددت المسار الفكري للمسلمين، ووضعت الممهدات الأخرى للقيام بعملية أوسع وأكبر لحفظ ثقافة العرب وآدابهم، نظهرت السجلات أو المدونات، كخطوة لاحقة على جمع القرآن وتدوينه.

ويعد زيد بن ثابت، ذلك الصحابي الجليل من الرعيل الأول للمسلمين، وهو أول كاتب للوحي، النموذج للورّاق الأمين، فقد طلب منه أبو بكر الصديق أن يجمع القرآن

(1) سورة يوسف، الآيتان: 1-2.

ويدوّنه، ففعل ذلك بإبداع[1]، وقد كانت هذه المهمة، من أشد المهام صعوبة وخطورة، إلاّ أنها أرست دعائم عملية النسخ والتوريق في الإسلام، لأن فيها ثبّت مبدأ الأمانة في النقل والتدوين، من وازع ديني وحضاري، وبرؤية إسلامية، وظل هذا المنهج سارياً وثابتاً في الكتابات العربية الإسلامية طوال فترة الخلافة الراشدية.

وعندما إنتقلت الخلافة إلى العباسيين، وسقطت الدولة الأموية، وتداخلت الثقافات المختلفة في بنية المجتمع العباسي، فتزاوجت الثقافات اليونانية والفارسية وغيرها مع العربية، فأوجدت حالة من «الديناميكية» المتطورة، على أساس هذا التفاعل، فالعربية تأثرت وأثّرت في اللغات والثقافات الوافدة إليها، وأصبح قانون - الداخل والخارج - محسوساً على مستوى الناس، لا سيما العلماء منهم والأدباء، فقد كانت شروحات الفلسفة اليونانية، من قبل الفلاسفة المسلمين، قفزة حضارية هائلة، سمت بالمجتمع الإسلامي، لأن يخطو نحو أفق الإنسانية، درجة أعلى، وعلى أثر هذه الخطورة، بدأت تتشكل الملامح الأوليّة للفكر الفلسفي الإسلامي، منطلقة من القرآن وما حوته آياته من فكر مثالي.

وهذا التشكّل بدأ يظهر في اللغة العربية، فظهرت المفردات الفلسفية وهي تستعير تعبيرات من الفلسفات الأخرى، مسبوكة بإطار معرفي، واشتقاق عربي، ومتضمنّة تجاوزا لأكثر من حدّ «اللماورائية» فقد ظهرت رؤية مادية واضحة القسمات في الفكر الفلسفي الإسلامي[2] عند الفارابي والكندي وابن سينا، وقد ظهرت هذه النزعات أكثر وضوحاً واشتمالاً في «رسائل أخوان الصفا».

وأخذت مناهج الشريعة الإسلامية، تطوّر مبدأ الاجتهاد في ضوء السنّة النبويّة، وأحاديث الرسول والصحابة، مشكلة الرافد الثاني للشريعة بعد القرآن، وجاعلة من الفكر الإسلامي فكراً زمنيّاً وروحيّاً[3]، الأمر الذي ينأى بالإنسان العربي والمسلم لأن ينزع نحو تحلل أسارير الروح من القيود الوهمية، التي تكبّل عقله، لذلك أصبحت مسألة تعاطي علوم الفلسفة، إحدى السمات الأساسية للمجتمع العباسي في القرنين 3 و4 الهجريين.

ثمّة مسألة هامّة، طوّرت الفكر والحضارة الإسلامية، في شروط تاريخيتها ألا وهي - الفتوحات الإسلامية - فقد أيقظت هذه الفتوح العقل العربي - الإسلامي، على مكامن الحضارة، في تلك البلدان التي فتحوها، فأخذوا منها ما أخذوا، وأضافوا إليها شيئاً من

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي 2/ 431 - الترجمة رقم 85.

(2) راجع بهذا الصدد - مؤلف العلامة حسين مروة/ النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية/ .

(3) لنا دراسة بهذا الصدد تحمل عنوان (النظام الداخلي لحركة إخوان الصفاء)، نتحدث فيها عن هذه الأبعاد صدرت بدمشق عام 1991م.

روحهم وثقافتهم ودينهم، ويكفي أن نذكر بهذا الصدد، أن صناعة الورق جاءت نتيجة هذه الفتوحات، الأمر الذي يسرّ معه تطور الحالة الثقافية وتنشيط مهنة الوراقة كي تصبح ملبيّة لحاجات الناس الثقافية.

وقد امتدت هذه الفتوحات من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين، وعبرت إلى القارة الأوروبية عن طريق الأندلس، وكان يصاحب هذه الفتوحات اللسان العربي، ذلك الصمّام الذي ظلّ محافظاً على التراث الإسلامي، وفارضاً لغته ومبادئه وفكره، على اللغات التي صادفته مثل الآرامية واليونانية والقبطيّة والفارسية والتركية والبربريّة -، حيث استسلمت هذه اللغات جميعاً - بحكم الفتح - أمام اللغة العربية باعتبارها لغة الدين الجديد، ولغة العلم الوافد،ولغة الفاتحين وهذه المسألة، فرضت على العرب والمسلمين أن ينتبهوا إلى لغتهم، وهي تنطق في ألسنة غيرهم، ويشوبها التشويه في النطق والكسر في إيقاعها الموسيقي، وهو ما عرف بـ«اللحن» فعالجوه عملياً ونظرياً، بأن وضعوا قواعد للنحو، وأساليب للكتابة والتعلم، وعقدوا الندوات للدرس، في مختلف البلدان التي فتحوها، وأصبحت اللغة العربية تستعمل بغزارة في الحياة العامة، وتحولت إلى لغة العلم والأدب، الأمر الذي توجّب معه أن تكون هناك «مؤسسات» تعني بعمل الكتاب وإصداره، فكان للورّاقين الدور الأبرز والأوضح في مثل هذه المؤسسات العلمية.

لقد خلقت هذه التطورات حالة من الرقيّ الحضاري، وانعكست هذه التطورات، على حالة الصراع المذهبي للأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، حيث نشطت جميعها في الاتجاهات الفكرية، وتوزع هذا النشاط كل في حقله الأرحب، ولقد استطاع العلماء المسلمون من توكيد دورهم المعرفي، فألّفوا شروحات للقرآن، ونشطوا في مسألة الفقه الإسلامي، وتعددت مذاهبهم فيه، وظهرت الفرق الإسلامية إلى السطح، وزادت عملية الصراع الفكري ثراءً، فبرزت إلى الوجود الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والقدرية والأشعرية والمذاهب الباطنية كالأسماعيلية والقرمطية وغيرها، وصارت الديار الإسلامية ساحة عريضة لهذه التيارات الفكرية، تتصارع في حومتها، بين مؤيد ومعارض، وحتى الفكر الإسلامي السنّي؛ السائد والمسيطر تاريخياً، تطور هو الآخر، حيث وجد فيه مذاهب أربعة، شكلت قوامه الأساسي حتى الآن، وهي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي.

لقد كان لهذه التيارات الفكرية المتعددة أعلامها ورجالها، ومؤيدوها ومريدوها، وورّاقوها حتى[1]، لذلك نشط كل تيار في إيجاد وتثبيت فكره و«أيديولوجيته» الأمر الذي

(1) سوف نعرّج على ذلك في الباب الثامن الموسم بـ«أعلام الورّاقين» في دراسة مستقلة.

أظهر معه ظاهرة جديدة اسمها (الأدب الحزبي) وفق معناها المعاصر، وهذا يعني أن سوق الورّاقين، إزدادت نشاطاً وحركة بمثل هذه الظواهر الفكرية، السياسية، وهو ما كان فعلاً.

وثمة مسألة أخرى ثقافية - حضارية، لا تقلّ شأناً عن الظواهر السالفة الذكر، عنيت بها «الترجمة» ذلك الحقل المعرفي، الذي نشّط العقل العربي برمّته، حيث أثرى المكتبة العربية بمختلف العلوم والفلسفات اليونانية والسريانية والهندوسية والفارسية وغيرها. وقد كان لبغداد المأمونِ الدورَ الريادي والرئيسي في هذه العملية العالمية، التي سحبت ظلال وجودها على العصور اللاحقة لها، وحتى عصرنا الحالي، نظراً لما تتمع به من عملية إبداعية ثقافية - إنسانية[1]، ولقد كان إنعكاس هذه الظاهرة على الورّاقين، بحدود غير طبيعية، حيث زادت من نشاطهم الكتابي بشكل خاص، وتفرّغ البعض منهم للنسخ في أروقة «دار الحكمة» المأمونية، مثل علاّن الشعوبي الورّاق.

أثّرت ظاهرة - الترجمة - في حالة العصر العباسي بأكمله، وصارت تجتذب كبار العلماء، الناطقين بأكثر من لسان، وليس هذا فحسب، بل جلبت إنتباه كبار الأدباء والمفكرين في ذلك العصر، فهذا «الجاحظ» يتناول الظاهرة، من موقع معرفي، ليحدد أهميتها وخطورتها بشخص المترجم فيقول[2]: «ولا بدّ للترجمان أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه، في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقولة إليها، حتى يكون فيها سواء وغاية، ويضيف: «ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليها»، من هذه الزاوية يشعر الجاحظ بالخطورة المزدوجة على اللغتين، ومن هذا الباب تحديداً، يوجّه الجاحظ السبب في هذا الضيم، أن وقع الالتباس في ذهن المترجم، يقول[3]: «لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعتين فيه، كتمكنه إذا إنفرد بالواحدة، وإنما له قوّة واحدة، فإن تكلّم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك ان تكلّم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشدّ على المترجم، وأجدر أن يخطىء فيه، ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء».

هذا النصّ الخطر يوضّح مدى الأهمية لعمل الترجمان، وهو حكم معرفي صادر من

---

(1) لدينا دراسة قصيرة - قيد الطبع - تحت عنوان «مترجمو بغداد في عصر المأمون»، سوف ننشرها حال الفراغ من عملنا هذا.

(2) الحيوان 1/ 76 - 77.

(3) المصدر السابق/نفس المكان.

شيخ الأدب، دون منازع، في العصر العباسي، والجاحظ هنا أراد تثبيت الموقف المعرفي لهذه الظاهرة العلمية الهامة التي تداخلت بالثقافة العربية - الإسلامية، وهو يدلي بهذا الحكم كي يوجّه الجميع على الكيفية التي يتم التعاطي بها مع الترجمة، ونظراً لكونه نزيل سوق الورّاقين الدائم، فإنهم أجدى من غيرهم بالأخذ بها، لا سيّما وأن قسماً منهم اشتغل بالترجمة في سياق مهنة الوراقة.

إنَّ جملة هذه الظواهر الحضارية - الثقافية، كان لها الدور الهام في دفع عملية الوراقة، إلى النمو والاتساع، عرضاً وطولاً، لتتعدى حاضنها الجغرافي - بغداد - وتنتقل إلى عواصم وحواضر إسلامية أخرى كدمشق والقاهرة وقرطبة، وغيرها من الأمصار، حتى أصبحت مهنة الوراقة ذات أبعاد إسلامية معروفة القسمات.

وإلى جانب هذا التطور الثقافي، كان العامل الاقتصادي، هو الأبلغ في التأثير على نمو هذه الظاهرة - الوراقة - وغيرها، من أمور الحياة الاجتماعية الأخرى، فقد شهد العصر العباسي، تحولاً كبيراً في النمو الاقتصادي، إذ تحول المجتمع العباسي من كونه زراعياً يسوده الأشراف والملاّكون، إلى مجتمع تجاري، يسيطر على الطرق التجارية، وله فعاليات نشطة، شملت العالم القديم بين الشرق الأقصى وحوض البحر المتوسط، وفي ظلّ هذا الازدهار، انتشرت المؤسسات الصيرفيّة «الجهبذة والصيرفة» كنتيجة منطقية لهذا النشاط التجاري، من جهة، والتطورات الاقتصادية العالمية من جهة أخرى، فإلى جانب هذا التطور التجاري، شهدت الزراعة توسّعاً ملحوظاً، نتيجة التركيز على استغلال الأرض، من قبل الأمراء والأشراف والتجار، وبعض الملاكين الذين بدأوا يعيشون على الأرض، ثم صار السكن في الريف ظاهرة مألوفة في (ق 3هـ)[1].

وإلى جانب هذا التطوّر الملحوظ في قطاعي التجارة والزراعة، نشطت الصناعة هي الأخرى، فقد توسّعت لتسدّ الحاجات المتزايدة في المدن، واستجابة لطلبات التجارة واتجاه النشاط الاقتصادي، ولوحظ التبدل في هيكل الاقتصاد العام، حيث تحوّل من اقتصاد كفاف إلى اقتصاد السوق والرخاء، ورافق هذا التطور توسّع في الحياة المدنية، إذ شهدت بغداد وغيرها من المدن الإسلامية، توسّعاً واضحاً في السكّان والمساحة، كما نشطت مجالات الكسب الكبيرة، وساعد على توسّعها أيضاً الهجرة الواسعة من الريف، بسبب الاضطرابات ومشاكل الجباية، وقد برز في التطوردورالعامة، فقد عرفت بغداد منذ

---

(1) د. عبد العزيز الدوري/ التكوين التاريخي للأمة العربية/ ص97، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1984.

نهاية (ق 2هـ) تنظيمات خاصة للحرف (الأصناف (النقابات) حيث ظهرت بينهم روابط شبه عسكرية مثل «العيارين والشطار»[1]، والفتيان[2] وغيرهم.

لقد رافق هذا التطور تحول في العلاقات الاجتماعية، حيث راح التأكيد على النسَب يتراجع أمام الامكانيات المادية، وبرز التفاوت الطبقي واضحاً في المجتمع، الأمر الذي أدّى إلى قيام حركات اجتماعية - سياسية، تدعو إلى العدالة الاجتماعية، وإلى تحسين الأوضاع المعاشية، مستندة في دعوتها إلى المفاهيم الإسلامية[3].

إنَّ هذه الأوضاع الاقتصادية الناهضة، وما رافقها من تفاوت اجتماعي، لقيت صداها واضحاً في البنية التحتية للقاع الاجتماعي، وقد كان العلماء والأدباء، هم أولّ المعنيين بهذا التناقض، فقد عكسوه بشكل أو بآخر في مؤلفاتهم الأدبية والفكرية، وكان/أبو حيان التوحيدي/ النموذج الأمثل في ذلك، لا سيّما في مؤلفاته/ المقابسات ومثالب الوزيرين/ فقد كان فيها شاهد عيان ومحرّضاً وداعية لتنشيط الأفكار وبلورتها وسبكها وإعادة صياغتها بشكل صحيح، فيما كانت الحركات الفكرية هي الأخرى واعية لدورها في كشف هذا التناقض وفضحه، ومن ثم إيجاد معارضة فكرية وسياسية، ضد نهج السلطة العباسية، وتمثل هذا الدور الخطر عند (اخوان الصفا) لا سيّما في «رسائلهم» فقد حاولوا في هذه (الرسائل) طرح شعاراتهم السياسية والفكرية، وجعلها برنامج عمل للعامة، وقد قاموا بدور كبير في تبسيط المفاهيم الفلسفية، وتقريبها من أذهان الناس، بحيث جعلوا من الفلسفة ثقافة شعبية.

ولقد كان للورّاقين الدور الهام في نشر هذه «الرسائل» وغيرها، تعميماً للمعرفة، وتعميقاً للصراع، ويجب أن لا ننسى أن بعض الورّاقين، كان ينتمي إلى قوى المعارضة[4].

وفي ظلّ هذه الأوضاع، كانت الحركة الثقافية تتناغم بإطراد وأكثر إيجابية، فقد نشطت حركة التأليف والترجمة، وعظمت صناعة الورق، وتبع ذلك ظهور حرفة الورّاقين، ووجدت أمكنة لهم تتخذ مباءة للعلماء والأدباء، يتزودون منها بالعلم، وكثرت المكتبات وزخرت بالكتب[5].

---

(1) لنا دراسة طويلة بصدد هؤلاء (تحت الطبع) بعنوان (لصوص بغداد في القرن الرابع الهجري).

(2) د. عبد العزيز الدوري/ المصدر السابق ص 97 - 98.

(3) موريس لومبار/ الإسلام في فجر عظمته/ ص109 - ترجمة حسين العودات، مطبعة وزارة الثقافة السورية، دمشق 1979م.

(4) وسوف نبيّن ذلك في/ أعلام الورّاقين/ .

(5) أحمد أمين - ضحى الإسلام 2/ 61 طبعة القاهرة - ط7 - سنة 1343هـ/ 1935م.

وعندما أهلّ القرن الثاني للهجرة، لا سيّما بعد نصفه الأول - أي بعد بناء بغداد سنة 145هـ. كان الاتجاه العلمي للثقافة والفكر، يتجه صوب تمييز العلوم بعضها عن بعض، فقد أشار (الذهبي) إلى أيام حكم أبي جعفر المنصور قائلاً[1]: «في سنة 143هـ شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنّف إبن جريج بمكة[2] (حيث كان أول من دوّن العلم فيها) ومالك - الموطأ - بالمدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن أبي سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثورى بالكوفة، وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف أبو حنيفة الفقه والرأي، ثم بعد وقت يسير صنّف هشيم، واللّيث، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك وأبو يوسف، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة والتاريخ وأيام الناس».

ويضيف الذهبي: «وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتّبة»[3].

هذا النصّ يفتح الباب واسعاً أمامنا، لنرى الأهمية القصوى لوجود الورّاقين، لأن مثل هذه العلوم، وهي تمرّ بفترة جديدة ومرحلة متقدمة - هي مرحلة التدوين - يتطلب نقلها من بلد إلى آخر، ومن مكان لسواه، لذلك كانت مهنة الوراقة، هي المطلب الحضاري، الذي يتوجب وجوده للتماشي وهذه الحالة، وقد كان سوق الورّاقين، بعدما أنشئت بغداد واحداً من مشاهير الأسواق، والورّاقون نيه سادة الموقف الثقافي، ولهذا كان أبو المطهر الأزدي، يفاخر أهل أصبهان في مثل هؤلاء وغيرهم من أهل الصناعة في بغداد

فيقول[4]: «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل ما أرى ببغداد من الورّاقين والخطاطين والخياطين والخراطين والزرّادين والمزوقين والطباخين والمطربين ومن لا يحصو عدداً من الحذّاق».

---

(1) السيوطي - تاريخ الخلفاء/ص261، طبعة مصر الأولى: سنة 1371هـ/ 1952م - ترجمة أبو جعفر المنصور.

(2) هكذا وردت عند السيوطي - المصدر السابق/ولم يعلق عليها أحمد أمين - في ضحى الإسلام 2/ 11 وما بين الأقواس () أضفناه من سير أعلام النبلاء 6/ 326 - الترجمة رقم 138 - ابن جريج.

(3) السيوطي - تاريخ الخلفاء/ص261.

(4) حكاية أبي القاسم البغدادي/ص24 - طبعة آدم ميتز - هيدلبرج، سنة 1902م.

الفصل الثاني

الورّاقون كصنف من الأصناف الإسلامية

الصنف: هو الطائفة من كل شيء، وجمعه أصناف وصنوف،، والتصنيف: تمييز الأشياء بعضها عن بعض، والصنّف، الصيغة[1]، وقد استخدمت هذه المفردة للدلالة على الجماعات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي، أشار اليعقوبي إلى هذا المعنى في معرض حديثه عن بناء بغداد، فقال[2]: «إنَّ المنصور عندما أراد بناء بغداد جمع الصنّاع من مختلف البلاد فبلغ عددهم مائة ألف من أصناف المهن والصناعات»، وأشار في موضع آخر إلى أسواق الكرخ فقال[3]: «وكل سوق مفردة، وكل أهل صنف منفردون بتجارتهم»، وهو نفس الأمر الذي أشار إليه الطبري عند الحديث عن نقل الأسواق خارج المدينة المدورة، حيث أشار إلى أن المنصور أوعز إلى إبراهيم بن حبيش الكوفي وحوّاس بن المسيّب اليماني، أن يبنيا الأسواق ناحية الكرخ ويجعلاها صنوفاً وبيوتاً لكل صنف[4]، ولنفس الدلالة والمعنى، استخدم الجاحظ هذا التعبير في سياق حديثه عن أكل الحيوان وذبحه وصيده، عند عامة الناس مثل: صيادي السمك وصيادي الوحش، وأصناف الجزارين والقصابين والشوائين والطهائين وغيرهم[5].

والصنف، بمحمولاته المهنية والطبقية، يعدّ شكلاً من أشكال العمل النقابي، ذي الملامح والقسمات الشعبية، يقوم بتنظيم الحرفة وحفظ أسرارها[6]، وفي المنظور

---

(1) اللسان - مادة صنف.

(2) البلدان/ ص258.

(3) المصدر السابق/ ص242.

(4) تاريخ الطبري 7/ 652 - 653 حوادث سنة 146هـ.

(5) الحيوان 4/ 429 - 430. وأنظر كذلك التفصيلات التي قدمتها الباحثة صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، في بحثها الهام، الأصناف في العصر العباسي/ ص65 - 66، منشورات وزارة الإعلام العراقية 1396هـ/ 1976م.

(6) راجع الأصناف/ ص67 - 69 حيث هناك تفصيلات أوسع.

الإسلامي، كان مفهوم النقابة يخصص على الأشراف من ذوي الحسب والنسب، فقد أشار الماوردي إلى أن هذه النقابة (نقابة الأشراف) موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى[1]، ومن هذا المعنى الإسلامي يستشف المحمول الطبقي والأيديولوجي في هذا الاصطلاح، إلا أنه فيما بعد، أصبح الاصطلاح، ذا بعد طبقي وزمني، وصار له وقع وصيت، وراحت الحركات الإسلامية، من قبل، تنسج حوله خيوطها، وقد كان للحركة الإسماعيلية - القرمطية قصب السبق في ذلك[2]، حيث أن هذه الحركات كانت قد أثّرت في التنظيمات النقابية الموجودة، فبعد أن كانت تنظيماً علنياً يقتصر على رؤساء الحرف وحدهم لتكييف علاقتهم بالسلطة والدفاع عن مصالحهم إزائها، تحولت بفعل الحركة القرمطية إلى جهاز سرّي يضمّ رؤساء الحرف والعمّال معاً، لإسقاط السلطة من أساسها، وإقامة مجتمع جديد، كما يقول باحث معاصر[3].

لقد استطاعت هذه الحركات الفكرية والسياسية، أن تعطي للمهنة/ الحرفة والصنف/ بعداً فلسفياً، يتماشى وحركة التطور التاريخية الناهضة في (ق 3هـ) وما تلاه، الأمر الذي أعطاه نسبة الشرف بالعمل لا بالحسب (الإنتماء إلى القبيلة) وهو أمر يوضّح مدى إنتشار لقب المهنة، كالحداد، والنجار، والنحاس، والورّاق، وغيرها، فإخوان الصفا مثلاً، قسموا الصُنّاع نوعين، الصناعة الروحانية/ تلك التي تعتمد على المهن الفكرية، والصناعة الجسمانية، والتي تعتمد في قوامها على الحرف اليدوية[4]، كما أنهم رتّبوا الصناعات إلى مراتب، حيث أعطوا الحراثة والحياكة والبناء الأولية، وأما بقية الصنائع فهي خادمة لها أو متممة[5]. وهم بهذا التصوّر فاقوا بقية الحركات والطوائف في النظر إلى المهنة والصنعة، رغم أن النظرة الإسلامية كانت واضحة وإيجابية نحو العمل ومقوماته[6]. ولكن على الصعيد الفردي والشخصي، إختلفت الحركات والأشخاص في هذا الموضوع، لا سيما عند الأدباء والمفكرين، فقدامة بن جعفر، يضع مهرة الصنّاع في طبقة السوقة أسوة

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الباب الثامن/ص96 - 97، ط1، الباب الحلبي وأولاده، مصر، 1380هـ/ 1960م.

(2) راجع - الأصناف/ ص50 - 52.

(3) د. محمود اسماعيل: الحركات السرية في الإسلام/ص118 - 120، طبعة بيروت 1973.

(4) رسائل إخوان الصفا 1/ 213 - 215 - الرسالة الثامنة.

(5) الرسائل 1/ 216 - 217.

(6) أنظر سورة الملك (آية 15) وسورة الجمعة (آية 10)، وسورة يس (آية 30) وغيرها، وراجع كذلك صباح الشيخلي - الأصناف/ ص40 - 43.

باللصوص[1]، وأدخلهم أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي في أسفل الدرك الاجتماعي[2]، فيما صنّفهم إبن عبد ربّه على النحو التالي، إستناداً إلى قول خالد بن صفوان: «الناس ثلاث طبقات: طبقة علماء وطبقة خطباء وطبقة أدباء، ورجرجة بين ذلك، يعلّون الأسعار ويضيّقون الأسواق ويكدّرون الماء[3]، بينما تجلّت نظرة المأمون في هذه المسألة، بأن جعل الكتّاب ملوكاً على الناس[4] تمييزاً لهم عن بقية الأصناف والحرف، وفي (ق 4هـ)، استوضح أبو حيان التوحيدي آراء بعض معاصريه من الأدباء والمفكرين بصدد المهنة، فقال أبو سليمان المنطقي السجستاني: «هي حركة يتعاطاها الإنسان بلا حفز ولا استكراه»، وقال علي بن عيسى: «المهنة، صناعة ولكنّها إلى الذل أقرب»، وفي الصنعة أدخل، والصناعة مهنة ولكنها ترتفع عن توابع المهن، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضاً، ولكن ذلّ ليس من جهة حقيقة الصناعة، ولكن من جهة العرض الذي يهن الصناعة والصناعة، والمرتبة والمرتبة[5]، ولكن التطور الاقتصادي، أخذ يفرض نفسه على الواقع الاجتماعي، موجداً علاقات جديدة في نمط حياة الناس، وقد كان للاختلاط القومي أثره الإيجابي في ذلك، كما أن العرب بمرور الزمن أيقنوا أن الموالي بدأوا يسيطرون على النشاط الاقتصادي في المجتمع العربي الإسلامي، فدفعهم هذا إلى مزاولة الحرف والمهن ليحدّوا من هذه السيطرة[6].

لقد فهم الناس طبيعة العمل، وتآلفوا معه، وانصهروا فيه، وعرفوا به، وبرز منهم أرباباً وشيوخ وعرفاء ونُقباء، وهو أمر يوضح مدى ارتباط الحياة بالعمل أولاً، وتواشج النفس مع المهنة التي تهوى ثانياً، مع ارتباط الجميع بأسلوب إنتاج معيّن، في شرطه التاريخي ثالثاً.

لذلك ترى أن المهنة تؤثر في السلوك الشخصي للفرد، وفي الجماعات المنضوية في إطار مهنة واحدة، وهذا التأثير يبرز أحياناً باللاوعي وأحياناً أخرى بوعي مركّز، حتى أننا نشاهد مفردات مهنية تقفز في لغة خطاب الصانع أو المهني، وهو أمر جلب إنتباه الجاحظ، فقد أشار إلى المعاني الواجب استخدامها في كل لفظة بمحلها، وفي سياقها، أو

(1) الأصناف/ ص43.

(2) الإشارة إلى محاسن التجارة/ ص43، منشورات مطبعة المؤيد: دمشق 1318هـ.

(3) العقد الفريد 2/ 293.

(4) البيهقي/ المحاسن والمساوىء 1/ 164 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة النهضة القاهرة 1961.

(5) أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة 3/ 132، تحقيق أحمد الزين وأحمد أمين، القاهرة 1939م.

(6) صباح الشيخلي/ الأصناف ص44.

ضمن منظور (لكل مقام مقال) فقال[1]: «وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام، مع خواص أهل الكلام، فإن ذلك أفهم لهم عني، وأخف لمؤنتهم عليّ»، وأضاف في هذا الصدد: ولكل صناعة ألفاظ، قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة»[2] وهذا إدراك معرفي نفسي من الجاحظ. يطلقه في منهجية عالية تدرك مسارها، وهو موقف واع لرجل فكر وأدب، أما أصحاب الصناعات والحرف، فإن سجيتهم تمازج بين كلامهم، والمهنة التي يمتهِنونها، فقد نقلت المصادر جملة من المواقف لبعض الحرفيين، توضّح إنعكاس مهنتهم في كلامهم، نقل الثعالبي عن جحظة البرمكي قال: أضافنا فلان القطّان، فقدّم إلينا جدياً سميناً، فلما كشف عن جنبه قال: «كأنما أخرج من دكان نداف[3]».

وسأل المعتصم جعفر الخياط عن حرب شهدها أيام الخرّمية، فقال: (لقيناهم في مقدار الخلقان، فصيرونا في مثل قوارة، فرحنا عليهم من وجهين، كأنّا مقراض، واصطفت الصفوف كأنها دروز، وتشابكت الرماح، كأنها خيوط، فلو طرحت إبرة لم تقع إلا على زرّ رجل).

وقال خيّاط لابنه: يا بني لا تكن كالإبرة، تكسو الناس وأنت عريان، وقال محمود البزاز للصاحب بن عيّاد: لا زال سيدنا في سلامة مبطنة بالنعمة، مطرزة بالسعادة، مظاهرة بالغبطة، فقال: يا أبا أحمد قد أخذتها من صناعتك[4]، وسئل ورّاق ما السرور؟ قال: جلود وأوراق وحبر براق وقلم مشاق[5]، ومثل هذه العبارات استوقفت الجاحظ فأوردها في كتاباته الأدبية، وقد ذكر الكثير منها في «رسالة صناعات القوّاد» ومنها هذه الطائفة، قال الجاحظ[6]: لقيت حزاماً[7] حيث قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك، فقال: لقيناهم في مقدار صحن الإسطبل، فما كان بقدر ما يحس الرجل دابته، حتى تركناهم في أضيق من ممرغة، وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سرجين[8]: فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة.

---

(1) الحيوان 3/ 368.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الثعالبي - خاص الخاص/ ص82 - الباب الخامس - طبعة مكتبة الحياة، بيروت 1966م.

(4) المصدر السابق/ ص83.

(5) المصدر السابق/ ص69.

(6) رسالة صناعة القواد/ رسائل الجاحظ 1/ 381 - 382.

(7) حزام - صاحب خيل الخليفة العباسي (المتوكل).

(8) السرجين: براز الحيوانات قبل أن يجف، قال الجواليقي: السرقين، معرّب أصله «سرجين»، قال =

وسئل الطبيب بختيشوع عن مثل ذلك/ أي عن حرب الروم/ فقال[1]: لقيناهم في مقدار صحن البيمارستان، فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين، حتى تركناهم في أضيق محقنة، فقتلناهم، فلو طرحت مبضعاً ما سقط إلا على أكحل رجل. وقال هذا الطبيب شعراً، توضّح فيه مقدار تمكّن المهنة في عقله ووعيه فقال[2]:

شرب الوصل دستج الهجر فاستطـ　　لق بطن الوصال بالاسهال[3]

ورماني جنّي بقولنج بَيـنٍ　　مُذهلٍ من ملامة العذّال

ففؤاد الحبيب ينحله السـ　　لّ وقلبي معذبٌ بالملال

وفؤادي مبرسم ذو سقام　　يابن ماسوه ضلّ عني احتيالي[4]

ولو ببقراط كان ما بي وجاليـ　　نوس باتا منه بأكسف بال

وعن مثل ذلك سئل إسحاق بن إبراهيم، وكان زرّاعاً/ أي فلاحاً/ فقال[5]: لقيناهم في مقدار جريبين من الأرض، فما كان بقدر ما يسقي الرجل مشاره، حتى قتلناهم فتركناهم في أضيق من باب وكأنهم أنابير سنبل[6]، فلو طرح فدّن ما سقط إلا على ظهر رجل.

وأورد الجاحظ أبياتاً في الغزل لهذا الفلاح قال فيها[7]:

زرعت هواء في كراب من الصّفا　　وأسقيته ماء الدوام على العهد

وسرجنته بالوصل لم اك جاهداً　　ليحرزه السرجين من آفة الصدّ[8]

فلما تعالى النبتُ واخضّر يانعا　　جرى يرقان البين في سنبل الودّ

وسئل عبد الله بن عبد الصمد، وكان مؤدب صبيان، عن مثل ذلك فقال[9]: لقيناهم

= الأصمعي: لا أدري كيف أنوله، أو تعفّف عن النطق بمعناه. راجع المعرّب للجواليقي ص186 مادة السرقين - باب السين.

(1) الجاحظ/ رسائل الجاحظ 1/ 383.

(2) نفس المصدر السابق.

(3) الدستج، ويقال الدستيج = آنية تحول باليد - رسائل الجاحظ 1/ 383 - هامش رقم 4.

(4) يريد «ابن ماسويه» الطبيب المشهور.

(5) رسائل الجاحظ 1/ 385.

(6) الأنابير = جمع أنبار، وهي الأكداس.

(7) رسائل الجاحظ 1/ 385 - 386.

(8) جاءت السرجين هنا بمعنى - السماد الذي تدمل به الأرض.

(9) رسائل الجاحظ 1/ 387.

في مقدار صحن الكتّاب، فما كان بمقدار ما يقرأ الصبي أمامه[1] حتى ألجأناهم إلى أضيق من رقم فقتلناهم، فلو سقطت دواة ما وقعت إلا في حجر صبي.

قال الجاحظ، وسألت علي بن الجهم بن يزيد، وكان صاحب حمّام، عن مثل ذلك فقال[2]: ولقيناهم في مثل بيت الأنبار، فما كان إلا بقدر ما يغل الرجل رأسه: حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون، فلو طرحت ليفة ما وقعت إلا على رأس رجل. وتغزل هذا الرجل فقال[3]:

يانورة الهجر حلقت الصّفا	لما بدت لي ليفة الصّدّ
يا مئزر الأسقام حتى متى	تنقع في حوض من الجهد
أوقد أتون الوصل لي مرّة	منك بزنبيل من الودّ
فالبين مذ أوقد حمّامه	قد هاج قلبي مسلخ الوجد
أفسد خطميّ الصّفا والهوى	تخالة الناقض للعهدِ

ومثل هذه الأمور كثيرة، وقد أورد الجاحظ الكثير منها في نهاية رسالة «صناعات القوّاد».

تنظيم الصنف:

لاحظنا في الصفحات السابقة، كيف إنعكست المهنة في وعي الصنّاع، ممّا شكّل حالة متميزة عند هؤلاء، بحيث أن مفردات كل صنف تدلّ عليه، وهو الأمر الذي جعل نظام الحسبة الإسلامي[4] أن يراعي شروط وخصائص تلك الحرفة عن سواها، فوضع شروطاً معيّنة وواجبات على كل صنف، على أن يمثّل الصنف واحد من أعضائه، أطلقوا عليه اسم «العريف» يكون شخصاً عارفاً، ثقة، من أهل الصناعة، بصيراً وعارفاً بها[5].

---

(1) إمام الصبي، ما يتعلمه كل يوم، المصدر السابق، هامش رقم3.

(2) رسائل الجاحظ 1/ 388.

(3) نفس المصدر السابق.

(4) الحِسْبة = نظام إسلامي، شأنه شأن الأشراف على المرافق العامة، وتنظيم عقاب المذنبين، وهي وظيفة دينية، شبه قضائية، تقوم على فكرة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، راجع بهذا الصدد/ كتاب «معالم القربة في طلب الحسبة» لابن الاخوة القرشي/ ص23 تحقيق د. محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطبعي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م.

(5) ابن بسّام المحتسب/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ ص39 - الباب الثامن - تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد 1968م/ وابن الأخوة، معالم القربة/ ص337 الباب 64.

وكانت هذه التعاليم والوظائف التي فرضت على الأصناف من قبل المحتسب، استمدت شروطها وأعرافها من بين أهل المهن أنفسهم، أي وفق «العرُف السائد» بين أهل الأصناف لجودة الصنعة واتقانها، والطرق الواجب اتباعها في عمل تلك الصنعة، وتحليل وتحريم ما يجب أن يقوم به أهل المهنة[1]، وشكّل فيما بعد ما يعرف «بالنظام الداخلي» لكل صنف من الأصناف، وفي ضوء تلك الأعراف السائدة عند أرباب الصنائع والمهن، نظّم المحتسب بالتعاون مع ممثلي الأصناف - العرفاء والنقباء والشيوخ - واجبات كل صنف، ينظّم حياتهم العملية والمهنية فباتت واجباتهم على النحو التالي: وفق ما أوردته الباحثة صباح إبراهيم الشيخلي[2]:

1 - الاهتمام بمعرفة أسرار الصنعة.

2 - إتقان الصنعة وجودة المصنوعات.

3 - الاهتمام بمصالح أعضاء الصنف.

4 - العناية بالمواد الأولية.

5 - العناية بالنظافة.

وقد كان المحتسب يحاسب كل مقصّر أخلّ بهذه الشروط ولم يلتزمها[3].

مراتب كل صنف:

إنَّ تطوّر الأصناف من الناحية المهنية والطبقية، جعلها توجد نوعاً من «العلاقات النقابية» فيما بين كل صنف، يتحدد بموجبه واجبات والتزامات كل عضو في ذلك الصنف، ونظراً لعراقة كل صنف في مهنة معيّنة، فقد وجد هناك شيوخ للصنعة، بالمعنى الأكاديمي، حيث أوجد هؤلاء المقوّمات الأساسية للمهنة التي أفنوا حياتهم فيها، فأوجدوا سُلّماً مهنيّاً، يمرّ به كل عضو، بعد أن يجتاز عدّة تجارب، يكتسب من خلالها الخبرة، والمهارة، ومعرفة أسرار المهنة، وطرق السمّو بها وتحسينها وتطويرها، ومعالجة كل خلل يحدث من جرّاء العمل، وأصبح هذا التقليد «عرُفاً» مكتسباً ومعمولاً به، وعلى ضوء هذا العرف، جرت الأمور، وأقرّت الالتزامات، وأصبحت المراتب، تعرف موقعها في ذلك

---

(1) صباح الشيخلي/ الأصناف ص101.

(2) الأصناف/ ص101 - 106.

(3) راجع ابن الأخوة القرشي/ ص92 و130 وغيرها، حيث فصّل عليهم الأحكام في كل باب من أبواب الحسبة.

السلّم المهني، وهو ما يعرف اليوم بـ« الدرجة المهنية» والصفة النقابية. وبغية الإلمام بمراتب الصنف، سوف نتطرق إلى الدرجة الأولى من ذلك السلّم، كي نكون محيطين بكل تطور الصنف، ضمن مراحله.

1 - المبتدىء:

هو ذلك العامل الذي يجهل كل شيء في أي صنف، في بادىء الأمر، يقول عنه صاحب «الذخاير والتحف»[1] هي باب دخول الشخص إلى صناعة ما، فمن المألوف والمعروف، أن هذه التربة، تبدأ عندما يلتحق/ الصبي، أو الغلام، أو التلميذ/ بأحد حوانيت ذوي الحرف، يتعلّم لفترة من الزمن، شيئاً من أسرار المهنة، لينتقل بعدها إلى رتبة الصانع[2].

2 - الصانع:

هي الدرجة الثانية، في السلّم المهني عند الأصناف، حيث ينتقل بموجبها المتعلّم من كونه «مبتدى» إلى صانع، شريطة أن يلتزمه أستاذ مهنة، يتدرب على يده من أجل إتقان الحرفة وتعلّمها[3]، وفي هذه المرحلة يطلق عليه اسم «الصانع أو التلميذ أو الغلام» حيث العرف يشترط أن يكون الصانع تحت سنّ البلوغ[4]، وتتحدد مهام الصانع في هذه المرتبة بمساعدة أستاذه في عمله، وقد يحصل على أجور مقابل ذلك، وربما أطعمه أستاذه وكساه[5].

---

(1) مؤلف مجهول/ الذخاير والتحف في بير الصنايع والحرف/ ورقة 5ب/ وهذا الكتاب مخطوط اعتمدت عليه الباحثة صباح الشيخلي في كتابها - الأصناف، بعد أن حصلت على نسخة مصورة من المخطوطة من مكتبة غوتا، تحت رقم 903 - عربيات - وأوردت الكثير من نصوصه في كتابها أعلاه، وسوف نعتمد عليه بدورنا، وفق ما ورد عندها، مع الإشارة إلى رقم صفحة المخطوط والصفحة التي ورد فيها ذكره عند الباحثة في «الأصناف» وبنفس الوقت نقدم الشكر لهذه الباحثة الجليلة لما قامت به من جهد في هذه المخطوطة، ونتمنى عليها أن تقوم بتحقيق المخطوط ونشرها بشكل منفرد تعميماً للفائدة وخدمة للباحثين.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 5ب/ والأصناف ص114.

(3) أنظر: ابن كثير/ البداية والنهاية/ 10/ 180 - ترجمة القاضي أبو يوسف - حيث كانت أمه ترسله إلى معلمه «القصّار» ليتعلم وكذلك الذخاير والتحف ورقة/ 49 ب/ والأصناف ص112.

(4) ابن بسّام - نهاية الرتبة/ ص62؛ والأصناف ص112.

(5) الأبشيهي/ المستطرف في كل فنّ مستظرف 2/ 226، المطبعة المينيّة، القاهرة 1314هـ؛ والأصناف ص113.

ومسلكيّاً يقتضي العرف، أن يمشي الصانع وراء أستاذه ولا يتجاوزه، إحتراماً له، وأن يقضي حاجاته، وأن يكون خادماً مطيعاً لأوامره[1].

ويلاحظ أنه جرت هناك، حالات من الغش، قام بها الصانع لصالح أستاذه، وتحمّل عنه العقوبة والهوان[2]، لذلك حدّد المحتسب المسؤولية على الأستاذ في مثل هذه الأمور، وعلى هذا كان شريح القاضي يسدي الأحكام[3]. وبعد فترة التدريب، يستطيع الصانع أن يصبح أستاذاً مستقلاً، وله الحق أن يفتح حانوتاً خاصّاً به، بعد أن يمرّ باختبار خاص بالمهنة التي تدرّب عليها، لمعرفة مدى إتقانه[4]، وسوف نعرض ذلك في الحديث عن الأستاذ.

3 - الخلفة:

اصطلاح شائع ومعروف، في لغة أهل العراق، يقابله عند أهل الشام «المعلِّم» وقد ورد ذكره عند الصابي، وهو بصدد حديثه عن الرواتب/الأرزاق/التي أوجدها الوزير ابن الفرات أيام وزارته[5]، وهذه الرتبة، درجة متوسطة بين الأستاذ والصانع، يستطيع الشخص المؤهل لها أن يصبح أستاذاً بعد أن يكون قد عرف الكثير من أسرار المهنة[6].

4 - الأستاذ:

درجة مهنية/في عرف الأصناف/ينتقل اليها الحرفي في السلّم المهني، وهذه الدرجة تؤهله لأن يصدر أحكاماً نقديّة - مهنية، تخصّ الجودة وعدمها على صنعة ما كان هو فيها، قد قطع أشواطاً طويلة لتعلّم أسرارها، وعرف خباياها ومدفوناتها، لذلك رأى اخوان الصفا أن أساس التعلّم هو التتلمذ على يد الأستاذ العالم، فقد قالوا[7]: «واعلم يا أخي بأن كل صانع من البشر لا بدّ له من أستاذ يتعلّم منه صنعته أو علمه، وذلك الأستاذ من

---

(1) مؤلف مجهول/الذخاير والتحف/ورقة 132أ، و134 ب/والأصناف ص113.
(2) السقطي/أبو عبد الله محمد بن أبي محمد/في آداب الحسبة ص26 بعناية كولن، وليفي بروفنسال، باريس 1931م.
(3) وكيع - أخبار القضاة 2/ 300 - 302، بترجمة/يحيى الطائي، منشورات عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
(4) الذخاير والتحف/ورقة 63 ب/الأصناف ص113.
(5) راجع الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء/ص8 - 20، حيث ذكر فيه أرباب الصنايع والمهن في العصر العباسي.
(6) الأصناف ص112.
(7) رسائل إخوان الصفا 1/ 225 - الرسالة الثامنة.

أستاذ له قبل، وهكذا حتى ينتهي إلى واحد ليس علمه من أحد من البشر». وهنا التأكيد على القوة الروحانية، في نهاية الخطاب الصفائي ورغم أنهم ربطوا عملية حب الصنايع بالطالع والأفلاك، إلا أنهم أشاروا بأهمية التعلّم من الأستاذ[1]. فيما رأى ابن خلدون أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس، فتنقلها بالمباشرة أو عب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المسوسة أتمّ فائدة[2].

وهنا التوكيد على عملية الملازمة والإشراف للأستاذ على الصانع، في تعلّم المهنة، ويضيف ابن خلدون على هذه الفكرة قوله[3]: «وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلّم يكون حذق المتعلّم في الصناعة وحصول ملكته».

وبهذ المعنى يمكن القول، أن الأستاذ الجيّد ينجب صانعاً جيّداً، والعرف الصناعي، والمنظور المعرفي أكّدا ذلك في الحياة العملية، وعلى هذا النحو، ظهر الأساتذة في كل المهن والصنايع، ولحق بهم متعلموهم، وجرت العادة أن يكون هناك أكثر من صانع يكون تحت يد الأستاذ، يعلمهم أسرار صنعته، ويمكنهم فيها، ويعاونونه هم بدورهم في صنعته[4].

تخضع مسألة اعداد الصانع من قبل الأستاذ، إلى منظورين، أخلاقي ومهني، في الجانب الأول، يلاحظ الأستاذ على الصانع الطاعة في تلقي الأمر وتنفيذه، وشعوره - الصانع - بأن هذا الأستاذ قد منّ عليه، فهو أبوه الروحي، بشكل أو بآخر، ضمن طقس العلاقة القائم بين الطرفين، وفي الجانب الثاني، فإن الأستاذ إذا وجد في صانعه الفهم والخدمة والكفاية في العمل أعطاه العهد[5] أي أن هذا العهد هو بمثابة «شهادة خبرة» كما تعرف اليوم، وبهذا العهد يكون الصانع مؤهلاً كاملاً لممارسة المهنة، ونظمت العلاقة المادية بين الصانع والأستاذ على أساس الإنتاج، فالأستاذ أعلى مدخولاً من الصانع، ومع ذلك لا يجوز للأستاذ أن يستغل جهود صنّاعه، ولكن العرف المهني، أجاز للأستاذ ضرب الصانع، وأعطاه الحق في ذلك إذا كان الأمر من أجل تعلمه الصنعة[6]، فلربما تحمّل الأستاذ جريرة صانعه إذا أخطأ.

---

(1) رسائل اخوان الصفا 1/ 221 - 222.

(2) مقدّمة ابن خلدون 3/ 923 - بإشراف د. علي عبد الواحد وافي - ط1، 1379هـ/ 1960م.

(3) المصدر السابق، نفس المكان.

(4) الذخاير والتحف/ ورقة 49ب/ ؛ الأصناف ص111. والأبشيهي - المستطرف 2/ 226، وابن بسام ص62.

(5) مؤلف مجهول - الذخاير والتحف/ ورقة 103ب/ الأصناف ص111.

(6) علاء الدين ابن الحسين الطرابلسي/ معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام/ ص198، =

5 - النقيب:

يعرّفه صاحب «الذخاير والتحف» بأنه المرتبة السابقة لرتبة الشيخ[1] أي أن صاحب هذه الدرجة، يكون قد تجاوز مرحلة الأستاذ بالضرورة فقد عرف عن النقابة الأهمية الطبقية والمهنية في كل صنف، حتى عدّ النقيب بأنه أفضل وأقدم من الشيخ في بعض الأحيان وأقدم من الأبيار[2] حيث أن صاحب الذخاير والتحف، يسند هذا الرأي إلى عمقه التاريخي، فهو يذّكر دائماً بأفعال وأقوال الحسن البصري، يقول عنه: أن الحسن البصري كان يتفقد ويسأل عن النقباء، أكثر من تفقده وسؤاله عن المشايخ[3]، ويضيف: أن الحسن البصري، إذا شكوا إليه شيخاً أرسل إلى نقيبه، فإذا رأى النقيب جاهلاً أمر بعزل الشيخ. وكان يقول: (النقيب العارف يخشى حرمته وحرمة الشيخ) ومثّل النقيب بربّان السفينة، إذا صلح صلحت، وإن فسد فسدت[4]، وعلى هذا الأساس تكون المعرفة لزاماً على من يريد أن يتولى رتبة النقابة، وعليه أن يجتهد في طلب العلم، وأن يكون عارفاً عالماً بصناعته ومن ذوي العدالة[5].

والنقابة ثلاث درجات: النقيب الكبير، وهو المقدّم عليهم، وله الفضل، ويكون النقيبان الآخران تحت أمرته[6]، أو ما يعرف اليوم بـ«سكرتارية النقابة» وله مكانة محترمة وكلمة مسموعة بينهم، وتتحدد مهمات النقيب في - قيامه بعملية الشدّ[7] باعتبارها إحدى الرسوم الضرورية للانخراط في سلك المهنة، وقد يقوم النقيب بتنفيذ مهمة يكلفه بها الشيخ، تتعلق بأهل المهنة من تفقد لأمورهم وأحوالهم، كما أن النقيب يقوم بتزويد أهل

= طبعة القاهرة 1300هـ/ وهذا العرف لازال سائداً حتى اليوم عند أهل العراق، وأذكر أني في منتصف الستينات كنت صانع بنّاء/ مناول طابوق للخلفة والأستاذ، وهي من المراتب المتقدمة في الصنعة، فكان الأستاذ يضربني بـ«ربع الطابوقة» إذا أخطأت تقديرها في المناولة، لا سيما في عملية العكّادة «أو بناء السقف بالآجر» والطابوق وكنت أصبرعلى ذلك.

(1) مؤلف مجهول/ ورقة 5ب/ الأصناف ص114.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 126 ب، 127 ب/ والأبيار = هم أهل الحرف الذين مارسوها لأول مرة فنسبت اليهم، راجع الفصل الثالث من كتاب الأصناف، والملحق رقم 1، حيث فيه قائمة بأسماء «الأبيار» لكل صنف/ ص183.

(3) الذخاير والتحف/ ورقة 127 ب وورقة 128 أ/ الأصناف ص114.

(4) المصدر السابق/ ورقة 127 ب وورقة 19أ ب.

(5) صباح الشيخلي/ الأصناف ص114.

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 126 ب/ .

(7) سوف نتحدث عنها بالتفصيل في الصفحات القادمة.

طائفته بالمعلومات الضرورية التي يحتاجونها، حيث يراسلونه من سائر البلاد يسألونه عن أمور مهنتهم، كما أنه يقوم بحثّ أهل مهنته على طاعة الشيخ والقيام بواجبهم نحوه، كما أنه كان له سلطة مالية، حيث أنه كثيراً ما كان يجمع الأموال من الأساتذة «ويسميهم أهل العراق الأسطوات»، ويصرفها في وجوه عدّة، كأن يخصص لشيخ الصنف مقداراً معيّناً من المال، إذا كان ليس له مورد، أو مساعدة مشدود فقير في إقامة وليمة الشدّ له، وكان أتباعه الذين شدّهم يرسلون إليه الهدايا، باستمرار، لا سيّما في المواسم والأعياد، حيث أن من صلب واجباته الدفاع عن مشدوديه، وستر أهل صناعته[1].

وعلاقة النقيب بالشيخ هي أنه مساعد له، حيث العرف المهني كان يؤكد أنه لا بد للشيخ من نقيب، ولكن قد يحدث أحياناً أن ينفرد النقيب بدون شيخ، فقد ذكرت المصادر[2] أن أحد النقباء انفرد في صنّاع بغير شيخ ثلاث عشرة سنة، كما لوحظ أن للنقيب الحق في عزل الشيخ إذا رآه جاهلاً، نقد روى صاحب الذخاير والتحف، أن نقيباً تخاصم مع شيخ وجادله لجهله وبعد أن تمّت المحاورات وظهر جهل الشيخ، اجتمع النقيب، هو وبعض الشيوخ، من الأصناف الأخرى، وقرروا عزله[3]، لذلك كان مركز النقيب، ولا يزال بمكان من الأهمية في التنظيم الحرفي.

6 - الشّيخ:

هو نهاية السلّم المهني، وهو الخبرة المكتنزة بالتجارب والمحن وفك العويص لكل إشكال مهني قد ينجم عند هذا الصنف إو ذاك، والإصطلاح يحمل معنيين، لغوي ومهني، في الأولى يعني: الذي استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب، وقيل: هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره[4] وفي الجانب الثاني: يحمل من الجانب الأول شقّه الأخير، فقد جاء في عرفهم/ أي الأصناف/ الشيخ أو الرئيس، هو أحد أفراد الصنف، تميّز عنهم بفضله وعلمه وكثرة تجاربه، وإتقانه للمهنة[5]، ومن هنا يكون قد أفنى غالبية عمره في الصنف، حتى حاز على هذه المعارف العملية والعلمية من خلال التجارب فاستحق أن يكون شيخاً، لذلك، كان أحد الاشتراطات الرئيسية في الشيخ أن يكون عارفاً في دينه وفي صناعته،

(1) صباح الشيخلي/ الأصناف ص115.
(2) الذخاير والتحف/ ورقة 22 أ.
(3) مؤلف مجهول/ الذخاير والتحف/ ورقة 107 ب؛ الاصناف 116.
(4) اللسان - مادة شيخ.
(5) أنظر شروط ذلك عند ابن بسّام/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص18، والأصناف ص108 أيضاً.

بغضّ النظر عن أنحداره الطبقي، غنياً كان أم فقيراً[1]، ومن خلال هذه الخلال والآهلية يتمّ انتخابه من قبل أعضاء الصنف، والسلطة ملزمة بالاعتراف به وتعيينه، ويقوم المحتسب بهذه العملية باعتباره ممثلاً للسلطة العباسية والمسؤول عن هذه الأصناف[2].

وتنحصر وظائف الشيخ في صنفه، من خلال سلطاته الواسعة، فهو يمثّل الصنف في كافة القضايا العامّة، ويتدخل في تحديد الأسعار مع المحتسب، كما كان يستشار في أمور صنعته، حيث يرجع إليه عند الشك أو الاختلاف في أمر من أمور المهنة[3]، كما كان له الحكم على أبناء صناعته وكلمته مسموعة بينهم، كما كان من مهامه الموافقة على إنتماء الشخص على طائفته إذا رآه أهلاً لذلك[4].

وتتحدد علاقة الصنف بالشيخ من خلال جدارته برتبته، فلربما عُزل، إذا لم يكن أهلاً للمشيخة، وللصنف حق الاعتراض عليه وإبداله وعزله، إن لم يكن جديراً بموقعه هذا، فقد ذكر أنه قدمت شكوى إلى الحسن البصري عن «شيخ» غير جدير برتبته فامتحنه في أمور تخصّ مهنته، فلم ير فيه الأهليّة فعزله»[5]، كما للصنف الحق في عزل الشيخ عن طريق الخليفة نفسه بالطلب إليه بذلك[6].

كما أن الأمور العامة، الخاصة بالصنف، يحقّ مناقشتها مع الشيخ بالشكل الذي يحفظ العلاقة المهنية، وضمن شرطها الديمقراطي، شريطة أن لا يكون هناك تجاوز على سلطة الشيخ، كما يتوجب على الشيخ - في هذه العلاقة - أن يكون متسامحاً مع أهل مهنته[7].

أولياء الأصناف:

ثمّة أمر ديني - روحي يمد جذوره إلى الأصناف الإسلامية راسماً لها ترابطاً روحياً منذ عهد سابق على الإسلام، وبتقديرنا، أن هذا المنحى خضع لتطور فلسفي - تأويلي، لا

---

(1) الذخاير والتحف/ ورقة 101 ب/ الأصناف ص108.

(2) ابن بسام/ نهاية الرتبة/ ص18، والأصناف ص108.

(3) يذكر المسعودي في، مروج الذهب 4/ 428، أنه سرقت عشر بدر من دار صاحب عطاء الجيش، ولم يعرفوا السارق، فجاؤا بـ«التوابين» وهم شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبروا وتابوا، فأرشدوهم إلى الفاعل.

(4) ابن بسام/ ص108؛ باب الأطباء والقصّارين. وراجع القلقشندي، صبح الأعشى 5/ 467 وما بعدها، والذخاير والتحف/ ورقة 90أ/ والأصناف ص109.

(5) الذخاير والتحف/ ورقة 29 أ/ .

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 86 أ/ .

(7) المصدر السابق/ ورقة 170 -؛ والأصناف ص110.

سيما عند الفرق الشيعية في الإسلام، حيث يظهر التأثير الشيعي واضحاً في أصول وفروع الأصناف، فقد أصبح إلزاماً على الصنف أن يعرف كل أعضائه ومن هو وليّ الصنف وبيره، ويتحدد ضمن هذا التقسيم الديني معرفة صدور الأصول المنحدرة منها الأبيار، والتي ترتبط مباشرة من خلال هؤلاء بشخصية الإمام علي ﷺ[1]، وعلى هذا الأساس أصبح لكل صنف وليّ، ويعتبر الولي واضع هذه الصناعة، ومبتكرها، فإذا لم يكن من الممكن ردّ أصل الحرفة إلى واضعها نسبت إلى آدم[2].

عندهم، أنهم يتسلمون أصالة الحرفة من معرفة الولي الذي صدرت عنه، وبذلك يحصل «الإطمئنان لطالبها وتزيد رغبته فيها» كما زعموا «أن معرفة الولي تحلل الكسب»، وقد إهتمت الأصناف جميعها بمعرفة أوائل أهل الحرف، وأثاروا حولهم الأسئلة بغية كسب المعرفة بالأصول، والتفاضل فيما بينهم، حتى وصل بهم الأمر إلى الاقتتال والمنازعة[3]، وقد أعطوا للمهنة الأخروية أفضلية على غيرها، واعتبروا العِلم سيد الحرف وأفضلها، وتأتي حرفة الزراعة والخياطة والدباغة والحلاقة والتجارة، حسب الترتيب، بعد حرفة العلم والجهاد[4].

قسّم أصحاب الأصناف أولياءهم إلى عدة مراتب، فالصناعة تنسب إلى الفروع الصحابية ثم إلى الأصول المصدرية، ثم إلى الجذور الأصلية[5].

الجذور:

وهم في الأصل من الأنبياء والمرسلين منهم:

1 - آدم: هو أول من حرث وزرع، فنسبت إليه مهنة الزراعة.

2 - شعيب: هو أول من صنع المغزل والنول، فنسبت إليه أنواع الغزول وحتى صناعة الحصير.

3 - إدريس: هو أول خيّاط أمسك بالخيط، وهندس وفصّل، وكل من يمسك بالإبرة ينسب إليه.

---

(1) الذخاير والتحف/ ورقة 5 ب و6 ب/ الأصناف ص119.

(2) السكتواري/ علاء الدين علي ددة بن مصطفى/ محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر/ ص194. طبعة1، المطبعة العامرة الشرفية - القاهرة سنة 1311هـ.

(3) السكتواري/ نفس المصدر/ ص294.

(4) المصدر السابق/ ص294.

(5) الذخاير والتحف/ ورقة 50أ /الأصناف ص116.

4 - نوح: هو أول من صنع آلات التجارة، فنسبت هذه الحرفة إليه.

5 - إبراهيم الخليل: أول من بنى، فأصبح كل المهندسين والبنائين، أتباعاً له.

6 - داود: وإليه تنسب صناعة الحديد، فأصبح كل من اشتغل بالحديد والمعادن تابعاً له.

7 - عيسى بن مريم: كان صبّاغاً، فصار كل صباغ، وكل صناعة تحتاج إلى لون من الألوان نسبت إليه.

8 - سليمان: اعتبر العارف بالأدوية والعقاقير، وإليه ينسب أصحاب هذا الصنف «الصيادلة».

9 - النبي محمدﷺ: كان تاجراً ومجاهداً، واعتبرت صناعته جامعة لكل أنواع الصناعات.

وهذا الأمر يضفي صفة تقديسية على أهل المهنة، وهو أمر يؤول إلى المنشأ الديني والروحي عندهم[1].

وثمّة أمر في أصل هذه الأصناف وجذورها يعود إلى الإسلام حصراً في تصنيفها، فقد أشار السكتواري إلى ملاحظة هامّة ودقيقة في هذا الصدد تقول[2]: «ولا يجوز الانتساب بالحرفة إلى خلاف الملّة الإسلامية»، وهذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن مدى الإنعكاس الأيديولوجي الإسلامي، في وحي الناس، كما أنها تؤكد بأن الإسلام - كفكر - هو من المرونة بمكان، بحيث يستجيب إلى مقومات اللحظة الراهنة التي يعيشها. وهذ العبارة تفنّد كل الآراء الإستشراقية، التي تعتبر الإسلام ديناً غيبياً فقط.

قد يلاحظ القارىء أن في هذه العبارة تزمّتاً نحو الإسلام، هذا صحيح، ولكن بقية الجملة تقول ما يلي: (وإن كان يجوز أخذ المعرفة من الكافر/ غير المسلم/ عند الضرورة، ممّا يحتاج إليه بنو آدم، فمتى كانت الحرفة مباحة في أمر المعاش، ولم يعرف من التاريخ على التحقيق واضعها الأول، فالانتساب بها إلى أبي البشر آدم الصفي عليه السلام [3]) وهنا تتوضّح مدى المرونة في أخذ المهنة من غير المسلم، ولكن بتخريج معقول، حيث أسندت إلى بعدها الإنساني/ آدم/ أبو البشر، على اعتبار أنه علّم ألف حرفة[4].

---

(1) صباح الشيخلي/ الأصناف ص117 - 118، والسكتواري/ محاضرة الأوائل ص195.

(2) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ص195.

(3) المصدر السابق/ نفس المكان.

(4) نفس المصدر/ ص197.

أما الأبيار[1]: فهم رعاة أصحاب الحرف، وهم من بين الصحابة والتابعين، وقد صار معروفاً عند الأصناف أن البير، هو أول من ابتدأ الحرفة وليس لهم سابق سواهم ظهر من عهده الشريف[2]. كما أوجدوا بيرا لكل مرتبة من مراتب الصنف، ويستوجب على الأصناف تعليم أبنائها لأبيارهم، بل ظهرت هناك توعدات بالعقاب/ الديني - المهني/ لأولئك الذين لا يعرفون أبيارهم ولا يتتبعون أخبارهم[3]، وليس ذلك فحسب، بل يتوجب على الحرفي في الصنف معرفة الأبيار في صناعتهم والاهتمام بذلك[4]، ووافق دستور الأصناف الإسلامية على نسبة أحد الحرف والصناعات المفيدة إلى أحد الأبيار، وبعكسه، فإن ذلك لا يجوز نسبة حرفة ما، أو بدعة سيئة تؤدي إلى الضرر[5] أي أن عامل الإبداع بشكله الإيجابي مقبول عرفاً وقاعدةً، وهي مسألة تبيّن مدى النظرة الإنسانية الباعثة على الخير.

قسّمت الأصناف أبيارها إلى أصول وفروع، فالأصول، هم الصدور الذين أخذوا عن الإمام علي ﷺ [6]، وعددهم سبعة عشر، أولهم سلمان الفارسي، وآخرهم المعجز القصّار[7]، وعلى ما يبدو أن للفكر الشيعي أثراً واضحاً في هذا التنسيب للأصناف، ولا ريب في ذلك، فإن التشيّع، أصبح ذا طابع شعبي وجماهيري بعد دخول الموالي إليه، ولسلمان الفارسي وقع خاص عندهم.

أما الفروع لهذه الأبيار، فهم الحماة الثانويون للأصناف المختلفة، لأصحاب الحرفة الواحدة، وتمتد جذورهم إلى سلمان الفارسي[8]، وأوّلهم سلمان الكوفي - بير السقائين، وآخرهم محمد بن عبد الله - بير الرسامين[9]، وتشير الباحثة صباح الشيخلي إلى أنه يوجد

---

(1) البير: بالتركية = تعني المقتدي، وتعني الشخص الذي ينسب إليه الصنف، ويكون أول من مارس هذه الحرفة، وتعني بالفارسية: شيخ الشيوخ/راجع الأصناف، ص118، هامش رقم 173.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 12 ب/ الأصناف ص118.

(3) المصدر السابق/ ورقة 28 أ.

(4) المصدر السابق/ ورقة 147 أ/ . الأصناف ص118.

(5) المصدر السابق/ ورقة 5 ب/ .

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 6 ب/ عند الشيعة في العراق اعتقاد وإيمان، أن الإمام علي هو/ بير العلم/ وهذه المسألة معكوسة بشكل واضح بفلكلورهم الغنائي والطقوسي الآخر.

(7) راجع الأصناف/ ص183/ حيث نقلت الباحثة صباح الشيخلي قائمة بأسماء الأبيار الأصول، كما وردت في مخطوط/ الذخاير والتحف/ .

(8) الذخاير والتحف/ ورقة 7 ب/ الأصناف ص119.

(9) بلغ عددهم/ 44 كما ورد في الملحق رقم 2 عند الباحثة صباح الشيخلي/ الأصناف ص185 - 187.

هناك أبيار وفروع[1] لا ينتمون إلى السلسلة السلمانية، لأنهم ظهروا بعد أن شدَّ سلمان الفروع ومنهم - بير الطبالين عبد الرحمن بن حبيب النجار، وعمرو بن العاص بير الحكم، وهو أوّل بيربين متبازرين، وقد إنقطعت سلسلته أيام الرشيد[2]، وظهر في زمن التابعين شيخ الطحانين وشيخ المعصرية وشيخ السيارج وغيرهم، وقد نظّمهم الحسن البصري، وجعل لكل منهم (عقَدة) تعقد في الحزام، لأنهم أبيار وأخيار[3]، وعلى كل الأصناف أن تعرف بداية كل سلسلة ينتمون إليها كابراً عن كابر.

الإنتماء إلى الصنف:

يقتضي عرف الأصناف شروطاً خاصة لكل طالب وإنتماء إليها، وقد أفادتنا الباحثة صباح الشيخلي في كتابها الهام/ الأصناف في العصر العباسي/ بكثير من الأمور الهامة، فلها فضيلة السبق علينا، ولها منّا الشكر على هذا العمل القيّم.

قبل السماح لأي شخص في الإنتماء إلى حرفة ما، وجب عليه أن يختار أستاذاً يعلّمه أسرار المهنة أو الصنعة، ويجتهد ويتعب نفسه في تعلّمها، فإن إتقان الصنعة أمر ضروري قبل ممارستها[4] وبعد الاجتهاد يعرض/ التلميذ أو الصبي أو الصانع/ نفسه على خبراء، ليبينوا مدى إتقانه لها، أو ما نسميه الآن - اختبار فني - فإذا ما قرر هؤلاء الخبراء آهليته لممارسة تلك المهنة يذهب بعدها إلى شيخ ونقيب صنعته، ويقنعهما بأنه قادر على الانخراط في مهنتهم، وبعد الموافقة يطلب الشيخ حضور أستاذه/ ويسمونه (كبيره) للتحدث معه، فإذا ما حضر الأستاذ، جرى الكلام وطالت المناقشة، فيسأله الشيخ عن العلم بالصناعة والعمل، حتى يراه مكتملاً فيقول لأستاذه «إن كنت راضياً عنه أطلب الواجب منه»، وبعد أخذ رضى الأستاذ لا بد من أخذ رضى وموافقة جد الشخص، إذا كان موجوداً، لأن العقَد يتمّ بإسم الجد، ومن ثم يتفق الشخص هو والنقيب على يوم «يحصل فيه الكلام»[5] فإذا ما حلّ ذلك اليوم، فإن على الشخص الراغب في الإنتماء إلى الحرفة المعنية، أن يقيم وليمة يدعوا إليها أبناء تلك الصنعة[6] ويسميها أهل العراق/ عزيمة/ ويتحتم على كل شخص أن يقيم وليمة،

---

(1) الأصناف/ ص119.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 56أ و56 ب.

(3) المصدر السابق/ ورقة 104 أ.

(4) الذخاير والتحف/ ورقة 63 ب/ الأصناف ص120.

(5) الذخاير والتحف/ ورقة 63 ب و64 - ب، الأصناف ص120.

(6) نفسه/ ورقة 64 ب/ .

ولا يجوز أن يجتمع أكثر من واحد على إقامة وليمة واحدة[1] هكذا هو العرف، وارتؤوا أن الشخص إذا كان فقيراً غير قادر على إقامة الوليمة فإن النقيب يقوم بمساعدته[2]، والوليمة جائزة في جميع الأعمال «لأن الوليمة كما يعتقد أهل الصنف» لله سبحانه وتعالى. ، وهي جائزة في العهد والشدّ[3]، وهي تقام للستر والعفو وكفّارة عن أهل المهن[4]، وإذا كانت بين الشخص طالب الإنتماء وبين شخص آخر مشاحنة، يجب أن يصالحه ويرضيه، وإذا كان يوم الحفل، يقف النقيب ويقوم بعملية الشد[5].

عملية الشد:

وعمليّة الشد أو ربط المحزم، هي أهم شعيرة في الحفل الذي يقام لقبول الشخص في الصنف، وكان هذا الحفل مرعياً منذ (ق 6هـ/ 12م) كما يقول ماسينيون[6]، فيما كان صاحب الذخاير والتحف، يرى أن المسألة أقدم من ذلك بكثير، حيث يرجع أصلها إلى عهود الأنبياء والأولين[7] لأنهم ليس في عصمتهم شك ولا ريب، وهذه العملية/ الشدّ/ هي التي تعلن - بعد إنتهائها - قبول العضو الجديد في الصنف، حيث عادة يكون القَسَم قد سبقها، والمشدود، عند قبوله - إن كان مسلماً - يشترك مع الجماعة/ الصنف/ في تأدية شعائر وطقوس هذه العملية، ومنها أنه يردد قراءة الفاتحة والسلامات السبعة، ومدائح نبوية بعد أن يكون قد أخذ العهد، ثم تأتي شعيرة الشدّ، حيث يقف المريد أمام النقيب أو الشاد خاشعاً، ويتولى النقيب شدّه، أمّا حول وسطه، وأمّا حول رأسه، أو حول كتفه بمحزم من النسيج، أو بفوطة أو منديل أو غيبة أو زنّار من الحرير أو الصوف أو بأي شيء مفتول. وهذا المحزم يعقد مرّات كثيرة متتالية، أو يلّف أربع مرات عادة/ وأحياناً ثلاث أو سبع أو ثماني مرات/ ولكن الأربع هي الأثبت، وعند كل عقدة، ترتل أدعية لأحد الأولياء الذين

(1) نفسه/ ورقة 109 ب/ .

(2) نفسه/ ورقة 26 - / الأصناف ص 121.

(3) نفس المصدر السابق/ ورقة 100 - / .

(4) نفسه/ ورقة 138 ب/ .

(5) نفسه/ ورقة 64 ب/ الأصناف ص121.

(6) دائرة المعارف الإسلامية 13/ 179 - مادة الشد - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته، وماسينيون يرجع أصل هذه الأصناف، بمعناها النقابي المعاصر إلى حركة القرامطة، ويرجع بأصل تنظيماتها إلى حركة أخوان الصفا، راجع ذلك في دائرة المعارف الإسلامية - مادة صنف - 14/ 354 - من نفس الطبعة.

(7) الذخاير والتحف/ ورقة 48أ - 49أ / الأصناف ص121.

يعتقد في بركتهم[1]، فإذا كانت العقد أربعاً، فالأدعية تعظيم لجبريل ومحمد وعلي وسليمان باعتبارهم من المشدودين، وفي هذه الحالة تضاف عقدتان أخريتان، يطلقون عليهما - الخرسة والشكلة - تعظيماً للحسن والحسين[2]، وهذا الأمر يظهر مدى التأثير الشيعي في الأصناف، وطرق الإنتماء إليها.

وشعيرة الشدّ، ميّزة لدخول الشخص في الحرفة (على بساط الله في ميدان علي بين الفتيان) وهو تقيّد الداخل بالحرفة، مسلماً كان أو من الديانات الأخرى - نصراني - يهودي - وهو يعني الإلتزام بواجبات المشدود إزاء الجماعة كلها، وهذه الطريقة مشابهة للصوفية في تقيّد المريد بعهد الخرقة، إزاء أهل الطريقة[3]. وهناك طريقة أخرى تسمى «التخاوي» أو «العهد بدون شدّ» حيث لا يربط الداخل، إلا مفرد واحد عن طريق نوع من الأخوّة[4]، وهي قليلة عندهم، وبعد عملية الشدّ، يحلق للمشدود، أحياناً جزء من شعره/ مثل اللّمة أو الشارب أو اللّحية» ثم يلبس ملابس خاصة، ويسمونها «اللباس أو السراويل» عند أهل الحرف القدماء، أو القعرس أو الطاقية، على الرأس عند أصحاب الطريق، وهناك يؤخذ على الداخل في الحرفة العهد أو البيعة، أو ميثاق الإخاء، وتلقى إليه بعض التعاليم الخفيّة المتعلقة بواجباته الجديدة مع «إجازة» بممارستها، ثم يأخذ مكانه على البساط أو السجادة، إلى جانب إخوانه لتناول الطعام التقليدي المعروف عندهم بـ«الوليمة أو التلميح»[5]، ويتضمن العهد، اختبار مسيرة الفرد وتعلّمه وخدمته وأدبه وفهمه، فإذا كان غير لائق لا يعطى له العهد[6]، ويقوم بهذه العملية الأستاذ المشرف عليه، ويصاحب ذلك عادة عدد من الأشخاص ليكونوا شهوداً على ذلك[7].

ثمة أمر هام أوضحه صاحب/ الذخائر والتحف/ بمسألة شدّ العُقد الأربع الأساسية، حيث ذكر أن العقدة الأولى هي عقدة كبير المشدود/ أي أستاذه/ وهو الاعتراف بالجميل والعرفان لصاحب الصنعة والمعلّم الأول، وعند عقدها تقرأ مقدمة للكبير، هي بمثابة

---

(1) سيجد القارىء في نهاية هذا الفصل «طقوس الأدعية وكلماتها عند كل دور» وهي مأخوذة من مخطوط «الذخاير والتحف في بير الصنايع والحرف» كما أوردتها الباحثة صباح الشيخلي في الملحق الخامس والسادس.

(2) ماسينيون - دائرة المعارف الإسلامية 13/ 180؛ والأصناف ص121.

(3) ماسينيون/ المرجع السابق.

(4) ماسينيون/ نفس المرجع.

(5) ماسينيون/ نفس المرجع؛ والأصناف ص121.

(6) الذخاير والتحف/ورقة 102أ / - الأصناف ص122.

(7) الذخاير والتحف/ورقة 30أ / .

تعريف به، وتقرأ بعد ذلك آيات من القرآن الكريم[1] والعقدة الثانية هي عقدة الجدّ، حيث يذكر كلام يدور حول التبريك به، وكذلك تقرأ آيات من القرآن الكريم، والعقدة الثالثة وهي عقدة البير، وهنا يذكر النقيب الكلام الخاص بالبير، ثم يقرأ آيات من القرآن الكريم أيضاً[2]. أما العقدة الرابعة فهي عقدة الإمام علي ﷺ، وهنا يردّد النقيب - الدور أو الكلام الخاص بالإمام، ثم يقرأ بعضاً من آيات القرآن الكريم، وبعد ذلك يقوم بشدّ عقدتين أخريتين للحسن والحسين، ويقرأ الدور الخاص بالحسن، ثم الدور الخاص بالحسين، ثم يقرأ بعض الآيات القرآنية[3]. وبعد شدّ هذه العقد يبدأ النقيب بتلاوة دعوات مأثورة له وللمسلمين وولاة الإسلام، وللعلماء وللسلطان[4].

كل هذه الأمور تجري للمرة الأولى في حياة العضو الجديد، كما يقرّه دستور الصنف، وهذه العملية بكامل طقوسها تعاد عليه، في حالة فرط عقده من الصنف، وذلك عند ارتكابه إحدى الفواحش، فإذا ما استغفر عن هذا الذنب والتزم بعدم تكراره، يعيد النقيب شدّه مرة أخرى في حفلة جديدة[5]، وقد تقام حفلة الشدّ، لا من أجل الدخول في الصناعة، وإنما لبداية شخص اتبع سبيل الفساد، فتقام وليمة يحضرها الشيخ وأتباعه، حيث يقوم النقيب بعملية الشدّ، ومن ثم يرجع - الشخص - حسب اعتقادهم - عن أفعال الشر[6]، وهنا يتوضّح أن في عملية الشدّ جانباً أخلاقياً إزاء الناس وإزاء المهنة، وهو معكوس ديني - مهني، إسلامي صرف، يحمل دلالاته الحضارية، حيث ربط الجانب الأخلاقي بالعمل.

يصاحب هذه العملية/ أقصد عملية الشد/ طقس خاص، ويقوم به المشدود، هو أن يدفع المشدود إلى النقيب والشيخ، بعض المبالغ والهدايا، سمّيت «النقوط، أو الرضا»، وقد ذكرت المصادر أن أحد النقباء، جمع ألفاً وخمسين ديناراً وسبعمائة وثلاثين كسوة من عمليات الشدّ التي أجراها[7].

ومن هنا يتبيّن أن النقيب هو الذي يقوم بعملية الشد، ولا تعتبر عملية الشدّ كاملة

(1) الذخاير والتحف/ ورقة 152 ب/ - الأصناف ص122.
(2) نفسه/ ورقة 153 ب/ - الأصناف ص123.
(3) نفسه/ ورقة 153 ب/ .
(4) نفسه/ ورقة 154 ب/ - الأصناف ص123.
(5) نفسه/ ورقة 14 ب/ .
(6) نفسه/ ورقة 70 ب و71أ / - الأصناف ص123.
(7) الذخاير والتحف/ ورقة 22أ / - الأصناف ص123 - 124.

وصحيحة بدون حضور أحد الشيوخ، وإذا ما غاب النقيب، لسبب من الأسباب، فإن الشيخ يقوم بذلك، والمشايخ الذين يصحّ الشد بحضورهم هم الذين يعرفون علم الأولين، حتى يفيدوا الطالبين، وهؤلاء هم: شيخ الأطباء، وشيخ الحلاقين - الفرع السليماني، وشيخ السقائين، وشيخ القبانيّة، وشيخ العطارين، وشيخ الجاديشية/ نقباء الديوان/ وشيخ الكتبيّين - الكتّاب والورّاقين -[1]. وقد أعطى امتياز خاص للشيخ السليماني/ أي شيخ الحلاقين/ أن يشدّ لصناعته ولغير صناعته، فإذا حضر وحده يكون الشدّ به صحيحاً، وبعد إتمام علية الشدّ يعطي النقيب الشخص المشدود ورقة بخطّه وختمه، وفيها تاريخ اليوم الذى شدّ فيه، والبيّنة على ذلك[2]. بعد ذلك تتجمع عند الشخص المشدود وثائق هي: العهد والشدّ، والإجازة، المؤيدة بشهادة الشيخ وأمضاء القاضي[3]، وبيان من الشيخ الذي شدّ على يده الشخص بعد ذلك يصبح الشخص المشدود، مؤهلاً كاملاً لممارسة الصنعة، والإجازة هي التي تساويه بأستاذه، وقتها يصبح مالكاً قيادة نفسه، حرّاً بعد أن كان مرتبطاً به[4]. فإذا كان هناك شخص معهود ومشدود، لا يحق له أن يمارس المهنة أو يفتح دكاناً إلا بعد حصوله على الإجازة، وهذا التقليد، يذكره صاحب/ الذخيرة والتحف/ على أنه سار منذ أيام الحسن البصري[5]، الأمر الذي يشير إلى أهميّة الإجازة في الصناعة عند أهل الاصناف، والطريق إلى الإجازة ليست سهلة، بل يجب أن تمرّ بالمراتب الأربع، المبتدىء - الصانع - النقيب - الشيخ - بالإضافة إلى الحصول على العهد والشدّ في كل رتبة، وبعد ذلك يتمّ الحصول على الإجازة كما مرّ بنا[6].

وهناك مسألة «القَسَم» وهي تشكل أحد الثوابت الأساسية في دستور الأصناف، كعرف متّبع يجري الإلتزام به، ويمارس القَسَم عادة، أثناء عملية الشدّ، حيث أن النقيب يطلب من المشدود أن يُقسِم اليمين المعقّد بالله العظيم[7] على عدم الغشّ فيما يصنع، ويقوم المحتسب والعريف، أثناء مراقبتهما للأسواق بالتوكيد على ضرورة الحلف/ القسم/ على الأصناف، وعليهم أيضاً أن يحلفوا على ضرورة إتقان الصنعة، وعلى عدم الإتفاق فيما بينهم/ فيما بين الأصناف/ على غشّ المتعاملين معهم، وأن يتقيّدوا بمقادير المواد

(1) نفسه/ ورقة 59 - ب، 60 - ب، 61أ / - الأصناف ص124.
(2) نفسه/ ورقة 25أ / - الأصناف ص124.
(3) نفسه/ ورقة 44 ب/ .
(4) نفسه/ ورقة 44 ب/ - الأصناف ص125.
(5) نفسه/ ورقة 129 ب/ .
(6) للأصناف ص125.
(7) الذخاير والتحف/ ورقة 133 ب/ .

الأولية التي يستخدمونها وبنوعيتها[1]، وقد اعتبر ماسينيون أن القَسَم يعود بجذور تاريخية في هذا المجال إلى القرامطة، في نطاق أنظمتهم الداخلية كحركة سياسية[2].

واقتضى عرف الأصناف، انتساب الصانع إلى صنعته، والحرفي إلى حرفته، فأصبحت ألقابهم مشتقة من أسماء المهن والحرف، كالخمّار والجرّاح والاسكاف والحدّاد والنجّار والبزاز والعطار والجوهري والنفّاط والسرّاج والزجّاج والورّاق والقصّاب، وغيرها[3].

كما التزمت الأصناف بعرف آخر هو «توارث المهنة» من الآباء للأبناء وهو أمر كانوا يرون فيه عدم القدح في المهنة والنسب[4].

ومن أعرافهم أيضاً «التعصّب للمهنة والتعاون بين ذوي المهن» حيث أصبح هذا الأمر شائعاً بين الأصناف، وقد استوقف هذا الأمر الجاحظ، وأثنى عليه، وهو في معرض حديثه لذمّ الكتّاب، فقد وصف أصحاب الصناعات، وذكر تعاطف أهلها مع نظرائهم، وتعصّب رجالها على غيرهم، فقال[5]: «لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يجرون في ذلك إلى غاية محمودة، ويأتون منه آية مذكورة، إلا الكتّاب، فإن أحدهم يتحاذق على نظرائه بالاستقصاء على مثله، ويسترجع رأيه إذا بلغ في نكاية رجل من أهل صناعته، من أهل الأصناف على الاعتزاز بمهنهم وصار شعارهم «الصناعة نسب»[6]، وعدّ التضامن المهني والطبقي صفة واضحة»، وقد أشار ابن الأثير إلى مثل هذه الأحداث حين قال: وفي شوال/ سنة 422 هـ/ وقعت فتنة بين أصحاب الأكياس وأصحاب الخلعان، وذكر غيرها من الحوادث[7]، ولقد أدّى التعصّب للمهنة إلى التعاون بين أبناء الصنف الواحد، وشعورهم بالارتباط الوثيق مع بعضهم بعضاً، فيذكر عن شيخ حجّام، أنه رفض أن يأخذ أجرة حجامته من حجّام آخر لانهم «أهل صناعة واحدة»[8]، حتى وصل تضامنهم المهني إلى حدّ

---

(1) ابن بسّام/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ ص41 و50، كنماذج على «الزلبانيين - أصحاب الزلابية وأصحاب هرايس التمر ومطبوخ العدس/ وغيرها من المواضع، وهي كثيرة وواضحة/ أنظر الأصناف ص130.

(2) دائرة المعارف الإسلامية 1/ 181 - مادة الشدّ -.

(3) أنظر الأصناف/من 130 - 131، ومصادر إحالاتها.

(4) ابن الأخوة القرشي/ معالم القربة في طلب الحسبة/ ص314، الباب 51 في القضاء والشهود

(5) رسائل الجاحظ 2/ 199 - 200، رسالة في ذمّ أخلاق الكتّاب/ وأنظر الأصناف ص132.

(6) الأصناف ص132.

(7) الكامل في التاريخ 8/ 419 وغيرها في أحداث سنة 422هـ.

(8) الأصناف ص133.

أنهم كانوا يخلون السوق للمحتاج ليسدّ خلّته، فقد ذكر الجاحظ للكتّاب قوله[1]: «وأنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه، فيتلف ما في يده، فيخلي له القصّابون سوقهم يوماً، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بربحها منفرداً، وبالبيع مفرداً، فيسدّون بذلك خلّته ويجبرون منه كسره». كما كان من عرفهم أن يساعد أحدهم الآخر، في حالة الخسارة، وكانوا يتعاونون على ستر عيب بعضهم، وعلى تحديد الأسعار، وعلى ذكر محاسن المتقدمين من أهل كل صناعة[2].

وضمن أعرافهم الأخرى «إجتماعهم للمسامرة والمذاكرة»، كتقليد عندهم، حيث كانوا يجتمعون بين فترة وأخرى للتباحث في أمور مهنتهم[3]، وقد كان للورّاقين القدح المعلّى في ذلك، حيث وردت أكثر من إشارة وعبارة إلى ذلك، من عند التوحيدي، يذكر هذه المجالس[4].

لقد حافظت هذه الأصناف على ترابطها المهني طوال أغلب فترات العصر العباسي، حيث يرجع تاريخ تنظيمها إلى (ق 3هـ/ 9م). وقد ارتبطت هذه الأصناف بالحركات الاجتماعية والفكرية، وكان للقرامطة الدور الأبرز في ذلك[5]، فقد بلغت هذه الأصناف أوجّ تطورها في البلاد الإسلامية الخاضعة للدولة الفاطمية في مصر، وبقيت كذلك، حتى إسقاط هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي، حيث خضعت تلك الأصناف/ النقابات/ إلى إشراف الدولة، إضافة إلى بروز سيطرة الدولة العباسية على هذه الأصناف عن طريق نظام «الحسبة» ونظام «الحبوس» أو ما يعرف الآن بنظام «الأوقاف»، ولكن بَطُل هذا النظام في (ق 4هـ/ 10م) حتى (ق 6هـ/ 12م)، وفي هذين القرنين شهدت النقابات عصرها الذهبي، إلا أن الدولة أعادت السيطرة عليها في (ق 6هـ) ووضعت الأصناف تحت المراقبة عن كثب، لأنه اشتبه في أنها/ الأصناف/ كانت تتسم بميول قرمطية وثورية[6]، وإزداد تدخل الدولة في شؤون الأصناف - بعد أن كانت حرّة - فأصبح للسلطان حق عزل وتولية شيخ الأصناف، وكذلك التدخل في طقوسهم حتى، من قبيل عملية الشدّ وغيرها، ثم أصبحت الأصناف مؤسسة خاضعة لأمر الدولة، بعد أن كانت تنظيماً شعبياً[7].

---

(1) رسائل الجاحظ 3/ 200 - 201 رسالة في ذم أخلاق الكتّاب؛ والأصناف ص134.
(2) الأصناف ص134 - 135.
(3) الأصناف ص135.
(4) انظر: كتاب المقابسات، حيث تجد الكثير وسوف نورد ذلك في فصل/ مجالس العلماء، في سوق الورّاقين، وحكايا ونوادر في سوق الورّاقين في هذه الدراسة.
(5) لويس ماسينيون - دائرة المعارف الإسلامية - مادة صنف - 14/ 354.
(6) المرجع السابق 14/ 356.
(7) الذخاير والتحف/ ورقة 115 أ ب و30 أ ب/ الأصناف ص147.

والورّاقين، كصنف من هذه الأصناف، فقد وجب عليهم الإلتزام بشروط المهنة، التي فرضها عليهم المحتسب، وخضعوا لمراقبته وتوجيهاته، وتظهر العلاقة بين المحتسب والورّاقين أنها ليست وديّة، في إطارها العام، فقد كانوا شبه متهمين أمامه، بشكل عام، فقد كان الجانب الأخلاقي، يحكم هذه العلاقة، وعدّوا من المنجمين[1]، الأمر الذي يحكم النظرة إليهم بمحمولها الديني فقط، لذلك اشترط عليهم أن لا يجلسوا في درب، ولا في زقاق ولا في حانوت، بل على قارعة الطريق، لا سيّما كتّاب الرسائل منهم[2]، وينبغي أن يمنعوا من الارتزاق منها، وأن يرتزقوا من وجوه غير هذه الوجوه، لأنه كذب ومحال/ يقصد التنجيم/[3]، واشترط المحتسب عليهم أن لا ينفرد واحد منهم بإمرأة في منزله ولا في دهليزه، وشروط أخرى، وإذا لم يلتزموا بها، وجب عليهم الأدب[4].

ومن هذا يتبيّن أن النظرة لهم لم تتعمّق بعد من قبل الدولة في بادىء الأمر، ولم يجر تميزهم بشكل دقيق في عرف المحتسب، فحتى حين فصل بين المنجمين وبين كتّاب الرسائل على الطريق، والرقاع والدروج، أو ما يعرف اليوم بـ«كتّاب العرائض»، فقد ظلّ يعاملهم معاملة حذرة، إذ جاء في توصياته ما يلي[5]: «ينبغي أن يُعرّف عليهم عريفاً، ويأمره بأن يتقدم إليهم ويأمرهم بأن لا يكتبوا كتاباً في سبّ أحد، أو شتمه، أو قذفه»، ثم يضيف إلى ذلك، ويحلفون بالله العظيم، أن لا يتجاوزوا ما جرت به العادة في المكاتبات من استعلام الأخبار، وذكر ما تجري عليه الأحوال، فمتى جرى الأمر هكذا لم يكن على الكاتب طريق الذم، ولا عيب، ولا تغرير، ومن خالف أدّب[6]. فيما أشار إبن الأخوة القرشي إلى بعض الزيادات من مثل[7]: ألا يكتبوا ما لا جرت به العادة من كتاب الشروط، من مبايعة ولا عهدة ولا إجارة، ولا وثيقة ولا فرض، ولا ما هو من وظائف العدول وكتابتهم، ولا ينسخوا لأحد نسخة مسطورة بيده ولا عهده ولا نسخة إجارة، ولا يكتبوا لامرأة رسالة لرجل أجنبي، فلا يكاد يخفى ذلك عليهم من خطابها له في الكتاب، ولا يكتبوا أمراً يتعلّق بأمور الدولة، ولا يجاوزون ما جرت به العادة من كتابة رسائل واستعلام خبر، وما فيه فائدة مختصة بالمرسل، وما لا يتعدى فيه ضرر للغير، ومتى وجد

---

(1) ابن الإخوة القرشي/ معالم القربة في أحكام الحسبة/ ص275 - الباب 49، وابن بسّام ص170.
(2) ابن الإخوة/ ص276.
(3) ابن بسّام/ ص170.
(4) ابن بسام/ نفس المكان؛ ابن الإخوة/ ص276.
(5) ابن بسام/ ص171؛ ابن الإخوة/ ص276.
(6) ابن بسام/ نفس المكان.
(7) ابن الإخوة/ ص276.

أحداً منهم خرج عن ذلك، وكتب ما منع منه، أقامه المحتسب وأدّبه، فإن تاب أعاده، فإن رجع عزره[1].

وعلى ما يبدو، أن مهنة الوراقة كانت تتقدم شيئاً فشيئاً، وتفرض نفسها على الواقع، متجاوزة، حدودها المرسومة من قبل المحتسب، حيث أصبحت مهنة حضارية، لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً، وأخذت تفرض وجودها كمهنة مثقفين، وراح سوقها في بغداد يفرض رواج بضاعته، ويتباهى بزوّاره وروّاده العلماء والأدباء، فقد كان سوقهم مجلساً للعلماء والشعراء، كما يقول ابن الجوزي[2].

الفصل الثالث

تعريف الوراقة والوزاقين

الورّاق في اللغة، هو ذلك الذي يمتهن حرفة الوراقة، يقال رجل ورّاق، هو الذي يورّق ويكتب، وتأتي أيضاً، مورّق الكتب، أي حرفته الوراقة[3]، فيما عرّف ابن خلدون الورّاقين بقوله: الذين يعانون إنتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها والاشتغال بسائر أمور الكتابة[4]، وكنسبة للمشتغلين بشؤون الوراقة، فإن السمعاني يعرّف الورّاق بقوله: الورّاق بفتح الواو وتشديد الراء في آخرها القاف: هذا اسم لمن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق، وهو الكاغد ببغداد، الورّاق أيضاً[5].

ومن هذه التعريفات يتضّح أن هناك عدة معان جامعة في هذا الاصطلاح، منها ما هو مهني، وإبداعي، وتجاري، وديني، فالنسخ يكاد يشكّل المهمة الأولى في عمل الورّاق، فيما تأتي تجارة الورق في المحصلة الثانية، إضافة إلى المشتغلين بكتابة القرآن وعلم الحديث، ثم إندمج في هذا الاصطلاح كل من يجلّد الكتب، ومن يبيعها، وكانت الوراقة والتي تعني عند ابن خلدون: إنها معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد، والتصحيح، وضبط

---

(1) سوف نتطرق في الفصول القادمة إلى/ أخلاق الورّاقين/ والعزر = المنع والرد. والتّعزير: ضرب دون الحدّ لمنعة الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية/ اللسان: مادة عزر.

(2) مناقب بغداد/ ص26.

(3) أنظر اللسان - مادة: ورق، والقاموس المحيط: مادة ورق.

(4) المقدمة/ ص421، الفصل 31، ط4، دار إحياء التراث - بيروت.

(5) السمعاني/ الأنساب: باب الواو والراء/ ظهر الورقة 579 من طبعة مارجليوث - ليدن 1912م.

الرواية[1]، فالتداخل في الإشتقاق بين لفظة ورّاق ووراقة، واضحة الدلالة من خلال السياق والمعنى، والذي تحويه مهنة الوراقة، ولكن يلاحظ أن معناها أشمل وأوسع من لفظة الورّاق.

في ضوء هذا التعريف: يمكن تقسيم الوراقة على النحو التالي[2]:

أولاً: النسخ، ويدخل في خانته التزويق والتصوير والتذهيب والتخطيط.

ثانياً: بيع الورق وسائر أدوات الكتابة، كالأقلام والحبر وغيرها.

ثالثاً: تجليد الكتب.

رابعاً: بيع الكتب[3].

هذه هي المحاور الأربعة الأساسية، وتفرعاتها، هي التي تشكل مهنة الوراقة.

من الملفت للإنتباه أن المؤرخين الأوائل، والمهتمين بأخبار الرجال، لم يفردوا موضوعاً متكاملاً عن الوراقة والورّاقين، رغم أن هذه الظاهرة كانت من السعة بمكان، بحيث أنها تصادف طلبة العلم والحديث، والمؤرخين، والأخباريين، والأدباء والكتّاب، من مختلف الأقطار الإسلامية، والوافدين على بغداد، أيام عزتها ومنعتها العباسيّة، سوى أنه وجدت بعض الرسائل والمؤلفات الصغيرة عنها، وجميعها مفقودة، حتى اليوم تقريباً، وقد أشار الباحث الورّاق حبيب زيّات[4] إلى أنه لم يظفر إلا بكتاب واحد للشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن مسك السخاوي، المتوفى سنة 1025هـ/ 1616م، عنوانه «تنويق النطاقة في علم الوراقة» لم يبق منه إلا عنوانه وتذكاره فقط، وقد ذكر ياقوت الحموي أن للجاحظ رسالتين في هذا الموضوع هما: رسالة في مدح الورّاق ورسالة في ذمّ الورّاق[5]، وبتقديرنا أن هاتين الرسالتين المفقودتين حتى اليوم، هما من أمتع وأبلغ ما كتب في هذا الموضوع لأن الجاحظ كان ملازماً لدكاكين الورّاقين، وكان يبيت فيها ويكتريها، ولو

---

(1) المقدمة/ ص421 - نفس الفصل المذكور.

(2) لا بّد من التنويه هنا إلى الأستاذ - كوركيس عواد - حيث سبقنا إلى هذ ا التقسيم في كتابه/ خزائن الكتب القديمة في العراق ص8 - 9/ مطبعة المعارف، بغداد 1948م، وكذلك الإشادة بالدراسة الوافية الجميلة لورّاق هذا العصر، الأستاذ الفاضل/ حبيب زيّات/ والتي نشرها في مجلة المشرق ببيروت عام 1947، تحت عنوان/ الوراقة والورّاقون في الإسلام/ وبصدق أقول، أن هذه الدراسة كانت الحافز الأساسي لي لأن أكتب هذا العمل برمته، فله الفضل والسبق في ذلك.

(3) سنتحدث عن هذه النقطة في/ الباب السادس، سوق الورّاقين.

(4) مجلة المشرق/ ص1 - 2 لعام 1947، المطبعة الكاثوليكية عام 1947، بيروت.

(5) معجم الأدباء 16/ 109، ترجمة الجاحظ.

وجدت هاتان الرسالتان لأضفتا على موضوعنا أشياء علميّة هامّة[1].

كما أن الورّاق المشهور، إبن النديم، لم يلتفت هو الاخر، إلى أبناء صنفه، رغم أن ما قدّمه في كتابه القيّم «الفهرست» من معلومات متناثرة عن بعضهم، لكنه لم يؤلف كتاباً أو رسالة في الوراقة والورّاقين، سوى أنه ذكر في ترجمة «ابو زيد البلخي» أنّ له «رسالة في مدح الوراقة»[2] هي الأخرى لا زالت مفقودة، ولم يعثر عليها حتى الآن، وكنا نأمل من التوحيدي، وهو واحد من الذين قاسوا معاناة الوراقة، أن يطالعنا بكتاب أو رسالة عن هذا الصنف المبدع، ولكنه هو الاخر، لم يفعل، وبتقديرنا، أن ذلك نابع من عزوفه الشديد عن هذه المهنة التي أذلّته كما يقول في رسائله[3].

وبتقديرنا أن ياقوت الحموي، هو أكفأ الأوائل والأواخر من الذين ترجموا للأدباء بشكل عام، والورّاقين بضمنهم، ولكن دون تخصيص، سوى أنه يذكر صفة «الوراق» في بعض أسماء مترجميه، وذلك في كتابه الخالد أبدا «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، أو ما يعرف اليوم بـ«معجم الأدباء».

والوراقة، كحرفة إسلامية، فمن البديهي جداً، أن يكون للدين الإسلامي، أثره الواضح فيها، لذلك كانت البدايات الأولى، قد إعشوشبت في المساجد - كمكان - وبعلوم الدين، كبداية للإمتهان، في هذا الصنف، لذلك شكّل جامع المنصور ببغداد، وهو أكبر جوامعها، نقطة مركزية لبدء ظاهرة الإملاء على طلاب العلم، فقد كان هذا الجامع أشهر مركز للتعليم في الدول الإسلامية[4] حتى العلماء والخطباء، وأساطين اللغة والأدب، كانوا يتوقون للإملاء والتدريس فيه، فقد عرف عن الخطيب البغدادي، صاحب «تاريخ بغداد» أنه لمّا حج وشرب من ماء زمزم ثلاث شربات، سأل ربّه ثلاث حاجات، فالحاجة الأولى أن يحدّث بتاريخ بغداد، والثانية أن يملي الحديث بجامع المنصور، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي[5]، وكان له ما أراد.

وبهذه المساجد والجوامع، بدأت حركة النهضة العلمية والأدبية، حيث كان الفقهاء،

---

(1) نوجّه/في هذ الصدد/نداءنا إلى كل المهتمين بدراسة التراث وتحقيقه إلى إرشادنا إلى مكان هذين الرسالتين في أي بقعة من الأرض، لأن ما سرق من تراثنا لا يمكن حصره في مكان.

(2) الفهرست/ص198 - 199 الطبعة المصرية.

(3) أنظر رسالته إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد، وغيرها/رسائل التوحيدي/طبعة إبراهيم الكيلاني.

(4) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في (ق 4هـ)، 1/ 314، ط3، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة القاهرة 1377هـ/ 1957م.

(5) ياقوت الحموي/معجم الأدباء 4/ 16، الترجمة رقم 2، للخطيب البغدادي.

يملون على تلاميذهم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة، فقد عرف عن أبي حامد بن محمد الأسفراييني أنه كان يحاضر بعلوم الفقه الشافعي بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه ما بين 300 - 700 فقيه وطالب علم[1]، واللطيف في الأمر، أن عدد الطلاب كان يعرف بعدد المحابر التي توضع أمامهم. ثمة حادثة طريفة في هذا السياق، فقد ذكر عن محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ المعروف، أنه كان من كبار المحدثين والفقهاء، فلما قدم بغداد قصده الحنابلة، وسألوه عن أحمد بن حنبل - صاحب مذهبهم - وعن حديث الجلوس على العرش فقال الطبري: أمّا أحمد فلا يعدّ خلافه، فقالوا له: قد ذكره العلماء في الاختلاف، فقال: ما رأيته رويَ عنه، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم، وأمّا حديث الجلوس على العرش فمحال، ثم أنشد:

سبحان من ليس له أنيس ... ولا له في عرشه جليس

فلما سمع الحنابلة ذلك منه، وثبوا ورموه بمحابرهم، وقيل كانت ألوفا[2].

منهج الوراقة:

ثمة حادثة هامّة، تشير إلى البدايات الأولى بفن الوراقة، أوردها ابن النديم في حديثه عن قصة تأليفه كتاب «الياقوت في اللغة» لأبي عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المطرّز المعروف بالزاهد، المتوفى سنة 345هـ قال[3]: ابتدأ أبو عمر الزاهد بإملاء هذا الكتاب، يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة 326هـ، في جامع المنصور ببغداد إرتجالاً، من غير كتاب ولا دستور، فمضى في الإملاء مجلساً مجلساً، إلى أن إنتهى إلى آخره، وكتبت ما أكملاه - والحديث لأبي الفتح النحوي - مجلساً مجلساً، ثم رأى الزيادة فيه، فزاد في أضعاف ما أملاً، وارتجل يواقيت أخر، واختص بهذه الزيادة أبو محمد الصفّار، لملازمته وتكرير قراءته لهذا الكتاب على أبي عمر، فأخذ الزيادة منه، ثم جمع الناس على قراءة أبي إسحاق الطبري له، وسميت هذه القراءة «الفذلكة»[4] فقرأ عليه وسمعه الناس، ثم زاد فيه بعد ذلك، فجمعت أنا في كتابي الزيادات كلّها وبدأت بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 329هـ، إلى أن فرغت منه في شهر ربيع الآخر سنة 331هـ، وحضرت النسخ كلها عند قراءتي نسخة أبي إسحق الطبري،

---

(1) السبكي/ طبقات الشافعية الكبرى 3/ 25، ط2، بالمطبعة السينية بمصر.
(2) معجم الأدباء 18/ 58، الترجمة رقم 17، وراجع بقية الحادثة هناك.
(3) الفهرست ص113.
(4) فذلك حسابه = أنهاه، وفرغ منه/ القاموس المحيط، مادة فذلك.

ونسخة أبي سعد الصفّار ونسخة أبي محمد بن سعد القطربلي، ونسخة أبي محمد الحجازي، وزاد لي في قراءتي عليه أشياء، فتوافقنا في الكتاب كله، من أوله إلى آخره، ثم ارتجل بعد ذلك يواقيت أخر وزيادات في أضعاف الكتاب، واختص بهذه الزيادة أبو محمد وهب لملازمته، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبي اسحق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضه، يتقرر عليها الكتاب، فلا يكون بعدها زيادة، وسمّيت هذه العرضة «البحرانيّة» واجتمع الناس يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادي الأولى من سنة 331هـ في منزله بحضرة/ منلة أبي العنبر/ فأملا على الناس ما نَسَخْتَه، قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد أبو عمر الزاهد، هذه العرضة هي التي تفرّد بها أبو إسحق الطبري آخر عرضه أسمعها بعده، فمن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة حرفاً واحداً، فليس من قولي، فهو كذّاب علي، وهي من الساعة إلى الساعة من قراءة أبي إسحاق على سائر الناس وأنا أسمعها حرفاً حرفاً[1].

هذا النصّ من الأهمية بمكان، حيث أنه يوقفنا على منهج الوراقة في بداياتها الأولى، أي في مرحلة/ الإملاء/ فهو يبدأ مع المؤلف - المستملي - وينتهي به، حيث يجيز نسخة واحدة، تكون قد روجعت معه، ومع أقرب التلاميذ الملازمين له، ثم تقرّ هذه النسخة في الجامع، ويشهد الناس بذلك عليها، ومن الملاحظ أيضاً أنها تمرّ، في هذه المرحلة، بمدة زمنية طويلة نسبياً، حسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع، لهذا الكتاب «الياقوت في اللغة» مرّ بهذه المراحل، ولم يصادق عليه المؤلف، إلا بعد أن مرّ بالشوط الأخير، وهو ما عرف عندهم بـ«البحرانية» وبعدها أجازه لواحد، وبرأ ذمته بعد ذلك من كل زيادة تحدث عليه، أمام الناس، بدءاً من ساعة إشهاره، وحتى قيام الساعة، وهذه المرحلة كانت النقطة الأولى في عمل الوراقة، وقد كانت تجري داخل أروقة المساجد والجوامع، الأمر الذي يشير إلى أهميتها من الوجهة الأيديولوجية بذلك.

ونلاحظ أن هذه المسألة/ الإملاء/ كانت بداية لتشكيل حالة أرقى وأوسع، وأكثر إنتشاراً نعني بها ظاهرة الوراقة والورّاقين، فيما بعد، ونظراً لأن الحالة الأولى كانت في بداياتها هي طريقة تعليم، لا طريقة تكسّب، كان الوازع الديني يلعب دوراً هاماً في ديمومتها وشيوعها، كفرض يتقرّب به لوجه الله، ولكن عندما أصبحت مهنة «كوراقة» فإن الدافع الاقتصادي تبوأ المقام الأول، وتراجع الوازع الديني، وانحسر تأثيره في الناحية الأخلاقية عند الورّاق أو الكاتب - المؤلف - وهذه مسألة تخضع بقانونيتها إلى حركة الفعل الاجتماعي وانعكاساته على الحياة اليومية لدى الناس، بكل حقبة زمنية.

---

(1) الفهرست/ ص113 - 114، ترجمة: أبو عمر الزاهد.

لذلك برزت في (ق 4هـ)، المدارس، ونشأ التدريس، خارج إطار المسجد والجامع، حيث من الملاحظ أن فكرة تكوين وإنشاء المساجد هي لممارسة طقوس العبادة في المقام الأول، ولا يحسن تخصيصها لتكون جامعة للتدريس والتوريق، رغم أن هذه المسألة ظلت تمارس طويلاً في المساجد، إلا أن حالة الجدل والمناظرة، أخرجتها من هذا الإطار، حيث أن هذه المناظرات قد تخرج - أحياناً - المتكلم أو الأديب أو العالم عن الأدب والذي تجب مراعاته داخل المسجد[1].

مجالس الإملاء:

الإملاء: هو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس، فيتكلم العالم بما فتح الله عليه[2] ويكتبه التلاميذ فيصير كتاباً. ويسمونه الإملاء والأمالي[3].

وقد شكّلت هذه الأمالي موسوعات علمية وأدبية في مختلف المجالات، وعرف منها الكثير، من أمثال: الأمالي الخمسمائة للسمعاني، وأمالي ابن الحاجب، وأمالي إبن حجر العسقلاني، وأمالي ابن الحصين، وأمالي ابن دريد اللغوي، وأمالي ابن الشجري، وأمالي ابن شمعون، وأمالي ابن عساكر في الحديث، وأمالي أبي بكر القاضي، وأمالي أبي بكر بن بشار الأنباري، وأمالي أبي بكر الحلواني، وأمالي أبي بكر ريغدموني، وأمالي أبي بكر النسفي، وأمالي أبي بكر الخيزاخيزي، وأمالي أبي جعفر البختري، وأمالي أبي طاهر الزيادي، وأمالي أبي طاهر المخلّص في الحديث، وأمالي أبي عبد الله الصبّي في الحديث، وأمالي أبي عبد الله الحلواني، وأمالي أبي عثمان الأصفهاني، وأمالي أبي عروبة الحرّاني، وأمالي أبي العلاء المعري، وهو مائة كرّاسة، ولم يكمله، وأمالي أبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي. وأمالي أبي علي وحشي البلخي، وأمالي أبي فرج السرخسي الشافعي، وأمالي أبي الفضل السلامي، وأمالي أبي القاسم عبد الملك بن بشران البغدادي، وأمالي أبي القاسم البزّاز، والأمالي الأصبهانية للمحاملي، وأمالي

---

(1) راجع توسعات آدم ميتز، في هذه النقطة، في الحضارة الإسلامية في (ق 4 هـ) 1/ 318.

(2) ثمة ظاهرة عند شيعة أهل العراق وأهل إيران، تماثل هذه الظاهرة، لكنه لم يجر فيها عملية الكتابة، بل يجري فيها الاستماع أكثر، تسمى/ المنابر الحسينية/ تقام في أيام عاشوراء من كل سنة، لا زالت قائمة حتى اليوم.

(3) كشف الظنون 1/ 161، وحبيب زيّات، الوراقة والورّاقون ص7، ونوّد الإشارة هنا إلى أننا سنستخدم اسم حبيب زيات في المرجعية والإحالة للدلالة على بحثه (الوراقة والورّاقون في الإسلام) اختصاراً للعبارة ليس إلاّ.

الإمام للأنصاري، وأمالي بديع الزمان الهمداني - صاحب المقامات - وأمالي ثعلب في النحو، وأمالي جار الله محمود بن عمر الزمخشري، وأمالي الجوهري، وأمالي الحافظ القنطري، وأمالي حسن بن زياد - في الفروع - وأمالي الزجّاج في النحو، وأمالي زرنجري البخاري، وأمالي الزعفراني، وأمالي السرخكي، والأمالي الشارحة على مفردات الفاتحة، لأبي بكر القاسم عبد الكريم بن محمد الرفاعي، وأمالي الإمام الشافعي في الفقه، وأمالي الإمام السرخسي، وأمالي الإمام عبد الحميد، وأمالي صدر الإسلام البزدوي في الفروع، وأمالي الصفوة من أشعار العرب لأبي القاسم فضل بن محمد البصري النحوي، وأمالي ظهير الدين الولوالجي، والأمالي العراقية في شرح الفصول الإيلاقية، وأمالي العشيّات للحاكم النيسابوري، وأمالي الإمام فخر الدين قاضيخان، وأمالي فربري، وأمالي قاضي صدر البزدوي، وأمالي قاضي فخر الارسابندي، وأمالي القاضي عبد الجبار، وأمالي القاضي المارستاني في الحديث، وأمالي القضاعي في الحديث، والأمالي المرضية في شرح العلوية، وأمالي المنذري في الحديث، والأمالي المطلقة للسيوطي، والأمالي على القرآن، للسيوطي أيضاً، والأمالي على الدرة الفاخرة، وأمالي مظهر السنة، وأمالي ميموني، وأمالي نظام الملك في الحديث، وأمالي أبو سعيد النقاش في الحديث، وأمالي وليّ الدين لأبي زرعة[1].

ومجالس الإملاء هذه، كان لها صداها المدّوي في الآفاق، وممّا يلفت النظر، أن أغلب العلماء الذين كانوا يملى لهم من العميان[2] لذلك كانوا أحوج من غيرهم لهذه العملية.

ومجالس الإملاء هذه قد تستمر عدة سنين، فقد عرف عن العالم محمد بن القاسم الأنباري، أنّه أملى كتابه «المشكل في معاني القرآن» في عدّة سنين[3]، ووصل كتابه «غريب الحديث» إلى خمسة وأربعين ألف ورقة من حفظه[4]، والموضوع الواحد، عند المستملي، قد يستمر عدة مجالس، فقد ذكر عن أبي السعادات ابن الشجرى أنه أملى «أماليه» المعروفة بـ«الأمالي الشجرية» وهو أكبر تصانيفه وأمتعها، أملاه في 84 مجلساً[5] فكم يطول هذا المجلس يا ترى؟!

---

(1) راجع عن تفاصيلها ومضامينها في، كشف الظنون 1/ 161 - 166.

(2) حبيب زيّات/ الوراقة والورّاقون في الإسلام ص7.

(3) معجم الأدباء 18/ 312، الترجمة رقم 91، وحبيب زيات ص7.

(4) معجم الأدباء/ نفس المكان.

(5) معجم الأدباء 19/ 283، الترجمة 108، وأنظر كذلك ترجمة له في/ بغية الوعاة/ للسيوطي.

والمستملي، اشتقاق مصدره من/ ملا/ قال الفيروزآبادي، استملاه: سأله الإملاء[1]، وجمعه «المستملون» وهؤلاء كانت وظيفتهم في مجالس الاستملاء، هي إعادة ألفاظ المحدّث ونقلها عنه إلى الناس[2]، وهذه المهنة أو الوظيفة الشاقة، لهذا المنادي المردّد كانت شائعة ومعروفة، وينتخب لها من ذوي الأصوات المسموعة واللسان الفصيح، والإصغاء الحسن، ، ووضوح العبارة، كي لا يشكل على الناس ما يؤخذ من فيه من عبارات وألفاظ، وبعض المستمعين من العلماء والأدباء، لا يأخذون إلا من لسان المحدّث[3] زيادة في التحوّط وأوثق للنقل وآمن للنفس والسمع.

وكان المستملي، يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين، وليعيد كلام المحدّث، حتى يسمعه من كان بعيداً عنه، وجرت العادة في مثل هذه المجالس، أن يبدأ قارىء حسن الصوت بتلاوة القرآن[4]، يليه المحدّث مباشرة مفتتحاً حديثه بالحمد لله، والصلاة والسلام على نبيه، ثم يدعو للبلد والسامعين، وبعد أن يستنصت المستملي الناس، يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي، ثم يقول للمحدّث: من. . . أو ما ذكرت رحمك الله، وكلما ورد ذكر النبي أو الصحابة أو نحوهم «صلى على النبي ورضي عن الصحابة»[5].

شكّل الإرتجال، صفة أساسيّة للعلماء والمحدّثين، الأمر الذي أشكل على النسّاخ - الورّاقين - من جهة، وعلى المستمعين، من جهة أخرى فلربما اختلف لفظ الإملاء بالإرتجال، إذا تكرر إلقاؤه، فتختلف لذلك نسخ الكتاب، وهو ما حدث لكتاب «الجمهرة» لابن دريد، فقد أملاه بفارس وأملاه ببغداد من حفظه فزاد ونقص[6].

إنَّ الإقبال على حب المعرفة، دفع بالناس إلى التزاحم والإقبال بشغف منقطع النظير، إلى مثل هذه المجالس، وبأعداد غفيرة، تجاوزت في بدايتها المئات، ثم نافت على الألوف، الأمر الذي أخرجها عن حياضها في المسجد، حيث المكان لا يتسع لمثل هذه الحشود، وأصبح المستملي، لا يؤدي الغرض بمفرده فازداد عدد المستملين في المجلس الواحد وفي المكان الواحد، لذلك أصبح من الملفت للإنتباه، إزدياد عدد المستملين وفق عدد المستمعين، ووفق انتشار الحلقات، وبُعد المسافات، فقد كان

---

(1) القاموس المحيط - مادة - ملا.
(2) راجع حبيب زيات ص9.
(3) تاريخ بغداد 14/ 326.
(4) آدم ميتز 1/ 343.
(5) المرجع السابق 1/ 319.
(6) الفهرست/ ص91، وحبيب زيات ص8.

القاضي المحاملي يحدّث ويردّد حديثه أربعة مستملين[1]، ورغم هذه الزحمة، كان الناس يميّزون أهل العلم وطالبي الحديث، ففي مجلس المحاملي ذاته، كان يوسف بن عمر القواس يقول: حضرت مجلس المحاملي، وكنت لا أكتب في مجلس الإملاء، إلا ما أسمعه من لفظ المحدّث، فقمت قائماً لأني كنت بعيداً من المحاملي، بحيث لا أسمع لفظه، فلما رآني الناس أفرجوا لي وأجازوني حتى جلست مع المحاملي على السرير[2].

وحينما يضج المكان بوافديه، فإن الناس يوسعون مكانهم بمكان آخر، حدّث الخطيب البغدادي قال[3]: حدّثنا بشرى بن عبد الله الرومي قال: سمعت أبا بكر أحمد بن جعفر بن مسلم يقول: لما قدم علينا أبو مسلم الكجي أملى الحديث في رحبة غسان، وكان في مجلسه سبعة مستملين، يبلّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه، وكتب الناس عنه قياماً بأيديهم المحابر، ثم مسحت الرحبة، وحسب من حضر بمحبرة، ناهيك عن المستمعين الآخرين، فبلغ ذلك نيّفاً وأربعين ألف محبرة، سوى النظارة، وازدادت هذه الظاهرة سعة وانتشاراً، والناس في شوق متزايد، كأنهم أصيبوا بعدوى أو حمّى المعرفة، فقد نقل إبن الجوزي الخبر التالي، قال[4]: لما ورد جعفر الفرياني إلى بغداد، استقبل بالطيارات والزبازب[5] ووُعِد له الناس إلى شارع المنار بباب الكوفة ليسمعوا منه، فاجتمع الناس، فحزر من سمع مجلسه، فقيل نحو ثلاثين ألفاً، وكان المستملون 316، وكان المجلس يضم من أصحاب المحابر بحدود عشرة آلاف إنسان[6]، هذا الخبر لا يخلو من مبالغة فيه، ومع ذلك، فإنه يوضّح الجموع الغفيرة المقبلة على تعاطي المعرفة والعلوم، وهذا الموقف راح يتكرر في أكثر من زمان ومكان، وبغداد كانت أكثر من غيرها شهرة في احتضان هذه المشاهد، فعندما قعد الفرّاء لاملاء النحو إزدحم الناس على مجالسه، وغصّت بالقضاة والعلماء، وكان الفرّاء بدأ بإملاء كتاب «المعاني» ولم يستطع الأخباريون المؤرخون من عدّ الناس الذين اجتمعوا للسماع عليه والأخذ منه، قال الخطيب عن راويه: فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً[7].

---

(1) تاريخ بغداد 14/ 326 في الترجمة رقم 7650/ بإسم: يوسف بن عمر القواس.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان/ وحبيب زيّات ص9.

(3) تاريخ بغداد 6/ 121 – 122 الترجمة 3151، بإسم (إبراهيم بن عبد الله أبو مسلم الكجي).

(4) المنتظم 6/ 124، الترجمة 176، باسم (جعفر بن محمد بن الحسن الفرياني).

(5) أنواع من الزوارق المائية، كانت مستعملة وقتذاك في نهر دجلة.

(6) المنتظم 6/ 124.

(7) تاريخ بغداد 14/ 150، ووفيات الأعيان 6/ 178، الترجمة 798، والفهرست/ ص99، ومعجم الأدباء 20/ 9 وما بعدها.

لقد ألف الناس هذه المجالس، وراحوا يقصدون العلماء في بيوتهم، ويتجمعون في السكك والدروب المحاذية لبيوتهم، قال أبو الحسن بن رزقويه: كان ابن الجعابي يملي مجلسه، فتمتلي السكة التي يملي فيها والطريق[1]، فيما زاد عدد من حضر مجلس أبي الحسن عاصم بن علي الواسطي على مئة ألف إنسان، ذكر ذلك الخطيب البغدادي، وقال: حدّث ببغداد، في مسجد الرصافة، فكان مجلسه يحزر بأكثر من مائة ألف إنسان، وكان يستملي عليه هارون الديك وهارون مكحلة. وقد كان الواسطي هذا يجلس على سطح السقطات/ السقوف/ وقد استرعى هذا الأمر الخليفة المعتصم فوجّه بمن يحرز له مجلس الواسطي[2] في رحبة النخل التي في جامع الرصافة، وكان كثيراً ما يعيد مقولاته لكثرة الناس، فأعاد أربع عشرة مرّة والناس لا يسمعون، قال: وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجّة ويستملي عليها، وحزر المجلس، فكان فيه 120 ألف[3].

استطاعت هذه المجالس أن تفرض وجودها على الواقع الثقافي والسياسي، كظاهرة حضارية، وجدت في العصر العباسي، وسحبت ظلالها حتى على الخليفة العباسي نفسه، فقد ذكرت المصادر أنه كان لسليمان بن حرب الواشجي البصري مجلس عند قصر المأمون، فبنى له المأمون شبه منبر، فصعد إليه سلمان، وحضر حوله جماعة من القوّاد وعليهم السواد «شعار العباسيين» وحضر المأمون فوق قصره، وقد فتح باب القصر، وأرسل ستر يشف وهو خلفه يكتب ما يملي، فسئل أول شيء «حديث حوشب بن عقل» فلعله قد قال: حدّثنا حوشب بن عقل، أكثر من عشر مرّات، وهم يقولون: لا نسمع، حتى قالوا: ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي، فذهب جماعة وأحضروه، وقد بلغ مجلس سليمان بن حرب أكثر من أربعين ألفاً، ولما حضر هارون المستملي[4]، قال: من ذكرت، فإذ صوته خلاف الرعد، فسكتوا، وقعد المستملون كلهم، واستملي هارون وحده[5]، إذن ظاهرة الإملاء صارت حاضرة في أذهان الناس، بدءاً من الخليفة، وإنتهاءً بعامة الناس، وقد تنبّه الوزير ابن الفرات بدراية تامة إلى أهمية المستملي، فوظّف لديه مستملين، وقد كان لديه مجالس إملاء كتبها الدارقطني وتلاميذه أبو حامد ابن الشرقي وأبو سعيد[6] يسعون إليه لجمع الحديث والفقه والعلم والأدب.

---

(1) تاريخ بغداد 3/ 28 الترجمة رقم 953.

(2) كان موفدو الخليفة إلى المجلس هم (قطاعي الغنم).

(3) تاريخ بغداد 12/ 248 الترجمة رقم 6696/ وحبيب زيّات ص10.

(4) أنظر ترجمته في تاريخ بغداد 14/ 24، الترجمة رقم 7356.

(5) تاريخ بغداد 9/ 33، الترجمة رقم 4622/ وحبيب زيّات ص10.

(6) أنظر: سير أعلام النبلاء، ترجمة الدارقطني رقم 332، في 16/ 449 وما بعدها، وطبقات السبكي 2/ 97، وآدم ميتز، الحضارة الإسلامية 1/ 339.

لقد شكّلت مجالس الإملاء، الطور الأول من بداية ظهور مهنة الوراقة، بدأت كظاهرة صوتية مسموعة ومرتجلة، ثم تطورت فيما بعد لتصبح ظاهرة كتابيّة، تدوّن وتنسخ محققة بذلك، قفزة حضارية ومعرفية للأمام، في سياق الحالة العلمية والثقافية الناهضة في الحضارة العباسية في شرطيها الزماني والمكاني، في ضوء معطيات الحالة الاقتصادية والاجتماعية المتطورة.

الفصل الرابع

أثمان النسخ والتجليد

أشرنا فيما تقدم من فصول، أن مهنة الوراقة، كانت شاملة للنسخ وبيع أدوات الكتابة والتجليد وبيع الكتب[1]، ولكن مسألة النسخ تشكل العصب المركزي لمهنة الوراقة، وفي ضوئها يحدد موقع الورّاق من هذه المهنة، فإنها تعتمد على القلم أولاً وأخيراً، ومفهوم القلم هنا يعني جودة الخط، وحسن التأدية، إلى الإتقان والسرعة، الأمر الذي أملى ضرورة إيجاد صنف من الورّاقين[2] عرف بتجويد الخط وتحسينه، والبلوغ به إلى أعلى مراتب الإتقان، حتى استقلوا فيما بعد عن الوراقين، عنيت بهم «الخطّاطون»[3].

ونظراً لعدم وجود آلات كاتبة، فإن الناس كانوا يطلبون النسّاخ لتلبية حاجتهم، وقد ظلّت هذه المسألة/ النسخ/ ممتدة زمناً طويلاً من العصور الإسلامية، وشمل كثيراً من الأقطار الإسلامية التي عرفت بميل أهلها إلى العلم والأدب[4]، وقد كان للعراق شهرة واسعة في إحراز السبق في هذا الفن، لا سيما في العصر العباسي، فقد كانت بغداد مركز الخلافة ودار الإسلام، ومؤول العلم والعلماء، فمن البدهي جداً أن تكون الصناعات متركزة فيها، وعرفت بغداد بنسّاخيها وورّاقيها وخطّاطيها، الأمر الذي جعلها مبعث التفاخر والإعتزاز[5].

---

(1) راجع مقدمة الفصل الثالث من هذا الباب.

(2) سوف نتحدث بالفصول القادمة عن «أصناف الورّاقين».

(3) أفردنا باباً خاصاً في هذه الدراسة، بل وطوّرنا العمل حتى أصبح كتاباً كاملاً.

(4) كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق ص9.

(5) أنظر: أبو المطهر الأزدي/ حكاية أبي القاسم البغدادي/ ص24، بعناية آدم ميتز، طبعة هيدلبرج، سنة 1902م.

ونظراً لكون الوراقة حرفة، يعتاش منها، ويرتزق بها، فإن العامل الاقتصادي، يدخل في منظور تحديد أجرة النسخ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يدخل مبدأ «العرض والطلب» في هذا السياق أيضاً، ولكن هناك أموراً أخرى تحدد السعر، تعتمد على حرفيّة الورّاق نفسه، يصح أن نطلق عليها اصطلاح: «مقومات الورّاق» وأهمّها حسن الخط والضبط، حيث كان الورّاقون يتبارون فيما بينهم لإثبات وجودهم في المهنة، وتحقيق سمعة محمودة في سوق الورّاقين، تشكل رأسمال الورّاق في المقام الأول، فقد كانت جودة الخط، والضبط في النقل، والحذق والتزويق، والتذهيب في كتابة المصاحف، من الأمور الثابتة والمطلوبة في الورّاق[1]، وفي ضوء هذه المقوّمات، إضافة لما سبق ذكره تحدّد أثمان النسخ.

وهناك أمور أخرى قد ترفع من سعر النسخ، كالسرعة في الكتابة، والمبيت في أحد المنازل للشخص طالب الورّاق، والذي يودّ سرعة إنجاز العمل، فمن ذلك أن الشافعي (محمد بن إدريس) أراد تحصيل كتب محمد بن الحسن، فوجّه إلى كاتبه/ كاتب محمد ابن الحسن/ مائة دينار، وطلب منه جمع الورّاقين في ليلة واحدة، كي ينسخوا كتب محمد ابن الحسين، فكتبت[2].

وهنا كان السعر للنسخ مرتفعاً للضرورة التي تطّلبتها الحال، فأنجز العمل بأسرع ما يكون، فيما كان سعر نسخ الورقة الواحدة (كل 5 ورقات بدرهم) في زمن المأمون[3] على أساس سعر السوق، فيما كان راتب الورّاق في دواوين الدولة العباسية في زمن المكتفي بالله (16 ديناراً شهريا)، والشهر 50 يوماً[4].

والنسخ ضمن مهنة الوراقة، يعتمد على وعي الورّاق الجمالي والحسّي من جهة، ومن جهة أخرى يتطلب الأمر من الوراق أن يكون مدركاً للزمن الذي يورّق فيه في ضوء سعر السوق السائد، فلا يصح أن يكون سريعاً، دون عناية ودقة وضبط وجودة خط، ولا يصحّ أيضاً أن يكون بطيئاً، بحيث يفضي بالورّاق إلى عدم كسب قوت يومه، وهذه المعادلة، كان الورّاقون يدركونها بشكل جيّد، لذلك أوجد عامل الإبداع عندهم حدّا مقبولاً، يخضع إلى مقوّمات علمية وفنية، تجسّد، في الخط ونوعيته، لتحقيق شرط السوق في هذه المهنة، لذلك أوجد الورّاقون، ثلاثة أنواع من الخطوط، استخدموها في عملية النسخ، هي: الخط

---

(1) حبيب زيّات ص14.

(2) معجم الأدباء 17/ 289، الترجمة رقم 83.

(3) تاريخ بغداد 14/ 150 ترجمة الفرّاء، رقم 7467.

(4) الصابي/ تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص17.

الوراقي، والخط المحقق، والخط العراقي[1]، وهذه الأقلام الثلاثة كانت هي السائدة وقتذاك عند النسّاخين بشكل عام ومشترك، لكن نسّاخي الحديث كان لهم قلم مختزل، رقيق الحروف، متراصّ، تسهل معه مقاربة ما بين السطور، وتوفير الورق والرق، نظراً لكون أسعارها آخذة دوماً بالارتفاع، وهذا الخط سمّي بـ«المقرمط»[2]، وقد أشار ابن عساكر إلى الفروق بين خطّ الوراقين وخط علماء الحديث، حيث ذكر ذلك في معرض حديثه عن الحسين ابن أحمد النيسابوري الحافظ، فقال: أفنى عمره في جمع المسند الكبير ووصف بأنه كان سفينة عصره في كثرة الكتابة والسماع والرحلة، وقد وقع تصنيفه لهذا المسند في ألف وثلثمائة جزء، لم يصنف في الإسلام مسند أكبر منه، ويضيف ابن عساكر: ولقد قلت على التحقيق أنه يقع في خطوط الورّاقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء[3].

وراقة المصاحف:

قلنا أن مهنة الوراقة، مهنة إسلامية[4]، وبهذا يكون للشريعة الإسلامية، الإسقاط المباشر على هذه المهنة، فلقد لعب الإسلام، فكراً وحضارة، دوره الإيجابي في مختلف الفنون والآداب، والصنايع والحرف، لذلك إنتبه الورّاقون إلى علوم الدين والشريعة، وشكل نسخ القرآن ووراقته مادة هامة وأساسيّة في عملهم، ولقد رأينا في مجالس الإملاء، كيف أنها كانت منصبّة على علوم الدين واللغة، على إعتبار أن المصادر الأساسية للثقافة العربية الإسلامية قد صدرت من هذين الفرعين، ومن ثم تطورت إلى العلوم الأخرى، ونظراً لكون الورّاقين واكبوا هذا التطور المعرفي - الثقافي، لذلك تخصّص قسم منهم في وراقة المصاحف من وازع ديني وثقافي، مضافاً إليه تفتح في رؤية جمالية أضفت حضورها على الخط العربي إبداعاً وتشكيلاً، وكان الخطّاطون، هم الصنف الأبرز لامتهان هذه الوراقة، أمّا تجليد الكتب: فهو أحد فروع الوراقة، الذي واكبها منذ البدايات، حتى بلغ هذا الفن في العصر العباسي ذروته، رغم أنه بدأ ساذجاً إلا أنه تطور فيما بعد أيما تطور، لم يكن المراد من تجليد الكتاب صيانته داخل جلد وحسب، بل كان يراد من الجلد ذاته أن يكون قطعة ظريفة يظهر عليها أثر الفن والذوق[5].

---

(1) ابن النديم/ الفهرست ص11 - 12/ وحبيب زيات ص15.

(2) القرمطة = دقة الكتابة ومقاربة الخطو، أنظر القاموس المحيط/ مادة قرمط/ .

(3) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر 4/ 253، باب الميم في/ آباء من اسمه الحسين/ طبعة روضة الشام سنة 1332هـ.

(4) انظر الفصل الثاني من هذا الباب.

(5) كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق ص20.

كان المجلّدون الأوائل، قليلي التفنّن في عملهم هذا، حيث إنتبه الورّاقون إلى صناعة دباغة الجلود، تلك الصناعة التي كانت تستخدم جلود دباغ النورة، الشديدة الجفاف، ثم ظهرت الدباغة الكوفية مستخدمة التمر في الدباغة، الأمر الذي أكسبها لينةُ ومرونة[1]، ممّا ساعد على التعامل مع هذه الجلود، واستخدامها في فن التجليد.

لقد كانت القوى والفرق الإسلامية المعارضة للسلطة العباسية، على تماس مباشر مع الورّاقين، ولديهم جماعات منهم، فقد عرّفتنا أحداث سنة 309هـ أن أصحاب الحسين بن منصور الحلاّج، عندما جدّ الوزير حامد بن العباس في القبض عليهم، ومنهم ابن حمّاد والفنائي، وعندما كبست دورهم وجد فيها أشياء بخط الحلاّج مكتوبة بماء الذهب في ورق الحرير، مجلّدة بأفخر الجلود[2]. وعلى ما يبدو أن بداية (ق 4هـ) كانت تؤشر بملامح واضحة على تطور فن التجليد، ليس ببغداد وحدها، بل في كثير من المدن الإسلامية الأخرى، فلقد أشار المقدسي في معرض حديثه عن نفسه، حيث ذكر أنه لقب بـ«ورّاق ومجلّد»[3]، ثم يذكر أنه اشتغل بـ«تجليد المصاحف بالكرى»[4]، ثم يذكر في موضع آخر[5]، أن أهل اليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشاء، وبعث إليّ/ والحديث للمقدسي/ أمير عدن مصحفاً أجلّده فسألت عن الأشراس[6].

بالعطارين فلم يعرفوه، ودلوني على المحتسب وقالوا عساه يعرفه، فلما سألته، قال: من أين أنت؟ قلت: من فلسطين، قال: أنت من بلدة الرخاء، لو كان لهم أشراس لأكلوه عليك بالنشاء، وأضاف المقدسي: ويعجبهم التجليد ويبذلون فيه الأجرة الوافرة، وربّما كنت أعطى على المصحف دينارين[7]، وهذا الخبر يوضح مدى انتشار هذا الفن وأهميّته في عملية الوراقة.

وعلى ما يبدو أن فن التجليد، عند الورّاقين، قد وجد مكانه في سوق الورّاقين، وراحت شهرة المشتغلين فيه تنتشر بين الأقاليم والأمصار الإسلامية، حتى أن ابن النديم جاء على ذكر أشهرهم، ومنهم: ابن أبي الحريش، وكان يجلّد في خزانة الحكمة للمأمون،

---

(1) ابن النديم/ الفهرست ص32.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية 11/ 140، أحداث سنة 309، ترجمة الحلاّج.
(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص43، طبعة ليدن 1904م.
(4) نفس المصدر السابق ص44.
(5) نفس المصدر السابق ص 100، وكوركيس عواد/ المرجع المذكور ص 21.
(6) أحد المواد الأساسية في التجليد، ربما كان مادة صمغية.
(7) أحسن التقاسيم ص100.

وشفة المقراض العجيقي، وأبو عيسى بن شمران، وديانة الأعصر بن الحجام وابراهيم بن محمد، والحسين ابن الصفّار[1].

إنَّ عملية التجليد عند الورّاقين جلبت انتباه المعاصرين، نظراً لما لهذه المهنة من وقع حاضر لصدى التاريخ الماضي من جهة، ومن جهة أخرى، كانت فنّاً قائماً ترك آثاره وراح يؤكد حضوره، لذلك صنّف الآثاري «فوردريك ساره» كتاباً في التجليد الإسلامي ضمّنه (36 لوحة) تمثل فنّ تجليد الكتب العربية والإسلامية، كما نشر غيره كتباً في الموضوع نفسه[2].

الفصل الخامس

النسخ والمقابلة عند الورّاقين - أو - منهج الوراقة

ليس من السهل تصور عمل الورّاق على أنه مجرّد «ناسخ» فالحقيقة التي تبرز من خلال عملية الوراقة، تدلّل على أمور غاية في الصعوبة، حيث هناك منهجية دقيقة يلتزم بها الورّاق، لإتمام عمله وإلا نفقت سوقه، وتداعت مهنته، وكسفت شموس حظّه، وتجاوزه الزمن.

لقد كان منهج النسخ والمقابلة في عمل الورّاقين، هو المنهجية الحقيقية المتطورة لعمل الوراقة، فقد شكلت هذه المنهجية، الطورالأعلى والمتقدم لمنهجية الإملاء الأولى، التي إنطلقت منها عملية الوراقة في البدء، فقد كانت المنهجية الأولى في مجالس الإملاء، سماعية ومباشرة، فيما راحت منهجية النسخ والمقابلة تشكل عملية معرفية بالأساس، يدخل الإبداع فيها كعامل مساعد، فيما تنتظم مجموعة عناصر أخرى لإتمام العمل، حيث صار التعامل وفق ما هو مكتوب بيد المؤلف، أو ما يعرف بـ«المخطوط أو الأصل» أو - المسوّدة - وعلى ضوء هذا الأصل، تأتي بقية الخطوات في منهج الوراقة، والتي يمكن تحديدها بالنقاط التالية: أ - المخطوط أو الأصل. ب - الترخيص. ج - القراءة على المؤلف. د - الإجازة من المؤلف. هـ - السماح بالتداول. ويتبع هذه الأمور المنهجية أمور فنية تخصّ الناحية المهنية، من حيث الابتداء والتصدير في أول الصفحة وغيرها، أو ما تعرف اليوم بـ«الإخراج الفني» وسنحاول في هذه الصفحات معرفة كل نقاط المنهج الوراقي، حسبما تكشف لنا في البحث ولنبدأ بـ:

---

(1) الفهرست ص14.

(2) كوركيس عواد/ خزائن الكتب ص22.

أ - المخطوط أو الأصل:

هي نسخة الكتاب، الذي أنشأه المؤلف، وقام بنسخه بيده، والخَطّ في اللغة يعني: الأثر أو العلاّم الدال على الشيء، حيواناً كان أو مكاناً[1] ومن أصل هذه الكلمة إشتق الاصطلاح، فصار مخطوط، والعربية لغة الاشتقاق.

فالمخطوط، نسخة الأصل التي كتبت بخط المؤلف، ووقف عليها بنفسه، قبل أن يطلع عليها غيره، ويطلق عليها أيضاً اسم «المسوّدة» ودائماً ما تخضع إلى الإضافات أو الحذف أو التهميش، أو الزيادة أو النقصان، فما دامت لم تبيّض، فهي مسوّدة، وإذا نسخت، أصبحت مبيّضة، ووجب الالتزام بكل عمليات النسخ ومنهج الوراقة، ولمسوّدة العمل أهميتها عند الأوائل، فهي تكشف عن ذاتية المؤلف نفسه، وطريقة كتابته، وخطّه، وتعليقاته، لذلك أصبحت من الأمور الثمينة النادرة، وتزاحم عليها أكابر العلماء والأدباء والسلاطين والولاة، تقديراً ومكافأة لصاحبها الأصلي، وتعظيماً لمنزلته العلمية والأدبيّة، لذلك كان سعرها مرتفعاً في سوق الورّاقين، ففي هذا الصدد تنقل المصادر أن مسوّدة كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني قد بيعت بسعر مرتفع، وطُلبت بعد ذلك ولم يحصل عليها، ينقل ياقوت الحموي هذا الخبر على النحو التالي:

قال: «أبو جعفر محمد بن يحيى بن شهرزاد: إتصل بي أن مسوّدة كتاب الأغاني، وهي أصل أبي الفرج، أخرجت إلى سوق الورّاقين لتبتاع، فأنفذت إلى إبن قرابة وسألته إنفاذ صاحبها لأبتاعها منه لي، فجاءني وعرّفني أنها بيعت في النداء بأربعة آلاف درهم، وأن أكثرها في طروس وبخط التعليق[2]، وأنها اشتريت لأبي أحمد بن محمد بن حفص، فراسلت أبا أحمد، فأنكر أنه يعرف شيئاً من هذا، فبحثت كل البحث فما قدرت عليها[3]، مع العلم أن إحدى نسخ «الأغاني» بيعت بـ«عشرة آلاف درهم» وهي مبيّضة[4] الأمر الذي حمل أبا تغلب بن ناصر الدولة، أن يتأسّف لإضاعة وقت جهد الورّاق حيث قال: لقد ظلم ورّاقه المسكين، وأنه ليساوي عندي عشرة آلاف دينار، ولو فقدت لما قدرت عليه الملوك إلا بالرغائب[5] وهنا نلاحظ أن متذوّقي الأدب، في ذلك العصر، ينطلقون من موقف معرفي، لما تحويه مثل هذه الكتب.

---

(1) أنظر: التاج واللسان - مادة «خطط».

(2) يطلق عليه الآن اسم: الخط الفارسي.

(3) معجم الأدباء 13/ 126 - 127 في ترجمة أبي الفرج الأصبهاني، الترجمة رقم 17.

(4) المصدر السابق 13/ 126.

(5) نفس المصدر 13/ 125 - 126.

ب - الترخيص:

هو المبدأ الثاني، ضمن منهج الوراقة، وهو المبدأ الأخلاقي الأول للمعاملة بين المؤلف والورّاق، حيث يطلب الورّاق من صاحب المخطوط أن يأذن له[1] في نسخ - المخطوط - وهو بعد في طور «المسوّدة» وإذا تمّت الموافقة من قبل المؤلف: يبدأ الورّاق بإعداد العدة للبدء بعملية النسخ، ويبدأ عمله مراعياً كل نقاط منهج الوراقة، المعرفي والفني، في ذلك، أي أنّه يعد المسوّدة إلى الخروج بصيغة كتاب مستوفٍ لكل شروطه، لكن المؤلف يطلب من الوراق أو الورّاقين، قبل التفويض بالعمل أن يقرأوا عليه النسخة الأولى التي بين أيديهم، أو يختار واحدة وورّاقاً واحداً، ويقوم بعملية المطابقة والتمحيص على الأصل، وتتمّ طريقة ذلك بأن يقرأ النسّاخ المخطوط بصوت مسموع على المؤلف[2] وتنتج أهمية هذا الإجراء من المحافظة على المخطوط - قبل صدوره ككتاب - على ما يتضمّن من أفكار وآراء، من ناحية، ومن ناحية ثانية، الحفاظ على العرف السائد، وقتذاك، والطريقة المتّبعة في نشر العلوم الصحيحة، وتعميمها، إضافة إلى أنها تشكّل مبدأ الإجهار والعلنية لعمل المؤلف من جهة، والحفاظ على حقه وحق الورّاقين، من جهة ثانية، كما أن هذه الطريقة لا تخلو من تعميم فائدة للمستمعين، إضافة إلى أنها تشكّل بُعداً إعلامياً للكتاب ومؤلفه.

ج - القراءة على المؤلف:

ضمن شرط الترخيص لنسخ الكتاب، أو طبعه، فإنه تجري عملية قراءة ما ينسخ على المؤلف أولاً بأول، ويذكرالنسّاخ عبارة «قرأت على فلان، أو قرئت لفلان وفلان» للتأكد من صحة الخبر ونقله، وتجري هذه العملية، كما أشرنا، بحضور المؤلف، وعلى مشهد ومرأى من الناس، وعلى ما يبدو أن هذه الطريقة رافقت الورّاقين منذ مجالس الإملاء، حيث كانت تجري عملية حفظ القرآن بهذه الطريقة، أي السماع، فعندما كان الشاب يحفظ القرآن كله فإنه يتقدم بقراءته أمام عالم بالقرآن، قراءة ونطقاً وإعراباً، كي يجري التأكد بأنه تعلّم نطق النصّ بالشكل الصحيح، فقد إختارالرشيد الكسائي النحوي[3] ليشرف على تعليم الأمين القراءة الصحيحة، حيث عرف عنه أنه كان يتلو وينقطون على المصاحف[4]، وكان

---

(1) أنظر مادة: رخص، في اللسان.

(2) راجع بهذا الصدد الفصل الثالث من كتاب يوهانس بيدرسون/ الكتاب العربي منذ نشأته حتى عصر الطباعة، ص43 - 57.

(3) راجع ترجمته في: سير أعلام النبلاء 9/ 131، الترجمة رقم 44، وغيره من المصادر.

(4) سير أعلام النبلاء 9/ 132.

الكسائي يجلس أثناء الدرس منحني الرأس، وعندما يرتكب الأمين خطأ، كان يرفع رأسه، ويصحح الأمين خطأه[1].

وأثناء عملية القراءة، فإن المؤلف يعاود استحضار مادته المكتوبة، سواء بإملائها على الناسخ، أو بالإستماع إلى قراءتها عليه، وكان غرض الورّاق، من القراءة على المؤلف هو الحصول على الترخيص أولاً، ومن ثم الإجازة على النسخ «النشر» ثانياً، ويصادف أحياناً أن أكثر من ورّاق يطلب الاذن والترخيص من المؤلف ليقوم بنسخ كتابه، والذي كان قد أملاه في مكان ما، في هذا المسجد أو ذاك الجامع، وكان الورّاقون جالسين فيه فكتبوا ما أملاه، دون أن يشعرهو بذلك، وهذه كثيراً ما ترد، لكنها لا يؤخذ بها، ما لم تجر عملية الترخيص والإجازة من قبل المؤلف ذاته وبذا يصبح من المفروض عليهم إعادة القراءة عليه كي يجيز تلك النسخ، وإلا أصبحت باطلة، وغير معترف بها في أروقة السوق ومجالس العلم والأدب. .

وعملية إعادة القراءة على المؤلف ليست مسألة سهلة، فأمرها يتعلق بوقت المؤلف، وقد تدوم طويلاً، لذلك كان العلماء والأدباء والمؤرخون، يمنحون الورّاقين أوقاتاً معلومة، وعلى هؤلاء الحضور في وقتها المحدد، لغرض المراجعة والتدقيق بغية إعطاء الترخيص والإجازة للعمل الذي سينشر، وأحياناً يريد المؤلف أن ينشر المعرفة من خلال هذه العملية، فمن ذلك ما ورى عن محمد بن جرير الطبري أنه كان مجوّداً في القراءة موصوفاً بها، يقصده القرّاء البعداء من الناس للصلاة خلفه، يسمعون قراءته وتجويده[2] وعندما طلب منه أبو بكر بن مجاهد أن يسمع منه قراءة عن رواية ورش عن نافع. . عن القراءات التي وردت في كتابه «التفسير الكبير» رغم ما لأبي بكر من منزلة عند الطبري، فأبى عليه إلا أن يسمعها من الناس[3]، ويعلّق ياقوت الحموي على ذلك بقوله: وكان ذلك كرهاً من أبي جعفر/الطبري/أن يخصّ أحداً بشيء من العلم، وكان في أخلاقه ذلك، لأنه كان إذا قرأ عليه جماعة كتاباً، ولم يحضره أحدهم، لا يأذن لبعضهم أن يقرأ دون بعض، وإذا سأله إنسان في قراءة كتاب وغاب، لم يقرأه حتى يحضر الآ كتاب الفتوى، فإنه كان أي وقت سئل عن شيء منه أجاب فيه[4].

---

(1) المصدر السابق، وكذلك: يوهانس بيدرسون/ المرجع المذكور له/ ص50. وقد جاء عنده «المأمون وليس الأمين».

(2) معجم الأدباء 18/ 66 ترجمة الطبري، رقم 17.

(3) المصدر السابق 18/ 67.

(4) نفس المصدر 18/ 67 - 68.

وقد عرف عن الطبري، ضمن منهجيته في الإملاء، أنه كان يبتدىء بخطبة تصبّ في صلب موضوعه، ثم يبتدىء بدرس كتبه، الأول فالأول، وتكون في جانب حائر[1] إلى أن يفرغ منها فينقلها إلى الجانب الآخر وهكذا[2]، وقد بدأ هكذا في كتابه الهام/ تاريخ الرسل والملوك/ وأخرج ذلك إلى الناس على سبيل الإجازة إلى سنة 294هـ، ولم يؤرخ للمقتدر الذي كان معاصراً له، ويقع الكتاب في نحو خمسة آلاف ورقة[3].

وقد شكّلت مسألة المراجعة والقراءة على المؤلف مرحلة من مراحل التأليف هي من الأهمية بمكان عند المؤلف ذاته، فربما حذف وربما أضاف، وقد نوّه ابن النديم إلى ذلك في معرض حديثه عن «أبو عمر الزاهد» وكيف أضاف «يواقيت جديدة» إلى كتابه «الياقوت في اللغة» وقد أشرنا إلى ذلك[4].

وفي ضوء ذلك، يكون الكتاب/ المخطوط/ قد مرّ بعدة مراحل، استغرقت زمناً، وبذل فيه جهداً ليس عادياً، فلاحظنا أن الكتاب يقرأ للجمهور أولاً - في مرحلة الإستملاء - ثم يقرأ علناً على الناس بحضورالورّاقين الذين نسخوا عن المؤلف بتلك المجالس، ثم يقرأ ثالثة، وتكون آخر قراءة على المؤلف، يصادق بعدها على إجازة العمل، وفق آخر قراءة له أو عليه، ويكون الشهود في المكان، المجلس، المسجد، الجامع، قد سمعوا تلك القراءة، واقرّ هو بنفسه تلك القراءة أمام الناس علانية.

د - إجازة المؤلف:

بعد أن يصل الكتاب إلى مرحلة - القراءة الأخيرة على المؤلف - وقتذاك، يعطي المؤلف إجازته للعمل، لأن الإجازة شرط مسبق قبل القيام بعمل النقل أو النسخ، وإعطاء الإجازة من قبل المؤلف للورّاق، تعني حصول «الموافقة الشرعية» أو ما يعرف اليوم بـ«توقيع العقد بين الطرفين «الناشر والمؤلف»، وإعطاء الإجازة من قبل المؤلف، تعني موافقته الكاملة بنقل الأثر الأدبي أو العلمي، الصادر عنه بالذات[5]، وقد اعتاد الورّاقون، ذكر عبارة «سماعاً عنه» ويكتبونها في مستهل الحديث عن الكتاب أو المقدمة، وهو منهج سار عليه الأوائل من قبلهم[6].

(1) الحائر = المطمئن.
(2) معجم الأدباء 18/ 68 - 69.
(3) نفس المصدر السابق 18/ 70.
(4) راجع الفهرست/ ص113 - 114 - والفصل الثالث من هذا الباب.
(5) راجع - يوهنس بيدرسون/ الكتاب العربي/ ص53 حيث أشار إلى ذلك.
(6) راجع الخطيب البغدادي وكتابه/ تاريخ بغداد/ فهو يوضّح ذلك المنهج.

وعندما يعطي المؤلف ترخيصه للكتاب، فإن الورّاق، يكون قد أكمل إجراءات الحيازة الكاملة على الكتاب، وأصبح بدوره مخوّلاً بنقل الكتاب «نسخه» بنفس الأسلوب، وأي شخص مفوّض بمثل ذلك يمكنه أن يفوّض آخرين، على شرط أن يتأكد بنفسه أن نسخهم تتّفق مع نسخته، وقد كان هذا يحدث بنفس الاسلوب تماماً، كما حدث عندما منح المؤلف إجازته، تقرأ النسخة الجديدة وتطابق مع حائز النسخة الأصلية المجازة، وهكذا تعتمد المسألة على وجود سلسلة غير منقطعة من الإجازات التي تتصل بنسخة المؤلف الأصلية[1] وقد شاهد ياقوت الحموي نسخة من كتاب «الأغاني» ذات إجازة متصلة، تصل رجوعاً إلى الدهكي[2] الذي كان قرأها على المؤلف وتلقى منه الترخيص سنة 612هـ[3].

وتنشأ ضرورات لإعادة «طبع الكتاب» أو إعادة إملائه أو نسخه مجدداً، فقد يشك المؤلف في وجود تلاعب عند الورّاقين في مخطوطته، وهو مألوف عندهم[4]، لذلك يضطر المؤلف إلى إعادة «صيغة الإجازة» حيث أن هذه الصيغة تتوقف على ما إذا كانت نقلت عن طريق سلسلة من المستندات أو المراجع الموثوقة، فمن المعروف والشائع عندهم أن كل صيغة للإجازة تخصص لمخطوط واحد[5].

وقد أورد ياقوت الحموي، بعض النماذج من «صيغ الإجازة» التي كانت تعطى للورّاقين فقد ذكر العبارة التالية[6]: «وجدت على جزء من كتاب (التفسير) لابن جرير (الطبري) بخط الفرغاني[7]، ما ذكر فيه قطعة من تصانيف ابن جرير فنقلته على صورته لذلك، وهو: قد أجزت لك يا عليّ بن عمران وابراهيم بن محمد ما سمعته من أبي جعفر الطبري ﵀، من كتاب التفسير، المسمى بجامع البيان عن تأويل آي القرآن، وكتاب تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء، والقطعين من الكتاب، ولم أسمعه، وإنما أخذته إجازة، وكتاب تاريخ الرجال المسمّى بذيل المذيّل وكتاب القراءات وتنزيل القرآن، وكتاب لطيف القول وخفيفة في شرائع الإسلام، وما سمعته من كتاب التهذيب، من مسند العشرة، ومسند ابن عباس إلى حديث المعراج، وكتاب آداب القضاة، والمحاضر، والسجلات،

---

(1) يوهنس بيدرسون/ الكتاب العربي/ ص54 - 55.

(2) وردت عند المترجم د. حيدر غيبة بإسم «الدهاقي» في كتاب يوهنس بيدرسون ص55.

(3) معجم الأدباء 12/ 217 الترجمة رقم 53 لعلي بن إبراهيم بن محمد الدّهكي.

(4) سوف نتحدث عن ذلك في فصل - أخلاق الورّاقين.

(5) يوهنس بيدرسون/ المرجع السابق ص55.

(6) معجم الأدباء 18/ 44 - ترجمة الطبري.

(7) راجع ترجمته في تاريخ بغداد 9/ 389؛ وسير أعلام النبلاء 16/ 132.

وكتاب إختلاف علماء الأمصار، فليرويا ذلك عنّي، وكتب عبد الله بن أحمد الفرغاني بخطّه في شعبان سنة ست وثلاثين وثلاثمائة[1].

هذه الصيغة واضحة الدلالة تماماً، وذات صبغة شرعية، أجازت للمتلقي الأول وهو الفرغاني، الذي أخذ عن الطبري - المؤلف - مباشرة، والفرغاني واحد من علماء الحديث ورجالات علم التاريخ[2]، وبذا يكون قد صحب المؤلف وأعطاه الإجازة، وقام هذا بدوره بإعطاء الإجازة إلى متلقين آخرين «ورّاقين» هما: علي بن عمران وابراهيم بن محمد، وقد أشار نص الصيغة إلى مبدأ (الأمانة العلميّة) حيث أشار إلى «ما سمعته» و«لم أسمعه وإنما أخذته إجازة» وبذا يكون النصّ قد أعطى الصيغة الرسمية للتداول والنشر، بموجب صيغة التخويل هذه، إضافة إلى ذكر عدّة كتب للطبري، ولا ينسى المخوّل بالإجازة - الفرغاني - ذكر مسؤوليته الشخصية بذلك، حيث النص الوارد بالصيغة يوضّح ذلك من خلال، توقيع الفرغاني ورسمه القائل: كتب عبد الله بن أحمد الفرغاني، إضافة إلى ذكر التاريخ الذي حصلت فيه الإجازة وهو: سنة 336هـ، وفي ضوء هذه الصيغة الواضحة، يكون بمقدور الورّاقين، نسخ عدة نسخ من تلك الكتب المذكورة.

ويشترط منهج الوراقة، كما أسلفنا، موافقة المؤلف، ولكن قد يحدث أحياناً، أن المؤلف يكون في بلد آخر، والوصول إليه صعب ومكلف، ومع ذلك يبقى الورّاق أميناً في الحصول على موافقة المؤلف وأخذ الإجازة منه، وهذا المبدأ - بتقديرنا - فرضه العرف في صنف الوراقين والوازع الديني الأخلاقي، في رؤيته الإسلامية، والذي كان يحصّن الأصناف التي كانت ترى فيه إيماناً وجدانياً، يجب المحافظة عليه، فمن ذلك، أن ياقوت الحموي، وهو ورّاق مشهور، نسخ كتاب ابن العديم «الأخبارالمستفادة من ذكر بني أبي جرادة» وهم أهل ابن العديم ونسبه إليهم، وظل محتفظاً به مدة، إلى أن صادفه في إحدى جولاته وقرأه عليه «فأقرّ به»[3]، وهنا يكون ياقوت قد حصل على الإجارة بعد هذا الإقرار من قبل المؤلف، ويحق له «النسخ والكتاب، اي نشره» وفق مقتضى الحال، والجميل في الأمر، أن المؤلف، عندما يُشاهد مثل هذا التعامل، يطمئن إلى ورّاقهِ ويُفوّضهُ الأمر.

أشكال أخرى من (صيغ الإجازة)

من خلال استعراضنا لمفهوم «الإجازة» لمسنا أن هذا «المبدأ» هو عرف سائد في كثير من علوم المسلمين، لا سيما الذين يتعاطون «الثقافة الإسلامية» من حيث النقل والعقل،

(1) معجم الأدباء 18/ 44 - 45.

(2) راجع تاريخ بغداد 9/ 389؛ وسير أعلام النبلاء 16/ 132.

(3) معجم الأدباء 16/ 5 - 6 ترجمة ابن العديم، رقم 1.

ومن حيث الحفاظ على «أمانه الناقل والمنقول»، حتى أصبح مفهوم الإجازة نعتاً يُتعاطى بِهِ في الأوساط العلمية والثقافية والدينية، على حدٍ سواء، حتى أن العلامة «محمد الزركشي» ينقل عن بعض المحققين أنّه ذهب إلى أن «الإجازة أعلى منزلة من السماع» لا سيما في أوساط نقلَةِ الحديث والمُتعاطين به[1]، إذ أنَّ هذا الوسط معني بالنقل أكثر من غيره، بحكم التخصص من جهة، وبحكم مادة النقل «الحديث النبوي» وحديث الصحابة، من جهة ثانية، لذلك اشترطوا عدّة اشتراطات على (عالِمْ الحديث) ورّاقاً كان أو صاحب حديث، إذ أنهم أوجدوا «مراتب لكل نوع من الإجازة» وفق التنويع التالي:

1 - **إجازة خاص بخاص**: وحاصلها أن يُعيّن الشيخ الشخص المجاز، والكتاب أو الجزء الذي أجازهُ به، كأن يقول: «أجزت فلان بن فلان أن يروي عني» صحيح البخاري، أو يقول: «أجزتُكَ كتاب كذا» وهذا النوع أعلى أنواع الإجازات[2].

2 - **إجازة خاص بعام**: وحاصلها أن يُعيّن الشيخ الشخص المجاز ولا يُعيّن ما أجازه بِهِ من الكتب أو الأجزاء أو الأحاديث، كأن يقول: «أجزتك جميع مسموعاتي» أو «أجزتكم جميع مسموعاتي».

3 - **إجازة عام**: وحاصلها أن يعيّن الشيخ في الذين أجازهم ويُعمّم أيضاً في الكتب والأحاديث أو الأجزاء التي أجاز بها، كأن يقول: «أجزت لكل أهل العصر جميع مروياتي» أو يقول: «أجزتُ جميع المسلمين بجميع مروياتي». وهو على ضربين، أحدهما: أن يكون العموم منحصراً في طائفة معينة، كأن يقول: «أجزتُ أولاد فلان» أو «أجزت طلبة العلم في المكان الفلاني»، والثاني، لا يخص بِهِ طائفة معيّنة، كما هو أعلاه.

4 - **إجازة شخص معين بكتابٍ مجهول**: أو يجيز شخصاً مجهولاً بكتاب معيّن، وهو على ضربين:

الأول: هو إجازة المعيّن بالمجهول، هو أن يقول الشيخ: «أجزتُ فلان بن فلان» أو «أجزتُك بجميع مروياتي» ومنه أن يقول: «أجزتُ فلاناً، أو أجزتُكَ بكتاب التسنن» إذا كان الشيخ يروي كُتباً متعدّدة، كل واحد منها إسمه «السُنَن».

وهناك أنواع أخرى من هذه الإجازات لطالبي (علم الحديث) من أمثال: «الإجازة

(1) راجع مقدمة د.بهيجة الحسيني، لتحقيقها مخطوطة «إستجازة الحافظ».

السلفي الشيخ الزمخشري، والمنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 23. لعام 1393هـ/ 1973م، ص 158 وما بعدها.

للمعدوم، والإجازة بما لم يتحمله الشيخ نفسه، وإجازة المجاز» وهذه «الإجازة» محصورة بعلماء الحديث وطلابه، أكثر من بقية الفنون الأخرى.

وأحياناً تأتي «صيغة الإجازة شعراً» رغم كونها صدرت من علماء الحديث، فهذا أبو شجاع عُمر بن أبي الحسن البسطامي «المتوفي 570هـ/ 1175م) يردُّ جواباً على الحنفي السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، وقد طلب الإجازة منه، فقال:

إني أجزتُ لكم عنّي روايتكم بما سمعت من أشياخي وأقراني

من بَعد أن تحفظوا شرط الجواز لها مستجمعين لها أسباب إتقانِ

أرجو بذلك أن الله يذكرني يوم النشور وإيّاكم بغفراني

* كما أن بعض النساء العالمات قد أخذت الإجازة من كبار العلماء والأدباء والحفاظ، من أمثال: أم المؤيّد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري (524 - 615هـ) كانت قد أخذت الإجازة من كبار العلماء والأدباء والحفّاظ من أمثال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي والزمخشري وغيرهم.

ومن أجمل الصيَّغ للإجازة «نثراً» هو ما ورد عند الحافظ السلفي وهو يطلب الإجازة من العلاّمة الزمخشري، حيث يوقفنا إسلوب طلب الإجازة على حالةٍ من الرُقي المعرفي والثقافي لا يمكن أن ترقى لها حالة العصر الراهن، إذ شكل الخطاب الثقافي يفصح عن مدى إهتمام الناس بالعلماء، ومدى تواضع العلماء، وشروط المعرفة لهذه الإجازة، وبغية الوقوف الدقيق على هذا «النموذج» الرفيع من الإجازة، نورد أدناه نص المكاتبة بين الطرفين، كما وردت محققة من قبل د. بهيجة الحسيني.

إستجازة السلفي الزمخشري الأولى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أعِن يا كريم

(إنَّ رأي الشيخ الأجل العالم - أدام الله توفيقه - أن يجيز مسموعاته وإجازاته ومروياته، وما ألّفهُ في فنون العِلم، وأنشأهُ من المقامات والرسائل والشعر لأحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصفهاني، ويذكر مولدَهُ ونسبه إلى أعلى أب يعرفهُ ويثبّت كلَّ ذلك بخطّه تحت هذا الإستدعاء، مضافاً إليه ذكر ما صنَّفهُ، وذكر شيوخه الذين أخذ عنهم، وما سمع عليهم من أمهات المُهمّات، حديثاً كان أو لغةً أو نحواً أو بياناً، فَعَل مثاباً وإن تمَّمَ إنعامَهُ،

وغير ذلك من نظمه، ومِمَّا أنشده شيوخه من قبلهم أو من قبل شيوخهم بعد تسمية كلّ منهم وإضافة شعره إليه.

والشرط في كلّ هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله، كان له الفضل. وكذلك إن صحبهُ شيئاً أصحبهُ بشيء من رواياته، أنعَمَ بكُتب أحاديث عالية، والله تعالى يوفقه ويحسن جزاءهُ، ويطيل لنشر العِلم والإفادة بقاءه.

ويعلم - وفقّه الله - أنَّهُ قد وقع إلينا كتاب من يعقوب بن شيرين الجندي إليه وفيه قصيدة يُرثي بها البرهان البخاري، والحاجة داعية إلى تعرّف إسمه ونسبه وضبطه، هل هو إبن شيرين بالشين المعجمة أو السين المهملة؟ وكذلك الجندي - بفتح الجيم والنون، أو ضم الجيم وإسكان النون بعدها؟

والحمد لله حقَّ حمده، وصلواتهُ على سيدنا محمَّدٌ نبيه وعبده، وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين من بعده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إجازة الزمخشري السلفيّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللّهم غفراً

أسأل الله أن يُطيلَ بقاء الشيخ العالم، ويُديمه لعلمٍ يغوص على جواهره، ويفتق الأصداف على ذخائره، ويوفقه للعمل الصالح الذي هو مرمى أغراض أولي العقل، ومطمح أبصار المرتكضين إلى غاية الفضل.

ولقد عثرتُ من مقاطر قلمه على جُملةٍ تنادي على غزارة بحره، وتطبى القلوب إلى التزيّن بسموط درّه. وأمّا ما طلب عندي وخطب إليّ من العلوم والدرايات والسّماعات والروايات، فبناتٌ خلعت على تربيتهن الشباب ثم دفنتهنّ وحثوت عليهن التراب، وذلك حين آثرت الطريقة الأويسيّة(*).

على بُنيّاتِ الطرائق، وأخذتُ نفسي برفض الحَجَبِ والعوائق، ونقلت كتبي كُلّها إلى مشهد أبي حنيفة، رحمه الله، فوقفتها، وأصفرتُ منها يدي إلا دفتراً واحداً قد أنزلتهُ تميمَةً في عَضُدي، وهو كتاب الله الجليل المُبين، والحبلُ المتين والصِراط المستقيم، لأهب لما قصدتُ بصدده كُلي، وألقي عليه وحَدَهُ ظلي، لا يشغلني عنهُ بعض ما يجعل الرأي مشتركاً، ويردُّ القلب مُقتسماً، ولذتُ بحرم الله المعظم، وبيتهُ المحرّم، وطلّقت ما وزرني بتاً، وكفتُ ذيلي عنه كفتاً، ما بي همٌ إلا خويصتي، وما يُلهني إلا النظر في قصّتي أنتظر داعي الله صباح مساءٍ، وكأني به قد إمتطيت الآلة الحدباء، قد وهنت العِظام، ووهت القِوى، وقلّت الصحّة، وكثُر الجوى، وما أنا إلا ذماءٌ تتردد في جسدٍ هو هامةُ اليوم أو غد، فما لمثلي وليس لهُ من الآخرة شيء.

ولقد أجزتُ لهُ أن يروي عني تصانيفي، وقد أبنتُ أشياء منها في ورقةٍ لبعض الإسكندرانيين.

وأنا محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي ثم الزمخشري، منسوب إلى قريةٍ منها هي مسقط رأسي، ولبعض أفاضل المشرق:

فلو وازن الدنيا ترابُ زمخشر لأنّك منها زادهُ الله رجحانا

(*) الطريقة الأويسية: هي طريقة أويس القرني في التزهد والعيش في شظف العوز.

وللشريف الأجل الأمام علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسيني:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فدىً لزمخشرا
وأحر بأن تزهى زمخشر بأمرئٍ إذاعدَّ في أُسد الشرى زمخ الشري
فلولاه ما طنَّ البلادُ بذكرها ولا طار فيها منجداً ومغوّرا
فليس ثناها بالعراقِ وأهلهِ بأعرف منه في الحجاز وأشهرا

ومن المقطوعات التي إخترعتها من قبلي:

ومروعة بمشيب راسي أقبلت تبكي فقلت لها ودمعي جاري
هذا المشيب لهيبُ نارٍ أوقدت في القلب موقدها حذار النارِ

أخرى:

إليك إلهي المشتكى نفس مُشتهٍ إلى الشر تدعوني عن الخير تنهاني
وما يشتكي الشيطان إلا مغفلٌ إلا أنَّ نفس المشتهي ألفُ شيطانِ

أخرى:

شكوت إلى الأيام سُوء صنيعها ومن عجبٍ باكٍ تشكّي إلى المَبكي
فما زادت الأيام إلاّ نكاية وما زالت الأيام تُنكي ولا تشتكي

أخرى

مَسرّة أحقابٍ تلقيتُ بعدها مساءَة يومٍ أريها شبه الصابِ[1]
فكيف بأن تلقى مسرّة ساعةٍ وراء تقضيها مساءَةَ أحقابِ

أخرى:

الخوض في دُولِ الدنيا يلجَّ بكُمْ كأنها لجَجٌ خَوّاضها لَجَجُ
كم خلصت لجَج البحر وما أقلَّ منْ خلصَتُه هذهِ اللجج

أخرى:

مُبالاةٌ مثلي بالرزايا غضاضةٌ أباها وثيقُ العُقدين حصيفُ
إذا أقبلت يوماً عليَّ صروفها لأنيابها في مسمعيّ صريفُ

(1) الصاب: عصارة شجر مُرّ، واحدتهُ صلبة.

عتابٌ لها حتى تشقَّ نحورها أسنةُ عزم حدُّهنّ رهيفُ
يَمْسحَن أركاني وهنَّ قوافِل صفا صادرات النبل عنه تضيفُ[1]

والقاضي أديب الملوك، أبو إسماعيل يعقوب بن شيرين الجندي:

بالشين المعجمة، وهو الحلو في لسان العجم.

الجند: بفتح الجيم وسكون النون، وهو تعريف: وهي البلد في لسان الترك. والرجل تركي، وبلاده من بلاد التكرور المجاورة لبلاد ما وراء النهر.

وهو على كلّ الإطلاق أفضل الفتيان في عصره، وأعقلهم وأذكاهم وأدهاهم، وكان كاتب سُلطان خوارزم فاستعفى.

وهو يكتب باللسانين: العربيّة والفارسيّة ويُحسن.

وهو ممَّنْ ربيتُ، وخرَّجت، وبلغت تلك الذروة، وهو أوثق سهم من كنانتي.

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة على نبيه محمد وآله الطيبين.

إنتهى نقل السؤال والجواب بنصّه

حقوق المؤلف بعد وفاته:

ركّز الورّاقون على الحفاظ، في تعاملهم مع المؤلفين، على مبدأ) (حقوق النشر للمؤلف) (من خلال الأعراف والأخلاق الدينية، المتعامل بها، وضمن شروط «الإجازة والتفويض» لنقل الأثر بعد صاحبه. وقد أعطوا الأولوية في ذلك إلى «خط المؤلف أو إملائه» ولكن المسألة هذه تكون سائدة في حالة بقاء المؤلف على قيد الحياة، وعندما يتوفى المؤلف، فإن عائديّة مخطوطاته تكون للورّاق الذي حصل على «إجازته» قبل الوفاة، أو تكون لأحد أبنائه، أو لأحد تلاميذه، أو تكون منابة عنه لأحد الشيوخ الذين يتساوون معه في القدر والمعرفة، وضمن مجال الاختصاص، في علم من العلوم، أو فنّ من الفنون.

ولكن، يحدث أحياناً، أن مسألة «الإجازة أو التفويض» قد تكون مزوّرة، لذلك لجأ الورّاقون، إلى مبدأ «الشك» في صيغة الإجازة أو التفويض، أو الإهداء، والذي يشكل أحياناً إجازة بأسلوب رشيق ولبق، يروى ياقوت الحموي[2] أن يعقوب بن أحمد أخرج

---

(1) تضيف: من ضاف عنه، بمعنى عدل، وضاف السهم عن الهدف، بمعنى عدل كذلك.

(2) والعهدة في ذلك على صاحب كتاب «الكتاب العربي» منذ نشأته حتى عصر الطباعة ص54، وعلى =

مقتطفات شعرية من تأليفه وآخرين، وقد قابل واحداً من هؤلاء الشعراء وهو أبوعامر، وسأله أن يكتب صيغة الإهداء إليه على الكتاب، وقد شاهد ياقوت هذه النسخة المصادق عليها من قبل أبي عامر حيث قال: «التي لا يخامرني أي شك نحوها» وهي تتألف من سلسلة من عبارات المديح وغيرها، ويشير، بأن يعقوب أفاد أنه أعاد قراءة مخطوطته الشعرية بحضور شخصين آخرين، ويسأل الله أن يمنحه الفائدة والرضا عنه».

ومسألة الشك قد يتعامل بها الورّاقون أو النقلة بحكم الضرورة والحاجة، وتعتمد على الصيغة للإجازة، فإذا كانت منقولة عن طريق سلسلة من المستندات أو المراجع الموثوقة، فإذا تعذّر ذلك فإنهم يلجأون إلى نسخة أصليّة، تكون من مخلّفات المؤلف المتوفى، وبحيازة أحد المعاصرين لهم، والتي تكون قد وصلته عن طريق الإرث والتركة وبذا تكون موافقة هذا الوارث بمثابة الإجازة أو التفويض لإعادة نشر الكتاب «نسخة ثانية» أي طبعة ثانية في لغة زماننا، فمن ذلك أن منذر بن سعيد البلوّطي ذهب إلى مصر من الأندلس ليستنسخ كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، من أبي جعفر النحاس، فأبى عليه، الأمرالذي دعاه إلى قصد إنسان آخر كان يحتفظ بنسخة من كتاب الخليل اسمه «أبو العبّاس بن ولاّد فأعطاه نسخته ونسخ عليها ورحل»[1]، وإذا صحّت نسخة أصلية واحدة، أمكن النسخ عليها، وهكذا يعاد نشر الكتاب، بعد أن تكون بقية النسخ قد قوبلت على تلك النسخة الأصليّة.

وضمن منظور «الإجازة وحقوق المؤلف» كان الورّاقون يتبعون أسلوباً معرفيّاً في إعادة نشر مخطوط، كان صاحبه قد رحل عن الدنيا، ولم يترك وريثاً له، وهو ما يشكل إعاقة مهنية في نشر المخطوط، بغياب صاحبه فإنهم أوجدوا طريقة هامّة وعلميّة، تستند في إطارها الثقافي إلى الاختصاص الذي يتطابق ومضمون المخطوطة فإذا كانت المخطوطة في التاريخ، ذهبوا إلى عالم من أعلام المؤلفين في التاريخ، أو كانت في أمورالفقه والحديث، فإن المحدثين في ذلك كثرة، وقد توقفوا في مثل هذه الأمورعند شيوخ - أساتذة - أهل الفن في ذلك الإختصاص، كي يحصلوا على إجازة العمل فيتسارعون للقراءة عليه، فمن ذلك أن المبرّد كان مطلوباً دائماً للقراءة عليه في كتب «النحو وعلم العربية» ويتقاضى عن ذلك أجراً، رغم أن الكتب ليست له، إلا أن اختصاصه في اللغة العربية أهلّه لأن يكون مرجعاً بها، فقصده القرّاء والنسّاخ، وأحياناً يضنّ هؤلاء الشيوخ ببعض العلوم، فلا

= مترجم الكتاب، حيث أني لم أعثر على الخبر في أغلب معجم الأدباء، ولم يشر المؤلف يوهنس بيدرسون إلى مصدر الخبر، لذا اقتضى التنويه بذلك.

(1) معجم الأدباء 9/ 183، ترجمة، منذر بن سعيد البلوطي رقم 59.

يعطونها لأحد، لعزّة تلك المخطوطة أو ذاك الكتاب، أو لغرض الانتفاع به، فمن ذلك ما نقله ياقوت عن محمد بن ولاّد، فقد كان هذا يحب العربية، ويشتغل بعلوم النحو، وله كتاب اسمه «المنمق» وغيره، أراد أن ينسخ من «الكتاب لسيبويه» من عند المبرّد، وقد كان المبرّد لا يمكّن أحداً من نسخ ذلك الكتاب، إلا أن ابن ولاّد إتفق معه على شيء سمّاه، أي أن يعطيه شيئاً حتى يقرأه عليه[1]، وهنا أراد ابن ولاّد فرض الأمر الواقع على المبرّد كي يمنحه الإجازة، بهذه الطريقة، وأرغمه عليها، رغم أن المبرّد غضب لذلك وسعى بابن ولاّد إلى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك، فالتجأ ابن ولاّد إلى صاحب الخراج ببغداد، وكان يؤدب ولده، فأجابه، ثم ألحّ على المبرّد حتى أقرأه الكتاب[2]، وبذا يكون ابن ولاّد قد فاز بإجازة نسخ الكتاب، وكسر قيد الاحتكار بهذه الطريقة الذكيّة.

وقد كانت لبعض الكتب أهميتها التاريخية والمعرفية، على حدّ سواء، فكتاب سيبويه الآنف الذكر، كان الناس يحتاجون إليه، في كل زمان ومكان[3] ويطلبونه من الورّاقين وغيرهم، وتشدّ إليه الرحال لنسخه والاستفادة منه، فهذا أبو علي الفارسي[4] أحد أعلام العربية في النحو واللغة، يشدّ رحاله من فارس إلى بغداد كي يسمع من أبي بكر السرّاج.

(محمد بن السري بن سهل)[5] أحد أعلام اللغة في بغداد (ق 4هـ)، وأبرز تلاميذ المبرّد، قال عنه ياقوت: قرأ على «المبرد» كتاب سيبويه، ثم اشتغل بالموسيقى، فسئل عن مسألة بحضرة الزجّاج، فأخطأ في جوابها، فوبّخه الزجّاج وقال: مثلك يخطىء في مثل هذه المسألة؟ والله لو كانت في منزلي لضربتك، ولكن المجلس لا يحتمل ذلك، فقال أبو بكر السراج: قد ضربتني يا أبا إسحاق، ثم تفرّد لكتاب سيبويه ثانية حتى قالوا: ما زال النحو مجنوناً حتى عقّله ابن السراج بأصوله[6]، وهذا الخبر يوضّح لنا أن ابن السرّاج هو صاحب «الإجازة» في كتاب سيبويه بتفويض ومصادقة من أستاذه «المبرّد» وعلى ضوء ذلك جاء أبوعلي الفارسي من بلاده إلى بغداد ليسمع قراءته، وبذا يصبح هو الآخر من أصحاب الإجازة والتفويض، لذلك يقول هو في هذا الصدد: جئت لأسمع من كتاب سيبويه،

---

(1) معجم الأدباء 19/ 106، ترجمة، محمد بن ولاّد التميمي رقم 29.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) لا زال حاضراً بين ظهرانينا حتى هذه الساعة، وهو واحد من أهم مصادر النحو في اللغة العربية.

(4) أنظر ترجمته عند ياقوت: معجم الأدباء 7/ 232 الترجمة رقم 59؛ وسير أعلام النبلاء 16/ 379، الترجمة 271.

(5) أنظر ترجمته عند ياقوت، معجم الأدباء 18/ 197، الترجمة رقم 53.

(6) ياقوت، المصدر السابق 18/ 198.

وحملت إليه ما حملت، فلما انتصف الكتاب عسرَعليّ إتمامه، فانقطعت عنه لتمكني من مسائله فقلت في نفسي بعد مدة: إذا عدت إلى فارس وسئلت عن إتمامه، فإن قلت نعم كذبت، وإن قلت لا، بطلت الرواية[1]، هنا يتوضّح مقدار المكابرة والمعاناة في تلقي العلوم من جهة، ومن جهة أخرى، أن مبدأ الصدق في النقل يملي على الناقل عدم تزوير الحقائق، أي هناك ربط أخلاقي في المسألة المعرفية، وفي المحصلة النهائية فإن منهج الوراقة، حصّن الكثير من النقلة والعلماء للحفاظ على بنوده وثوابته، ومن هنا أيضاً تبرز لنا أهمية الإجازة، حتى وإن كانت على السماع، وليس ذلك فحسب، بل أن المُجيز، هو الآخر يحرص على إيداع هذه الإجازة في مكانها الأمين والموثوق، في مستودعات العلم وصدور العلماء وعقولهم، يقول أبو علي الفارسي، مستأنفاً حديثه السابق: فدعتني الضرورة أن حملت إليه/ يقصد ابن السرّاج/ رزمة وأقبلت إليه، فلما أبصرني من بعيد أنشد[2]:

كم قد تجرّعت من غيظ ومن حنقٍ ... لكن تجدّد وجدى هوّن الماضي
وكم غضبت ولم يلووا على غضبي ... فعدت طوعا بقلب ساخط راضي[3]

ومن ثم أصبح التواترفي النقل والتفويض لكتاب واحد، من الأمور المسلّم بها، بحكم الضرورة ولتوالي الأحداث وتعاقب الأزمان، على شرط الحفاظ على مبدأ «الإجازة والتفويض» كنهج لا يمكن الحيادة عنه، فكتاب سيبويه مثلاً مرّ بهذه التجارب والضرورات فبعد أبي علي الفارسي، كان علي بن عيسى الرماني الورّاق[4]، حيث هو الآخر كان قد تتلمذ على يد ابن السرّاج وابن دريد والزجّاج، وله كتاب في «شرح كتاب سيبويه»[5]، ثم آل الأمر إلى محمد بن المستنير بن أحمد المعروف بقطرب البصري حيث هو الآخر، أخذ النحو عن سيبويه[6]، ثم كان الأمر لمحمد بن مسعود الأندلسي[7]، الذي تتلمذ على يد

---

(1) معجم الأدباء 18/ 201 و7/ 252 - 253.
(2) المصدر السابق، بمكانيه.
(3) في ترجمة/ أبو علي الفارسي/ عند ياقوت أيضاً، معجم الأدباء، ورد البيتان على النحو التالي:
وكم قد تجرّعت من غيظ ومن حزن ... اذا تجدّد حزن هوّن الماضي
وكم غضبت فما باليتهم غضبي ... حتى رجعت بقلب ساخط راضي.
(4) انظر ترجمته في معجم الأدباء 14/ 73 وما بعدها، الترجمة رقم 20.
(5) انظر إلى قائمة مؤلفاته عند ياقوت، معجم الأدباء 14/ 75.
(6) ياقوت، معجم الأدباء 19/ 52 - 53، الترجمة رقم 15.
(7) معجم الأدباء 19/ 54، الترجمة رقم 16.

ابن السرّاج، وأتقن على يده مسائل سيبويه، وتصدر للإقراء في الأندلس فرحل إليه الناس للقراءة عليه، وبذا يكون هو واحد من أصحاب التفويض والإجازة بالتوارث أيضاً، بالنسبة لكتاب سيبويه.

وتبلغ أحياناً قراءة الورّاق أو التلميذ على شيخه، العالم بأكثر من فن إبداء التفويض والإجازة، دون أن يكمل الكتاب، نظراً لحسن راية ودقة الضبط في القراءة، في الفصول الأولى من الكتاب، لذلك يجيزه شيخه على ذلك، فقد ذكر ياقوت الحموي، أن أبا الحسن الطبري، تلميذ أبي عمر الزاهد[1] كان قد قرأ قصيدة شبل بن عروة الضبعي على أبي عمر الزاهد والتي أخذها من أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، وقد قرأ عليه إلى «سيبا من حسرّ سئل» والقراءة هنا على ابن درستويه، فقال ابن درستويه: قد دفعت إليك كتابي بخطي من يدي إلى يدك، وقد أجزت لك القصيدة، فأروها عني، فإن هذا ينوب عن السماع والقراءة فقبلت ذلك منه[2]، وعلى هذا النحو كانت الإجازات والتفاويض، ترد من شيخ إلى تلميذه، وتدور، وتتناقل من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى آخر، حتى وصلت إلينا.

هـ - السماح بالتداول:

بعد كل تلك المراحل والخطوات، من عمل الوراقة، والسير وفق المنهج المتّبع، فإن العرف الوراقي يبيح تداول الكتاب في أروقة سوق الورّاقين وخارجه، وقد رأينا مسار حركة الكتاب، وما رافقها من تعقيدات وتغييرات، ولولا ذلك المنهج الرصين، وما رافقه من أخلاق وقيم، حافظت على وجودها في سياق المنهج، لما وصل إلينا ذلك التراث الجميل الخالد، ولأصبح مشكوكاً في الكثير من تلك المخطوطات التي وصلت إلينا، وهي الأخرى تحتاج إلى البذل والمزيد من الجهد لإخراجها إلى النور، لأن حقّ الأوائل علينا يتطلّب منا متابعة خطّ سيرهم، والحفاظ عليه، وبمنهجيّة تقرّبنا إليهم، كي نكون بارّين بهم، وبالتراث الذي تركوه لنا أمانة.

البعد الفني في منهج الوراقة:

كنّا قد ألمحنا إلى هذه النقطة، في بداية هذا الفصل، حيث أن الورّاقين كان لهم من الحسّ الفني ما يوازي تصوّرهم المعرفي، ويكمله في سياق المهنة والتوريق، لذلك نشاهد

---

(1) سبقت الإشارة إليه في هذا الفصل.

(2) معجم الأدباء 1/110 ترجمة - إبراهيم بن محمد توزون، الترجمة رقم 4.

أن الورّاقين كانوا أصنافاً متعددة[1]، فهذا نسّاخ، وذاك مذهّب، وثالث مجلّد، ورابع منادي، وغيرهم، الأمر الذي يوضّح أهمية الوراقة، وجميع أصناف الورّاقين، تعطي للبعد الفني أهميته في عملهم، وأطلقوا على هذا البعد اسم «رسوم الكتابة» والتي تعني عندهم الإلتزام بتصدير الكتاب، ومقابلة النسخة بالكتاب الأصلي، ومراجعة اللغة، وتجاوز الخطأ في النسخ وغيرها[2] من أمور الكتابة، المستخدمة في دواوين الدولة أو عند الورّاقين، وهذا المسلك دأبوا عليه من أسلافهم منذ أيام النبي محمد ﷺ، حيث كانوا يلتزمون به[3]، وضمن الرؤية الإسلامية فإن التصدير[4]، هو التزام الكتّاب بذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» في أولّ أي كتاب يكتب، وقد ذكر الصولي، أن قريشاً كانت تكتب في جاهليتها «باسمك اللهم» والتزم النبي محمد ﷺ بذلك إلى أن نزلت سورة هود وفيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[5]، فأمر ﷺ بأن يكتب في صدر كتبه «بسم الله»، ثم نزلت في سورة الإسراء: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[6]، فكتب «بسم الله الرحمن» ثم نزلت سورة النمل وفيها ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[7]، فجعل ذلك في صدر الكتب إلى الساعة، وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول كل سورة من القرآن، إلا في أول سورة التوبة، فإنه يروى عن عثمان بن عفان أنه قال: لم يكتب بين الانفال وبراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» والأنفال من أوّل ما أنزل الله في «المدينة» و«براءة» من آخره، إلا أنها تشبهها[8]، وعلى هذا الأساس الديني، جرت العادة في الكتابة وأصبحت رسماً من رسومها.

وكتابة البسملة[9] يختارها الكاتب - الورّاق، في بداية حاشية القرطاس، ثم يكتبون الدعاء/ أي تضمين فاتحة الكتاب بعد البسملة عبارة مثل: (أني أحمد إليك الله الذي لا إله

---

(1) سوف نتطرق إلى أصناف الورّاقين في فصول قادمة.

(2) راجع الصولي/ أدب الكتّاب/ ص36 - 40 وص 120 وما بعدها.

(3) المصدر السابق ص39.

(4) جاء في القاموس للزبيدي/ الصدر: أعلى مقدم كل شيء وأوله/ أنظر مادة: صدر - والتصدير على وزن تفعيل، وهو اشتقاق من «صدر» المراد به في هذا الموضع، بدء الكتابة في أول صدر الصفحة.

(5) سورة هود، الآية رقم 41.

(6) وردت عند الصولي/ سورة بني اسرائيل/ والصحيح هو: سورة الإسراء، الآية رقم 110 وغريب أن المحقق الأستاذ الكبير محمد بهجت الأثري لم يتحقق من الآيات والسور، حيث لم يوجد سورة في القرآن باسم «سورة بني اسرائيل».

(7) سورة النمل، الآية رقم 30.

(8) الصولي، أدب الكتّاب/ ص31 - 32.

(9) البسملة: اختصار لكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم).

إلا هو) وغيرها[1] على أن يكون الدعاء تحت البسملة، ومساوياً لها في المساحة، ويشير الصولي إلى أنهم كانوا يستقبحون أن يخرج الكلام عن «بسم الله الرحمن الرحيم» فاضلاً بقليل ولا يكتبونها وسطاً، يقصد البسملة، ويكون الدعاء فاضلاً، ويضيف: وإنما يفعل ذلك بالتراجم[2]. وبعض هؤلاء يرى أن يجعل البسملة وسطاً في أسفل الكتاب، بعد إنقضاء الدعاء الثاني، وهو دعاء يذيّل به الكتاب أو الصفحة، كنهاية لقول ما يراد، كما أنهم يذكرون التاريخ إذا احتاج إلى تبيّن نسخة كتاب متقدم أو حساب ليفرّق بين منزلته من صدر الكتاب وبين عجزه، وهذا المنهج أخذ به بعض الكتاب لا جميعهم[3].

وهناك ملاحظة فنيّة هامة هي: لا يفسح ما بين «البسملة» وبين السطر الذي يتلوه من الدعاء، ولكن يفسح ما بين الدعاء، إذا استتم، وبين سائر المخاطبة، أما الدعاء فلا يتجاوز به ثلاثة أسطر، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلاّء الكتّاب، كما يقول الصولي[4].

ومن مراسم الكتابة الأخرى، إستهلال الكلام، بعد البسملة والدعاء، بكلمة «أما بعد» كعرف سائد في أدب الكتّاب، قيل: إن أوّل من قالها (كعب بن لؤي)، وقيل داود النبي، ويعتبر هذا، فصل الخطاب[5]، ويجري الأخذ به عادة بعد الدعاء، أو بعد قولهم: من فلان إلى فلان، فيفصل بها بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذي يجيء بعد، وقد أورد الصولي أبياتاً توضّح هذا المعنى لسابق البربري موجهة إلى عمر بن عبد العزيز[6]:

باسم الذي أنزلت من عنده السّور ... والحمد لله، أمّا بعد يا عمر

فإن رضيت بما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر

واشترطوا/ لغويا/ وجود الفاء بعد أمّا، لأن أما لا عمل لها إلا اقتضاء الفاء

---

(1) أنظر الصولي/ أدب الكتّاب/ ص36 - 38.

(2) المصدر السابق ص36.

(3) الصولي أدب الكتّاب/ ص36 أيضاً.

(4) المصدر السابق/ نفس المكان.

(5) ذات المصدر/ ص36 - 37. وقد علّق الأستاذ/ بهجت الأثري على ذلك بالقول/ جملة الأقوال في «أما بعد» سبعة، وقد جمعها أبو الطيّب صديق حسن خان، رحمه الله بقوله:

فهاك خلافاً في الذي قد تقدما ... ينطق بأما بعد، فاحفظ لتفهما

فداود يعقوب فآدم أقرب ... فقس فسحبان فكعب فيعربا

أنظر المصدر السابق/ ص37/ الهامش 1.

(6) أدب الكتّاب/ ص37.

واكتسابها، فإن الفاء تصل بعض الكلام ببعض وصلا لا إنفصال بينه ولا مهلة فيه[1].

وللتصديرأحوال، اقتضتها الظروف السياسية والإدارية، وخضعت بذلك إلى مسارها التاريخي، ففي أيام النبي يبدأ باسمه ويختم الكتاب باسم كاتبه، وفي زمن الخلافة الإسلامية بـ«امرة المؤمنين والإمامة»، والتصدير في أول الكتاب، والدعاء في آخره للإمام وولي العهد والوزير واحد، إلا أنهم قالوا: سلام على أمير المؤمنيئن ورحمة الله وبركاته، وكذلك لولي العهد في التصدير والدعاء الأخير، ولم يقولوا للوزير «وبركاته» ليفرقوا بين المحلّين[2].

وكان التصدير ينتهي إلى قوله: «فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو» إلى أن أفضت الخلافة إلى الرشيد، فأمر أن يزاد فيه، «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله» فكتب به[3].

وهذا الأمر يدلّنا على الأصول الأوليّة في المخاطبات الرسمية الصادرة من ديوان الخليفة، لذلك تبرز الصفة الآمرة، والألقاب المعظّمة، والنعوت الأخرى، لإضفاء الرسمية والهيبة.

ومن الأمور الفنيّة الأخرى في منهج الورّاقين،/ جودة الخط/[4]، فعليه يعتمد، بدرجة أساسية، في مهنة الوراقة، وقد أفرد الصولي باباً مهمّاً في ذلك[5]، كما جاء ذكر جودة الخط عند أبي حيان التوحيدي، حيث خصّه برسالة خاصة أسماها/ رسالة في علم الكتابة/[6].

أما المقابلة، فهي تدقيق ما في المخطوط على المنسوخ، دون زيادة أو نقصان، بحيث يحدث التماثل ويقبل التعارض، حتى يستويان، والمعنى أن ينسخ الشيء فيجيء بمثله بغير مخالفة، ويروى أن أوّل من عمل نسخاً «زياد»[7]، ولعله زياد بن أبيه، وضمن سياق المقابلة، فإن الورّاقين ينتبهون إلى الخطأ، وهو في اللغة، ضد الصواب[8]،

---

(1) أدب الكتّاب/ ص38.

(2) المصدرالسابق ص39 - 40.

(3) نفسه.

(4) سيجد القارىء تفصيلاً دقيقاً في ذلك في الباب الخاص بـ/ أصناف الورّاقين، الخطّاطون

(5) أدب الكتّاب/ ص41 - 57.

(6) رسائل التوحيدي/ ص41 - 61 - بعناية إبراهيم الكيلاني.

(7) لم يذكر الصولي أي زيادٍ منهم، أدب الكتّاب/ ص122/ ولم أعثر عليه في «الأوائل» لأبي هلال العسكري.

(8) أدب الكتّاب/ ص122.

فيصححونه، ثم لا يأخذون بالمشق في الكتابة/والمشق، السرعة/[1]، ولم يتعاطوا في مهنِهم بـ«الزلف» وهو تجاوز الشيء إلى شيء غيره[2]، ثم أنهم أخذوا بمبدأ «عرض الكتاب» وهو إمرار الطرف عليه بعد الفراغ منه لئلا يقع في خطأ[3]، ومن ثم انتبهوا جيداً إلى مسألة «اللحن في الكتابة» واعتبروا ذلك من العيوب، لذلك قالوا: اللحن في الكتاب أقبح منه في الخطاب[4]، ثم راعوا مسألة «التوقيع والايجاز»[5] إذا كانت صادرة من كتّاب الدواوين في الدولة العباسية، والتزموا بأصول الكتابة عند كتابة «العنوان» والعنوان، العلامة، كأنك علمته حتى عرف بذكر من كتبه ومن كتب إليه[6]، وراعوا في نسخهم «تحرير الكتاب» أي خلوصه من الكدر وصفاء ما عليه[7]، ثم أنهم التزموا بقواعد الكتابة والإنشاء، التي التزم بها كتّاب العصر العباسي، واستدلّوا بنقد الكتابة بعد الفراغ منها كفكرة، يقول الصولي بصدد هذه الفكرة.

«إنَّ الإبتداء بنظم الكلام ونثره فتنة تروق، وحدّة تعجب، فإذا سكتت القريحة وعدل التأمل، وصفت النفس، فليعد النظر، وليكن فرحه بإحسانه، مساوياً لغمّه بإساءته»[8]، وهذه الناحية تشترك في المنظور المعرفي أكثر من اشتراكها في المنظور الفني، لأن فيها مبدأ «النقد» واضح جداً.

ونظراً لكون الورّاقين هم أقرب إلى العامة من الناس، فلذلك يلتجأ إليهم لكتابة ما هم بحاجة إليه من قصص «عرائض» وشكاوى وغيرها، وقد أورد الصولي نماذج من هذه الأمور، كجزء من أدب الكتابة وفنها، وقد التزم الورّاقون بها، ولا بأس من إيراد نموذج منها، استطراد للسياق، وتوضيحاً للمعنى، وإتماماً للفائدة، يقول الصولي:

«فأمّا مكاتبات الناس إلى الإمام - الخليفة - أو إلى وليّ العهد أو إلى الوزير فيكتب: «العبد لله فلان بن فلان - أمير المؤمنين - سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده

---

(1) المصدر السابق ص123.

(2) أدب الكتّاب/ ص123.

(3) نفس المصدر ص127.

(4) نفس المصدر ص130.

(5) نفس المصدر ص134.

(6) نفسه/ ص143.

(7) نفسه/ ص156. ويلجأون إلى السماع بصوت مرتفع بقراءة المخطوط على المؤلف أحياناً، للتأكد من صحة المطابقة، راجع معجم الأدباء 17/ 267 و18/ 20.

(8) نفسه/ ص157.

ورسوله، ويكون ذلك في سطرين وبعض آخر، ثم يقال: «أما بعد: أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزّه وتأييده وكرامته وسعادته وحراسته وأتمّ نعمته عليه، وزاد في إحسانه إليه بفضله عنده، وجميل بلائه لديه، وجزيل قسمه له/ وهذا هو الدعاء/ ويكون في سطرين، ثم يقال بعد ذلك: «فقد كان كذا» لأن جواب، «أما بعد» بالفاء، فقد كان كذا وكذا، فإذا أتى على جميع المعاني المحتاج إلى المكاتبة فيها فبلغ إلى الدعاء الثاني، قال «أتمّ الله على أمير المؤمنين نعمه وهناه كرامته، وألبسه عفوه وعافيته، وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، وكتب فلان بن فلان، يوم كذا، في شهر كذا[1].

وإلى وليّ العهد والوزير مثل ذلك، إلا أن الفرق بين الإمام - الخليفة - وبينهما، أن يكتب إلى الإمام «مع السلام وبركاته» وفي آخر الكتابة مثل ذلك، ويحذف بركاته إلى هذين في التصدير.

كما التزموا أشدّ الالتزام بتاريخ الكتاب، رسالة كان أو مخطوطة كتاب[2].

تلك هي أهمّ مقومات منهج الوراقة، من الناحيتين المعرفية والفنيّة، والمتأمل فيها جيّداً، يدرك مقدار المعاناة ومدى الجهد والصبر المبذول في إتمام عملية الوراقة، ولكن من الناحية الأخرى، يدرك مدى الشغف لحب المهنة والتفاني فيها، فهي مهنة الأدب والفكر، لا مهنة التجارة، كما هو سائد اليوم، عند أصحاب دورالنشر، وهم الذين يوازونهم في المقام، رغم اختلاف المقال.

على أية حال، فإن هذا المنهج الوراقي، كان من المعرفة بمكان، بحيث أنه استطاع أن يصل إلينا، ونطلع عليه، ونفهم أبعاده ومعانيه، ونأمل أن نكون، قد اهتدينا إلى كشفه وتقديمه، كأسلوب منهجي عند الأوائل، كانوا يقتدون به.

قواعد أخرى في منهج الوراقة:

في النقطة السابقة، والأسبق عليها، تطرقنا بشيء من التفصيل والتحديد، إلى كل عملية من عمليات النسخ والتوريق والتأليف حتى، حيث أن منهج الكتّاب في الدولة العباسية سحب ظلال خيوطه على مناهج الورّاقين بالضرورة، كتحصيل حاصل، فاشترك الورّاقون والكتّاب في تلك المناهج، وساروا بها طويلاً، وعنهم إنتقلت تلك الأساليب إلى بقية أمصار الخلافة العباسيّة، وظلت سائدة حتى بعد سقوط بغداد سنة 656هـ على يد

(1) أدب الكتّاب/ ص164.

(2) راجع الصولي بهذا الصدد/ المصدر السابق/ ص 178 - 185.

المغول، بل تطورت وتداخل فيها المنهج المعرفي مع المنهج الفني، الأمر الذي يوضّح الديناميكية عند الكتّاب والورّاقين على حدّ سواء، وهذا المنهج ورد كاملاً عند «الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي» المتوفى في دمشق سنة 981هـ، في الباب السادس من كتابه المعروف بـ«المعيد في أدب المفيد والمستفيد»[1]، كما يقتضي المقام هنا ذكر «إبن جماعة» وكتابه «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم»[2]، فقد ذكر هذا المنهج واستفاض في شرحه، إلا أن رواية العلموي أشمل وأوضح وأعمق، لذلك سنعتمدها هنا[3].

توضّح المسألة الثالثة من الباب السادس، أن مسألة النسخ كانت تأخذ موافقة أخلاقية من صاحب الكتاب الأصلي، أكان له ملكاً أو تأليفاً، قالوا: ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه، فإذا كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به، غير معيّن، فلا بأس بالنسخ مع الاحتياط[4]، فقد كانت هذه الأمور متداولة بين الأدباء والكتّاب للإستفادة الشخصية وعن طريق الاعارة، ثم أن الجانب الأخلاقي[5] واضح في طروحات العلموي في هذه العملية، حيث أنه يرى بالمستعير إذا أراد أن ينسخ من الكتاب أو يطالعه، فلا يضعه مفروشاً على الأرض، بل يجعله مرتفعاً[6].

ومن هذا الجانب الأخلاقي، نستشف الجانب المعرفي بتفضيل الكتاب والمحافظة على هيبته باعتباره وسيلة للمعرفة، يتعامل بها الناس على اختلاف طبقاتهم وتمايز درجاتهم المعرفية، يضيف[7]، وإذا وضعت الكتب مصفوفة، فلتكن على شيء مرتفع غير الأرض، لئلا تندى فتبلى، ويراعى الأدب في وضعها باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت كتب في فن فليراع شرف المصنّف فيجعله أعلى، وليجعل المصحف الكريم

---

(1) طبعهُ للمرة الأولى أحمد عبيد، ونشرته المكتبة العربية بدمشق سنة 1349هـ.

(2) طبع في حيدر آباد سنة 1353هـ.

(3) من الجدير بالملاحظة والإشارة أن المستشرق الدكتور فرانتز روزنتال قد أورد هذا المنهج كاملاً/ أي الباب السادس من كتاب العلموي أعلاه/ في كتابه مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، على الصفحات 28 – 49، وقام د. أنيس فريحة بترجمة الكتاب، ونشرته دار الثقافة ببيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، نيويورك، وصدر في عام 1961 بشكل مشترك.

(4) العلموي/ المعيد في أدب المفيد/ ص131، الطبعة المذكورة أعلاه.

(5) سوف نتحدث عن أخلاق الورّاقين في الفصل القادم بشكل أكثر تفصيلاً.

(6) العلموي/ ص131.

(7) المصدر السابق/ نفس المكان.

أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة[1] ذات عروة في مسمار ونحوه في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم يلي المصحف، كتب الحديث الصرف، كالبخاري ومسلم، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم الفقه، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب ثم العروض وما في معناه ونحو ذلك». وهذا العرف الفني وتسلسله يخضع لمنظور ديني واضح كمسلك فني يلتزم به في المكتبات العامة والخاصة ودكاكين الورّاقين، على أن يراعى في ذلك جانب فنّي آخر هو مراعاة عدم وضع الكتب ذوات القطع الكبير فوق ذوات الصغير، كيلا يكثر تساقطها[2].

ومن الأمور الأخرى في صفت الكتب على الرفوف، راعوا أن يكون مكتوباً عليها اسم الكتاب في حرف عرضه، ويجعل رؤوس الترجمة إلى مرد الجلد المقابل للسّان، لئلا تصير الكتابة معكوسة[3]، كما راعوا أيضاً في صف الكتب حسن الوضع، وذلك بأن يجعلوا الحبكة في ناحية، والمجلد الآخر يجعل حبكته في الناحية الأخرى، فتكون الكتب قائمة بلا إعوجاج، ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس وغيرها، ولا مخدة ولا مروحة ولا مستنداً ولا متكأ، ولا مقتلة للبقّ، ولا يطوى حاشية الورقة، وزاويتها، كما يفعل كثير من الجهلة[4].

وضمن القواعد والاعراف العامة السائدة في سوق الورّاقين، والتي تندرج ضمن الأخلاق الأدبية للتعامل بين الأدباء والورّاقين في سياق المنهج، هو التنبيه على طريقة شراء الكتاب حيث أوجبوا النظر في أول الكتاب وآخره ووسطه، وترتيب أبوابه وكراريسه، واعتبار صحّته، أي التأكّد من صحة مراجعته من خلال مشاهدة الألحاق والإصلاح فيه، فإن ذلك شاهد له بالصحة، كما يقول الشافعي[5]، إضافة إلى أنهم اعتبروا مقولة «لا يضيء الكتاب حتى يظلم» إشارة توضيحية هامّة المراد منها صحّة إصلاح الكتاب[6].

وهناك أمور أخرى، جرت الإشارة إليها في النقطة السابقة، وردت أيضاً في كتابات العلموي، ضمن منهج الوراقة، منها: أن الناسخ إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية

---

(1) الخريطة = هي مثل الكيس تكون من الخرق والأدم، تشرج على ما فيها، ومنه خرائط الكتب، اللسان: مادة - خرط.

(2) العلموي/ ص131.

(3) المصدر السابق/ ص132.

(4) نفس المصدر والمكان.

(5) نفسه.

(6) ذات المصدر.

يجب أن يكون على طهارة[1]، ومستقبلاً القبلة، طاهر البدن والثياب والحبر والورق، ويبتدىء كل كتاب بكتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وإن كان مصنفه تركها فليكتبها هو، ثم طالبوه أن يكتب/ قال الشيخ أو قال المصنّف/ليبرىء ذمته من جهة، ومن جهة أخرى لتحميل المؤلف وزر ما كتب في كل ما ورد في الكتاب، وبعد ذلك يشرع بكتابة ما صنّفه المصنّف. وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء عليه أن يختم الكتابة بالحمد له والصلاة على الرسول، وليختم بقوله: آخر الجزء الأول أو الثاني/ مثلاً/ ويتلوه كذا وكذا، إن لم يكن أكمل الكتاب، فإن أكمله فليقل: تمّ الكتاب الفلاني[2]. وارتأوا أن في مثل هذه الإشارات المعرفية فوائد كثيرة، تنفع القارىء والناسخ والمصنّف على حدّ سواء، كما اشترطوا على الناسخ أنه: كلما كتب اسم الله تعالى، أتبعه بالتعظيم، مثل: تعالى أو سبحانه، أو عَزَّوَجَلَّ، أو تقدّس، أو تبارك، ويتلفظ بذلك، وكلما كتب اسم النبي كتب بعده: «الصلاة عليه والسلام»[3]، وهذه الالتزامات نهج سايروا عليه أسلافهم بذلك من جهة، ومن جهة ثانية، فإن تعاليم الشريعة الإسلامية، تحضّ على ذلك، حيث جاء في التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[4]، ولكون الوراقة مهنة إسلامية، فشروط ذلك توجب الإلتزام بأعرافها، كما أنهم ألزموا الورّاق - الناسخ - أن لا يختصر «الصلاة» في الكتابة، ولا يسأم من تكريرها، كما يفعله البعض حيث يكتبون (صلعم، أو صلح، أو صم، أو صلم) لأن ذلك مكروه في عرف الشرع، كما ينسبون ذلك إلى الشيخ العراقي[5]، معتبرين أن أجر كتابة الصلاة بكمالها عظيم، ومن أكبر الفوائد العاجلة، ومحذرين من التغاضي عن ذلك، مشيرين إلى أن أوّل من كتب (صلعم) قطعت يده[6].

ثم دأبوا على كتابة/ رضي الله عنه أو رضوان الله عليه/ كلما مرّ اسم أحد من الصحابة أو الأئمة، الخلفاء، لا سيما الأعلام منهم، وهداة الإسلام، أو يكتب: «رحمة الله، أو رحمة الله عليه، أو تغمّده الله برحمته» ولا يكتب الصلاة والسلام لغير الأنبياء والملائكة إلا تبعاً لا اختصاصاً، وذلك عرفاً وشرعاً بالأنبياء والملائكة[7]، واعتبروا ذلك واجباً، حيث

---

(1) في فصل/ أخلاق الوراقين/ سيجد القارىء تفصيلات أكثر بهذا الجانب الديني الأخلاقي.
(2) العلموي/ ص132.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) سورة الأحزاب، الآية 56.
(5) العلموي/ ص133، وراجع عن الشيخ العراقي/ الأعلام للزركلي 3/ 344 ط5.
(6) المصدر السابق/ نفس المكان.
(7) نفسه.

قالوا: ومتى سقط من ذلك شيء فلا يتقيّد به، بل يثبته مع النطق به[1].

كما أن مسألة الخط هي الأخرى شغلت المتأخرين من الورّاقين في مناهج عملهم، حيث أكّدوا على عدم المبالغة في حسن الخط، واهتموا بصحته وتصحيحه، وأشاروا إلى أهمية تجنّب التعليق جداً/ وهو خلط الحروف التي ينبغي تفرقها/ والابتعاد عن المشق، أي سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف[2]، واختاروا لأقلامهم أنواعاً من القصب[3] وأكّدوا على أن لا يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجري، ولا رخوا فيسرع إليه الحفى[4].

وفي الكتابة والنسخ، كرهوا فصل مضاف اسم الله منه كعبد الله أو عبد الرحمن أو رسول الله، فلا يكتب عبد أو رسول، آخر السطر، والله أو الرحمن أو رسول أول السطر الآخر، لناحية جمالية، حيث ارتأوا في ذلك قبحاً لصورة الكتابة[5].

وفي مسألة المقابلة ارتأوا على الناسخ مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به، على اعتبار أن المقابلة متعيّنة للكتاب الذي يرام النفع به[6]، وقد أوردوا شواهد على ذلك من خلال الصحابة الأوائل ومسلكيتهم في ذلك، فقد أوردوا أن عروة بن الزبير قال لابنه هشام: كتبت؟ قال: نعم، قال: عرضت كتابك؟ أي هل عارضته على أصل صحيح، قال: لا، قال: لم تكتب. وأوردوا مثالاً آخر للشافعي ويحيى بن أبي كثير حيث قالا: من كتب ولم يعارض - أي يقابل - كمن دخل الخلاء ولم يستنجِ[7].

ثم رأوا أن الكتاب إذا صحّح بالمقابلة على أصل صحيح أو على شيخ، فينبغي أن يُعجم المعجم، ويشكّل المشكل ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع التصحيف، أما ما يفهم بلا نقاط، ولا شكل، فلا يعتنى به لعدم الفائدة، فإن أهل العلوم يكرهون الإعجام والاعراب إلا في الملتبس والمشتبه[8]، وينطلقون في مثل هذه الإرشادات من قول البلغاء والأدباء الكبار، حيث أن هؤلاء يؤكدون على: إعجام الخط يمنع من استعجامه، وشكله من أشكاله، وقال بعضهم: ربّ علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله[9]. وقد إنطلقوا

(1) ذات المصدر السابق، وليراجع المسألة الرابعة فيه.
(2) نفسه - المسألة الخامسة.
(3) سيجد القارىء، تفاصيل ذلك في ج4 «الخطاطون» من هذه الدراسة.
(4) العلموي/ ص133.
(5) المصدر السابق/ ص134.
(6) نفس المصدر/ ص135.
(7) نفس المصدر/ ص135 - المسألة السابعة.
(8) نفس المصدر والمكان.
(9) نفس المعطيات السابقة.

أيضاً، في مثل هذه الدلائل، من أصل معرفي - ثقافي، حيث أنه ليس كل الناس يعرفون النطق، أو القراءة من غير حركات إعجام/ علامات الإعراب/ ومن الأفضل أن توضع لينتفع بها الناس جميعاً، فقالوا في ذلك: ينبغي الإعجام والشكل للمكتوب كلّه، المشكّل وغيره، لأجل المبتدىء في ذلك الفن، وصوّبه القاضي عيّاض[1] بقوله: لأن المبتدىء لا يميّز ما يشكل مما لا يشكل، ولا صواب الإعراب من خطئه، ولأنه ربما يكون الشيء واضحاً عند قوم مشكلاً عند آخرين، بل ربما يظن لبراعته المشكل واضحاً، ثم قد يشكل عليه بعد، وبما وقع النزاع في حكم مستنبط من حديث يكون مستنبطاً من حديث يكون متوقفاً على إعرابه كحديث «زكاة الجنين زكاة أمّه» فجمهور الشافعية والمالكية وغيرهم لا يوجهون زكاته بناء على رفع زكاة أمّه، بالإبتدائية والخبريّة، وهو المشهود في الرواية، والحنفية وغيرهم يوجبونها على نصب زكاة الثانية على التشبيه، أي يزكّى مثل زكاة أمه. ومثل هذه الأمور كثيرة، وقد أشاروا إليها[2].

ثم يؤكد العلموي على أهمية ضبط الملتبس من الأسماء، إذ لا يدخلها قياس، ولا قبلها ولا بعدها شيء يدل عليها، وأضاف: وإذا احتاج إلى ضبط الشكل في الكتاب وبيانه في الحاشية قبالته فعل[3]، أي هنا أجيز استخدام الحاشية الجانبيّة لتوضيح ذلك الإشكال، وكثير من المخطوطات العربية، فيها ممارسة واضحة من هذا القبيل.

ولأنهم يعتقدون، بصدد هذه المسألة، الإشكال وتوضيحه في الحاشية، أن الجمع بينهما أبلغ في الإبانة، وإذا كتب - الناسخ - كلمة مشكلة من القلم لسواد كثير فيه، ونحوه أوضحها في الحاشية، وكتب فوقها كلمة صغيرة (بيان أو ن) وله أن يكتبها في الحاشية بصورتها، وله أن يكتبها مقطعة الأحرف بالضبط ليأمن اللبس والاشتباه، وله أن يضبطها بالحروف كقوله: بالحاء المهملة والدال المهملة، والتاء المثنّاة، والثاء المثلّثة، ونحو ذلك[4]، ثم أنهم وضعوا إشارات معيّنة لتسهيل القراءة، وهي مما يلتحق بضبط المعجم، كأن يكتب في باطن الكاف المعلقة كافاً صغيرة «ك» هكذا، أو همزة، ويكتب في باطن اللام، هكذا (لام) ولا يكتب لام هكذا (ل)[5].

كما أن الشكّ في وقوع الخطأ في المخطوطات، أمراً أشكل على الوراقين، حيث أنه

(1) هو عيّاض بن موسى بن عيّاض بن عمرون اليحصبي السبتي/ راجع الأعلام للزركلي 5/ 99 طبعة دار العلم للملايين الخامسة، بيروت.

(2) العلموي/ ص135 - 136 حيث فيه ذكر لأمور أخرى من هذا القبيل.

(3) المصدر السابق/ ص136.

(4) العلموي/ ص136.

(5) نفس المصدر والمكان.

يصادفهم بكثرة في كل يوم، بل في كل ورقة ينسخونها، ولغرض تجاوز هذه المسألة، فإن مهنة الوراقة أعطت الحلول لذلك، من خلال التجربة العملية، فقد أشار العلموي في المسألة الثامنة إلى ذلك بالقول: ينبغي أن يكتب على ما صححه وضبطه في الكتاب، وهو في محل شك عند مطالعته، أو تطرق احتمال (صح) صغيرة ويكتب فوق ماوقع في التصنيف أو في النسخ وهو خطأ (كذا) صغيرة، أي هكذا رأيته، ويكتب في الحاشية (صوابه كذا)، إن كان يتحققه أو يكتب (لعله كذا) إن غلب على ظنه أنه كذلك، أو يكتب على ما أشكل عليه ولم يظهر له وجهه (ضبّه)، وهي صورة رأس صاد مهملة مختصة من صحّ، هكذا (صـ)، فإن صحّ بعد ذلك وتحقّقه، فيصلها بحاء، فتبقى (صحّ)، وإلا كتب الصواب في الحاشية كما تقدّم[1]. وربما وقع السهو عند الناسخ، في مثل ذلك، كافتراض، ونسي الـ«صـ» في مكانها دون العودة إليها، نتيجة عدم التحقق، فما العمل؟ يجيب العلموي على ذلك بالقول: قيل: واشاروا بكتابة الصاد أولاً إلى أن الصحة لم تكتمل، وإلى تنبيه الناظر فيه على أنه مثبت في نقله غير غافل، فلا يظنّ أنه غلط فيصلحه، وقد تجاسر بعضهم فغيّر، والصواب إبقاؤه[2]، أي أن عملية السهو غير مسموح بها في العمل، وتبقى إشارة (صـ) دليل على الشك في المعلومة، نتيجة عدم التحقق منها. وهذه المسألة جلبت إنتباه الكثير من الورّاقين والكتّاب على حدّ سواء، لأنها شكل قائم في العمل اليومي للنسّاخ والمؤلفين، وهو إحتمال قائم أبداً، ما زالت عملية الكتابة كفعل ثقافي وحضاري، قائمة. وقد أشار ياقوت الحموي إلى مثل هذه الحالة عند علي بن محمد بن عبيد الأسدي، حيث أنه بالغ في الاحتياط لتجنّب مثل ذلك ووصفه بالقول: لم أر أحسن ضبطاً واتقاناً للكتابة منه، فإنه يجعل الإعراب على الحرف بمقدار الحرف احتياطاً، ويكتب على الكلمة المشكوك فيها عدة مرات: «صحّ، صحّ، صحّ»[3]، فانظر إلى مدى المسؤولية في كتابة الكلمة، كي تصل إلينا بأمان ومعرفة!

من خلال المراجعة للمخطوط، بعد الإنتهاء من عملية النسخ، قد يجد الكاتب والورّاق، على حدّ سواء، بعض الزيادة، أو بعض العبارات غير المنسجمة في سياقها في بناء الجملة، الأمر الذي يتطلب حسن التدبير، دون إلحاق الأذى بالمخطوط، فإنهم في ذلك رأوا ما يلي: إذا وقع في الكتاب زيادة، أو كتب فيه شيء على غير وجهه، تخيّر فيه

---

(1) العلموي/ ص136.

(2) نفسه.

(3) معجم الأدباء 14/ 153 - 145، الترجمة رقم 33.

ثلاثة أمور: الأول: الكَشط، وهو سلخ الورق بسكين ونحوها[4]، ويعبّر عنه/ في عرفهم/ بالبشر وبالحك، حيث هو الأولى في إزالة نقطة أو شكلة، الثاني: المحو، وهو الإزالة بغير سلخ، إن أمكن، وهو أولى من الكَشط. قال ابن الصلاح[5] وتتنوع طرقه، الثالث، الضرب عليه، وهو أجود من الكشط والمحو، لا سيما في كتب الحديث[6]. وعلى ما يظهر، أن البعد الديني، في عملية الكشط والمحو لا تفضل استخدام السكين أو غيرها، لا سيما في الأمور التي تخصّ الكتب الدينية، لذلك قال أحد الشيوخ: أنهم يكرهون حضور السكين مجلس السماع، لأن الروايات مختلفة، فعسى أن يبشر شيئاً يكون صحيحاً فيحتاج إلى إثباته ثانياً[7]، ومن هذا الجانب مالوا لاستخدام الضرب، وقد أوجدوا فيه/ أي في كيفية الضرب/ خمسة أقوال مشهورة، أولها: أن يصل بالحروف المضروب عليها، ويخلط بها خطاً ممتداً، ثانيها، أن يجعل الخط فوق الحروف منفصلاً عنها، منعطفاً طرفاه على أول المبطل، وآخره، كالباء المقلوبة.

ثالثها: أن يكتب لفظة «لا» أو لفظة «من» فوق أوله، ولفظة (إلى) فوق آخره، ومعناها: من هنا ساقط إلى هنا.

رابعها: أن يكتب في أول الكلام المبطل وفي آخره نصف دائرة.

خامسها: أن يكتب في أول الكلام المبطل وفي آخره صفراً، وهو دائرة صغيرة: سميت بذلك لخلوّ ما أشير إليه بها من الصحة، كتسمية الحساب لها بذلك، لخلو موضعها من عدده، ومثاله هكذا «ō»[8]، / أقرب إلى رسم العدد العربي/ 5/ . وإذا تكررت كلمة أو أكثر سهواً، ضرب على الثانية لوقوع الأولى صواباً في موضعها، إلا إذا كانت الثانية أجود صورة وأدلّ على القراءة، وكذلك إذا كانت الأولى آخر سطر، فإن الضرب عليها أولى، صيانة لأول السطر، وبالجملة فصيانة أول السطور وآخرها متعيّن إلا أن مراعاة أولها أولى كما يقولون[9]، ومن الناحية اللغوية، إنتبهوا إلى أن المكرر قد يكون مضافاً ومضافاً إليه،

---

(1) قبل إبتداع ماسحة الحبر في آننا المعاصر، كان شيوخنا القدماء يستخدمون «الشفرة الخاصة بالحلاقة» لمثل هذه المهمة.

(2) ابن الصلاح/ هو العلامة الحافظ تقي الدين أبو عمروعثمان بن المفتي، الشهرزوري الموصلي الشافعي، صاحب المقدمة المعروفة باسمه، وهو واحد من المختصين بعلوم الحديث المشهورين، راجع سير أعلام النبلاء للذهبي 23/ 140 الترجمة رقم 100.

(3) العلموي - المسألة التاسعة/ ص137، والضرب عليها يعني وضع إشارة ضرب (x).

(4) العلموي/ المسألة التاسعة/ ص137.

(5) نفسه.

(6) المعطيات السابقة.

أو موصوفاً وصفة، أو مبتدأ وخبراً، أو متعاطفين، فأثبتوا أن مراعاة عدم التفريق بالضرب أولى، إذا كان آخر سطر، كيلا يفرّق بين شيئين بينهما ارتباط، إذ مراعاة المعاني أولى من مراعاة تحسين الصورة، في الخط، كما يقول القاضي عياض[1]، ثم إنتبهوا إلى مسألة المقابلة في عملية تصحيح الكتاب، فإن كانت على الشيخ أو على نسخة أخرى، عُلّم على موضع وقوفه كلمة (يبلغ أو بلغ العرض) أو غير ذلك[2] مما يفيد المعنى، وإذا كان الأمر في سماع الحديث كتب: بلغ في الميعاد الأول والثاني إلى آخرها، فيعيّن عدده فإنه مفيد جداً كما يقول العلموي[3].

وثمة مسألة هامة التفتوا إليها في منهج الوراقة، وطبقوها علميّاً وعملياً هي «مبدأ الاختصار والفصل بين الكلام» حيث أكّد على الناسخ على أهمية أن يفصل بين كل كلامين أو حديثين بدائرة، أو قلم غليظ، ولا يصل الكتابة كلها على طريقة واحدة لما فيه من عسر استخراج المقصود، ورجّحوا الدائرة على غيرها، وعليها عمل غالب المحدثين، وصورتها هكذا (.)[4]، وخضع مبدأ الاختصار عندهم إلى وجود بعض اللفظات المختصرة عن لفظة كاملة، فمثلاً كلمة: «حدّثنا» اختصروها على «ثنا» وبعضهم وضع (نا) وبعضهم على (دثنا) واختصروا كلمة «أخبرنا» على «أنا» وبعضهم على «أرنا» وبعضهم على «أبنا» واختصروا كلمة «حدثني» على «ثني» وبعضهم على «دثني»، وأبقوا على كلمات «أخبرني، وأنبأنا وأنبأني فلم يعملوا في الاختصار[5]، ثم أوجدوا رموزاً حرفية لبعض المفردات الدالة على الواقعة في الأسناد بين رواية، اختصرها بعضهم قافاً مفردة (هكذا - ق) وجمعها بعضهم بما يليها، هكذا (قثنا) ومعناها يدل على (قال حدثنا)، وقد علّق العراقي على ذلك بالقول: هو اصطلاح متروك، ومن هذا القبيل ما يوجد في كتب الاعاجم من اختصاص المطلوب على «المط» واختصار المحال على (مح) وباطل على (بط) وحينئذ على (وح) وحينئذ على (فح) وإلى آخر إلى (الخ) والمصنف على (المصـ) ونحو ذلك[6]، ثم نحو على ما يختصر جميعه مع النطق به كلفظ يحدث في قولهم في الإسناد من مثل سمعت فلاناً عن فلان، يحدّث عن فلان، فرأوا أن اللفظ إذا تكرر،كما في صحيح البخاري/ ثنا/ صالح بن حيان

(1) نفسها.
(2) المصدر السابق/ ص138.
(3) نفسه.
(4) نفسه.
(5) العلموي/ ص138.
(6) نفسه.

قال: قال عامر الشعبي/فتحذف إحداهما خطّاً لا نطقاً، ومن ذلك ما يختصر بعضه، وينطق بالبعض الباقي على صفته، والمشهور منه «حاء التحويل» عند الانتقال من سند إلى غيره، فيكتب هكذا (ح) مفردة مهملة مقصورة لفظاً، وهي مختصرة من تحويل، أي من سند إلى سند آخر، وقيل: مختصرة من حائل لأنها حالت بين الاسنادين، وقيل: من قولهم الحديث وهو المنقول عن أهل المغرب، وقيل من «صح»، قال ابن الصلاح: وقد كتب مكانها بدلاً عنها صح، صريحة، واختلف في النطق بها، فالأصح - كما يقول العلموي - أنه ينطق بها في القراءة، كما كتبت كذلك مفردة، وقيل لا ينطق بها، وقيل ينطق بأصلها المختصرة منه، وهو الحديث أو صح فليعلم ذلك[1]، هكذا وردت، وبتقديرنا أن الملاحظة الأخيرة هي أقرب إلى الواقع، ودلالتها ترمي إلى المقصود به هو (الحديث).

كما أنهم أوجدوا رموزاً خاصة للدلالة على بعض المصطلحات التي تخصّ كتب الحديث فإنهم يضعون حرف (خ) لصحيح البخاري و(م) لمسلم، و(ت) للترمزي، و(د) لأبي داود، و(ن) للنسائي، و(وجه) لابن ماجه القزويني، وأحياناً يرمزون له بـ (ق)/ ولكن الرمز الأول هو الشائع والمعروف والمثبت حتى الآن/ و (حب) لابن حبان، و(ط) للدارقطني، ونحو ذلك كثير، ويرمزون بحرف (ع) للعجالة[2]، والعمدة (لابن الملقّن) و(م) للإمام مالك و(ح) لأبي حنيفة، و(أ) لأحمد، ونحو رموز الوجيز والحاوي للأقوال والأوجه والمذاهب وغير ذلك، وهي مشهورة ومعروفة عندهم ويعلّق العلموي على هذه الرموز بقوله: ومن فعل شيئاً من ذلك أو من غيره في تأليف بيّن اصطلاحه فيه، ولا مشاححة[3] في الاصطلاح، فبيان الاصطلاح في ديباجة الكتاب ليفهم الخائض فيه معانيها[4].

وهذا المنهج في الرموز يوضّح لنا الأهمية المعرفية عند هؤلاء حرصاً على سلامة النقل بالشكل العلمي، من جهة، ومن جهة أخرى يوضح ذلك لنا العمق الإبداعي في مهنة الورّاقين والمؤلفين، لتجاوز حالات مكررة يتعاملون معها بشكل مستمر ويومي، حتى أن التجاوز المهني في هذه الحالة خلق هذه الرموز ليتجاوز حالة الروتين والملل وإنعكاساته النفسية أثناء العمل، وبنفس الوقت تكثيفاً للزمن، وليس ذلك فحسب، بل أن هذا المنسك المعرفي فرضه الورّاقون على أنفسهم أولاً، وعلى المؤلفين ثانياً، تسهيلاً للعمل، ودرءاً

---

(1) نفسه/ ص138 - 139.

(2) أنظر تصويبات روزنتال على نصّ العلموي في/ مناهج العلماء المسلمين/ ص48 هامش رقم 1.

(3) المشاححة: اشتقاق من «شحّ»، وهو البخل والحرص، أنظر القاموس، مادة: شحح.

(4) العلموي/ ص139.

للخطأ اللغوي والمعنى العلمي، وإيضاحاً للباحث الذي يدرس ذلك المؤلف. وهذا المنهج يكشف لنا، أن الاستمرار الثقافي والعلمي، بكتب الدين وعلوم الشريعة، ظلّ هو المنهل الأساسي للوعي الثقافي والاجتماعي، حتى زمن المؤلف العلموي - وهو القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، الأمر الذي يعطي البعد التواصلي لحضارتنا العربية - الإسلامية، بين الأمس واليوم.

ومن منهج الرموز إلى منهج الحاشية، ظل الكتّاب والأدباء والورّاقون فيهم متمسكين بمنهج الحواشي في الكتاب، حيث أنهم وجدوا فيه فوائد جمّة تخدم وتكمّل منهج الرموز، فقد أوصوا أن لا يكتب في آخره/ صح/ بل ينبّه عليه بإشارة للتخريج بالهندي مثلاً[1] وبعضهم يكتب على أول المكتوب في الحاشية (ح) ولا ينبغي أن يكتب إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب والمحل مثل، تنبيه على إشكال، أو إحتراز، أو رموز أو خطأ، ونحو ذلك[2]، كما طالبوا الورّاق والكاتب على حدّ سواء أن لا يسوّد الكتاب بنقل المسائل والفروع الغريبة، ولا يكثر الحواشي كثرة يظلم فيها الكتاب، وقالوا: لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول ونحو ذلك بالحمرة، فإنه أظهر في البيان وفي فواصل الكلام، ثم أباحوا للكاتب والناسخ الحقّ في كتابة شرح ممزوج بالمتن بكتابته بالحمرة، أو يخط عليه خطاً منفصلاً عنه، ممتداً عليه، ولكن المفضل عندهم والأحسن الكتابة بالحمرة، لأن ذلك أوضح للبيان، حيث أنه قد يمزج بحرف واحد، وقد تكون الكلمة الواحدة بعضها متن وبعضها شرح، فالخط لا يوضح ذلك الإيضاح الذي توضحه الحمرة[3].

وثمّة مسألة هامة، لم يتناسها الورّاقون ولا الكتّاب، هي مسألة الأمانة العلمية، كما نسميها اليوم، وقد نصّ عليها العلموي في المسألة الثالثة، حيث أشار إلى/ لا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه[4]، وأكّد ذلك في نهاية المسألة الثامنة، حيث أشار: «فلا يظنّ أنه غلط فيصلحه، وقد تجاسر بعضهم فغيّر ما الصواب إبقاؤه»[5]، وهذا التنبيه مبدأ هام سار عليه الأوائل، فقد أشار الجاحظ إلى مثل ذلك ونبّه عليه[6]، كما أن الصولي سار على نفس المنوال في/ أدب الكتّاب/ [7].

---

(1) هكذا وردت بالنص/ أنظر العلموي/ ص139.

(2) العلموي/ المصدر السابق - نفس المكان.

(3) العلموي/ ص139.

(4) العلموي/ ص131.

(5) نفس المصدر/ ص136.

(6) أنظر الحيوان 1/ 38 وما بعدها.

(7) راجع أدب الكتّاب/ ص120 - 122.

وقد كانت الدقّة والأمانة في النقل عند الناسخ من الشروط الأساسية التي يجب توفرّها، ورغم وجود بعض الأخطاء والسهو، إلا أن التعمّد في ذلك لم يكن واضحاً، أو متقصداً، رغم وجود بعض الحالات النادرة، وقد تدخلت السياسة في ذلك، مما حرف المنهج عن مساره الصحيح، والأمر ليس واقعاً على الورّاقين بالدرجة الأساسية، بل على المؤلفين، لأنهم هم الأكثر اشتغالاً بالفكر، والسياسة تدخل في هذا الباب، وقد نبّه الخطيب البغدادي إلى ذلك، عند بعض رجال الحديث المخلطين الحديث، وأشار إلى بعضهم مثل: ابن الخفاف محمد بن الحسين بن أبي بكر قال عنه: «غير ثقة، لا أشك أنه كان يركب الأحاديث، ويضعها على من يرويها عنه، ويختلق أسماءً وأنساباً عجيبة لقوم حدّث عنهم، وعندي منه، من تلك الأباطيل أشياء، قال لي ابن الخفاف: احترق مرّه سوق بباب الطاق فاحترق من كتبي ألف وثمانون منّا كلها سماعي»[1]، وهذه المسألة، أعني الانتحال للحديث كانت سائدة في بعض الأمصار، على ما يبدو، والأمر الذي قارنه الخطيب، في معرض حديثه عن ورع أهل الحديث في بغداد، حيث قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: شبّان البغداديين أورع أو خير من شبان البصرة والكوفة، وهذا قاله سفيان مع صحة رواية البصريين الذين ما زالوا بالتحفظ والورع معروفين، وأمّا أهل الكوفة وأهل خراسان أيضاً، فلهم من الأحاديث الموضوعة والأسانيد المصنوعة نسخ كثيرة، وقلّ ما يوجد بحمد الله من محدثي البغداديين ما يوجد في غيرهم من الاشتهار بوضع الحديث والكذب في الرواية، إختصاصاً لهم وتوفيقاً من الله الكريم[2].

فظلت مسألة الأمانة العلمية، إحدى الثوابت الأساسية في منهجهم العلمي والأخلاقي والمهني، حتى أن الناسخ أحياناً يضطر إلى السرعة في العمل، توفيراً للوقت، بناءً على أمر طالب النسخ، وهذا يعني أن الخطأ واقع لا محالة، لذلك كانوا يكتبون عبارات تدلّل على أمانتهم من مثل «أنني لم أراجع قراءة المنسوخ لإصلاح الأخطاء، التي ربما وقعت في هذا الكتاب، ولست متيقناً من أن النسخة خالية من الأخطاء، وذلك لأنني كنت مسرعاً»[3].

---

(1) تاريخ بغداد 2/ 250 الترجمة رقم 719/ وراجع: حبيب زيّات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص17.

(2) تاريخ بغداد 1/ 44.

(3) فرانتز روزنتال/ مناهج العلماء المسلمين/ ص62.

منهج التخصص في النسخ:

بعد أن أرسى الورّاقون القواعد الأساسية لمنهجهم في التوريق والنسخ، كانت مهنتهم تتفاعل حضارياً والمستجدات التي تطرأ على حالة العصر، من آن لآن، آخذة الرقّي المعرفي بعين الاعتبار، محققة خطوات علمية مزدهرة في الميدان الثقافي، فبالرغم من سقوط بغداد سنة 656هـ على يد المغول، إلا أن تأثيراتها الحضارية، ظلّت سارية ومتفاعلة في بقية الأمصار الإسلامية، محافظة على ذلك الوهج العلمي الذي أرسته بغداد إبّان ازدهارها في (ق 4هـ) وما تلاه من قرون، لا سيّما على الصعيد العلمي والثقافي، فرغم النكبة التي أحدثها المغول في بغداد وإسقاط حكومتها العباسية، إلا أن التطور الثقافي ما فارقها لحظة، وكأن الأمر ردّاً على ذلك السقوط السياسي والحربي، والذي تعرضت له عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك، وقد برزت ملامح هذا التطور الثقافي بعد فترة وجيزة من سقوط بغداد، لا تتجاوز النصف قرن، أي في مطلع قرن 8 هجري/ 14 ميلادي، حيث أدرك العرب والمسلمون أهميّة حضارتهم والحفاظ على تراثهم وضرورة إحيائه وبعثه من جديد، فنشط التأليف، وتصدّرت الوراقة بقية المهن الإسلامية، وراحت تضفي أبعاداً جديدة على منهج الوراقة السابق، حيث إشترطت «مبدأ التخصص» في عملها، لا سيّما عند النسّاخين، في كل فن يشتغلون فيه، بحيث أصبح الناسخ في سياق هذا التخصص، أقرب إلى الناقد، إضافة إلى مهنته كناسخ، وقد أظهر النويري أبعاد هذا المنهج بشكل جيّد في موسوعته الشهيرة «نهاية الارب في فنون الأدب»[1]، فقد اشترط في ناسخ العلوم، كالفقه واللغة العربية والأصول، وما يتعلق بهذا الفن، عدة أمور منها: 1 - أن لا يتقدم إلى كتابة شيء منها إلا بعد إطلاعه على ذلك الفن وقراءته وتكراره، ليسلم من الغلط والتحريف والتبديل والتصحيف، ويعلم مكان الانتقال من باب إلى باب، ومن سؤال إلى جواب، ومن فصل إلى فصل، ومن أصل إلى فرع، أو فرع إلى أصل، ومن تنبيه إلى فائدة، واستطراداً لم يجرِ الأمر فيه على قاعدة، ومن قول قائل وسؤال سائل، ومعارضة معارض،

---

(1) من المؤسف حقاً أن يحقق من هذه الموسوعة 18 جزءاً وتترك بقية الأجزاء حيث أنها (30 جزءاً أو مجلداً) لأن صاحبها/ شهاب الدين بن عبد الوهاب النويري - كان شافعياً، وذو نظرة موضوعية لكل المذاهب والفرق، الأمر الذي ترددت عنه دار الكتب المصرية «التي حققت العمل وطبعته ناقصاً»، سمعت مؤخراً أن الموسوعة طبعت في مصر كاملة، فيما أحجمت بقية الدوائر المختصة في الدول العربية، عن إكمال تلك الموسوعة/ راجع عن النويري، بهذا الصدد/ كشف الظنون 2/ 1985 - 1986؛ والنجوم الزاهرة/ 9/ 299 والأعلام للزركلي 1/ 165.

ومناقضة مناقض فيعلم آخر كلامه، ومنتهى مرامه، فيفصّل بين كلّ كلام وكلام بفاصلة تدل على إنجازته ويبرز قول الآخر بإشارة يستدلّ بها على إبرازه وإلا فهو حاطب ليل لا يدري أين يفاجأه الصباح، وراكب سيل لا يعرف الغدوّ من الرواح، كما يقول النويري[1].

فيما اشترطوا على ناسخ التاريخ أن يكون عارفاً بأسماء الملوك وألقابهم ونعوتهم وكناهم، خصوصاً ملوك العجم والترك والخوارزمية والتتار، بسبب كون أغلب أسمائهم أعجمية لا تفهم إلا بالنقل[2]، وقالوا: يحتاج الناسخ إذا كتبها إلى تقييدها بضوابط وإشارات وتنبيهات تدلّ عليها، وكذلك يجري التنبيه على مثل ذلك في أسماء المدن والبلاد والقرى والقلاع والرساتيق والكور والأقاليم، فينبّه على ما تشابه منها خطّاً واختلف لفظاً، وما تشابه خطاً ولفظاً واختلف نسبة، نحو «مرو» و«مرو» أحداهما «مرو المرّوذ»[3] والأخرى «مرو الشاهجان»، و«القاهرة» و«القاهرة» احداهما، «القاهرة المعزية»[4]، والأخرى «القلعة القاهرة» التي هي «بَزْوزَن»[5]، التي أنشأها مؤيد الملك صاحب «كرمان»، فإن الناسخ متى أطلق اسم القاهرة، ولم يميّزها بمكانها ونسبتها، تبادر ذهن السامع إلى القاهرة المعزية لشهرتها دون غيرها، وهكذا في بقية أسماء المواضع[6].

واشترطوا مثل هذا التمييز أن يكون أيضاً في أسماء الرجال، فمثلاً يميّز بين عبيد الله بن زياد، وعبيد الله بن زياد، فالأول عبيد الله بن زياد بن أبيه، أو يعرف بابن سميّة الذي ألحقه معاوية بأبيه واعترف بأخوته، والثاني: عبيد الله بن زياد بن طبيان، فإن لم يميّز بالوقائع واطّلاع على الأخبار، وأمثال ذلك، وما شاكله، يتعيّن على الناسخ تبيانه، وكذلك أسماء أيام العرب، نحو أيام الكلاب، بضم الكاف، وأيام الفِجار، بكسر الفاء وبالجيم، وغير ذلك، فينبه عليه ويشير إليه بما يدل عليه[7].

أما ناسخ الشعر، فقد اشترطوا فيه مقومات الناقد في لغتنا المعاصرة حيث طالبوه

---

(1) نهاية الارب في فنون الأدب 9/ 214 طبعة القاهرة، مصور عن دار الكتب المصرية.

(2) نهاية الارب 9/ 214.

(3) مروالروذ: مدينة بخراسان قريبة من (مرو الشاهجان) وهي تقع على نهر عظيم، فلهذا سميت بذلك، وهي أصغر من/مرو الشاهجان/، والمرو: الحجارة البيضاء تقدح بها النار راجع ياقوت الحموي، معجم البلدان 5/ 112 مادة - مرو.

(4) القاهرة حالياً.

(5) زَوْزَنْ = كورة واسعة بين نيسابور وهراة، كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة ما أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. معجم البلدان 3/ 158 - مادة: زَوزَن.

(6) نهاية الارب 9/ 215.

(7) المصدر السابق 9/ 216.

بمعرفة أوزان الشعر وقالوا: أنه يعينه على وضعه على أصله الذي وضع عليه، كما ألزموه، بمعرفة العربية والعروض، كي يتمكّن من إقامة وزن البيت إذا أشكل عليه بالتفعيل، فيعلم هل هو على أصله وصفته أو حصل فيه زحاف من نقص به أو زيادة، فيثبته بعد تحريره، ويضع الضبط في مواضعه، فإن تغيّره يخلُّ بالمعنى ويفسده، ويحيله عن صفته المقصودة، ثم قالوا: أن الناسخ إذا عرف هذه الفوائد وأتقنها وحرّر هذه القواعد وفنّنها[1] وأوضح هذه الأسماء وبيّنها، وسلسل هذه الأسماء وعنعنها[2] بعد ذلك يصبح من المرغوب في علمه وكتابته، وعندما تتوفرّ هذه الشروط في أحدهم قالوا: فليبسط قلمه عند ذلك في العلوم، ويضع به المنثور والمنظوم[3]، وعلى هذا الأساس من تلك الاشتراطات سارت عملية النسخ بالتقدم والازدهار عصراً بعد عصر، مستفيدة من مناهج العمل السابقة، ومضيفة أشياء جديدة، لتكمل ما نسي أو أهمل، وهو ما نتلمّسه في المخطوطات العربية، المكتوبة في (ق 4هـ) مثلاً، والمكتوبة في (ق 8هـ) فإن الوضوح والكمال والحسن والدقة في مخطوطات العصر المتأخر، وهكذا كان التطور في فنّ الوراقة.

الفصل السادس

أخلاق الوزاقين

لعبت الأخلاق دوراً هاماً في بنية العقل العربي - الإسلامي، منذ بدايات تشكّله في العصر الجاهلي، أو تبلوره في العصور الإسلامية المتعاقبة، وأصبح «علم الأخلاق» واحداً من أهمّ المكوّنات الأساسية للفلسفة العربية الإسلامية، وقد نظر إليه مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب - ت 421هـ/ 1030م)[4]، على اعتباره أفضل العلوم، لأنه يعني بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان، باعتباره أشرف المخلوقات[5]، ويعرّج مسكويه على أهمية العمل الجميل فيقول: «فأما الأفعال فإنما يحمد الإنسان بها إذا كانت جميلة، ويذمّ عليها

(1) يفنّن الكلام: أي اشتق فنّ بعد فن - راجع اللسان: مادة فنن.
(2) عنعنها، أي وضع لها عناوين، وليست العنعنة المعروفة عند تميم وهي = إبدال العين محل الهمزة كقولهم «عن» يردون «أن».
(3) نهاية الارب 9/ 218.
(4) الزركلي - الأعلام 1/ 211، ط 5، دار العلم العلم للملايين، بيروت 1980.
(5) مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق/ ص55، دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت 1398هـ.

إذا كانت قبيحة»[1]، وقد إنطلق مسكويه من هذا الاعتبار وفق تقسيماته الفلسفية إلى العلوم حيث قسمها إلى قسمين، العلوم النظرية والعلوم العلمية، تبعاً لوجود قوتين في الإنسان هما: القوة العالمة، والقوة العاملة، حيث تتجه الأولى إلى العلوم وتشتاق إليها، ويبلغ المرء كماله فيها عندما يصدق نظره وتصحّ بصيرته وتستقيم روّيته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشكّك في حقيقة، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتيب إلى العلم الإلهي، الذي هو آخر مرتبة العلوم، ويثق به ويسكن إليه، ويطمئن قلبه وتذهب حيرته، ويتجلى له المطلوب الأخير حتى يتحدّ به[2]. فيما يرى أن القوة العاملة هي المسؤولة عن ترتيب قوى الإنسان وأفعاله الخاصة به، حتى لا تتغالب، وحتى تتسالم، وتصدر كلها بحسب القوة المميّزة، منتظمة مرتبة كما ينبغي[3]، وقد ربط مسكويه جدلياً علاقة العلوم النظرية بالعملية حيث قال: «الكمال الأول النظري، منزلته منزلة الصورة، والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة وليس يتمّ أحدها إلا بالآخر، لأن العلم مبدأ والعمل تمام، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً»[4]، وفي ضوء هذه المقدمات النظرية تحدّد فلسفة مسكويه الإسلامية، سعادة الإنسان على نتائج عمله، كغاية منشودة يسعى لنيلها، وفي ضوء هذه النتيجة، نرى مع د. أبو ملحم أن علم الأخلاق يمكن تعريفه بأنه: الفلسفة العملية التي تنظرفي أعمال الإنسان الإرادية، التي تصدر عن قواه وملكاته العقلية المميزة[5].

وهنا نرى أن الفلاسفة المسلمين صاغوا نظرياتهم الفلسفية في ضوء دينهم ودنياهم، وربطوا هاتين المسألتين ربطاً محكماً، نظراً لما لهما من تواشج وترافق في حياتهم اليومية، وعلى أساس نظري، مستل من عقيدتهم الإيمانية، وأشاعوه بين الناس، وقد كان لتلك العقيدة، تأثير واضح في أخلاقهم وحياتهم، وتجلّى هذا التأثير في الأصناف الإسلامية، حيث أن الإسلام رفع شأن العمل الى مصاف العبادة، وجعله من الواجبات المفروضة على المسلم[6]، وقد سار الفقهاء والمشرعون بذلك، مستندين إلى القرآن والسنّة النبوية،

---

(1) مسكويه: السعادة في فلسفة الأخلاق/ ص44 - 45، نشرة محمود علي صبح، المطبعة العربية بمصر 1346هـ/ 1928م.

(2) مسكريه: تهذيب الأخلاق/ ص57 - 58، وأنظر كذلك/ البحث القيّم (علم الأخلاق عند مسكويه) للدكتورعلي أبو ملحم، المنشور في مجلة دراسات عربية العدد 12، السنة 26 تشرين أول/ اكتوبر 1990/ ص102 وما بعدها.

(3) مسكويه: تهذيب الأخلاق/ ص58.

(4) المصدر السابق/ نفس المكان.

(5) دراسات عربية، العدد المذكور/ ص104.

(6) راجع/ صباح إبراهيم سعيد الشيخلي/ الأصناف في العصر العباسي/ ص40 - 41.

فاصلين أمور المعاش عن أوقات العبادة، فقد دعا سعيد بن المسيّب، إلى عدم ترك العمل بحجة الانصراف إلى العبادة[1]، وبجانب هذه المسألة الفقهية للترابط بين الدين والعمل، تنبّه الأوائل إلى حبّ العمل من جانب ديني أولاً، ومن جانب نفسي، ثانياً، والثاني يصبح أول في كثير من الأحيان، ولكن سيطرة الفكر الآيديولوجية كانت تجعله في المقام الثاني، وقد اشار إلى هذه الناحية مسكويه أيضاً، عندما قال: إذا أحبّ الإنسان نفسه، أحبّ صورتها، والعلم صورة النفس، ويحرص من محبة صورة نفسه أن يبغض ما ليس له بصورة، فمتى حصل له علم أحبّه، وإذا لم يحصل له أبغضه[2]، ويربط العلم بالعمل، فإن الأصناف الإسلامية، أخذت به، وقد كان للورّاقين، القدح المعلّى بذلك، لأن أغلبهم من العلماء والأدباء والشيوخ، والقضاة، وأرباب القلم، فقد أحبّوا مهنتهم رغم معاناتهم منها[3].

وبغية عدم الاطالة والاستطراد في موضوع الأخلاق عند أرباب المهن الإسلامية، سوف نقتصر الحديث فقط على موضوع بحثنا - أخلاق الورّاقين.

في هذا الباب الهام، فاتنا الكثير من معرفة أخلاق الورّاقين، بضياع رسالتين للجاحظ، كان قد أنشأهما عنهم، الأولى كانت بعنوان/ رسالة في مدح الورّاق/ والثانية/ رسالة في ذمّ الورّاق/ وقد ذكر هاتين الرسالتين ياقوت الحموي في ترجمته للجاحظ[4]، ومن المؤسف حقاً أنه لم يعثر عليهما مع بقية كتب الجاحظ العديدة التي تزيد عن 360 كتاباً[5]، إلا أن أهل العلم، والذين جاؤوا بعد الجاحظ، إنتبهوا لهذا الجانب عند الورّاقين وبقية الأصناف الإسلامية، فقد أفرد إبن الحاج في «المدخل» فصولاً عديدة عن أخلاقهم، وفق صفات ومميزات كل صنف، مبتدئاً بـ«الورّاق» على اعتبار أن هذا الاصطلاح يشمل «رب العمل» كاصطلاح جامع للوراقة والورّاقين، يقول في «نيّة الورّاق»: أعلم، وفّقناً الله وإيّاك، إن هذا السبب من أعظم الأسباب التي يتقرّب بها إلى المولى سبحانه وتعالى، إذا أحسنت النيّة فيه[6]، ومن المقدمة للدخول في الموضوع، فإن البعد الديني - الإسلامي،

---

(1) ابن الجوزي/ تلبيس ابليس/ ص273، بعناية محمد منير الدمشقي، القاهرة، وراجع الأصناف/ ص42.

(2) أبو حيّان التوحيدي ومسكويه/ الهوامل والشوامل/ ص189 - المسألة 75، نشرة أحمد أمين وأحمد صقر، إصدار لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1370هـ/ 1951م.

(3) سوف نتطرق بفصل مستقل - عن معاناة الورّاقين.

(4) معجم الأدباء 16/ 109.

(5) أنظر فهرست كتبه عند ياقوت/ معجم الأدباء 16/ 106 - 110 وأغلبها مفقود.

(6) ابن الحاج/ المدخل (مدخل الشرع الشريف على المذاهب) 4/ 79، منشورات المطبعة المصرية بالأزهر، ط1 سنة 1348هـ/ 1929م.

تتوضّح معالمه، حيث أن الخطاب يحمل في ثناياه عمق الوازع الديني، ويخاطب الإيمان عند الورّاق، وهو أمر سارت عليه الحياة اليومية عندهم، وعلى اعتبار أنهم مسلمون، فإن العقيدة الإسلامية، تحضّ على حسن الأخلاق في العمل، ومن هذا الجانب يدخل/إبن الحاج/ في التوكيد على «تحسين نيّة الوراق» على اعتبار أن القرآن يكتب في الورق وتفسيره وعلم الناسخ والمنسوخ وما يتعلق به من العلوم، وكذلك الحديث النبوي وشروحه وما احتوى عليه من الحكم والمعاني، إضافة إلى كتب الفقه، وباقي العلوم الشرعية، إلى ما يحتاجه الناس من كتب الصدقات، وعقود البياعات، والإجارات والوكالات، وغيرها من أمور الدين[1]، وهذه الأمور جميعاً ينظر إليها بمنظار إسلامي خالص، ومن هنا يكون الورّاق على تماس مباشر بيده وجسده وروحه، وهذه العلوم تحمل صفة القدسية في مضامينها وأسمائها، لذلك جاء هذا التركيز من منظور الشريعة عليها، ومن الناحية الأخرى، أن في عمل الورّاق تقديم خدمة للناس، من ذات المنظور الديني، والدنيوي كذلك، لذا وجّه الخطاب له على النحو التالي: فإذا كان المتسبب/ طالب الرزق/أي الورّاق/ فيها ينوي إعانة إخوانه المؤمنين على قضاء مآربهم، فيما يحاولونه، لكان شريكاً لهم فيما يحصل لهم من ثواب على فعل ذلك، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، فيحصل له هذا الثواب الجزيل، وإن كان قد أخذ عنه عوضاً فيكون بسبب نيّته في ذلك من أجل العبادات[2]، أي أن مسألة العمل تدخل في هذا الاطار، بصدق النيّة المتوجّه في إنجاز العمل ودقّته، ويشترط/ابن الحاج/ في النيّة أن تكون من حين خروج الورّاق من بيته وملاءمتها مع نيّات العالم والمتعلّم، إلى حين وصوله موقع عمله/ دكان الوراقة/[3]، وبذا يكون قد فرض النيّة المعرفية مع النية الإيمانية - الأخلاقية، فهو يقول:

ثم يضيف إلى ذلك نيّة الإيمان والاحتساب[4]، ومن النية في القلب، إلى إسقاطها في العمل كممارسة، ومن الوازع الأخلاقي - الديني نفسه، يرى ابن الحاج أن الورّاق قد يعتوره في ذلك عكس ما جلس إليه، مثل، أن يبيع الورق لمن يعلم أنه يستعين به على ما لا يجوز أو ما لا ينبغي، فأمّا الذي لا يجوز فمثل الظلم وما شاكله، ومثل الكذب، كقصة البطال وعنترة[5]، إذن هناك محرّمات أخلاقية، وليست مهنية، إلا أنها تمارس في المهنة/

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 79.
(2) المصدر السابق/ نفس المكان.
(3) نفس المصدر والمكان.
(4) ذات المصدر.
(5) المدخل لإبن الحاج 4/ 79 - 80.

وما أكثرها اليوم/ فكان التأكيد على تجنّب البيع للظالم ومناصريه، وهذه المسألة تخضع إلى بعدها الإنساني السامي حضارياً، والتي تدخل في إطارها الشرائعي - الإسلامي خاصة، وبقية الشرائع الإنسانية عامّة، ثم تجنب الكذب في نقل الروايات وعدم نسخ ما لا يمت بصلة إلى الواقع، وقد ضرب مثالاً بذلك، وهذه النقطة تدخل في باب البعد المعرفي، إلا أنها تتقاطع مع الخيال الإبداعي، وأمّا الذي لا ينبغي في عمل الورّاق كما يرى ابن الحاج فهو، عدم نسخ الحكايات المضحكة، وما أشبهها مما يلهو به المرء[1]، معللاً ذلك بعدم ضياع الوقت، وهو أمر كان أغلب المشرّعين الإسلاميين يدعون إليه، على اعتبار أن الجديّة تقتضي ذلك، ومن جانب آخر، يخضع هذا «التحريم» وفق وجهة نظرهم إلى مدلول إيماني منزّل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[2]، ومن هذه الزاوية يقول ابن الحاج: «لأنه إن باع الورق لمن يكتب فيه ذلك فقد فعل ما لم يقله بلسانه ولم ينوّه بقلبه، فيدخل بذلك تحت هذه الآية الكريمة، فيرجع بعد أن كان في أعلى عليين إلى أسفل سافلين»[3]. ويربط هذا المشرّع الأخلاقي، النيّة بالبيع والقصد منه، في ضوء الشريعة الإسلامية، ما دام المشتغلون بالمهنة مسلمين، والمهنة إسلامية، ففي ضوء النيّة، يحاكم البائع - الورّاق - يقول: فإن قال البائع مثلاً، أني لا أعلم في الغالب حال المشتري، فالجواب، أن الذي ينبغي في حق البائع أن يحمل المسلمين على الطهارة والسلامة، حتى يتبيّن غيرهما، ثم أن المشتري قل أن يعرف حاله في هذا الزمان، بسبب غلبة الجهل على أكثرهم، لأنهم يرون أن ما هم فيه مباح أو مكروه، بل بعضهم إنغمس في الجهل، حتى أنّه يعتقد وجوب ذلك أو ندبهِ فلا يستخفون بشيء مما هم فيه، إذ أنه لا يستخفي أحد إلا بالشيء الذي هو عنده معصية، وهم عند أنفسهم ليسوا في معصية بل بعضهم يفتخر بذلك[4]، وهذا القيد الإيماني، قد يخلق حالة من التوتر والتجافي بين البائع والمشتري، الأمر الذي ينعكس بضلالة على حالة السوق والمهنة، وإضافة إلى الوضع النفسي بين الطرفين، لذلك اقترح ابن الحاج إقتراحاً فقهياً يقول: وليحذر من أنه إذا رأى ما يكره في المشتري أن يظهر له الكراهة، بل يذكر أعذاراً مانعة له من بيعه إذ أنه إن أظهر ذلك له، أو عرض له به في هذا الزمان، ترتبت بسبب ذلك فتن كثيرة، قلّ أن يتخلص

---

(1) المدخل 4/ 80.

(2) سورة الصف، الآية 2، وأنظر المدخل 4/ 80.

(3) المدخل 4/ 80.

(4) المصدر السابق/ نفس المكان.

منها، والأعذار كثيرة، فليحذر على نفسه من ذلك، وهذا الذي يتعيّن عليه، إذ لا يجب عليه أن يسأل عن أخبار النساء، ولا يكشف عن أحوالهم، فإن فعل ما تقدم ذكره، ثم تبيّن أنه باع لمن لا يرتضى حاله في الشرع الشريف، من غير شعوره بذلك، فقد سلم من الاثم، لأنه قد فعل ما تعيّن عليه، بالورع في تسبّبه وتصرفه، فذلك له حكم يخصّه، هو أن يبيع ولا يشتري ممن يحول في نفسه شيء ما يكرهه الشرع[1]. وبغية حسم الموضوع في هذه الحالة، فإن الأمر متروك للورّاق وحسن تدبيره، إذا توفّر شرط النيّة الصادقة فيه، بمنظورها الإسلامي، ويقترح ابن الحاج في هذه المسألة الأمر التالي: إذا وقع له/ للوراق/ ذلك، فليتحيّل على فسخ العقد، فإن لم يمكن ذلك، فهو مخيّر بين ردّ الثمن على صاحبه، أن تعيّن له في ذلك منفعة ما بحسب ما يراه، وإلا فليتصرّف به ولا يدخله في ماله، ولا ينتفع به، وهذا عام في الثمن والمثمون، وفي الورّاق وغيره، ممّن تقدم ذكره أو تأخر[2].

يلاحظ هنا أن التركيز، في المقام الأول، بالنسبة لأصحاب الحرف والمهن الإسلامية، إنصب على النيّة، باعتبارها أصلاً من أصول الدين الإسلامي، أكّدتها الشريعة الإسلامية، قولاً وعملاً وشكلت شرطاً في صحة إسلام المسلم، فقد جاء بحديث الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات ولكل أمرىء ما نوى»[3]، وقد كان حديث الرسول هذا بمثابة المرتكز الفقهي الأول لأعمال المسلمين كافة، حيث اقترن شرط العمل بشرط النيّة، بكافة أمور حياة المسلمين، لذلك كان المشرعون الإسلاميون كافة، ينطلقون في إصدار فتاواهم وأحكامهم من مصدر الشريعة، وعلى منواله ينسجون، وابن الحاج عندما يعالج أمور الصناعات والحرف، إنما ينطلق من أساس الشريعة الإسلامية (القرآن والسنة) باعتباره مشرعاً مسلماً، لذلك يؤكد على النيّة في الاعتبار أعلاه، ودائماً يبتدىء بالأصول، فهو عندما ينتقل إلى باب آخر من أبواب كتابه/ فإنه يعتبر شرط النيّة من الثوابت في أي عمل، لأي صانع أو حرفي أو أجير مسلم.

عدم التعاطي مع الغش:

ضمن الموجبات الأساسيّة للأخلاق الإسلامية في العمل، فإن الشرع أكّد على تجنّب

---

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 80.

(2) المدخل 4/ 80 - 81.

(3) أنظر: صحيح البخاري 1/ 51 - 53/ باب - بدء الوحي/ شرح العلامة القسطلاني منشورات المطبعة الميمنية بمصر سنة 1307هـ. وأنظر كذلك/ شرح السنة، للإمام البغوي 1/ 5 تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، منشورات المكتب الإسلامي - ط 1 - 1390هـ/ 1971م.

أعمال الغش في عمل المسلم، حيث صرّح الرسول محمد «من غشّنا ليس منّا»، وهذا الحديث أصبح كبديهة حاضرة في عقل المسلم، وكون الورّاقين، فئة مثقفة فهم أعرف بهذا المبدأ، واقدر على تطبيقه، وكالتزام أخلاقي - مهني، فقد نصّت دساتير الورّاقين على أنه ينبغي للورّاق أن يحذر من الغش، فيما هو يحاوله، مثال أن يعطي الدست[1] الذي يساوي ثلاثة دراهم، فيبعه على أنه من الدست الذي يساوي أربعة، لأن الورق في ذلك يختلف ثمنه بسبب صفته، فقد يكون ورقاً زائداً في البياض وفي الصقال، أو يكون ممّا عمل في الصيف وآخر عكسه، يعني فيه سمرة ونقص في الصقال أو البياضة وعمل في الشتاء، وما بين ذلك[2]، هذا العرف الأخلاقي التزم به الورّاقون، وأخذوا به في حوانيتهم، ومعروف نوعية الورق وتاريخ صناعته وسعره وحجمه، يعرفها الورّاقون أكثر من غيرهم، لذلك يكون الغش - أن وجد - فهو عن طريق المشتري، لأن خصوصيّات المهنة، لا يعرفها إلا أربابها، ولغرض أحكام التعامل الحسن بين الورّاقين والزبائن، أوجدت هذه الأعراف الأخلاقية الإسلامية، لتنظّم هذه العلاقة، وربما حدث بعض الشطط في هذه العلاقة، لذا نصّت الدساتير على أن يخرج الورّاق ببيانه من الغشّ، فإن لم يفعل دخل بكتمانه، وهو أمر يقع تحت طائلة مسؤولية الثواب والعقاب، على أساس مبدأ «من غشّنا ليس منا»[3] وقد أشار ابن الحاج إلى أنه لا يخلو الأمر من بيعة للمشتري قد تكون مساومة أو مرابحة، فيرى، أنه إن كان مساومة فهو أحسن وأخلص للذمة، وإن كان مرابحة، فيشترط فيه ما تقدم في أمر البزاز، من أنه إذا اشترى بالدين أو وهب له شيء من الثمن إلى غير ذلك، فكل ما ذكر فيه من عدم التشوّف للمشتري والنظر إليه، إذا دخل السوق أو وقف على غيره، فهو مشترط في حق هذا وغيره من جميع المتسببين[4].

عدم كشف العورة والمحافظة على سرّ المهنة:

لقد نصّت تعاليم الأخلاق، لأصحاب المهن والصناعات، أن يكون المشتري (الزبون - أو الورّاق - من صنف آخر) باعتباره أحد طرفي العلاقة - أن يكون حذراً عند شرائه

(1) الدست: أو الدشت = هو الشيء من الثياب أو الورق، وصدر البيت معرّب - فارسي الأصل، أنظر اللسان، مادة دشت، والقاموس المحيط، مادة (دست)، والمعرب للجواليقي/ ص138، باب الدال، مادة (الدست).

(2) ابن الحاج/ المدخل 4/ 81.

(3) المدخل 4/ 81.

(4) نفسه.

الورق من الورّاقين، أن يكون في وقت يعلم أنه يكشف فيه على عورات من يعمل فيهما من الصنّاع، إذ أن أكثرهم يجعلون في أوساطهم خرقة تصف العورة لصغرها وانحصارها على العورة، وابتلالها بالماء، والفخذ عن آخره مكشوف، فإن دخل والحالة هذه فهي معصية، وذلك مناقض لما احتوت عليه نيّته، من أنه يعمل لله، ويبيع ويشتري، لذلك اشترطوا عليه أن يتحرّى وقتاً يكونون فيه سالمين مما ذكر[1].

عدم خلط أصناف الورق:

ومن الأمور التي حافظوا عليها، في تعاملهم الأخلاقي، ضمن علاقات السوق أن الورق الجيّد يصلح للنسخ، واعتبروا ذلك الفعل - إن حصل - فهو تدليس على المشتري، لأن الخفيف لا يحتمل الكشط لخفته وعليه أن يكون ذلك عنده بمعزل[2]، وتكون علاقة الورّاق/ بائع الورق/ بالورّاق - الناسخ - علاقة مهنية بحتة، يدخل فيها الجانب الأخلاقي من زاوية/ المنفعة المتبادلة/ وبذا يتوجّب على الأول أن يبيع للثاني ويعطيه، ما يوافقه منه، وأن علم أنه ممّن يكتب فيه الرسائل - يعني الورق - أعطاه من الورق الخفيف، بعد أن يبيّن له ذلك[3].

معرفة المضمون قبل النسخ:

دأب الورّاقون على الإطلاع في كل أنواع الورق الذي يستخدمونه، تحاشياً لعدم الوقوع بأوراق ذات مضمون ديني أو شرعي، ويكتبون عليه، أو يستخدمونه في طيّات التجليد، أو يكتبون عليه مسوّداتهم، فقد تعيّن على الورّاق، أن لا يعمل شيئاً من الورق المكتوب إلا بعد أن يعرف ما فيه لأنه قد يكون فيه شيء له حرمة شرعية، بل هو الغالب، فإذا نظر فيه عرف ما فيه من الكتاب «يقصد القرآن» أو حديث النبي، أو اسم من أسماء الله، أو اسم نبيّ من الأنبياء، أو اسم ملك من الملائكة، فيتجنب ذلك كلّه لحرمته وتعظيمه في الشرع[4]، وهذه الملاحظات المهنيّة تنبع من دافعها الديني البحت، ويعلّل ابن الحاج ذلك من الناحية الدينية أعلاه، إضافة لطبيعة المهنة، يقول: لأن الصنّاع يدوسون ذلك بأرجلهم وغيرها، وهذا من أعظم ما يكون من الامتهان[5].

(1) المدخل 4/ 81.
(2) المدخل 4/ 82.
(3) المصدر السابق.
(4) نفسه.
(5) نفسه.

مراقبة العمل:

ومن الأعراف المهنيّة نفسها والدافع الأخلاقي - الديني، نفسه، ينطلق الورّاق - ربّ العمل - في تنظيم دكانه وصنّاعه، ويحدّد في ضوء ذلك انضباطية العمل والإلتزام بأخلاق المهنة، حيث يتوجب عليه أن لا يترك أحداً من الصنّاع يفعل ما تقدم ذكره من كشف العورة، ومن لم يسمع منهم ما أمره به، أخرجه من موضعه/ فصله/ وأتى بغيره، واشترط عليه سترة عورته، مع الشروط المتقدم ذكرها، وفي التحفظ على الصلوات في كل أوقاتها، فإذا فعل ذلك برئت ذمته وحصل له الثواب والبركة فيما هو يحاوله، وعرفت عادته، فلا يأتي إليه إلا من يجانسه، فيما هو يطلبه من براءة الذمة والتحفظ على الدين، إقتداءً بالسلف الصالح، حيث كانوا يتبعون أسبابهم لأديانهم، ومن فعل ما تقدم ذكره تشبّه بهذا السلف، والتشبّه بالكرام فلاح[1].

ويفترض بصاحب الوراقة أن يكون عارفاً بكل الأمور متقدمة الذكر، وهو السائد، ولكن أحياناً تعترض هذه الأمور بعض الصعوبات، من لدن صنّاعه، لأن الصانع ليس كالأستاذ أو الخلفة أو الشيخ، في معرفة أصول المهنة وأخلاقها، لذلك يشتكي أرباب الوراقة كثيراً في هذا الجانب، لأنه يضطر إلى إقصاء الكثير من الصنّاع بين فترة وأخرى، لذلك اقترح عليهم من قبل المشرّعين ما يلي: «فإن قال صاحب الوراقة مثلاً، أن فعلت ما ذكرتموه قل أن أجد صانعاً يعمل فيتعطل عليّ السبب، فالجواب، أن الخير والحمد لله لم يعدم من المسلمين، وإن عدم في قوم فهو موجود في آخرين، بل نجد الأمر على عكس هذا، وهو أن الصنّاع إذا علموا من الشخص أنه يوسّع لهم في أوقات الصلوات، ويتحذر على دينه ودينهم ويسامحهم، ويتغاضى لهم في شيء ما من الزيادة على أجرتهم بما لا يضرّه، كثر خطّابه وعزّ أمره، وحصلت له البركة في كل ما يحاوله[2].

ومن صاحب الوراقة أو ربّ العمل، تتوزع المهام، وتتعدد الواجبات، وتنتشر في دكانه تفرعات أخرى للورّاقين، ضمن مهنة الوراقة وشموليتها، كالناسخ والمجلّد وغيره، وتشكل بمجموعها ورشة عمل متكاملة لمختلف أصناف الورّاقين، وكل صنف من هذه الأصناف إختص بعمل ضمن دائرة الوراقة، وفي ضوء كل صنف منها هناك أخلاق ترافق هذا الصنف، وتولد معه، وتشكل ناموساً بين عناصر هذا الصنف، أو ذاك من الورّاقين، يستدلون به وعلى عُرفِه يتعايشون، فالناسخ مثلاً، هو أحد الورّاقين الأساسيين، ويكاد هذا

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 82.
(2) نفسه 4/ 83.

الصنف/النسّاخون/ أن يشكّل العمود الفقري لمهنة الوراقة، ولهذا صارت مسألة الأخلاق عند هذا الصنف، من الأمور المرعيّة والواجبة التشديد فيها، على اعتبار أنهم يتعاملون مع الورق والقلم، وتمرّ عليهم مختلف العلوم الشرعية والدينية وغيرها، مما يتطلب بعداً فقهياً ومهنياً للتعامل مع مهنتهم،في هذا الصنف، لذلك خصَّ إبن الحاج هؤلاء بفصلٍ مستقل، وضَّحَ لهم كيفية التعامل مع مهنتهم سمّاه «فصل في نيّة النّاسخ وكيفيتها» إنطلق فيه من الوازع الديني ببعديه الأخلاقي والإيماني، وفي ضوء الشريعة الإسلامية، قال فيه: «إعلم - رحمنا الله وإياك - أن النّاسخ في الأجر والثواب يربوا على الورّاق/ يقصد ربّ العمل/ لأنه في عبادة عظمية، إذ أنه لا يخلو من أن يكون نسخه في كتاب الله تعالى، أو حديث النبي ﷺ أو في الفقه أو غيره من العلوم الشرعية، فإن كان في كتاب الله تعالى، فقد جمع بين التلاوة، وهي محض العبادة، وبين الكتابة، سيّما أن تدبّر فيما يكتبه وتفكّر في معانيه، فبخٍ على بخ[1]، وإن كان يكتب في حديث النبي ﷺ فقريب منه في الثواب، ولو لم يكن فيه من الفضيلة إلاّ ما ورد من (كتب الصلاة على النبي ﷺ في كتاب بقيت الملائكة تصلي عليه ما دامت الصلاة عليه مكتوبة في ذلك الكتاب، وكفى بها نعمة»[2]، ومن هذه المقدمة الدينية - الأخلاقية، نرى بوضوح أثر الشريعة الإسلامية واضحاً وملزماً لهذا الصنف من الورّاقين، لأنه يتعامل مع الكتب الدينية أكثر من غيرها، الأمر الذ يوضّح مقدار الاهتمام بتلك العلوم الدينية، ويعكس التأثير الآيديولوجي للفكر الإسلامي في حياة ونشاط الناس في ذلك العصر.

الحذر في النسخ:

من الزاوية الإيمانية، والتي تنطلق من «نيّة الناسخ» في عمله، يفترض صاحب التشريع، أن يحذر الناسخ من النسخ في غير العلوم الشرعية، كي لا يقع في حالة تناقض من نيّته التي جلس بها للعمل عند الورّاق، وتقدّم بها غيره، كتفاضل أخلاقي (مسابقة) وهو عادة ما يجري بينهم، لتحصيل قوته وتسببه في عمله، والذي يفترض أن تكون نيّته منصبّة في عمله على «إعانة إخوانه المسلمين» وذلك بتيسيره عليهم ما يحتاجون إليه من السلع وغيرها، منطلقاً من أن الرزق في ذلك على الله[3]، ثم يضيف إلى ذلك نيّة الإيمان والاحتساب على اعتبار أنها محض العبادة.

(1) بخ = كلمة فخر، راجع اللسان: مادة بخخ، يقابلها اصطلاح (نيّالك) على الصعيد الشعبي.

(2) المدخل لابن الحاج 4/ 83.

(3) نفسه.

عدم نسخ الأمور الكاذبة:

وعلى منظور النيّة ومحمولها الإيماني، حذر النسّاخون من نسخ ما هو كاذب، كقصة البطال وعنترة، وما شابه ذلك من الحكايات المضحكة فإنه ممنوع عليه في عرف ذلك الزمان[1].

عدم النسخ للظالمين:

ومن الإشتراطات الأخلاقية في عرف النسّاخ هو عدم النسخ لظالم أو من يعينه على الظلم، أو من في كعبه[2]، وهذا الاشتراط فرضوه على النسّاخين، ومن لم يلتزم بذلك، فإنه يدخل في مدلول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3] أي يمكن وصمهم بـ(النفاق) وهو أمر لا يريدون في حياتهم ومسلكهم الأخلاقي.

وضوح الخطّ في النسخ:

ومن الاشتراطات الفنيّة ذات البعد الأخلاقي في عرف الورّاقين لا سيما النسّاخ منهم، هو: تبيان الحروف في الكتابة، وعدم تعليق الخط/أي تركه بلا نقط ودون اكتمال/ حتى لا يعرفه إلا من له معرفة قويّة، بل تكون الحروف بيّنة جليّة، فلا يترك شيء من الحروف التي تحتاج إلى نقط دون أن ينقطها، لأن الباء تختلف مع التاء والثاء، ولا يقع الفرق بينهما إلاّ بالنقط، وكذلك الجيم والحاء والخاء، إلى غير ذلك[4]، على اعتبار أن هذه المسألة فيها نفع عام لكثير من المسلمين، لا سيما وأنه توجد بين أيديهم كثير من الوثائق الرسمية والشرعية وغيرها، وبعض الناس لا يعرف أن يقرأ غير خطّه، ونظراً لكون النسّاخين لهم اصطلاحاتهم وطريقتهم في رسم الحروف، والتي يفهمونها فيما بينهم، الأمر الذي يشكل على الآخرين بذلك، لذلك جاءت هذه التنبيهات إليهم عملاً بالسّنة المتبعة منذ أيام النبي محمد ﷺ حيث قال لكاتبه معاوية: «يا معاوية ألق الدواة، وحرف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم وحسّن الله، ومدّ الرحمن، وجوّد الرحيم، وضع قلمك خلف أذنك، فإنه أذكر للمحلي»[5]، وبتقديرنا أن هذا الحديث واضح

---

(1) نفسه 4/ 84.
(2) نفسه.
(3) سورة الصف، الآية: 2.
(4) المدخل لابن الحاج 4/ 84.
(5) نفسه.

الإنتحال فيه، وبغضّ النظر عن هذه المسألة فإن الأمر يعني وجوب هداية القارىء ومعرفته للنص ومضامينه، حيث بهذا الوضوح يريدون عدم إضاعة حقوق ا لناس وعقود أنكحتهم، إضافة إلى احتمال أن يموت الكاتب أو يتعذّر وجوده، ولا يعرف غيره أن يقرأ ما كتبه، فإذا تحفظ من هذا وأشباهه عمّت منفعة كتابته لأكثر المسلمين، بخلاف ما إذا لم ينقّط أو يعلّق خطه[1].

إستخدام الحبر بما يوافق كل نوع من الورق:

شكلت مسألة معرفة الحبر لكل نوع من أنواع الورق[2] والرقوق أهميّة عند الورّاقين، فقد قالوا بذلك: ويتعيّن عليه (الناسخ) أن لا ينسخ بالحبر الذي يخرق الورق، فإن فيه إضاعة المال وإضاعة العلم المكتوب به، سيّما إن كانت نسخة الكتاب الذي كتبه معدومة أو عزيزاً وجودها، ويلحق بذلك النسخ بالحبر الذي يمحى من الورق سريعاً[3]، ومن هنا يتّضح الخطّ العام لمصلحة الناس من جهة، والمعرفة الدقيقة لاستخدام أدوات الكتابة، دون الاضرار بمصالح الناس، وبأساسيّات الحرفة، من جهة أخرى، لذلك رفضوا رفضاً قاطعاً المداد الذي تسوّد به الورقة، وتختلط الحروف بعضها ببعض، ويذكر ابن الحاج حصول هذه الحالة بقوله: وهذا شاهد مرئي، فلا شك في منعه، ويضيف: اللهم إلا أن يكتب رسالة من موضع إلى آخر وما أشبهها فنعم»[4]، وهنا تتوضح الدلالة الفقهية والمعرفية بآن، حيث أجيز مثل هذا الحبر في الاستخدامات الخاصة فقط، بحيث تكون مسألة/ المصلحة العامة/ غير واردة في سياق الاستخدام لهذا الحبر، لذلك جاء التأكيد التالي على الحكم السابق بما يلي: بشرط أن لا يتعلق بها/ بعملية النسخ بالحبر - المداد/ حكم شرعي، ككتاب القاضي بحكم من الأحكام بشرطه المذكور في كتب الفقه، وما أشبه ذلك من الوكالة وغيرها فحكمه ما تقدم في نسخ العلوم الشرعية[5].

ضرورة الوضوء:

باعتبار الوراقة مهنة إسلامية، فقد اقتضى الحال أن يكون الورّاق طاهراً، وأن يكون على وضوء إذا جلس للنسخ، فإن شقّ عليه ذلك، فليكن في أوّل جلوسه على وضوء ثم

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 84.

(2) راجع ج4 من هذا البحث/ صناعة الورق وظهور المكتبات، فصل أنواع الورق.

(3) المدخل 4/ 84.

(4) نفسه 4/ 84 - 85.

(5) المدخل لابن الحاج 4/ 85.

يغتفر له بعد ذلك[1]، هذا في حالة بدء العمل، وكون النسخ يتمّ في مختلف الأمور، أمّا إذا كان النسخ في كتاب الله فلا بّد من الوضوء حين يباشره في كل حين، ما لم يطرأ حدث وتجوز له الصلاة في ذلك الحدث، فيتوضأ في أوّل جلوسه، ويغتفر له بعد ذلك[2]، ومن هنا يتبيّن مقدار الالتزام الديني في مهنة الوراقة.

النصح في النسخ:

ومفاده، عدم أخذ النسخ/ المواد المراد نسخها/ من جماعة فينسخ لهذا ولهذا، ولا يعلم أحداً منهم أنه ينسخ لغيره، وذلك يناقض النصح لمن لم يعلمه بذلك، ولأنه جمع فيه بين الاستشراف والحرص، وهو فعل مذموم في الشرع الإسلامي[3].

تحريم النسخ في المسجد:

وتحاشوا نسخ الكتب في المساجد، لا سيّما أن الورّاقين يلتقون بجمهور المسلمين في هذه الأماكن بكثرة خصوصاً في أوقات الصلاة ولربما ظلت منهم نسخ ملزمة أو رسالة، وهم في بيت العبادة فحرّم ذلك على اعتبار أنه في سبب/ ارتزاق، والأسباب كلها ينزّه المسجد عنها، إضافة إلى ما يحدثه النساخ من تلوّث داخل المسجد[4].

ترك العمل عند سماع الآذان:

يقتضي العرف الإسلامي ترك العمل إذا سمع المؤذن وهو يدعو للصلاة، والورّاقون يلتزمون بهذا العرف، ويتهيئون للصلاة في وقتها المختار في جماعة، ولا يعفى من ذلك إلا من كان يكتب وسمع الآذان، فلا يترك الكتابة حتى يكملها[5]، وقد أوجدوا في ذلك تعليلاً جمالياً، نابعاً من طبيعة المهنة حيث قالوا: لأنه يختلف خط الورقة بسبب قيامه عنها، فيمهل حتى يتّمها، وكذلك لو كان يسطّر في أثناء الورقة، فلا يرفع يده حتى يكملها[6] ويعتبرون هذا الإجراء ليس مذموماً لأنه راجع عندهم إلى حسن الصنعة، والنصح فيها لإخوانه المسلمين، بخلاف ما تقدم في غيره، وهذا ما لم يخش فوات الجماعة، كما يقول ابن الحاج[7].

(1 - 5) المدخل لابن الحاج 4/ 85.

(6) نفسه 4/ 85 - 86.

(7) المدخل/ لابن الحاج 4/ 86.

التمسّك برأي الجماعة في نسخ الختمة:

الختم، الطبع، قال أبو إسحاق الزجاجي؛ معنى/ختم وطبع في اللغة واحد/[1]، وعلى هذا الفهم، اشترط على النسّاخ من الورّاقين أن يتركوا ما أحدثه بعض الناس - في زمانهم - في نسخ الختمة على غير مرسوم المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة على ما وجدته بخط عثمان بن عفان[2]، وهذه العبارة تكشف لنا وجود التعارض السياسي والمذهبي، وانعكاسات هذا التعارض في مذاهب الورّاقين، وبغية الحفاظ على/طبع/ نسخة واحدة موحّدة من القرآن اشترطوا ذلك، أخذا بقول مالك بن أنس: القرآن يكتب بالكتاب الأول[3]، يريد بخط عثمان، ولا يجوز للناسخ غير ذلك، ولا يلتفت إلى اعتلال من خالف بقوله أن العامة لا تعرف مرسوم المصحف، ويدخل عليهم الخلل في قراءتهم في المصحف، إذا كتب على المرسوم فيقرؤونه مثلاً: (وجائي، وجاى) لأن رسمها بألف قبل الياء، وغيرها من أمور المراسم واللغة[4]، ولغرض تجاوز هذه الإشكالات اللغوية في القراءة، أوجدوا ذلك الاشتراط وأضافوا إليه شرطاً آخر هو: من لا يعرف المرسوم من الأمة، يجب عليه أن لا يقرأ في المصحف إلا بعد أن يتعلّم القراءة على وجهها أو يتعلم مرسوم المصحف[5]، وهذه المسألة تظهر أن هناك خلافاً واضحاً فيها، حتى أن ابن الحاج يلحّ في شرحها ويؤكد: أن من فعل غير ذلك فقد خالف ما اجتمعت عليه الأمة، وحكمه معلوم في الشرع الشريف، ويضيف: «فالتعليل المتقدم ذكره مردود على صاحبه لمخالفته للإجماع المتقدم، وقد تعدت هذه المفسدة إلى خلق كثير من الناس في هذا الزمان، فليتحفظ من ذلك في حق نفسه وحق غيره والله الموفق»[6].

ثم اشترطوا أن تكون الختمة، منسوخة باللسان العربي، وأن لا تنسخ بلسان العجم، على اعتبار أن القرآن نزل بلسان العرب[7]، إضافة إلى ضرورة نسخ المصحف كاملاً وعدم نسخه في أجزاء[8].

إن هذا التأكيد الهام في عُرف الورّاقين على الإلتزام بكتابة المصاحف باللغة العربية أمرٌ له مسوّغه الحضاري والتاريخي والقومي، إضافة إلى مبعثه الديني، وعلى ما يبدو فإن الخلافات السياسية كانت قائمة بشكل واضح، فما إنفك ابن الحاج من التحذير على ذلك،

---

(1) اللسان - مادة (ختم).

(2 - 6) المدخل 4/ 86.

(7) المدخل 4/ 86، وقد جاء في التنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: 2].

(8) المدخل 4/ 87.

مشيراً إلى أهمية الإلتزام بما أجمع عليه السلف والعلماء الأوائل[1].

أمّا مجلدو المصاحف، ذلك الصنف الفنّي من الورّاقين، والذي يتمّم عمل زملائه من النسّاخين، فهم أيضاً خصّوا بفصل خاص عند/ ابن الحاج/ ضمن شموليته في التطرق لأعمال الوراقة، وأخلاقيّات ممتهنيها، فقال عنهم: «إعلم - وفقنا الله وإيّاك - أن هذه الصنعة من أهم الصنايع في الدين، إذ بها تصان المصاحف، وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية»[2]، بهذا الاستدلال يتوضح أمر هؤلاء المجلدين، فهم من أهم «الصنايع الدينية» على اعتبار أن الاهتمام الأول، عند المشرّعين الإسلاميين هو الحفاظ على كتب الشريعة وعلوم الدين الإسلامي، وهؤلاء يقومون بهذه الوظيفة، ويكسبون عيشهم من خلالها، الأمر الذي يفرض عليهم التزامات دينية - أخلاقية، كبقية الأصناف الإسلاميّة، وأولّ هذه الالتزامات كانت «النيّة» كاشتراط ينطبق على المجلّد والناسخ، في آن معاً، ومن زاوية كون المجلّد معيّن بصنعته على صيانة ما تعب فيه الناسخ وحصله، وفيه ايضاً جمال للكتاب، وترفيع له، واحترامه وترفيعه متعين، من الأفق الديني - الشرعي[3].

فمن الناحية الشرعية، يفترض بالمجلّد إذا خرج من بيته أخذ من نيّات العالم والمتعلّم، وما يعتوره ويحتاج إليه، ثم مع ذلك بنوي إعانة إخوانه المسلمين بصناعته على صيانة مصاحفهم وكتبهم، ثم يصحب ذلك نيّة الإيمان والاحتساب[4]. وبهذه الاشتراطات الأخلاقية الدينية، وربطها بأخلاقيات العالم والمتعلم، فإن ابن الحاج يرى فيها موقفين: معرفي - شرعي، وأخلاقي - مهني، ويبني ذلك على الافتراض القائل: إنّ الصانع مثلاً، أو غيره من الصناع ممن تقدم ذكرهم أو تأخر، لا يحتاج إلى نيّة العالم، لأن العالم يخرج إلى المسجد أو غيره إلى التعلم والتعليم وذلك يقبل كل ما نواه، والصنّاع ليسوا كذلك، لأنهم مستغرقون في الأسباب، فالجواب - كما يقول ابن الحاج: أنّه لا فرق بين العالم وغيره، إذ أن الصانع وغيره من المتسببين يحتاج إلى أربعة علوم: الأول: علم الصنعة التي يحاولها، والثاني: العلم بلسان العلم فيها، والثالث: العلم بما يخصّه في نفسه، وذلك عام في حقه وحق غيره، فيما يعتور كل إنسان منهم في عبادته من الصلاة والصوم وغيرهما، وما هو مأمور به من الفرائض والسنن والفضائل، وما يصلح العبادة ويفسدها، والعلم الرابع: علم ما يحتاج إليه المكلف في مخالطته لغيره من التحفظ على نفسه وعلى من خالطه من الوقوع فيما لا ينبغي، وذلك كثير، فهذه أربعة علوم لا بد له منها، فأما أن يتعلمها أو يعلمها لمن يطلبها منه، إن وقع له ذلك، وإنما يترك المتسبب من نية العالم مثل دخول المسجد وتحيته وما أشبههما، ممّا لا يعتوره في السوق أو الدكان[5].

(1 - 4) المدخل 4/ 87.

(5) المدخل لابن الحاج 4/ 88.

نظرة تأملية لهذا النص، تكشف لنا مدى الاهتمام بالتثقيف الذاتي، من الناحيتين الشرعية والمهنية، وكيف تترابطان جدلياً في عقل الصانع - الورّاق - وبتقديرنا أن هذه المسألة واشتراطاتها نابعة من البعد المعرفي في مهنة الوراقة، بشكل خاص، ومن الأخلاق الإسلامية وموقفها من العمل، بشكل عام، وقد رأينا في مقدّمة هذا الفصل، كيف أن الفلاسفة المسلمين، يعيرون اهتماماً للجانب الأخلاقي في العمل.

الإلتزام بالآداب العامّة:

ضمن مسلكية المسلم الأخلاقية، وإنعكاساتها الآيديولوجية في الحياة العامة، فرض على الورّاقين الإلتزام بها في سياق حياتهم المهنية، فقد قالوا: «وينبغي له - الورّاق أو المجلّد - إذا جاء إلى دكانه أن يمتثل السنّة، هو وغيره، ممّن تقدم ذكره أو تأخر في فعل الآداب التي تقدمت في دخوله بيته وخروجه منه، مثل تقديم اليمين وتأخير الشمال في الدخول والخروج سواء بسواء، مع الابتداء بالتسمية والذكر المأثور في ذلك، وأن يبدأ بصلاة ركعتين قبل أن يجلس لبيعه وشرائه، لأن الصلاة صلة بين العبد وربّه، كما يعتقدون، ثم بعد ذلك يأخذ فيما جلس إليه[1]، وقد يكون الدكان ضيّق المساحة لأداء الصلاة مما يعيق من تأديتها، فاكتفوا بذكر الله، وفق ما سمح به الشرع، علماً بأنهم كانوا يتنفلون في دكاكينهم[2]، كما ارتأوا من الأفضل للورّاق والأصدق في نيّته والأثوب في عمله، أن يستقبل القبلة، إن كان ذلك ممكناً في عمله، وإلا فهو معذور إن حال المكان دون ذلك[3].

تجنب المفاسد في العمل:

ومن الاشتراطات المهنية والأخلاقية على الورّاق تجنّبه المفاسد التي تعتوره في صنعته، إذ هي المقصود الأعظم، حيث أن بتجنّبه لذلك يحصل له الدخول في قولة النبي محمد ﷺ: «الدين النصيحة»، وإذا تجنّب المفاسد فقد نصح لإخوانه المسلمين، ويعتقدون أن ذلك يؤهله للحصول على (شهادة صاحب الشرع) بأنه من أهل الدين[4]، وهذا الاعتراف بمثل هذه الشهادة يتأتى من الرأي العام السائد في سوق الورّاقين وأهله، لأنه إن أصبح من أهل الدين، تكشّف ذلك معاملته مع الناس وصدقه في تعامله، وبذا يحصل على هذه الشهادة المعنوية، وهو طموح كان الكل يريد الحصول عليه، فإذا سلم من المفاسد حقّق هذا البعد المعنوي، وإلا رجع على الضدّ من ذلك، وأوردوا مقياساً، أخلاقياً، في التعامل على النحو التالي:

(1 - 4) المدخل لابن الحاج 4/ 88.

قالوا، فمن ذلك أن يتجنّب ما يفعله بعضهم، وهو أن يعطي الكتاب إلى الصانع على شيء معلوم عوضاً عن أشياء جملة، وذلك يمنع، لأنه جمع فيه بين بيع الجلد والبطانة والحرير، وبين أجرته في عمل ذلك، وهذا كله مجهول، والوجهة في ذلك أن يأتي إلى الصانع بالجلد والبطانة والحرير من عنده، ويؤاجره على عمل ذلك[1]. أي أن العقد الأخلاقي هنا هو عدم الإستغلال وتجنّب الغش في التعامل مع الصانع، ولغرض تجاوز كل إبهام ناتج في المعاملة، ارتأوا أن يوضحوا ذلك بالتفصيل، تجنّباً للغش، وعدم وجود حيف في عقد العمل الأخلاقي، غير المدوّن، رفعاً للغبن، لذلك قالوا: ووجه ثان هو أن الصانع يبيّن له كل واحد منها على حدّته، ويعيّن ثمنه، بعد ذلك يؤاجره على صنعته، ووجه ثالث، هو أن يوكله في شراء ما يحتاج إليه من ذلك، إن لم يكن عنده، ثم يؤاجره بعد ذلك على عمله[2]، ويعلّق ابن الحاج على ذلك بقوله: «فهذه ثلاثة أوجه جائزة، وهي يسيرة سهلة المدرك، من غير مشقة تلحقهما في ذلك، ومع ذلك يترك أكثرهم ذلك كلّه ويفعل ما اعتاده كثير ممن لا علم عنده في هذا الزمان، ومضى على أثره من له علم لاستئناس النفوس بالعوائد المحدثة، فتعمر ذمتها معاً، فصاحب الكتاب، تتعمر ذمته بقيمة ما أخذه من الجلد وبطانته والحرير وأجرة الصانع، والصانع تتعمر ذمته بما أخذ من صاحب الكتاب، والعجب منهم كيف يأتون بكتب العلم ويجلدونها على الوجه الممنوع فيها؟!»[3]. أليس هذه الفعائل قائمة على قدم وساق في زماننا هذا؟!

عدم استخدام الورق الشريف في التجليد:

تتطلب مهنة التجليد أن يبطّن الجلد ببعض الأوراق، لذلك يلجأ الورّاقون - المجلدون - إلى حشو الأغلفة بالأوراق الزائدة عن الحاجة، أو التي لم تعد صالحة في مهنة الوراقة، نتيجة التخريم أو وقوع الحبر على بعضها، مما يتطلب الأمر تبديلها ونسخها، ولغرض الإستفادة من هذه الأوراق الزائدة، فقد لجأ المجلدون إلى استخدامها في فنّ التجليد، ومن هذه الأوراق يصدف أن يكون فيها آيات قرآنية أو حديث الرسول، أو غيرها، ممّا تنطبق عليه صفة الشرف والتقديس، لذلك أوجبوا على المجلّد أن ينظر في الورق الذي يبطّن به وقالوا بعدم جواز الورق الذي يكون فيه القرآن أو حديث النبي ﷺ أو اسم من أسماء الملائكة أو الأنبياء، وما كان من ذلك فلا يجوز استعماله ولا امتهانه،

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 88.

(2) المدخل 4/ 89.

(3) نفسه.

حرمة له وتعظيماً لقدره، وأمّا إن كان فيه أسماء العلماء أو السلف الصالح أو العلوم الشرعية، فيكره ذلك، ولا يبلغ به درجة التحريم كالذي قبله، وأضافوا قائلين: «وطالب العلم أولى بأن ينزّه نفسه عن الدخول في المكروه، فإن كان الصانع يعلم أو يظنّ به أنه يفعل شيئاً مما تقدم ذكره، فلا يعمل عنده شيئاً، أو يعمل عنده بعد أن يبيّن له الحكم في ذلك، ويعلم أنه قد سمع منه»[1]، ومن هنا يتوضّح ما للدين من أهمية دائمة الحضور في أذهان الورّاقين، وهناك مسألة أخرى، راعوا فيها المصلحة العامة عند استخدام الورق للتبطين في عمليّة التجليد، هي التثبت من خلوّ الأوراق المستعملة من أمر عام وضروري وذي منفعة، حيث أشاروا إلى ذلك بالقول: ولا بأس أن يبطّن الجلد بالأوراق التي فيها الحساب، وليس ذلك بمكروه، إلا أنه يتثبّت في ذلك ويمهل لعله أن يكون ضاع لبعض الناس الدفتر الذي هو محتاج إليه، فيضيع ماله بسببه، فإذا كان الصانع ممّن يتحفّظ من هذا وأمثاله حفظت على الناس أموالهم بعد أن كانت ضائعة عليهم[2].

المحافظة على ترتيب الكراريس وعدم القبول بالخطأ:

من الناحية الفنيّة، تدخل هذه النقطة في سياق «منهج الوراقة» ولكن هناك نقطة تتموضع في جانبها الأخلاقي، فقد طالبوا المجلّد أن يتحفّظ على عدد كراريس الكتاب «ملازمه وأوراقه» فلا يقدم ولا يؤخر في مواضعها، وطالبوه بالتأني في ذلك من باب النصح وتركه من الغش، وإذا كان ذلك كذلك، فيحتاج الصانع إلى أن يكون عارفاً بالاستخراج، ليعرف بذلك اتصال الكلام بما بعده، أو تكون عنده مشاركة في العلم يعرف بها ذلك[3]، ومن هذا يتبيّن أهمية أن يكون المجلّد متقناً لعمله من الناحية الفنية والعملية، ولم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن لا يعطي مثل هذه الأعمال لصنّاع لم يتمرسوا جيداً بعد في أصول المهنة حيث قالوا: «ثم مع ذلك - والكلام لا حق لسابقه - يحترز أن يولي عملها لمن لا يعرف تمييزها من الصنّاع والصبيان، لئلا يختلط الكتاب على صاحبه، وكثير ما يقع هذا في هذا الزمان، فيتعب في عمله، ثم مع التعب الموجود يأكل الحرام فيما أخذه من صاحبه، فإن وقع شيء من ذلك، وجب على الصانع إعادته ولو مراراً حتى ينصلح، ولا يأخذ عليه إلا العوض الأوّل لأنه ما تسلّمه إلا أن يعمله على السلامة من هذا وأشباهه»[4]، وهذا يدخل في صميم أخلاق المجلّد أثناء العمل.

(1) المدخل/لابن الحاج 4/ 89 - 90.

(2 - 4) نفسه 4/ 90.

عدم التجليد لأهل الأديان الباطلة:

يبدو أن عملية التشدد على الورّاقين في مهنتهم واضحة في سياقها الديني - الأخلاقي، وهذه مشكلة قد تتعارض وطبيعة العمل الذي يقومون به، فقد نصّ عليهم العرف الديني بما يلي: «ويتعين على الصانع أن لا يجلّد كتاباً لأحد من أهل الأديان الباطلة، لأنه بفعله ذلك يكون معيناً لهم على كفرهم ومن أعان على شيء كان شريكاً لفاعله، هذا وجه، ووجه ثان، هو مثل الأول أو يقاربه، وهو تغبيطهم بدينهم لأنهم إذا رأوا أحداً من المسلمين يعينهم، سيما على حفظ ما في كتبهم، يعتقدون أنهم على حق، بسبب ذلك، ولو علم أن الكتاب الذي أتوا به إليه من الكتب المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور، فالحكم في ذلك ما تقدم من المنع سواءً بسواء، لأنه قد صحّ أنهم بدلوا وحرفوا فيها وغيروا وذلك لا تعلم مواضعه، فتترك كلها، فإن أتوا إليه بكتاب مكتوب بالسريانية أو العبرانية وما أشبههما، فلا يجلد شيئاً من ذلك، وقد قال مالك ﷺ في الرقي بغير العربية، وما يدريك لعله كفر، فكل ما حاك في صدر الإنسان من هذا وما أشبهه فيتعيّن تجنّبه»[1].

وهذا النص يكشف لنا بمضامينه الآيديولوجية، شيئاً من «الرقابة» إضافة إلى الإلتزام الديني مطبقاً على العمل.

تعلم الصنّاع الحلال من الحرام:

يحدث في سياق العمل، أن يلجأ أحد الصنّاع إلى مخالفة شرعية - أخلاقية، أحياناً تكون مقصودة، وأحياناً غير مقصودة، ويصادف أن يكون هناك طالب علم يحتاج إلى العمل عند هذا المحل أو ذاك، فاشترط على هذا الطالب أن يتحرّز ممّن هذا حاله من الصنّاع، ويعلم عنه الأستاذ لعله يتوب أو يرجع، ويراقب في الوقت نفسه مسلكية ربّ العمل في هذا الجانب، فإن استجاب للشرع بقي معه، وإلا رفع الأمر إلى صاحب الشرع، فإن تعذر عليه ذلك، توجّب عليه هجران الصانع الذي يتعاطى ذلك، بعد أن يُعلمه بالحكم فيه، حتى يشيع بين الناس، ويعلم أن هذا حرام لا يجوز، لأنه ورد في التشريع: «أن الظلمة يحشرون هم وأعوانهم حتى من مدّ لهم مدة»[2].

عدم عمل الأغلفة لدواة الذهب والفضّة:

أشيعت نزعة استهلاكية عند كبار الأمراء والوزراء والكتّاب في العصور العباسية

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 90 - 91.
(2) نفسه 4/ 91.

المتأخرة، وبدأت في (ق 4هـ)، حيث كانوا يميلون إلى استخدام الدواة المصنوعة من الذهب أو الفضة[1]. ونظراً لتناقض هذه النزعة مع الروح الإسلامية، من جهة، ومن جهة أخرى يروّج لحالة التفاوت الطبقي في المجتمع، ونظراً لكون أغلب الورّاقين من الطبقات الكادحة، فهم أقدر على فهم هذا التفاوت، لذلك وافقوا على التشريع القائل: يتعيّن على/ المجلد/أن لا يعمل غلافاً لدواة فيها ذهب أو فضة لأنه لا يجوز استعمالها، فكذلك لا يجوز الإعانة عليه بتجليدها، ثم أضافوا إليها عدم جواز تجليد أي شيء لظالم[2] وانطلقوا بهذا الاعتبار والتحريم ضد الظالم من وجهين: الأول هو ما تقدم من أعراف وسنن وشرائع، نصّت عليه الشريعة الإسلامية، والثاني نابع من نظرتهم الأخلاقية - الاقتصادية، في سياقها الاجتماعي، حيث يرون أن أكثر أموال الظالمين جاءت من الحرام، والصانع يتعب في صنعته ليأكل الحلال، ثم تعبه يأكل الحرام، فيتحفّظ من ذلك أن يقع فيه، وينهى غيره عنه[3]. وهم يعتبرون مثل هذه المواقف مهمة بالنسبة لهم حيث قالوا: ولو كان الناس يتحفظون من هذا وأشباهه لقلّ الظلم وعرف صاحبه، ولكن قد صار الأمر عند الصانع وغيره سواء في الغالب، فيسوون بين من كسبه حلال وحرام، ولا يعرجون على شيء من ذلك كله[4]، وهذا عندهم سببه التغافل عمّا أمر به الإنسان وانتظم إليه استئناس النفوس بالعوائد المحدثة مع وجود الإستشراف للزيادة من الدنيا، كما أضافوا: وينبغي له أن يحذر ممّا تقدم ذكره في حقّ غيره من الصنّاع[5].

عدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد:

تمسّك المجلّدون هم وبقية الورّاقين بمبدأ «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد» من دافع أخلاقي ديني ومهني وحرفي، حيث أن مبدأ الصدق في التعامل كان سمة مميّزة لأهل السوق، لذلك حذّروا من قولهم: غداً أو بعد غد، كذلك اتّحدوا على تجنّب الأيمان/ القسَم/ في التعامل مع الزبائن[6].

(1) راجع الصولي/أدب الكتّاب/ فصل ما قيل في الدواة ص92 - 100 مصدر سبقت الإشارة إليه.
(2) المدخل لابن الحاج 4/ 91.
(3) المدخل لابن الحاج 4/ 91.
(4) نفسه.
(5) نفسه.
(6) نفسه 4/ 92.

المحافظة على أوقات الصلاة:

ضمن الشروط الإسلامية على مختلف الأصناف، فإن الصلاة من الأمور الواجبة المحافظة عليها في أوقاتها، لذلك شرّعوا للمجلدين، كما للورّاقين، أنه ينبغي له، إذا سمع الآذان أن يبادر، هو ومن معه، إلى إيقاع الصلاة في وقتها المختار في جماعة[1]، وقد انطلقوا بهذا التشريع من كون الكتب التي يجلدونها تحضّ على ذلك، حيث أن أغلبها مصاحف وكتب حديث وعلوم شرعية[2].

على هذه الشاكلة، وذلك النمط، كان الورّاقون يتعاطون مهنتهم، ويتعاملون بها، فقد كانت هناك عدة أمور برزت في تعاملهم الأخلاقي، كان أبرزها التمسّك بأخلاق الإسلام، باعتبارهم ضمن دائرة الأصناف الإسلامية، ثم هناك يبرز الدافع الطبقي من مسلكيتهم الأخلاقية، إضافة إلى الصدق في التعامل، حيث أن الجديّة في العمل كانت تدفعهم إلى ذلك، إضافة إلى كونهم صنفاً فنياً مبدعاً، إنحدروا من العلماء والكتّاب والمثقفين[3]، واتخذوا الوراقة مهنة لهم، وبهذا الاعتبار، تكون المعرفة إحدى الأساسيات في صقل شخصيتهم وأخلاقهم، رغم أن الدافع الآيديولوجي المنبعث من الفكر الإسلامي، كان يلفّ كل الظاهرة ويؤطرها في إطاره.

إحترازات فنيّة:

كنّا قد تحدثنا عن الكيفية التي كان ورّاقوا بغداد يتلافون بها الخطأ إذا وقع بعد النسخ وهو (x) الضرب عليه أو (كشطه) بالسكين، ولكن ورّاقي المتصوفة، عرفوا طريقة مثلى في تلاشيء بعض الأخطاء، أو إذا تعرّض «المنسوخ» إلى وقوع «مادة» عليه كالزيت مثلاً، وهو شائع عند أهل بلاد الشام وغيرها من الأمصار الإسلامية.

يروى عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي/ ولد عام 560 هـ/.

أنّه (عَلّم أحد ورّاقي بلاد الشام، كيفية تلافي الزيت الواقع على المنسوخ.

يقول أبو الثناء الحلبي: «إن رجُلاً كان في زمانه يجيد الخط، وأن بعض أمراء دمشق أعطاهُ مصحفاً بخط إبن البوّاب لينقل له منه، فبينما هو مفتوح قدّامه، في ليلة من الليالي،

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 92.

(2) نفسه.

(3) سوف نبيّن ذلك في باب/ أصناف الورّاقين/.

والسراجَ يقِدُ، وهو يكتب، إذ سقط السراج، فتبدّد زيتهُ على المصحف، فأيقن الرجل بالبلاء، والصبر للقتل والجلاء، وبات بشرّ ليلة تكون، فلما أذّن للصباح، أتى المسجد الجامع ليُصلّي، فرأى إبن عربي إلى جانبه، فلما قضي ركعتي المسجد، إلتَفَتَ إليه ابن عربي بوجههِ وقال له: ما صناعتك؟ قال: أنسخ، فقال له: فإن وقع السراج وتبدّدَ زيته على شيء قدّامك، مضنونٌ بهِ، ما تصنع به حتى يذهب الزيت؟! فأكبَّ الناسخُ على يديه يقبلها ويقول: هذا والله! جرى لي البارحة، وقصَّ عليه قصّته، فضحك الشيخ وقال: لا يهُمك، خُذ عِظام الأكارع الصغار، فاحرقها واسحقها واسحق معها من سُكّر النبات، واخلطها. ثم افتح الأوراق، وذُرَّ ذلك بينها، ثم اطبق الكتاب وثقّلهُ، ودعه يوماً وليلة، ثم افتحهُ وانفضهُ، فإنه يذهب الزيت، ويعود إلى حاله الأول، قال: ففعلت، فكان كما قال»[1].

---

(1) راجع إبن فضل الله العُمري/مسالك الأبصار في ممالك الأمصار/ج8، ص329 - 330، تحقيق بسام محمد بارود، منشورات المجمّع الثقافي - أبو ظبي. عام 2000م

نماذج من خطوط الورّاقين من العصر العباسي

هذه المجموعة من «المخطوطات» ما زالت محفوظة حتى هذه اللحظة وهي لكُتّاب معروفين، ومودعة في مركزجمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي، وقد «إستنسخناها» من نشرة المركز المعروفة بـ«أخبار المركز»، الأعداد 1 و2 و5 لعام 2003/ والعددان 8 و9 لعام 2004م.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير الى الله تعالى [illegible] الحمد لله الذي تفرد في وحدانيته فليس
شاكل [illegible] عن [illegible] والاشكال وصلواته على سيدنا محمد المحيط بانواع
الكمال وعلى [illegible] الفضائل ومراكز الافضال [illegible] فلما كانت انواع المطالب
واصناف [illegible] الظن واليقين داخلة تحت البرهان والتخمين وكانت النفوس السليمة الفكر
البرية من [illegible] وذات نزاع اولى وشوق طبيعي الى تعرف الامور اليقينية
والوقوف على البراهين الحقيقية [illegible] الرتبة السنية ملك الامراء و
اوحد العلماء الذي [illegible] معدن كل فضيلة و
كل مكرمة [illegible] المفاخر التي قصر كل
سام عن اعتقاد [illegible] وباطنه تقي [illegible]
[illegible] الاصل [illegible] الفرع [illegible]
[illegible]
[illegible] على التحقيق [illegible] المطلع [illegible]
اليد [illegible] المستجاب له [illegible]
من الاكابر [illegible] الظلم [illegible]

الورقة الأولى من تفسير حاشية على تلخيص المفتاح

الورقة الثانية من تفسير حاشية على تلخيص المفتاح

الورقة الأولى من تفسير آية (الأبرار)

الورقة الثانية من تفسير آية (الأبرار)

الورقة الأولى من عقود الجمان

الورقة الأولى من عقود الجمان

الوقة الأولى من عمرة المفيد



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقيه الكاتب الوزير أبو مروان بن عبد الملك بن عبد الله بن زيدون

القرطبي السني رحمه الله عليه الحمد لله الملك المعبود الصمد الفرد المقصود

الرؤوف الرحيم المحمود كثير الإنعام الوافر الجود تفرد بالوحدانية والبقاء بالوجود لا

مولود واسبغ النعم وهو كريم ودود وأحصى بإحسانه غير محصور ولا معدود و

قهر فلا يحتاج إلى أعوان ولا جنود واستعبد العباد بالركوع والسجود وبطش

بالجبابرة والأكاسرة من الأجود وأباد أصحاب الرس وثمود وفعال أصحاب

الأخدود وأهلك قوم عاد وأفنى قوم هود وقدر الشقاء وقسم السعود وفتح

بقدرته كل باب مسدود وأقام البراهين على وحدانيته فلا [illegible]

وده يا آمل المنابر ونظم عقوده في أجياد الدفاتر والصلوة على سيد الـ

والنبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد فإنه لما كان تذكار أدب الفضلاء

ومنادمة الفضلاء واجبة تذكارها أفضى بنا الحديث والمذاكرة

لذكر القديم والحديث وذكرنا من درج من الأمم وقرع في الشعر أبواب

لم يقرعها قبله من كان أقدم القدم وما ابتدع فيه من أنواع البدائع كا

لتكافؤ والتفريع والحشو والتتبيع والتلويح والمعدد والتصدير

والسمط والالتفات والمقابلة والإشارة والتبليغ والاستعارة

والترشيح والتجنيس والاستطراد والتقسيم والإيماء والتتميم ثم

جلنا في ميدان الإحالات ورفضنا ما سواها وذكرنا الجمع فيها [illegible]

الورقة الأولى من لحمامة الزهر

الفصل السابع

معاناة الورّاقين

كثيرة هي المهن التي تخلق السأم في نفوس ممتهنيها، نتيجة الملل الناشب من تكرار العمل ذاته بشكل يومي، ولفترات طويلة، ما لم تكن هناك محفّزات نفسية للتواصل والدوام، كالاعتبارات المعنوية والمادية، فيما تكون المحفّزات المعرفية عند البعض هي الأقوى من بقية الدوافع، الأمر الذي يجعل من عشق المهنة ديدنا قائماً في ذهن صاحبها، وهذه الحالات نادرة، فيما عدا رجالات العلم كالجاحظ وأضرابه، من الذين قامت على أكتافهم وأقلامهم أساسيّات ثقافتنا العربية - الإسلامية.

والمعاناة، بمفهومها العام، يكاد معناها أن ينصّب على العوز المادي «الاقتصادي» أكثر من غيره، حيث أنه يشكّل المقوّم الأراس للحياة، في كل فترات العمر، بالنسبة للإنسان، باعتباره الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحقيق الكثير من الحاجات، سوى المعرفة، فإنها تؤخذ أخذاً، ونظراً لكون أدباء وعلماء العصور العباسية قد اصطدموا بهذه المعضلة، وكثير منهم، كان يأنف من الوقوف على عتبات السلطان، فقد دفع هذا بالكثيرين منهم لأن يصبحوا ورّاقين، ينالوا معاشهم من كسب اليد في مهنة الوراقة، وهو أمر يقارب بين طموحاتهم المعرفية - الثقافية، وبين حاجياتهم المعاشية، والبعض منهم كان يلجأ إلى أسلوب الإهداء في كتاباته، كي ينال قوت معاشه وأمور حياته الأخرى، قبل بدء عملية نسخ المؤلف، ومن ذلك ما قام به الجاحظ، حيث أهدى كتابه «الحيوان» إلى صديقه الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات فأعطاه خمسة آلاف دينار، كما أهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى ابن أبي داود فأعطاه خمسة آلاف دينار، وأهدى كتابه «الزرع والنخل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاه خمسة آلاف دينار[1].

وكذلك فعل أبو الفرج الأصبهاني، حيث أهدى كتابه «الأغاني» إلى سيف الدولة ابن

(1) ياقوت الحموي/معجم الأدباء 16/ 106.

حمدان فأعطاه ألف دينار[1]، وهو قليل بحقّه، وقد علّق الصاحب بن عبّاد على ذلك قائلاً: لقد قصّر سيف الدولة، وأنه يستأهل أضعافها[2]، وعلى هذا النحو كانت تسير أمور الأدباء والعلماء، وأحياناً تحتاج الدولة لمعارف أحد هؤلاء، فتكلفه بعمل ما، فيتفرغ له، ومن ذلك ما طلب إلى الجاحظ، رغم أنه كان لا يطرق باب سلطان.

وطلب التكليف يكون بمخاطبة المؤلف على لسان الوزير، فقد كتب الفتح بن خاقان، إلى الجاحظ، يطلب منه أن يؤلف كتاباً في «الرد على النصارى»، جاء في رسالته: إن أمير المؤمنين/ المتوكل/ يجدّ بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه، وقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه، فزدتك في نفسه زيادة كفّ بها عن تجشيمك، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنّة على كتاب الردّ على النصارى، وأفرغ منه، عجّل به إليّ، وكن من جدا[3] به على نفسه، تنال مشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة، وهذا ممّا لم تحتكم به نفسك، وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنّام، ولولا أني أزيد في مخيّلتك لعرّفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام»[4].

وبهذا الانتفاع للأديب، ينتفع الورّاق في الوقت نفسه، فإذا كان العمل كبيراً اشترك فيه أكثر من ورّاق، فقد نقلت المصادر أن تاريخ ابن عساكر اشترك في نسخه عشرة ورّاقين، ودامت عملية نسخه سنتين[5].

وقد كان أغلبهم/ أي العلماء والأدباء/ من المعوزين في حياتهم، إلا أنهم يتمتعون بهمة عالية وكبر نفس لا يلين، فهذا الفيلسوف يحيى بن عدي، كان يشتغل بالنسخ كي يكفي حاجته، يقول عنه إبن النديم، وقد صادفه في سوق الورّاقين، وعاتبه على كثرة

---

(1) معجم الأدباء 13/ 97.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) جدا عليه، أعطاه الجدوى، أي النفع. راجع مادة (جدى) في القاموس المحيط.

(4) معجم الأدباء 16/ 99 - 100.

(5) عيون الأنباء في طبقات الأطباء 2/ 236 بعناية موللر - القاهرة وكونكسبرج 1882 - 1884م، وراجع كذلك: روزنتال - مناهج العلماء المسلمين/ ص12. ومن المؤسف له أن هذا العمل النفيس، والبالغ (80 مجلداً) عجزت الدولة العربية من نشره وتحقيقه، حيث لم ينشر منه سوى عشرة أجزاء تقريباً، فيما انكبّ عليه الأوائل وأكملوا نسخه بسنتين.. أوليست هذه مفارقة تحتاج للتوقف والتأمل؟!

نسخه، فقال له: من أيّ شيء تعجب في هذا الوقت! من صبري؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري، وحملتها إلى ملوك الاطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل[1]. فيما كان إبراهيم بن إسحاق بن الحربي يأنف أن يأخذ شيئاً من أحد، رغم أنه معوز ومتزوج وله أطفال، وقد عرف الناس طبعه بذلك، يقول هو عن نفسه: كان لي بيت في دهليز داري، فيه كتبي، فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر/وفي ذات ليلة/[2] إذا دقّ الباب، فقلت من هذا؟ فقال: رجل من الجيران، فقلت: أدخل، فقال: أطف السراج حتى أدخل، قال: فكببت على السراج شيئاً وقلت: أدخل فدخل، وترك إلى جانبي شيئاً وانصرف، فكشفت عن السراج فنظرت فإذا منديل له قيمة، وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمسمائة درهم، فدعوت الزوجة وقلت: نبهي الصبيان حتى يأكلوا، ولما كان من الغد قضينا دينا كان علينا من تلك الدراهم[3]. فأيّ صبر كان عند هذا العالم، وأي أريحية كان يتمتع بها هذا «الطارق» بحيث أنه أراد عدم كشف نفسه أمام الحربي، كي لا يحرجه، ولا يعرّف بنفسه تبجحاً، كما هو سائد اليوم.

وقد كان لبعض الأشخاص هوى في الأدب والعلوم الأخرى، لكنه غير منغمس فيها، حيث أن عمله الوظيفي أو الاداري، لا يسمح له بأن يزيد إطلاعه على العلوم والأداب، الأمر الذي يجعله أميل إلى معاشرة الورّاقين، فيدخل سوقهم ويحضر مجالسهم، وربما أغرته مهنة الوراقة، وترك عمله الأساسي وانخرط فيها، فمن ذلك ما عمله القاضي أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب البغدادي - الفقيه الشافعي[4]، حيث تخلّى عن القضاء ومال نحو الوراقة، وكان كسبه منها 120 ديناراً في الشهر[5]، وهذا التحول عند القاضي،

---

(1) طبقات الأطباء/ ص318، من طبعة نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

(2) تصرفنا بالعبارة على هذا الشكل حفاظاً على السياق، وأصلها/ فلما كان في تلك الليلة/راجع ياقوت الحموي: معجم الأدباء 1/ 115 - 116.

(3) معجم الأدباء 1/ 116. ومن الملفت للانتباه أن الناس في ذلك الوقت، لا سيّما طبقات العلماء والأدباء وأصحاب المعرفة كانوا يتفقدون أحوال بعضهم، ويهبّون إلى مساعدتهم، كما رأينا عند إبراهيم بن إسحاق الحربي، أمّا اليوم فإن الناس ينظرون بالحسد لمن تغيّر ملبسه، وحكموا على الظاهر دون الباطن، ويتساءلون: كيف يعيش؟ وما هي الجهة التي تدفع له، لا سيما في حالة المنافي، بحيث أنهم يزرعون الشكوك حوله، ولا يسدّون خلته ولا يقيلون عثرته، جنّبنا الله شرّهم.

(4) أنظر ترجمته في/ كتاب الولاة وكتاب القضاة: لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي/ ص523 وما بعدها بعناية «رفن كست» طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، سنة 1908/ .

(5) المصدر السابق/ ص531.

صدفة وليس ظاهرة، حيث أنه هرب من القضاء وشؤونه، أي تبديل مهنة، وهو على الوراقة حديث، لذلك كان هذا الاندفاع، وإلا لم يندفع غيره من القضاة إلى هذه المهنة؟! على أية حال، إن مهنة الوراقة أتعبت الورّاقين الذين نشأت على أيديهم، وقضوا حياتهم فيها، وعرفوا أسرارها وما تنطوي عليه، وقد كان للأدباء المعاصرين لهم معرفة بأحوالهم، وإطلاعاً على معاناتهم، نتيجة الملازمة والتردد على حوانيتهم، فهذا أحمد بن عبد الله بن حبيب المعروف بابن هفّان، يتحدث عن معاناتهم بالقول: سألت ورّاقاً عن حاله فقال: عيشي أضيق من محبرة، ، وجسمي أدقّ من مسطرة، وجاهي أرقّ من الزجاج، ووجهي عند الناس أشد سواداً من الحبر بالزاج، وحظي أخفى من شق القلم، ويداي أضعف من قصبة، وطعامي أمرّ من العفص، وشرابي أحرّ من الحبر، وسوء الحال ألزم لي من الصمغ، فقلت له: عبّرت عن بلاء ببلاء[1]، والجاحظ هو الآخر، أعرف الناس بالورّاقين، فقد كان ملازماً لحوانيتهم، ويكتريها منهم ويبات فيها، وقد اعتبر مهنة الوراقة من مهن الكهول[2]، فيما كان أبو حيّان التوحيدي، أشدّ المتذمرين من هذه المهنة، لأنها أذلّته، وقد كان كتابه «مثالب الوزيرين» شاهداً لمعاناته من هذه المهنة التي يسميها مهنة الشؤم والعسر[3]، حتى أنه قال ذات مرّة:

«طلع إبن عبّاد عليّ يوماً في داره وأنا قاعد في كسرايوان اكتب شيئاً كان كأدني[4] به، فلما أبصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق: اقعد، فالورّاقون أخسّ من أن يقوموا لنا، فهممت بكلام، فقال لي الزعفراني الشاعر: اسكت فالرجل رقيع، فغلب عليَّ الضحك واستحال الغيظ تعجّباً من خفته وسخفه»[5].

ووصل الأمر بالورّاق إلى حدّ التطيّر من هذه المهنة، نتيجة السأم والفاقة، فهذا الأعسر الورّاق ضجر منها فقال: ما خلق الله أشقى من الورّاق، ولا أشأم من الوراقة، فالألف آفة، والباء بخس، والتاء تعس، والثاء ثلم، والجيم جحد، والحاء حرقة، والخاء خوف، والدال داء، والذال ذل، والراء ريب، والزاي زجر، والسين سم، والشين شين،

(1) أبو إسحاق القيرواني/ زهر الآداب 2/ 200 بعناية د. زكي مبارك، المطبعة الرحمانية بمصر، والثعالبي: خاص الخاص/ ص69، وأدب الكتّاب للصولي/ ص97.

(2) الحيوان 1/ 202.

(3) معجم الأدباء 15/ 12 - 13.

(4) كأده بالشيء = كلفه به.

(5) معجم الأدباء 15/ 26.

والصاد صدّ، والضاد ضرّ، والطاء طر، والظاء ظلام، والعين عيب، والغين غم، والكاف كفر، والفاء فقر، والقاف قهر، واللام لو، والميم مرق[1] والنون نوح، والواو ويل، والهاء هوان، والياء يأس، فقيل له: فلام الألف! قال: هو والله جلم[2]، يقطع الرزق ويجلب الحرق[3].

ومن معاناة الورّاقين، التي تصادفهم في كل يوم تقريباً رداءة الخط، وهي مسألة أساسية في مهنة الوراقة، فإن الناس تقبل على صاحب الخط الجميل، على اعتبار أن الخط دليل على ما في النفوس، وما في النفوس دليل على ما في الأشياء ذوات المعاني، وما في الأشياء ذوات المعاني مدول عليه، كما ينقل ذلك الصولي[4]. ويكفي أن نشير بهذا الصدد أن حسن الخط رفع الكتّاب إلى مصاف الوزراء كابن مقلة، حتى أن ملوك الروم كانوا يعجبون بالخط العربي فقد علّق ملك الروم كتباً للمأمون بخط أحمد بن أبي خالد الأحول على جدران إيوانه[5]. لذلك كان الكتّاب والورّاقون على حدّ سواء يعتنون بخطهم، واعتبروا أن «رداءة الخط زمانة الأديب»[6]، وهذه المسألة شكلت مرارة في حياة الكتّاب والورّاقين حتى أنها كانت مجلبة للسوء، ومصيدة للتندر والهجاء، قال علي بن محمد العلوي يتذمر من قبح خطّه[7]:

أشكو إلى الله خطّا لا يبلغني ... خطّ البليغ ولا خط المرجينا

إذا هممت بأمر لي أزخرفه ... سدّت سماجته عنّي التحاسينا

وقد أصبحت رداءة الخط مشكلة فنيّة أساسيّة في ذلك العصر، الأمر الذي حدا بكبار الكتّاب إلى معالجتها، وقد أفرد أبو بكر الصولي باباً كبيراً لهذه المسألة في كتابه القيّم «أدب الكتّاب»[8] كي يتمكن عموم الأدباء في عصره من التخلص من هذا الهمّ الكبير،

---

(1) المرق: بتسكين الراء: الاهاب المتنّ، راجع اللسان: مادة مرق.
(2) الجلم = الذي يجزّ به = أي مقراض الصوف، اللسان: مادة - جلم.
(3) الثعالبي: خاص الخاص/ ص75، طبعة بيروت، دار مكتبة الحياة عام 1966، وقد ناقضه بحروف الهجاء هذه الكاتب أبو الحسين أحمد بن سعد: راجعه بنفس الصفحة عند الثعالبي.
(4) أدب الكتّاب/ ص42.
(5) الصولي/ المصدر السابق/ ص45.
(6) المصدر السابق/ ص52.
(7) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص52.
(8) الصولي/ 41 - 57.

وهذه المسألة نظر إليها الورّاقون على أنها لازمة للخطّ، فإن حسنت حسن الحظ وإن ساءت ساء الحظ، يقول أحدهم[1]:

وما الخطّ إلا الحظّ صحّف لفظه ... فإن تك ذا حظّ فإنك ذو خطّ

فبالخطّ بين الناس انك مخطىء ... وبالحظّ صوب رأي من شئت أوخطيّ

ومن هذا المنطلق، تناول المسألة الشاعر العباسي المعروف (أبي الفتح كشاجم) فقال[2]:

غبط الناس بالكتابة قوما ... حرموا حظهم بحسن الكتابة

وإذا أخطأ الكتابة حظّ ... سقطت تاؤه فصارت كآبة

وقال آخر، بنفس الموضوع[3]:

لا تحسبوا أن حسن الخط يسعدني ... ولا سماحة كف الحاتم الطائي

وإنما أنا محتاج لواحدة ... لنقل نقطة حرف الخاء للطاء

والملاحظ في الأمر، أن تعبيرات الورّاقين عن معاناتهم تصدر عنهم على شكل أدب رفيع، يتجلى بالنثر والشعر، ولا تثريب في ذلك عليهم، فهم أدباء بالأساس، إضافة إلى أنهم يتعاملون مع الأدب، ومختلف الفنون الأخرى، من خلال مهنتهم «الوراقة»، يقول أحد الورّاقين في شكواه[4]:

أدمى البكا جفني والمآقي ... وظُلْتُ ذا همّ وذا احتراق

ما ان أرى في الأرض والآفاق ... أدنى ولا أشقى من الورّاق

فيما ينطلق آخر بشكواه ليعبّرعن حالة الأدب والأدباء، لا سيّما في معاناتهم الاقتصادية، حيث أن تعبير (أدركته حرفة الأدب) ذو بعد اقتصادي دال على الفقر، يوصم به الأديب المنقطع كلياً للأدب، لذلك قال أحد الورّاقين بهذا الصدد[5]:

لما أخذت حروف الخط حرفني ... عن كل حظّ وجاءت حرفة الأدب

(1) محمد طاهر الكردي/ حسن الدعابة فيما ورد عن الخط وأدوات الكتابة/ ص49، ط1 البابي الحلبي، القاهرة 1358هـ/ 1938م.

(2) المرجع السابق/ نفس الصفحة.

(3) نفسه/ ص50.

(4) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص95.

(5) الصولي - أدب الكتّاب/ ص95.

أقوت منازل مالي حين أوطنها منحياً سفط الآداب والكتب

والتعبير عن المعاناة الشخصية عند الورّاق، أحياناً لا تجد صدى عند من يشكو إليهم، الأمر الذي يجعله أن يعود إلى ذاته، ويكبت معاناته في نفسه، وأحياناً تكون المعاناة ليس من مهنة الوراقة بل لمن يورّق لهم من السلاطين والوزراء وغيرهم، حيث أن هؤلاء يتعاملون بفوقية عالية من هم دونهم، لذلك ينؤون عنهم، فهذا ورّاق يخاطب قلمه، ويحاوره في معاناته، وكيف أنه يبادله شكواه ويعتمد عليه[1].

يا مجيري من سطوة الأمراء وعميدي في نوبة اللأواء[2]
والذي صان حرّ ديباجة الوجـ ـه عن الاسخياء والبخلاء
والذي لا أزال أنعت في الشـ ـعر وأطريه غاية الاطراء
وسفيري بما أريد من الأمـ ـر إلى إخوتي من الأدباء

فيما نرى ورّاقاً آخر يذمّ الوراقة ويستهزىء بقلمه يقول[3]:

أفّ للرزق الكتبة أفّ له ما أصعبه
يرتشف الرزق به من شقّ تلك القصبة
يا قلما يرفع في الطر سِ لوجهي ذنبه
ما أعرف السكين الأ كاتباً ذا مرتبه

وقد استطاع الشريف أبو يعلي محمد بن محمد المعروف بـ«ابن الهبارية»[4] أن يعكس حالة الورّاقين ومعاناتهم، بقصيدته المخمّسة والتي يقول في أولّها:

«حي على خير العمل
تبّا لرب المحبرة... يا ويله ما أدبره
وعيشه ما أكدره... ورزقه ما أقتره
إن لم تصدقني فسل

(1) الصولي - أدب الكتّاب/ص84.
(2) اللأواء = الشدة.
(3) محمد طاهر الكردي، حسن الدعابة/ ص50.
(4) راجع ترجمته في/ الوافي بالوفيات/لصلاح الدين الصفدي 1/ 130 - 132، طبعة استانبول 1931م، بعناية هـ. ريتر/ وكذلك أعلام الزركلي 7/ 23، ط5/ والأبيات أوردها محمد طاهر الكردي في/ حسن الدعابة ص51.

وشكّل التعامل مع أرباب السلطة مسألة ذات أبعاد سياسية وأخلاقية، انعكست بظلّها على الورّاقين، وزادت همومهم همّاً ثقيلاً، لا سيّما إذا طلب لأحد الورّاقين العمل في بيوتات هؤلاء أو داخل دواوين الوزارة، حيث يصبح الإلتزام بالطقس الرسمي مسألة مفروضة على الورّاق في هذه الحالة، وهي قد تتعارض مع سلوكه الشخصي والعملي، وقد حدث ذلك فعلاً، ووقع الحادث مع واحد من أشهر الورّاقين في بغداد، هو علاّن الشعوبي، حيث كانت له دكان وراقة بجوار باب الشام[1]، ووصف هذا الورّاق لأحمد بن أبي خالد الأحول، الذي تولى الوزارة للمأمون، فأمر بإحضاره وأمره أن ينسخ له، فأقام في داره، ودخل الوزير ذات يوم، فقام له جميع من فيها غيرعلاّن الورّاق، فإنه لم يقم له، فقال أحمد: ما أسوأ أدب هذا الورّاق؟ وسمعه علاّن، فقال: كيف أنسب أنا إلى سوء الأدب ومنّي يتعلّم الأدب، وأنا معدنها، ولمَ أردت منّي القيام لك ولم آتك مستميحاً لك، ولا راغباً إليك، ولا طالباً منك، وإنما رغبت إليّ في أن آتيك فاكتب عندك، فجئتك لحاجتي إلى ما آخذه من الآجرة، وقد كنت بغير هذا أولى منك، ثم حلف إيماناً مؤكدة أن لا يكتب بعد يومه حرفاً في منزل أحد من خلق الله تعالى[2].

ولعبت العداوة الشخصية دوراً في زيادة هموم الورّاقين، لا سيما عند الشعراء منهم، وكان أوضح مثال لذلك هو الشاعر الورّاق السرّي الرفاء، فقد ناصبه العداوة الشاعران الخالديان[3]، ونكّدا عيشه، فقد إتهماه بالسرقة الشعرية رغم براعته ومكانته الأدبية، وأصبح بسببهما من الفقراء والمعوزين، وتحول من الرفو إلى الوراقة، وراح ينسخ، ويزيد مضاعفات عمله في النسخ، ليربح أكثر، لا سيّما في ديوان أبي الفتح كشاجم، ويضمنه من شعر الخالديين ويدعي أنهما سرقا ذلك الشعر من كشاجم[4]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أراد الانتفاع بهذه الزيادة[5]، وعندما زادت العداوة بين الرفّاء وبين الخالديين اشتدّا في إيذائه وقطعا رسمه من سيف الدولة، فانحدر إلى بغداد حتى عدم القوت، وراح ينسخ لغيره بالأجرة وركبه الدين إلى أن مات[6]، وهذه المعاناة عند السرّي الرفاء من أذى

(1) أحد الأبواب الرئيسية في بغداد أيام العباسيين.

(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 12/ 192 - 193.

(3) هما أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي، أنظر ديوانهما والمقدمة التي كتبها د. سامي الدهان من ص7 – 18 مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1388هـ/ 1969م.

(4) معجم الأدباء 11/ 208 ترجمة سعد بن هاشم بن سعيد.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية 11/ 274، وحبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام ص32.

(6) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد 9/ 194.

الخالديين أدت إلى تشويه ديوان كشاجم، لأنه دسّ فيه الكثير من شعرهما[1]. وهذه المسألة، أي مسألة الدس،انعكست وبالاً على مهنة الوراقة، حيث ظهر تيار صغير في سوق الورّاقين يسلك هذا المسلك، ليس للبعد الاجتماعي والاقتصادي وحسب، بل لبعد سياسي محض[2] حتى وصم هذا التيار الوراقين بـ«الخيانة» حتى قيل «إن آفات العلم خيانة الورّاقين»[3]، لذلك كان علماء الحديث يحرصون على سلامة العلم فينسخون كتبهم بأنفسهم[4]، وقد نبّه الخطيب البغدادي إلى ذلك في معرض حديثه عن ابن الخفاف الورّاق، حيث قال عنه أنه كان يركب الأحاديث ويضعها على من يرويها عنه، ويختلق أسماء وأنساباً عجيبة لقوم حدّث عنهم[5]، وهذا الأمر ينعكس سلباً على مهنة الوراقة، ويزيد من هموم الورّاقين، حيث أن أغلب الوراقة كانت تعتمد على الكتب الدينية أكثر من غيرها.

لقد انعكست المعاناة على حياة الورّاقين بشكل فظ، حتى ارتبطت هذه المعاناة باللاوعي عندهم، وتسللت إلى أحلامهم وأقضّت مضاجعهم، فهذا محمد بن أحمد الدقاق المعروف بـ«ابن الخاضبة» واحد من العلماء والحفّاظ الكبار، لازم الوراقة أغلب حياته[6]، وكان يعيل بمهنته هذه أمه وزوجه وبنته، وقد نسخ «صحيح مسلم» سبع مرات، يقول هو عن نفسه: كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادي: ابن الخاضبة، فأحضرت، فقيل لي: أدخل الجنّة، فلما دخلت الباب وصرت من داخله استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه، استرحت والله من النسخ»[7].

ووصل الأمر من سوء الحال، عند مساور الورّاق لأن يتذلّل إلى ابن ليلى/أحد رجالات عيسى بن موسى/أن يشغّله في جملة الكتّاب، فلم يفعل، فقال مساور[8]:

---

(1) أنظر مقدمة د. سامي الدهان لديوان الخالديين/ ص14.

(2) سوف نتحدث عن ذلك في الصفحات القادمة من هذا الباب.

(3) كثيراً ما يتردد هذا في «طبقات المالكية». راجع «الفريدة الثانية» من كتاب - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن مخلوف/ ص11 - 14 طبعة بالأوفست لدار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(4) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في (ق 4 هـ)/ 1/ 352.

(5) تاريخ بغداد 1/ 44.

(6) أنظر ترجمته عند ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 17/ 226 - 230، الترجمة رقم 75.

(7) معجم الأدباء 17/ 228.

(8) الأغاني 18/ 149.

أراك تشير بأهل الصلاح فهل لك بالشاعر المسلم
كثير العيال قليل السوا ل عفّ مطاعمه معدم
يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وقد خَلَقَ العام بالموسم
وأصبح والله في قومه وأمسى وليس بذي درهم

وأخذت المعاناة تتسرمد في نفوس الورّاقين، وأصبحت ملازمة للحياة اليومية، وانعكست بشعرهم وأدبهم، بل أصبحت إحدى اللوازم في الكلام، يقول عمر بن سعد بن سراج الدين الورّاق، وقد أكثر ذكر صناعته في شعره[1].

يا خجلتي وصحائفي سود غدت وصحائف الأبرار في إشراق
وموبخ لي في القيامة قال لي أكذا تكون صحائف الورّاق

وانسحب هذا الهم على العلاقات الإنسانية، فربما نفرت المرأة من حبّ الورّاق، يقول عمر بن سراج الدين أيضاً:

نصب الحشا غرضا فقرطس إذ رمى وهي القلوب سهامها الأحداق
وسألته وصلا فقال يحجّجُني ياليت شعري من هو الورّاق؟

الفصل الثامن

الوراقون والسياسة

إن التطور الاقتصادي في العصر العباسي، ، دفع بالحياة الاجتماعية إلى واجهة الصدارة، حتى صار الناس يميّزون بين ما هو سلبي وما هو إيجابي عند الخلفاء والوزراء، وسائر طبقات الناس، من منظور آيديولوجي، يستمدّ رؤاه وشرعيته من العقيدة الإسلامية ذاتها، باعتبارها المصدر الأساسي للفكر.

وحالة التفاعل الاجتماعي - الاقتصادي، تجد تعبيراتها في الحياة السياسية عند المذاهب والفرق التي طفت على السطح وظهرت للعيان، بشكل واضح، الأمر الذي يجعل من التناقض قانوناً أساسياً يجري فعله في حياة الناس والمجتمع، وهو أمر أدركته السلطة العباسية، فراحت تأخذ بزمام المبادرة السياسية من خلال الدين الإسلامي، وحين

(1) خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي/ص245، الطبعة الأولى، مصر سنة 1304هـ.

أطلّ القرن الرابع الهجري، أصبحت النقطة الفاصلة لوقف التشريع الإسلامي وحصره في المذاهب الأربعة السنيّة، وهو أمر يشير إلى تخوّف السلطة العباسية من عامل الإبداع في الفكر، وانعكس هذا الأمر على روّاد الساحة الفكرية من فقهاء وأصحاب حديث، فالفقهاء يريدون إحياء النظريات الفلسفية والحثّ على بعضها فيما كان أصحاب الحديث يتمسكون بالسّنة القديمة، حتى أصبح العلماء الأولون كالمعصومين، وصار الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه إلا في المسائل الصغيرة[1]، وراح الأمر أبعد من ذلك، وصار أصحاب المذاهب السنّية يضيقون على الشيعة، وعلى متكلمي المعتزلة، وظهرت نزعة التطرف عند الحنابلة في هذا الاضطهاد الفكري، فقد حاولوا منع الخطيب البغدادي من دخول المسجد الجامع ببغداد لأنه كان يذهب مذهب الأشعري[2]، ومن قبله كانوا قد ضيّقوا على محمد بن جرير الطبري، ولما توفّي سنة 310هـ/ 923 م، منع الحنابلة دفنه نهاراً واتهموه بالرفض والإلحاد، لأنه جمع كتاباً ذكر فيه إختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل عن ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدّثاً[3].

وقد برز تياران أساسيّان على الصعيد الفكري الإسلامي في ذلك الوقت، هما: تيار أصحاب الرأي، وتيّار أصحاب القياس، وقد إنقسم الناس شيعاً حول هذين الفريقين، فيما كان المعتزلة قد سيطروا على الساحة الثقافية والفكرية في القرن الثالث الهجري، حيث كانوا طوال هذا القرن يعالجون مسائل كلامية، حتى شغلوا الناس طيلة هذا القرن، واضطّر خصومهم إلى الإجابة عنها في القرن الرابع الهجري[4]، حيث كانوا هم الفرقة الوحيدة التي أخذت تعالج الفلسفة وعلم الكلام أكثر من بقية المذاهب الإسلامية الأخرى، التي كان المسلمون منقسمين إليها في ذلك العصر وهي: أهل السنّة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وتحت هذه السميّات من المذاهب تندرج عدة فِرق[5]، وهذه الفِرق الإسلامية كان لها رجالها من الأدباء والعلماء والفقهاء والمتحدثين وغيرهم،

---

(1) راجع تفصيلات ذلك عند آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في (ق 4هـ)/ 1/ 369 وما بعدها.

(2) ابن الجوزي: المنتظم 8/ 265 – 266، وآدم ميتز، المرجع السابق 1/ 361.

(3) راجع، أبن الجوزي: المنتظم 6/ 172، وابن خلكان: وفيّات الاعيان 4/ 191 وما بعدها، وقد لاحظنا أن الذهبي، صاحب سيرأعلام النبلاء لم يترجم له بالشكل الكافي، معتبره «رافضياً» وكل ما نقل عنه لا يتجاوز السطرين، أنظر الترجمة رقم 176، من سير أعلام النبلاء 14/ 282 وراجع كذلك، آدم ميتز 1/ 370.

(4) آدم ميتز/ 1/ 333.

(5) راجع عن هذه الفرق/ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ص37 وما بعدها طبعة ليدن 1909، ط2.

وقد أفرد لهم ابن النديم أبواباً هامة في «الفهرست»[1]، وخصّ المعتزلة بالقسم الأول من المقالة الخامسة، وفي ضوء هذه الظواهر الفكرية - السياسية، تكون دكاكين الورّاقين هي المكان الجامع لنتاجهم الفكري والأدبي، لذلك تسرّبت أفكار هذه الفرق إلى نفوس الورّاقين وأفئدتهم، فانضووا تحت شعاراتها وساروا في ركابها وورّقوا لها[2].

وتكاد المواقف السياسية تأخذ عند الورّاقين، لا سيما الشعراء منهم شكل التندّر من هذا المذهب أو ذاك، أو من هذه الجماعة أو تلك، وعندما يصاغ هذا الموقف شعراً، فإن البعد الإعلامي فيه يأخذ مدى أوسع، نظراً لكون الناس في تلك الفترة، هم أحفظ للشعر من سواه على بقية الفنون الأدبية، لذلك كان التركيز عليه كثيراً عند الورّاقين، فمن ذلك ما قام به مساور الورّاق، وهو يسمع لغط أصحاب أبي حنيفة وصياحهم، وما يجادلون به بقية الفرق «بالقياس» كمنهج أساسي في مذهبهم، فقال يهجوهم[3]:

كنا من الدّين قبل اليوم في سعة ... حتى بلينا بأصحاب المقاييس
قوم إذا اجتمعوا ضجّوا كأنهم ... ثعالب ضجّت بين النواويس

ونظراً للتأثير الإعلامي للشعر، نرى أن الفرق الإسلامية تحاول إحتواء الشاعر ومهادنته، وكسب ودّه، وإلا فقد تحدث مواجهات كلامية، ووعد ووعيد، وربما كان الرد عنيفاً قد يصل القتل، فالأمر متعلق بموقع الفرقة الإسلامية وتأثيراتها، فمساور مثلاً هادنه المذهب الحنفي، ممثلاً بشخصية أبي حنيفة ذاته، وبعد أن هدده أصحابه وتوعده، وشقّ عليهم ما سمعوا، فراح يطلب رضاهم، فقال شعراً بذلك هو[4]:

إذا ما الناس يوماً قايسونا ... بآبدة من الفتيا ظريفة
أتيناهم بمقياس ظريف ... مصيب من قياس أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها وعاها ... وأثبتها بحبر في صحيفة

فبلغ أبا حنيفة ذلك فرضي. قال مساور، ثم دعينا إلى وليمة بالكوفة في يوم شديد الحر، فدخلت فلم أجد لرجلي موضعاً من الزحام، وإذا أبو حنيفة في صدر البيت، فلما

(1) راجع: الفهرست/ المقالة الخامسة/ ص245 - 280، الطبعة المصرية، حيث ذكر العشرات من أسماء الرجال.
(2) سوف نذكر تفصيلات ذلك عند الحديث عن حياة الورّاقين في الجزء الخامس من هذه الموسوعة والذي سيحمل عنوان - أعلام الورّاقين.
(3) الأغاني 18/ 151 وحبيب زيات/ الوراقة والورّاقون في الإسلام/ ص31.
(4) النواويس = مقابر النصارى - اللسان - مادة (نوس).

رآني قال: إليّ يا مساور، فجئت فإذا مكان واسع، وقال لي: إجلس، فجلست، وقلت في نفسي: نفعتني أبياتي اليوم، قال: وكان إذا رآني بعد ذلك يقول لي: هاهنا، هاهنا، ويوسّع لي إلى جنبه، ويقول: إن هذا من أهل الأدب والفهم[1].

وعلى هذا المسلك، سار الشاعر الورّاق السري الرفّاء، وربما كان أكثر خطورة من سابقة «مساور» حيث كان الرفاء معجباً بشعر كشاجم، كما أسلفنا[2] وكان ينسخ ديوانه، حيث أنه كان مغرماً به وأثناء عملية النسخ كان يدسّ أحسن ما كتبه الخالديان، للعداوة التي كانت بينهم كي يشنّع بذلك عليهم[3].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الزنادقة كان لهم تأثير واضح في الورّاقين، فقد ذكر ابن كثير أن محمد بن أبي العوجاء كان ورّاقاً زنديقاً، وأنه اعترف على نفسه وهو تحت السيف، أنه وضع أربعة آلاف حديث، يحل فيها الحرام، ويحرّم فيها الحلال، ويصوّم الناس يوم الفطر، ويفطرهم في أيام الصيام، وقتله المنصور على الزندقة[4]، وعلى الزندقة أيضاً، أخذ أبا عيسى الورّاق، وأودع السجن حتى مات[5].

ومذاهب الورّاقين السياسية، كانت تظهر عندهم في الحديث العام، وفي النادرة، وفي الموقف المتحدي وغيرها، ومن ذلك ما رواه إبن الجوزي عن ورّاق شيعي يعرف بابن لؤلؤ، واسمه (علي بن محمد بن أحمد بن نصير بن عرفة أبو الحسن الثقفي) قال: أخبرنا أبو بكر بن ثابت قال: سمعت التنوخي يقول: حضرت عند أبي الحسن ابن لؤلؤ مع أبي الحسين البيضاوي لنقرأ عليه، وكان قد ذكر له عدد من يحضر السماع، ودفعنا إليه دراهم كنّا قد وافقناه عليها، فرأى في جملتنا واحداً زائداً على العدد الذي ذكر له، فأمر بإخراجه، فجلس الرجل في الدهليز، وجعل البيضاوي يقرأ ويرفع صوته ليسمع الرجل، فقال ابن لؤلؤ: يا أبا الحسن، أتعاطي عليّ وأنا بغدادي باب طاقي[6] ورّاق، صاحب حديث شيعي أزرق كوسج، ثم أمر جاريته أن تدق في الهاون أشناناً حتى لا يصل صوت البيضاوي بالقراءة إلى الرجل[7]. وهذه الحادثة تبيّن الإنتماء السياسي للورّاق إضافة إلى

(1) الأغاني: 18/ 152.
(2) راجع فصل، معاناة الورّاقين.
(3) حبيب زيّات/ ص42.
(4) البداية والنهاية 10/ 113، أحداث سنة 155هـ.
(5) المصدر السابق 11/ 113 في ترجمة «ابن الراوندي».
(6) باب الطاق/ من الأبواب الرئيسة في بغداد أيام العباسيين.
(7) المنتظم 7/ 140، حوادث سنة 377هـ، وحبيب زيات/ ص42.

أنها تكشف عن الظَّرف عند البغداديين الذين عرفو به في ذلك الأوان[1].

يذكر إبن أياس الأزدي أنه في سنة 145هـ أوتي بمطر الورّاق وبشير الدجّال، وكانا من الخوارج، وأدخلا على المنصور فقال المنصور لمطر: يا مطر نسيت الحرمة وطول الصحبة؟ فقال مطر: نسيناهما بنسيانك كتاب الله وسنّة رسوله، وتضييعك أمور المسلمين، قال المنصور: أفتخرج علي مع من لم تؤنس منه رشدا؟ فهذا خلاف مذهبك؟ قال: لو خرج عليك الذر وأنه أضعف الخلق لخرجت معهم حتى أؤدي ما افترض الله عليّ فيك. فقال المنصور: يابن حسنة الزانية. قال مطر: إنك تعلم أنها خير من سلامة (أم المنصور)، ولولا أنه قبيح بذي الشيبة السفه، لأعلمتك ما تكره ولا تطيق ردّه. قال المنصور: خذوه. قال: أن بعد موقفك هذا موقفاً، وأن بعد أخذتك هذه أخذة، فانظر لمن تكون العاقبة، قال: فجزع المنصور من قوله جزعاً شديداً ظهر فيه، ثم قتله[2].

وهذه الحادثة تبيّن الاشتراك الفعلي للورّاقفين في السياسة والالتزام بها/ حزبيّاً/، فيما عرف علاّن الورّاق بتعصّبه للفرس، وعدّ من الشعوبيين، فألّف الكتب على العرب، لا سيّما كتابه (الميدان) وكتب الشعر في مثالب العرب، وأذاعهما في مجالس بغداد دون أقل تهيّب أو تقية[3].

إذن، كانت هناك إنتماءات سياسية واضحة جدّاً عند الورّاقين، وهذا الأمر يشكل بعداً آيديولوجياً وإعلامياً خطراً، عرفت قوى المعارضة السياسية في العصر العباسي، كيف تستغله إيجابيّاً، وتتغلغل في أوساطهم، وقد كان للدهريين والفلاسفة والمتصوفة الأثر الأبلغ في هؤلاء، حتى أن الخلفاء والحكّام في ذلك العصر أخذوا يحرّمون تداول بعض المصنفات التي خشون من فتنتها، أو سوء أثرها في الدين، ففي سنة 279هـ، حلّف الورّاقون أن لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[4]، ولمّا قتل الحلاّج، أحضر الورّاقون وأحلفوا أن لا يبيعوا شيئاً من كتب الحلاّج ولا يشتروها[5].

لقد شكّل هذا البعد الإعلامي خطراً على الدولة العباسية، وهو أمر يشير إلى التنازع المتبادل بين قوى المعارضة وبين الخلافة العباسية، ولقد كانت المعارضة السياسية أسبق

---

(1) تاريخ بغداد 5/ 15، وحبيب زيّات/ ص43.

(2) تاريخ الموصل لأبي زكريا بن إياس الأزدي - الجزء الثاني ص166، مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم/ 2475/ نقلاً عن حبيب زيات/ الوراقة والورّاقون/ ص43.

(3) معجم الأدباء 12/ 119، وابن النديم/ الفهرست/ ص153 - 154. وحبيب زيات/ ص44.

(4) المنتظم 5/ 122، أحداث سنة 279هـ.

(5) مسكويه: تجارب الأمم 5/ 83، وحبيب زيات/ ص45.

لكسب هؤلاء، نتيجة الواقع الطبقي للورّاقين، حيث أن أغلب إنتماءاتهم كانت ذات جذور فقيرة معدمة، من جهة، ومن جهة أخرى، كان التعارض الآيديولوجي بين أفكارهم وأفكار السلطة السياسية، هو الآخر يدفعهم للإنتماء لقوى المعارضة، إضافة إلى أن العقيدة الإسلامية كانت تحضّ بجوهرها على الزهد والعيش ببساطة، وقد شاهدنا - من خلال معاناة الوراقين - كيف كانت سبل عيشهم، ومن هنا تكون حالة الانتماء إلى المعارضة أقرب إليهم وأسوغ.

الفصل التاسع

أصناف الوراقين

أشرنا في الفصل الأول من هذا الباب، إلى الكيفية التي ظهرت بها مهنة الوراقة، وتحدثنا في بقية الفصول اللاحقة، عن مختلف جوانب الحياة المهنية والسياسية والاقتصادية للورّاقين، وفي هذا الفصل: سوف نتطرق إلى أصنافهم المتعددة في مهنة التوريق، بغية معرفة كل صنف على حدا، كي نقف على دقائق هذه المهنة الشاقة والجميلة، والتي أوجدها الأدباء لهم، وفضلوها على غيرها، لشغف كان بهم نحو الأدب والعلوم الانسانية الأخرى.

ضمن مضمونها الشامل والواسع، فإن مهنة الوراقة، تشمل على أصناف عدّة من الورّاقين، تندرج في أربعة أصناف أساسية هي:

1 - النسّاخ، ويندرج في خانتهم الغالبية العظمي من الورّاقين، الذين يمارسون عملية النسخ بأيديهم[1]، ويندرج أيضاً في خانتهم الخطّاطون[2]، وهم الفئة الفنيّة المبدعة، والمشتغلة بالحرف العربي، والتزويق والتصوير والتذهيب.

2 - باعة الورق، وسائر أدوات الكتابة، كالأقلام والحبر وغير ذلك.

3 - المجلّدون، وهم فئة أختصّت بتجليد الكتب.

4 - باعة الكتب، ويدخل في خانتهم وبابهم المنادون أو الدلالون[3].

---

(1) يقابلهم في عصرنا الراهن (ضاربو الآلات الكاتبة).

(2) نظراً لأهمية هؤلاء في عملية الوراقة، من جهة، وأهميتهم من الناحية التاريخية والحضارية، فسوف نفرد لهم باباً خاصّاً بهم، إضافة إلى أننا سنترجم إلى أشهرهم في الجزء الخامس من عملنا هذا.

(3) للاستزادة راجع: كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق/ مصدر سابق/ ص 8 - 9.

1 - صنف النسّاخ:

وهم الصنف الأبكر ظهوراً من بقية الورّاقين، وقد تعلّق بمهنتهم نسخ القرآن، وبقية علوم الدين، حيث هؤلاء واكبوا البدايات الأولى للدين الإسلامي[1]، وسايروا عملية التطور السياسي والحضاري للدولة الإسلامية، فقد عرف عن مالك بن دينار[2] مولى أسامة بن لؤي بن غالب أنه كان أقدم ورّاق، حيث كان يكتب المصاحف بأجرة[3]. وعندما شمخت الحضارة العباسيّة في بغداد، كان للوراقين الدور الهام والإيجابي في مواكبة هذا الشموخ على الصعيد الثقافي والمعرفي، حتى بدأت عملية الوراقة بالتخصص في نسخ العلوم، وهي خطوة علمية هامّة، حيث مال الوراقون إلى إهتماماتهم الثقافية في عملهم، مما أعطى حافزاً إبداعيّاً لعملهم في الوراقة، وكان أجل تخصص ظهر عندهم، هو في «وراقة المصاحف» حيث أنهم أوجدوا نسّاخين خاصّين بهذه المهنة، وليس ذلك فحسب، بل أوجدوا خطوطاً خاصّة بالمصاحف، منها، على ما ذكره ابن النديم: المكي، المديني، التئم، المثلث، المدوّر، الكوفي، البصري، المشق، التجاويد، السلواطي، المصنوع، المائل، الراصف، الأصفهاني، السجلي، القيراموز، ومنه يستخرج العجم، وبه يقرّون[4].

ثم ذكر أن أوّل من كتب المصاحف في الصدر الأول/ أيام بني أميّة/ والموصوفين بحسن الخط خالد بن أبي الهياج، ذاك الذي كان مختصّاً بكتابة المصاحف والشعر والاخبار للوليد بن عبد الملك، وقد طلب منه عمر بن عبد العزيز - أيام خلافته - أن يكتب له مصحفاً، فكتب له ما أراد، وتنوّق فيه، فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه، واستكثر ثمنه فردّه عليه[5]. فيما ظهر في الدولة العباسية، من كتّاب المصاحف، خشنام البصري، ومهدي الكوفي، كانا في أيام الرشيد، فيما كان أبو حدى، يكتب المصاحف اللطاف - أيام المعتصم - وكذلك كان في زمنه من الكوفيين ابن أم شيبان، والسحور، وأبو حميرة، وابن حميرة وأبو الفرج، أما الورّاقون الذين وقف ابن النديم على خطوطهم، وعاصرهم،

(1) أنظر مقدمة الباب الرابع/ ولع العراقيين بالكتب/ من هذه الدراسة.

(2) أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي 5/ 362 - الترجمة رقم 164، وراجع حاشية الصفحة عن مصادر ترجمته الأخرى.

(3) ابن رسته/ الأعلاق النفيسة/ ص216، وحبيب زيّات/ الوراقة والورّاقون/ ص6.

(4) الفهرست/ ص9، وسيجد القارىء تفصيلاً أكثر لاسماء وأنواع الخطوط في ج4، الخطاطون/ من هذه الدراسة.

(5) الفهرست/ ص10.

وذكر ذلك عنهم في/الفهرست/، والذين كانوا يكتبون المصاحف بالخط المحقق والمشق، فمنهم: ابن أبي حسان، وابن الحضرمي، وابن زيد، والغريابي، وابن أبي فاطمة، وابن مجالد، وشراشير المصري، وابن سير، وابن حسن المليح، والحسن بن النعالي، وابن حديدة، وأبو عقيل، وأبو محمد الأصفهاني، وأبو بكر أحمد بن نصر وابنه أبو الحسين، ويقول ابن النديم: ورأيتها جميعاً[1]، فيما ذكر السمعاني أحدهم ويعرف بأبي إسحاق إبراهيم السلمي، حيث كان يورّق المصاحف[2].

فيما اختصّ بتذهيب المصاحف من الورّاقين كل من: اليقطيني، إبراهيم الصغير، أبو موسى بن عمار، ابن السقطي، محمد، وابن محمد أبو عبد الله الخزيمي وابنه، وهؤلاء كانوا في زمن ابن النديم[3].

ويدخل في هذا الصنف من الورّاقين، نسّاخ الحديث، ونظراً لأهمية الحديث النبوي في الشريعة الإسلامية، باعتباره العماد الثاني بعد القرآن عند المسلمين، فقد صارت العناية به من الأولويات الثابتة عند الوراقين من المشتغلين بعلوم الدين، حيث أن هذا يشترط فيه أن يكون عالماً بأصول الحديث وأسانيده وأخباره وتواتره، ورجاله وعلمائه[4]، لذلك توجّب أن يكون الورّاق في هذا الصنف عالماً بالحديث، لسببين رئيسين: الأول يدخل في الإطار الديني، ومحرماته ومحللاته، حيث يوجّب الوازع الديني الثقة بالنقل والأمانة، والسبب الثاني، المحافظة على سمعه العالم الشخصية، على الصعيدين المهني والأخلاقي، حيث أن مهنة الوراقة ترتبط بهما مباشرة، لذلك كان الخطيب البغدادي، معنياً بهؤلاء أكثر من غيرهم، لا سيّما في كتابه «تاريخ بغداد» حيث يعدّ هذا الكتاب جامعاً لأهل العلم والأدب وخصوصاً علماء الحديث[5]، ونظراً لكونه (أي الخطيب) معنياً بعلوم الحديث أكثر من غيره، فقد نبّه على المخلّطين منهم من أمثال ابن الخفاف وغيره، كما نبّه على أهل الكوفة وخراسان بهذا الصدد[6]، لذلك كان الورّاقون من هذه الفئة هم أكثر الفئات شهرة وإقبالاً عند الناس، حيث كانوا يقصدونهم للسماع والحفظ عليهم، لذلك كانت دكاكينهم ملأى بالناس والروّاد عليهم من كل حدب وصوب.

(1) الفهرست/ ص10.
(2) الانساب 7/ 111 - وحبيب زيّات/ ص16.
(3) الفهرس/ص14.
(4) أنظر فصل: المقابلة والنسخ أو منهج الوراقة، في هذا الباب.
(5) أنظر الصفحات الأولى من تاريخ بغداد 1/ 3 - 5.
(6) تاريخ بغداد 2/ 250 و1/ 44.

وضمن النسّاخ، هناك صنف يعرف بـ«الوراقين الرواة والأخباريين»، اختصّ هذا الصنف براوية الشعر وأخبار العرب وذكر أنسابهم، كهواية أدبيّة، ومهنة معاشية، وقد ذكر ابن النديم منهم عبيد الله بن أبي سعيد الوراق وقال عنه: كان إخبارياً نسّابا وراوية للشعر، وذكر أسماء كتبه التي ألّفها في هذا المجال[1]، وقد نقل أبو الفرج الأصبهاني بعض أحاديثه ومسموعاته في كتابه «الأغاني»[2]، ومن هؤلاء الورّاقين عرف: الفضل بن العبّاس وعيسى بن يحيى، وأبو محذورة، وغانم الورّاق، وعلان الشعوبي، وعثمان الورّاق، وعلي بن الحسين بن عبد السميع المرزوي، ومطير الورّاق، وعبد الله بن عمر، وابراهيم بن محمد، وابن أبي المدوّر، وعيسى بن الحسين، ذاك الذي كان أوسعهم ذكراً وحفظاً ورواية[3].

وهناك صنف آخر من الورّاقين هم/ الورّاقون العلماء والأدباء/ وهؤلاء كانوا أعلاماً في علوم اللغة والأدب وتدريس العلوم الدينية والنحو، والفلسفة والطب والترجمة، وقد اشتهر من هؤلاء: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرمّاني، حيث كان إماماً في العربية، علاّمة في الأدب، في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي[4].

ومنهم أيضاً الحسن بن حامد بن علي بن مروان الحنبلي، وكان مدرّس أصحاب أحمد بن حنبل وفقيههم في زمانه، ومعظماً عند الناس ومقدّماً عند السلطان[5].

فيما كان محمد بن عبد الله أبو الحسن الورّاق البغدادي من العلماء المتبحرين بالنحو وعلله وله مصنّفات فيه[6]. ومنهم: محمد بن حمدون الغافقي القرطبي الأندلسي[7] وعلي بن عبد الله بن موسى السرقسطي[8]، وهذان من بلاد الأندلس، ومنهم: إسحاق بن الجنيد البزاز البصري اللغوي[9].

ومن الورّاقين النحاة: أبو الحسن محمد بن هبة الله[10]، وأبو جعفر محمد بن

---

(1) الفهرست/ ص158.
(2) حبيب زيّات/ ص17 - 18.
(3) حبيب زيّات/ ص18، وسوف نترجم لأشهر هؤلاء في الجزء الخامس من كتابنا هذا.
(4) معجم الأدباء 14/ 74 وما بعدها - وحبيب زيّات/ ص18.
(5) تاريخ بغداد 7/ 303، الترجمة رقم 3816.
(6) السيوطي - بغية الوعاة/ ص53.
(7) المصدر السابق/ ص39.
(8) نفس المصدر السابق/ ص340.
(9) حبيب زيات/ ص19.
(10) ابن الأنباري/ نزهة الألباء في طبقاء الأدباء/ ص438، طبعة مصر سنة 1294هـ.

حاتم[1] ومحمد بن الحسن الأحول ذاك العالم باللغة والشعر، والذي كان ورّاقاً ناسخاً عند حنين بن إسحاق[2].

ومن الورّاقين الأدباء: أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم[3]، وأبعدهم شهرة كان أبو حيان التوحيدي، وقد نعته ياقوت الحموي بـ«إمام الورّاقين» وأفرد له ترجمة طويلة[4]، ومن صنفه وطبقته كان الورّاق/أبو حفص الأصبهاني/ ذاك الذي كان يكاتب الصاحب بن عباد بديباجاته الأدبية الرائعة[5]، ويندرج في سياق هؤلاء الأدباء من الورّاقين أبو الفتح بن الحزاز وأبو بكر القنطري وأبو الحسين بن الخراساني، وهم من جلّة الأدباء، وأهل هذه الصنعة، كما يقول ياقوت[6]، ومنهم أيضاً أبو القاسم بن عقيل الورّاق، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو إسحاق إبراهيم بن صالح، تلميذ الجوهري، حيث أنه أكمل عمل أستاذه - الجوهري - بعد أن مات، حينما وصل/ بالصحاح/ إلى باب الضاد المعجّمة، وبقيت بقية الكتاب مسودة غير منقحة ولا مبيّضة، وقد غلط فيه في عدة مواضع كما يقول ياقوت الحموي[7].

وضمن هذه المجموعة من الوراقين الأدباء يذكر الورّاق عبد الله بن محمد بن أبي الجوع، حيث أشارت المصادر إلى أنه كان إلى جانب علمه باللغة والنحو والبلاغة يشتغل بالوراقة، ويقول الشعر الجميل، وهو واحد من أصحاب المتنبي[8]، وبنفس الدرجة والقدر يأتي الوراق ابن كوجك علي بن الحسين بن علي العبسي[9].

وفي هذه الطبقة من الورّاقين، وفي صفوتها العليّة يرتسم شخص ابن النديم محمد بن إسحاق، صاحب كتاب «الفهرست» الشهير، والذي حاول الكثير من المؤرخين تجاهل اسمه لأنه كان شيعياً معتزلياً[10]، وبمنزلته وطبقته وغزارة علمه، يأتي الورّاق الشهير ياقوت

---

(1) تاريخ بغداد 2/ 6 و9، وحبيب زيات/ ص19.

(2) معجم الأدباء 18/ 125.

(3) المصدر السابق 15/ 77 - 78.

(4) المصدر السابق 15/ 5 - 52.

(5) المصدر السابق 6/ 282 - 283.

(6) نفسه 8/ 189، وحبيب زيات/ ص21.

(7) نفسه 6/ 157، وحبيب زيات/ ص22.

(8) السيوطي/ بغية الوعاة/ ص287، وراجع كذلك د. مصطفى الشكعة/أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين/ ص116، منشورات عالم الكتب، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983م.

(9) معجم الأدباء 13/ 157.

(10) معجم الأدباء 18/ 17.

الحموي، ذلك الورّاق الموسوعة الذي صنف لنا «معجم الأدباء» و«معجم البلدان» وكفاه ذلك فخراً وخلوداً[1].

هؤلاء هم الصفوة الأدبيّة الممتازة من الورّاقين الأدباء، الذين رفدوا ثقافتنا بما صنّفوه ونسخوه، وأفنوا عمرهم في الوراقة والتأليف.

وهناك صنف آخر من الورّاقين يعرف بـ «الورّاقين الدالالين» أي الوسطاء بين باعة الكتب وجمهور المشترين، تخصصوا بهذه المهنة لدافع اقتصادي أولاً، حيث كانوا يكسبون قوتهم منها، ومعرفتهم بأخبار الأدب والأدباء، وأخبار المصادر والدراية بها، ثانياً، أي أنهم أدباء بالأساس، ففيهم المؤلف والناقد والخطاط والمقوّم لأسعار الكتب، في ضوء أهميّة الكتاب وصاحبه ومنزلته[2]، يضاف إلى ذلك حسن اختيارهم للكتب التي يقعون عليها في (المناداة) واحتيازهم لها، لذلك تآلفوا مع مهنتهم وأحبوها، فهم وسطاء بين أوساط مثقّفة - الأدباء والجمهورالمتذوّق، لذلك كثيراً ما يستشارون في شراء نوعية الكتب واقتنائها، حتى عرف بعض منهم بتخصصه بجمع الطرائف، لأن عملية بيع الكتب بالنداء وهي الطريقة الشائعة في سوق الورّاقين تجعل المنادي أو الدلال مطلعاً عليها قبل غيره، لذلك يشتري ما يرده له، وبسعر مخفّض حتماً[3].

ومن هؤلاء، جامعوا الطرائف، عرف الطرسوسي الورّاق، وأحمد بن يوسف بن أبي الزهر الحلبي الملقّب بالطرائفي[4]، أما أشهر الدلالين فقد عرف دلال الكتب سعيد بن علي بن القاسم الأنصاري الحظيري، صاحب كتاب زينة الدهر وعصرة أهل العصر، والذي جعله ذيلاً على يتيمة الدهر للثعالبي، ومنهم أيضاً الدلال، عبد الرحمن بن موسى بن عمر الناسخ ابن المناديلي، وكان خيران الورّاق، أحد الدلالين المقوّمين للكتب، قيل لما مات ثعلب خلّف كتباً جليلة فأوصى إلى علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطربلّي فقال الزجاج للقاسم بن عبد الله (الوزير) هذه كتب جليلة فلا تفوتنّك، فأحضر خيران الورّاق فقوّم ما يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ثلثمائة، فأخذها القاسم[5].

---

(1) سنخصه بترجمة وافية في/ أعلام الورّاقين/ من عملنا هذا.

(2) سوف نورد تفصيلات أكثرعن هؤلاء في الباب القادم/ سوق الورّاقين، فصل: كيفية بيع وشراء الكتب.

(3) اضطرني العوز، وأنا بدمشق، لأن أبيع مجموعة من كتبي حوالي/ 600 كتاب ومجلة/ فجاء أحد هؤلاء الدلالين واشتراها مني بسعر بخس لا يتعدى الليرتين لكل كتاب.

(4) أحال حبيب زيّات هذا الاسم على «الدرر الكامنة» ولم أجده في باب/ أحمد بن يوسف طبعة حيدر آباد - ط1 - الجزء الأول. راجع/ الوراقة والورّاقون لحبيب الزيات/ ص37.

(5) معجم الأدباء 5/ 127 بترجمة/ أحمد بن يحيى - ثعلب.

لقد دفعت مهنة الوراقة الى التخصص في مجالاتها المتعددة، كما أشرنا من قبل، وصار هذا التخصص يدفع بالوراقين إلى التخصص بفن واحد، أوعلم واحد، وبتقديرنا أن هذا النزوع مؤداه الدافع المعرفي عند بعض الورّاقين، لأن ما في نفوسهم من ميل نحو الأدب أو الفلسفة أو الطب، أو علوم الشريعة، هو الذي يدفعهم إلى ذلك لسببين: الأول: زيادة التحصيل الثقافي، والثاني كسب العيش بالحدّ الأدنى، حتى لا يحدث تعارض بين حبّ المطالعة والمعاش، وهم بهذه النقلة المعرفية، أبانوا لنا الكثير من غوامض العلوم والفنون التي كانوا يورّقون فيها، لذلك برز صنف متميّز بينهم لازموا العلماء والوزراء، هو ما يطلق عليه (ورّاقو العلماء والوزراء) كانوا ينتمون إليهم وينسخون ما يملون عليهم من المؤلفات والمقالات، ويتولون تحصيل ما يريدونه وتجليد ما يحتاجون إليه من الكتب والأجزاء والكراريس، وقد عرف من هؤلاء الورّاق أحمد بن محمد بن أيوب والملقّب (أبو جعفر الورّاق) فقد ذكر الخطيب البغدادي أنه كان مورّق الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، وكان راوية لمغازي محمد بن إسحاق، وحمل الناس عنه ذلك[1]، فيما كان للجاحظ وراقان هما: عبد الوهاب بن عيسى[2]، وزكريا بن يحيى[3]، وكان للجهشياري مؤلف كتاب (الوزراء والكتاب) ورّاق يدعى أحمد بن أحمد بن آخي الشافعي[4] وكان للإمام البخاري - صاحب الصحيح - وراق هو محمد بن أبي حاتم[5] ولازم الورّاق النحوي ثابت بن أبي ثابت عبد العزيز أبو عبيد وورّق له[6]، وكان للمبرد ورّاقان اثنان كانا ينسخان له هما: ابن الزجاجي - إسماعيل بن أحمد، والساسي - إبراهيم بن محمد[7]، فيما كان دماد أبو غسان واسمه (رفيع بن سلمه بن مسلم بن رفيع العبدي) ورّاقاً لأبي عبيدة النحوي[8]، وكان أبو موسى سليمان بن محمد الحامض من ورّاقي ثعلب النحوي[9]، وكان علاّن الشعوبي ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة[10]، وذكر ابن

---

(1) تاريخ بغداد 4/ 393/ الترجمة رقم 2286.

(2) المصدر السابق 11/ 28 - 29.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 16/ 106.

(4) معجم الأدباء 2/ 137.

(5) تاريخ بغداد 2/ 7 بترجمة، البخاري.

(6) السيوطي - بغية الرعاة،ص210 باب الثاء.

(7) ابن النديم/ الفهرست/ ص89.

(8) الفهرست/ ص81.

(9) الفهرست/ ص117.

(10) الفهرست/ ص154.

النديم أن وكيعا القاضي يكتب لابي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب القاضي[1]، وأثبت ابن النديم جملة أسماء كانوا يورقون للكندي، ذلك الفيلسوف المشهور، منهم : حسنويه ونفطويه وسلمويه، وآخر على هذا الوزن، ولم يذكره بالاسم[2]، وكان لابن دريد - صاحب الجمهرة - ورّاقان هما : إسحاق بن الجنيد البزاز البصري الورّاق اللغوي، ويعرف بورّاق ابن دريد[3]، والآخر اسمه علي بن أحمد الدريدي، وهو الذي آلت إليه كتب ابن دريد بعد وفاته[4]، فيما كان الحسين بن عبد الله بن شاكر أبو علي السمرقندي الورّاق وأبو عبد الله الوراق المعروف بحوار يورّقان لداود بن علي خلف أبي سليمان الفقيه المعروف بالأصبهاني[5]، وورّق لحنين بن إسحاق المتطبب، الورّاق المعروف محمد بن الحسن بن دينار الأحول[6]، فيما كان الفرّاء يتخذ له اثنين من الورّاقين، هما : سلمه وأبو نصر، كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي[7].

وهناك صنف آخر من الورّاقين هم/الوراقون العلماء بالأخبار/كانوا قليلي العدد، تطرق ابن النديم إلى أشهرهم من أمثال الأسدي ابن الحسن (محمد بن عبد الله بن صالح، وأحمد بن سهل والجرمي أبو عبد الله أحمد بن محمد وغيرهم)[8].

وهناك صنف آخر هم : الورّاقون الكتبيون، أي الذين تخصصوا ببيع الكتب، إضافة إلى أن بعضهم يمارس عملية النسخ بيده، مع الاتجار ببيع الكتب، واشتهر من هذا الصنف كل من : جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى المعروف بالوطواط[9]، ومحمد بن أحمد الدمشقي وابن شمعون الكتبي الشاعر[10]، واشتهر بدمشق محمد بن شاكر الداراني الدمشقي[11]، وشمس الدين محمد بن قاضي اليمن[12]، وأبو إسحاق إبراهيم بن شمس

---

(1) الفهرست/ ص166. (2) المصدر نفسه/ ص365.

(3) القفطي/ أنباه الرواة على أنباه النحاة/ 1/ 220 الترجمة رقم 139، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1369هـ/ 1950م.

(4) معجم الأدباء 12/ 223.

(5) تاريخ بغداد 8/ 58 و8/ 375.

(6) معجم الأدباء 18/ 125.

(7) تاريخ بغداد 14/ 150.

(8) الفهرست/ ص120.

(9) معجم الأدباء 19/ 29 الترجمة رقم 6.

(10) حبيب زيّات/ ص25.

(11) ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - ص451 - الترجمة رقم 1218 - الطبعة الأولى - حيدر آباد 1349هـ.

(12) حبيب زيّات/ ص26.

الدين الفاشوشة[1]، وأحمد بن إبراهيم الكتبي الصالحي الحنفي[2].

واستطاعت مهنة الوراقة أن تغرى مختلف الأوساط العلمية والثقافية، وتدعوهم إلى ميدانها الرحب الواسع بالعلوم والثقافة، فإضافة إلى الأصناف الآنفة الذكر، كان هناك صنف الورّاقين القضاة، وهؤلاء كانوا من مختلف المذاهب الإسلامية، وشغفهم بعلوم الدين والفقه، وبقية الفنون الأدبية، إضافة إلى زيادة في كسب المعاش، هي الدوافع التي جعلتهم يعشقون ويمتهنون الوراقة، قبل تسنّمهم منصب القضاء، وبعض منهم ترك القضاء واختصّ بالوراقة، فيما كان البعض الآخر يمارس المهنتين في آن معاً.

عرف من هؤلاء الورّاقين القضاة، محمد بن أبي الليث الاصم، كان ورّاقاً وولِيّ القضاء بمصر للمعتصم سنة 226هـ[3]، وكذلك عرف القاضي الورّاق حمزة بن علي الغلبوني[4]، ومن القضاة السود «الزنوج» اشتهر بمصر القاضي الورّاق محي الدين عبد القادر النبراوي الحنبلي، كان أقدم الحنابلة بمصر وأعرفهم بصناعة التوريق والقضاء والفقه[5].

وهناك صنف مشهور من الورّاقين هم «الورّاقون الشعراء» وهذا الصنف أميل إلى هذه المهنة، واشتهر منهم، بكر بن خارجة الكوفي[6]، وعمر الورّاق وهو (عمر بن عبد الملك)[7]، ومحمود بن حسن الورّاق البغدادي[8]، ومساور الورّاق[9]، وسهم بن إبراهيم[10]،
والسرّى الرفّاء الموصلي[11]، وسعد بن علي الورّاق[12]، ويندرج في سياق الشعراء الورّاقين علي بن الحسن بن علي بن زكريا أبي القاسم، رغم أنه يعدّ أيضاً في طبقات علماء

---

(1) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 6/ 104، وفيات سنة 733هـ.
(2) المصدر السابق 6/ 337، وفيّات سنة 975هـ.
(3) الكندي/ الولاة والقضاة/ ص449 تحقيق رفن كست، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م.
(4) الكندي/ الولاة والقضاة/ ص608 - 609.
(5) شذرات الذهب 8/ 159، وحبيب زيّات/ ص27.
(6) الأغاني 23/ 189.
(7) الديارات للشابشتي/ ص109 طبعة كوركيس عواد، بغداد 1951.
(8) النويري: نهاية الأرب 3/ 88، وتاريخ بغداد 13/ 88.
(9) الأغاني 18/ 149.
(10) معجم الأدباء 11/ 267، الترجمة رقم 88.
(11) معجم الأدباء 1/ 182.
(12) معجم الأدباء 4/ 116، في ترجمة أحمد بن كليب النحوي.

الحديث وفق ما يصنّفه الخطيب البغدادي[1]، وهناك ورّاقون دمجوا بين مهنة الوراقة والشعر وبيع الكتب، كما هو معروف عند شمس الدين إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز الجزري، وعمر بن محمد بن سراج الدين الورّاق المصري[2].

وأشتهر صنف آخر من الورّاقين عرف باسم «ورّاقو الأسمار والخرافات»، وهذا الصنف، على ما يبدو، كان أعرف بذوق القرّاء، وأنفذ إلى دخيلتهم النفسية، من خلال كشفه لطُرفهم وذائقتهم الأدبية، فقد عرف هذا الصنف، نتيجة خبرته الطويلة في الوراقة، ما يقبل عليه جمهور الناس من القراء والمثقفين، وما يختارونه من كتب تشبع حاجاتهم الثقافية.

ويشير ابن النديم الورّاق إلى ميل الناس، في أيام العباسيين، إلى كتب الأسمار والخرافات، حيث كانت مرغوباً فيها ومشتهاة، وخصوصاً في أيام المقتدر[3]، وهذه الإشارة صادرة من ورّاق مؤرخ، ذو حسّ عال بجماليات الفكر والأدب، لذلك قال في ضوء هذه الإشارة أن الورّاقين صنّفوا وكذبوا، فكان فيهم ممّن يفتعل ذلك، وأشار إليهم بالاسم، وهم: أحمد بن محمد بن دلاّن، وآخر يعرف بابن العطّار وجماعته[4]، وأشار إلى أسماء بارزة على الصعيد الثقافي، كانت تعمل الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره، وهم: سهل بن هارون، وعلي بن داود، والعتابي، وأحمد بن أبي طاهر، وعبد الله بن المقفّع[5].

ونستشفّ من ملاحظات واستطرادات ابن النديم في «المقالة الثامنة - الفرع الأول»[6] أن أقبال الناس/ كتّاباً وقرّاء/ على هذه الكتب، شكّل ظاهرة واسعة في زمانه/ النصف الثاني من (ق 4هـ)/ [7] بحيث أن أدباء وعلماء ذلك العصر ساهموا فيها بشكل واسع وملحوظ، مشيراً إلى أن أصل هذه الكتب جاء من الفرس، ونقل إلى العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذّبوه ونسقوه، وصنفوا في معناه ما يشبهه، كما يقول ابن النديم[8]، أن هذه العبارة تعني أن التلاقح الثقافي بين الثقافتين العربية والفارسية، كان الدافع الإنساني

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 384، الترجمة رقم 6257.
(2) محمد بن شاكر الكتبي/ فوات الوفيّات 3/ 140، الترجمة رقم 379، وحبيب زيّات/ ص34 - 35.
(3) الفهرست/ ص428.
(4) المصدر السابق.
(5) نفسه، وحبيب زيّات/ ص39.
(6) راجع الفهرست/ ص422 - 428.
(7) ألّف ابن النديم كتابه «الفهرست» في سنة 377هـ.
(8) الفهرست/ ص422.

والنزوع الحضاري في هاتين الثقافتين هو الذي قام بهذا الفعل، نتيجة الاختلاط الواضح والصريح والاندماج بين مختلف الشعوب، التي اتخذت من الإسلام ديناً لحضارتها ومعتقداتها الروحية. كما أن العبارة تشير إلى أهميّة الخيال العربي وإبداعاته، في هذا الفن، ويشير ابن النديم إلى أن أوّل كتاب عمل في هذا المعنى/ كتاب هزارأفسان/ ومعناه ألف خرافة[*]، ثم يشير إلى أن أوّل من سمر الاسكندر، وأن أبا عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب «الوزراء والكتاب» قام بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر، من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر السامرين «الرواة» وأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنّفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه، وكان فاضلاً، فاجتمع له من ذلك أربعمائة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنيّة قبل استيفاء ما في نفسه من تتمة ألف سمر[1].

هذه الإشارة هامة جداً من الناحية التاريخية، حيث أنها تكشف عن البدايات الناضجة لتدوين الميثولوجيا العربية الإسلامية، من جهة، ومن جهة ثانية، تؤرخ إلى «بدايات الحكواتي» تلك الظاهرة التي تعيش بيننا حتى الآن، لا سيما في ليالي رمضان الجميلة في عالمنا الإسلامي، عامّة، والعربي خاصّة.

ويشير هذا الورّاق/ ابن النديم/ إلى الأدباء الأوائل والكتّاب الكبار الذين بدأوا بعمل تلك الأسمار والخرافات ويذكر أهم الكتب المؤلفة في ذلك مثل: كليلة ودمنة وسندباذ الحكيم[2]، ثم يبدأ ابن النديم بتقسيم أسماء الكتب وأسماء الشعوب التي ابتدعتها، فيبدأ بكتب الفرس التي كتبت في هذا المضمار، فيذكر: كتاب هزاردستان، وكتاب موسفاس وفينلوس، وكتاب ححد[3] حسرو، كتاب المربين، كتاب خرافة ونزهة، كتاب الدب والثعلب، كتاب روزبة اليتيم، كتاب مسك زنانة وشاه زنان، كتاب نمرود ملك بابل، كتاب خليل ودعد[4]، ثم يعرّج ابن النديم على ذكر الكتب والأسمار التي تناولت هذا الموضوع،

(*) نشير هنا إلى أهمية خصب الخيال للمثقف العربي وكيفية إبداعاته في هذا المجال، لا سيما وأنه أبدع لنا حكايات «ألف ليلة وليلة» منذ ذلك الوقت، وهي لا زالت حاضرة في وجداننا الثقافي والشعبي».

(1) الفهرست/ ص423.

(2) الفهرست/ ص423 - 424.

(3) هكذا وردت بالأصل عند ابن النديم/ ص424/ ولم أجدها في القاموس الفارسي/ باب الحاء/ للدكتور عبد النعيم محمد حسنين، منشورات دار الكتاب اللبناني ط1 - بيروت 1402هـ/ 1982م، وربما كانت «جحد».

(4) الفهرست/ ص424.

بالفارسية، ومن قام بنقلها إلى العربية فيذكر منها: كتاب رستم واسفنديار - ترجمة جبلة بن سالم، وكتاب بهرام شوس، ترجمه جبله نفسه، وكتاب شهريزاد مع ابرويزه وكتاب الكارنامج في سيرة أنوشروان، كتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم، كتاب دارا والصَنمْ الذهب، كتاب اثنين نامه، كتاب خداي نامه، كتاب بهرام ونرسي، كتاب أنوشروان. ولم يذكر أسماء مترجميها[1]، وربما كان جبلة هو من قام بذلك.

أما مؤلفات الهند في الخرافات والأسمار، فيذكر منها: كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع وغيره. ونقله إلى الشعرأبّان بن عبد الحميد بن لاحق الرقاشي وغيره[2]، ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات على جماعة منهم ابن المقفّع وسهل بن هارون، وسلم صاحب بيت الحكمة، والمريد الأسود، ومن كتبهم الأخرى كتاب سندباذ الكبير وسندباذ الصغير، وكتاب البدء، وكتاب بوماسف[3] وكتاب بوماسف[4] مفرد، وكتاب أدب الهند والصين، وكتاب هابل في الحكمة وغيره[5]، ثم يذكر كتب الروم في الاسماء والتواريخ مثل: كتاب تاريخ الروم، وكتاب سمسه ودمن، وهو على مثال كليلة ودمنة، كتاب أدب الروم، كتاب موريانوس في الادب، كتاب أنطوس السايح وملك الروم، كتاب محاورة الملك مع محمد عاربوس، كتاب ديسون وراجيل الملكين، كتاب سماس العالم في الامثال، كتاب العقل والجمال، كتاب خبر ملك لد، كتاب سطرينوس الملك وسبب تزويجه بساراد الفقصة[6]، أمّا كتب ملوك بابل، فيذكر منها: كتاب ملك بابل الصالح وإبليس كيف احتال له وأغواه، كتاب نيمرود ملك بابل، كتاب الملك الراكب القصبة، كتاب الشيخ والفتى، كتاب أرد شيرملك بابل واربوبه وزيره، كتاب لاهج بن أبان، كتاب الحكيم الناسك[7].

هذا الثبت الواسع، من أسماء الكتب، يعكس حالة الاقبال للقرّاء على تناول مختلف ثقافات الشعوب وحضاراتها المختلة والاطلاع عليها للزيادة في الخبرة والتثقيف، ويعكس بنفس الوقت، رواج مثل هذه الكتب في سوق الورّاقين، وإلا لما ذكر كله من قبل ابن النديم.

---

(1) الفهرست/ ص424.
(2) نفسه/ وهناك ذكر لبقية الأسماء التي نقلته إلى الشعر.
(3) هكذا وردت بالأصل (وربما كان هناك تكرار من قبل الوراق الذي نسخ «الفهرست»).
(4) هكذا وردت بالأصل (وربما كان هناك تكرار من قبل الوراق الذي نسخ «الفهرست»).
(5) الفهرست/ ص424.
(6) الفهرست/ ص425.
(7) نفسه.

ومن أسماء الكتب التي كانت مدار بحث وإقبال في سوق الورّاقين كتب العشاق، حيث اشتغل الورّاقون من هذا الصنف على جمعها وتوريقها والتأليف فيها، فقد عرفت روايات العشاق وكتب فيها كل من عيسى بن داب والشرقي بن القطامي وهشام الكلبي والهيثم بن عدي وغيرهم[1]. فراح الورّاقون يعيدون نشرها وبيعها، واختاروا منها الشائع أمثال حكايات: مرقس وأسماء، وكتاب عمر بن عجلان وهند، وكتاب عروة وعفراء، وجميل وبثينة، وكثير وعزّة، وقيس ولبنى، والمجنون وليلى، وتوبه وليلى، والصمّه بن عبد الله وريّا، وابن الطثرية وحوشية، وملهى وتعلق، ويزيد وحبّابة، وقابوس ومنية، وأسعد وليلى، ووضاح اليمن وأم البنين، وأميم بن عمران وهند، ومحمد بن الصلت وجنة الخلد، والعمر بن ضرار وجمل، وسعد وأسما، وعمر بن أبي ربيعة وجُماعة، والمستهل وهند، وباكر ولحظة، وملكية ونعم وابن الوزير، واحمد وداحة، والفتى الكوفي مولى مسلمة وصاحبته، وعمار وجمل وصواب، والمغمر بن مالك وقبول، وعمر بن زيد الطائي وليلى، وعلي بن إسحاق وسمنه، والأحوص وعبده، وبشر وهند، وكتاب عاشق الكف، وعاشق الصورة، وعبقرة وسحام، وإياس وصفوة، وابن مطعون ورتيلة وسعادة، وحرافة وعشرق، والمخزومي والهذليّة، وعمرو بن العنقفير ونهد بن زيد مناة، ومرّة وليلى، وذى الرمّة ومي. وغيرهم[2].

وأسماء هذه الكتب لا تزال معروفة عندنا حتى اليوم وهو أمر يوضح نزوع العربي إلى مثل هذه الأسمار وحكايا العشاق، وتناقلها من جيل إلى جيل.

ثم عرف الورّاقون من هذا الصنف ما يريده روّاد السوق من أخبارالحبائب المتطرفات فجمعوها ونسخوها وهي/كتاب ريحانة وقرنفل، ورقيّة وخديجة، ومؤيس وذكيا، والسكينة والرباب، والعطريفة والدلفاء، وهند وابنة النعمان، وعبده العاقلة وعبده الغدارة، ولؤلؤة وشاطرة، ونجدة وزعوم، وسلمى وسعاد، وصواب ومرور، والدهما ونعمة[3].

ثم تناول الورّاقون الكتب التي ذكرت أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر ونسخوها وباعوها[4]، ثم توقفوا عند الكتب التي ذكرت أسماء العشّاق من الأنس والجن، وذكروا منها: كتاب دعد والرباب، ورفاعة العبسي وسكر، وسعسع وقمع، وناعم بن دارم ورحيمة وشيطان الطاق، والاغلب والدباب، والضرغام وحودروفس، وعمرو ودقيانوس،

(1) الفهرست/ ص425.
(2) نفسه/ ص426.
(3) الفهرست/ ص427.
(4) راجعها في الفهرست/ص427 - 428.

والشمّاخ ودمع، والخزرجي المحتال وأسما، وحضر بن النبهان والجنيّة، والدلفاء وأختها والجنيّ، ودعد الفزارية والجني وعمر، وعمر بن سفيان السلمي والجنية، وعمرو بن المكشوح والجنية، وربيعة بن قدام والجنية، وسعد بن عمير والنوار[1]، وكانت هذه الكتب رائجة ومطلوبة دائماً.

ومن خلال هذه المؤلفات، وما أقدم عليه الورّاقون من إبداع خيالي، خرافة كان أم حقيقة، فإن الناس - وقتذاك - كانوا على دراية وإدراك عقلي كبير، حيث أنهم كانوا يميزون بين الحقيقة والأساطير، ويعزون ذلك - إذا كان أسطورياً - إلى مبالغات الورّاقين، فقد ضربت الأمثال بهم قديماً، فقد كانوا يدسّون ما لا يصدق من الأخبار والنوادر، كما أنهم اتهموا بدّس بعض الأخبار في الكتب المنسوبة لأهل العلم، ومحاكاة رواياتهم فيها، ومن الكتب التاريخية الأدبية من هذا القبيل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، حيث نسب لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، فقد قال حمّاد بن إسحاق الموصلي، أن هذا الكتاب قد وضعه ورّاق لأبيه بعد وفاته، وعلّق أبو الفرج بقوله: أخبرني جحظة أنه يعرف الورّاق الذي وضعه، وكان يسمّي «سندى بن علي» وحانوته في طاق الزبل وكان يورّق لاسحاق، فاتفق هو وشريك على وضعه[2].

على أية حال، إن أي ظاهرة سائدة، لا بد وأن تؤثر في محيطها، فالورّاقون جزء من ظاهرة الكتّاب في العصر العباسي، أثرت وتأثّرت بالاجواء السائدة، سياسية كانت أو مذهبية، فلا غرو أن يتهم بعض الورّاقين بالدسّ، إذ كانت حالة الاحتراب متأججة، وتبقى مسألة الصدق والكذب نسبيّة في هذا المقام، والله أعلم - كما يقول القدماء.

بهذ ا الاستطراد، نكون قد سلّطنا الرؤية والضوء على كل أصناف الورّاقين، ما خلا الخطاطين منهم، حيث سيكون الباب القادم مفرداً لهم، آملين بهذا الرصد الاحاطة بكل الظاهرة المسماة «الوراقة والورّاقون» في العصر العباسي.

---

(1) الفهرست/ ص428.

(2) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 6/ 57 - 58 بترجمة إسحاق الموصلي، وحبيب زيّات/ ص41.

الباب السادس

سوق الورّاقين

الفصل الأول

معنى السوق وأهمّيته:

تقول العرب للموضع الذي تتمّ فيه البياعات إسم السوق، حيث يتم التعامل فيها، والاصطلاح يذكّر ويؤنّث[1]، وجمعه أسواق، ويقال: تسوّق القوم، إذا باعوا واشتروا[2]، والنسبة له (السوقي) ولم يثبتها ابن الاثير أوالسمعاني[3].

ومن هذه التعريفات اللغوية للسوق، يمكن استكشاف الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهو أمر يخضع للتطوّر الإجتماعي لحياة الناس من جهة، ولحياة السوق ذاته، تبعاً للتطور الأول، من جهة ثانية.

والدلالة التاريخية للمدلول الاصطلاحي، تشير إلى أن السوق يخضع بوجوده إلى سمة معيّنة للقوم الذين أنشأوه، من الناحية الجغرافية - بالنسبة للمكان - ومن الناحية الثقافية - بالنسبة للعمران، ويمكن قياس مدى حالة التطور لمجتمع معيّن من خلال تطوّر حالة السوق، بمرحلة معيّنة، فالنشاط الاقتصادي، يعكس حالة المجتمع، سلباً أو إيجاباً، ضمن شروط اسلوب الإنتاج ومرحلته التاريخية، ومن الناحية الحضارية، فإن الوعي الثقافي، لشعب معيّن، ينعكس على حالة السوق من ناحية العمران، حيث أن تصميم وبناء السوق، يخضع لطقس المكان وأجوائه، فالصحراء والبوادي، تشكّل الخيام، مادتها

---

(1) اللسان: مادة (سوق).

(2) اللسان: نفس المادة السابقة.

(3) ابن الاثير: اللباب في تهذيب الأنساب/ ص573/ باب السين والواو، طبعة القدسي - القاهرة 357هـ. والسمعاني/الأنساب 7/ 179، باب السين والواو - وقد أشار إلى «السرّاق» وهو الذي يبيع السويقه».

الأساسية وهيكلها العام، فقد كانت أسواق العرب في الجاهلية، تلتزم بهذا النمط من أمثال سوق عكاظ، وغيره، فيما كان التطور العمراني في المدن يخضع لأبعاد أخرى أكثر تطوراً، تبعاً لتطور الحالة الاقتصادية والاجتماعية والبيئيّة بنفس الوقت، وهذه الشروط خضعت لها الأسواق الإسلامية، في مسار تطورّها التاريخي، والذي يرافق تطور الحضارة الإسلامية، حقبة بعد أخرى، حتى وصلت إلى العصر العباسي، لتخرج بحلّة أكثر بهاء، وأجود صورة، وأمسك تراصاً، وأثبت في الذهن، مسوّرة بإطار إسلامي، موشّى بزخرفة فنيّة، مستقاة من ذات الفكر الذي أنجب هذه الحضارة.

وبغداد، كعاصمة للدولة العباسية، روعي في بناء أسواقها تناسب الأبعاد الجمالية مع الهيكل العام لبناء المدينة، والذي سلك العراقيون فيه مسلكاً حضارياً وفنيّاً، حيث أن قصة بنائها يعدّ آية في الفن الإسلامي، سجلّها المسلمون في العراق بأيديهم، فقد تجاوزت بفن عمارتها كل من البصرة والكوفة وواسط، وكلنا يعرف كيف طلب المنصور من المهندسين أن يرسموا له المدينة على الأرض، حتى يعرف شكلها، فخططت له بالرماد، ووضعت فوق تلك الخطوط كرات من القطن، ثم صبّ عليها النفط واشتعلت فيها النيران، وعرف المنصور رسمها وأمر بحفر أسسها[1]، وأنشئت على شكل مدوّر، وظلّت كذلك حتى وفاة الرشيد سنة 193هـ، وقد كان لحرب الأمين والمأمون أثر في بنيانها وأسوارها[2].

وأسواق بغداد ذات أبعاد إسلامية من الناحيتين الفنيّة والمعمارية، وقد بنيت، في باديء أمرها داخل أسوار بغداد، إلاّ أن المنصور أمر بإخراج الأسواق من داخلها، بناء على إنتقاد موفد الروم لبناء المدينة والأسواق في داخلها[3]، وبوشر ببناء الأسواق في الكرخ سنة 157هـ من مال المنصور وعلى يد مولاه الربيع[4]، كما أن المنصور انتبه إلى السكك والشوارع، حيث جعل وسع الطريق أربعين ذراعاً وهدم ما شخص من الدور عن ذلك المقدار[5].

وضمن الرؤية الجديدة للمنصور في بناء الأسواق، بعد أن أخرجها، من داخل مدينة

---

(1) أكتب هذه السطور، والأنباء تتوارد بقصف بغداد وتدميرها من قبل القوات الامريكية الغازية وحلفاءها الغربيين، ليمحوا آثارها الحضارية والثقافية والتاريخية، وهذا محال، فقد سبقهم هولاكو إلى ذلك دون أن يفلح بهذا الأمر.

(2) راجع الباب الأول من هذه الدراسة.

(3) تاريخ بغداد 1/ 78 - 80.

(4) المصدر السابق 1/ 79.

(5) نفس المصدر 1/ 80.

السلام، ارتأى مراعاة الأبعاد الهندسية في أساسات الأسواق، وأن تلحق بالأرباض[1]، ووقّع إلى كل أصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من أصحابه، وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربض، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت، ليكون في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة، ما يعتدل بها المنازل، وأن يسمّوا كل درب باسم القائم النازل فيه، أو الرجل النبيه الذي ينزل أهل البلد الذين يسكنونه، وحدّ لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء[2] والدروب ستة عشر ذراعاً، وأن يبنوا في جميع الأرباض والأسواق والدروب من المساجد والحمامات، ما يكتفي بها من في كل ناحية ومحلّة[3].

هذه الأبعاد الهندسية، تكشف بين ثناياها العمق الحضاري وأبعاده، لرجل دولة مثل المنصور، وما يريده لمدينته، والحقيقة، أن نقل الأسواق إلى خارج أسوار المدينة، بهذه الطريقة، هي خطوة حضارية أولى، تقود للتوسّع العمراني، وهو ما كان فعلاً حيث توسّعت المدينة بعد ذلك، وشمل توسّعها الجانب الشرقي من دجلة (الرصافة) حيث بنيت مدينة الرصافة إلى المهدي بن المنصور سنة 159هـ[4].

الفصل الثاني

موقع سوق الوراقين

في بغداد سوقان للوراقة: الأول كان في الجانب الغربي منها - الكرخ - وهو الجانب الذي رافق إنشاء بغداد وأول رواية ذكرت ذلك الموقع والمكان، كانت رواية اليعقوبي، فقد ذكر النص التالي في معرض حديثه عن أرباض بغداد - الجانب الغربي - الكرخ، يقول: «ثم ربض وضّاح مولى أمير المؤمنين، صاحب خزانة السلاح للمنصور، وأسواق هناك، وأكثر من فيه، في هذا الوقت (ق 3هـ) الورّاقون، أصحاب الكتب، فإن به أكثر من مئة حانوت للورّاقين»[5].

---

(1) الأرباض = الساحات التي تقام ما حول المدينة، راجع مادة/ ربض/ في اللسان والقاموس.

(2) السوداء = وحدة قياس، على ما يبدو، كانت مستعملة وقتذاك.

(3) اليعقوبي = كتاب البلدان/ ص242، طبعة ليدن 1891م.

(4) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 1/ 82.

(5) اليعقوبي: البلدان/ ص245.

وقد بنيت أسواق الكرخ سنة 156هـ[1]، ووصف اليعقوبي لها في (ق 3هـ)، أمر له دلالته التاريخية، من ناحية السبق والعمران، وقد أشارت أغلبية المراجع إلى هذا الموقع، اعتماداً على هذه الإشارة من اليعقوبي، فقد ذكر ليسترانج العبارة التالية: «وكان بين الطاق الحرّاني والقنطرة الجديدة، على نهر الصراة الورّاقون، أصحاب الكتب، وكانت سوقهم في هذه المحلة، وعلى القنطرة نفسها، ودعيت هذه السوق بسوق الورّاقين نسبة إليهم، وكان فيها أكثر من مئة حانوت للورّاقين»[2]، ووافق ليسترانج بهذا التحديد كل من مصطفى جواد وأحمد سوسة[3]، وفهمي عبد الرزاق سعد[4]، وصباح الشيخلي[5] وصالح أحمد العلي[6] وكوركيس عوّاد ودائرة المعارف الإسلامية[7].

ونحن مع هذا الجمع أميل، ونستند في ذلك إلى أسماء المواضع والأماكن الواردة في أكثر من مصدر تاريخي، فبالإضافة إلى (البلدان) لليعقوبي، هناك إشارة هامة يوردها الصولي بصدد حريق عظيم شبّ في الكرخ، يقول: «ووقع في هذا الشهر ذي القعدة سنة 333هـ، حريق عظيم من حدّ طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال وذهبت النيران بأمتعة البزازين وأموال خطيرة»[8]، كما أن ياقوت الحموي يشير إلى طاق الحرّاني، على أنها محلّة ببغداد بالجانب الغربي - الكرخ - يقول عنها: أنها تمتد من حدّ القنطرة الجديدة وشارع طاق الحرّاني إلى شارع باب الكرخ، منسوب إلى قرية تعرف بورثال، والحرّاني، هذا هو إبراهيم بن ذكوان بن الفضل الحرّاني من موالي المنصور»[9].

وعلى هذا الأساس من المعطيات أن سوق الورّاقين في الكرخ هو الأقدم والأعرف وإليه أشارت أهمّ المصادر التي شهدت بناء بغداد حتى بدايات (ق 4هـ)، وأعتقد أن ابن

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 1/ 80، معجم البلدان 4/ 448 مادة (كرخ).
(2) غي ليسترانج: بغداد في عهود الخلافة العباسية/ ص88، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، ط1، بغداد 1355هـ/ 1936م.
(3) دليل خارطة بغداد/ ص86، مطبوعات المجمع العلمي العراقي 1378هـ/ 1958م.
(4) العامّة في بغداد في القرنين 3 و4 هـ/ ص158.
(5) الأصناف في العصر العباسي/ ص75.
(6) في تعليقاته على الفصل الثالث من كتاب «اليسنر» خطط بغداد في العصر العباسي ص158، الهامش رقم8.
(7) خزائن الكتب القديمة في العراق/ ص24 ودائرة المعارف الإسلامية 12/ 384 - مادة (السوق).
(8) الصولي/ أخبار الراضي والمتقي (الأوراق) ص261 بعناية ج هيورث، مطبعة الصاوي بمصر.
(9) معجم البلدان 4/ 5 - 6 مادة (طاق الحرّاني).

النديم في معرض حديثه عن الجاحظ بأنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر[1] كان يشير إلى هذا السوق، باعتبار أن الجاحظ من أعلام القرن الثالث الهجري، فيما كان ابن النديم من أعلام القرن الرابع، حيث أنه توفيّ سنة 385هـ.

أما سوق الورّاقين الثاني فقد كان في الجانب الشرقي من بغداد، أي في الرصافة وهو الأشهر والأعرف والأبقى[2]، وقد ورد كثيراً في كتابات أبي حيان التوحيدي، لا سيما - الإمتاع والمؤانسة، والمقابسات، كما أن إبن الجوزي المتوفي سنة 597هـ لم يشر إلى سوق الوراقين في الكرخ، بل ذكر هذا السوق، محدداً موقعه على الشكل التالي: «وسوق الصاغة لم يشاهد أحسن بناء منه، بناء شاهق وأساطين ساج، عليها غرف مشرفة، ثم الورّاقين سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء»[3]، وقد جاء ذكر السوق في محلة «باب الطاق» وهذه المحلة تقع في الرصافة، كما أشار ياقوت الحموي[4]، ونسبها إلى أسماء بنت المنصور، وقال: «وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء في أيام الرشيد»[5]، وهذه العبارة، هي التي ضمّنها ابن الجوزي في «مناقب بغداد» وهي التي أشار إليها ياقوت الحموي تحت اسم/ طاق أسماء وطاق الحراني/، وقد كان صاحب هذه العبارة هو أبو الوفاء بن عقيل[6]، وعنه أخذت بقية المصادر المشار إليها أعلاه. ولهذا الموقع/ أقصد سوق الورّاقين في الرصافة/ يشير ياقوت الحموي بروايته عن حادثة الصوفي رسول الزهراء، يقول: «قال ابن عبد الرحيم: حدّثني الخالع قال: كنت مع والدي في سنة ست وأربعين وثلاثمائة وأنا صبي في مجلس الكبّوذي، في المسجد الذي بين الورّاقين والصاغة، وهو غاص بالناس»[7] وهذه الإشارة تؤكد المكان المحدّد الذي ذكره ابن الجوزي في «المناقب» أعلاه، ومن المعاصرين الذين أشاروا إلى هذا السوق حبيب زيات، رغم أنه لم يحدد موقعه وخلط بينه وبين سوق الورّاقين في الكرخ[8]. وإلى هذا السوق

---

(1) الفهرست/ ص169 في ترجمة «الفتح بن خاقان».

(2) لا زال موقع هذا السوق قائماً، وهو ما يعرف اليوم بـ«سوق السراي» على كتف نهر دجلة، وعند رأس جسر الشهداء من ناحية الرصافة ببغداد.

(3) مناقب بغداد/ ص26.

(4) معجم البلدان 1/ 308 - مادة (باب الطاق).

(5) المصدر السابق 4/ 5 - مادة (طاق أسماء).

(6) راجع: ابن الجوزي، مناقب بغداد/ ص25، ود. جورج مقدسي/ خطط بغداد/ ص21، وتعليقات د. أحمد صالح العلي على كتاب جورج مقدسي/ ص30، هامش رقم 35، وليسترانج بغداد في عهود الخلافة العباسية/ ص218.

(7) معجم الأدباء 13/ 292.

(8) الوراقة والورّاقون في الإسلام/ ص45.

أيضاً أشار الوهراني في مناماته[1].

وبناء على ما تقدم، فإن سوق الورّاقين الواقع في الرصافة هو السوق الذي دارت حوله روايات وأخبار المتأخرين كإبن الجوزي وياقوت وغيرهما، ورغم أننا نميل بدراستنا هذه عن سوق الوراقين في هذا الموقع، إلا أن بعض الحوادث التي سنشير إليها ربما كانت في سوق الورّاقين بالكرخ لا سيما إذا كانت في القرنين الثاني والثالث الهجريين، لأن المصادر القديمة لم تحدد ذلك بالدقة والتفصيل.

مما تقدّم من استعراض لمواقع هاتين السوقين للوراقة، واختفاء أو تضاؤل سوق ورّاقي الكرخ وانتقال نشاطه وحيويته إلى الجانب الشرقي - الرصافة - حيث نما وازدهر نشاطه، وعرف هناك واشتهر اسمه وذاع صيته، وهذه الحالة، بتقديرنا، خضعت لعدة أمور سياسية واقتصادية واجتماعية، في مسار تطورها التاريخي منها:

أن تسارع المدينة «بغداد» وتطورها الحضاري والسكاني، أملى على الساسة العباسيين أن يوسعوا من رقعتها الجغرافية فخطّت الرصافة لتكون مدينة المهدي بن المنصور سنة 151هـ وانتهى بناؤها سنة 159هـ[2].

لعبت المذاهب والفرق الإسلامية، دوراً هاماً في توسيع المدينة من جهة، ومن جهة ثانية أدت الأحداث السياسية في مسار حياة هذه الفرق، إلى تشاحنات وتطاحنات طويلة، ومؤذية، بين فرق الشيعة والحنابلة، لا سيما في الكرخ، وانعكس هذا الواقع على أسواقها، فقد أحرقت مراراً وتكراراً، والمعروف أن الكرخ موئل الشيعة كما تذكر المصادر[3]، كما أن المخرّم - منطقة بالرصافة - كانت تلقّب بكنانة السنة، كما يقول أحمد بن حنبل[4]، الأمر الذي يعني أنه أصبحت هناك، في بغداد، تجمعات جغرافية سياسية على أساس المذاهب والفرق، وهو أمر خطير، ظل أهل العراق يعانون منه حتى أوقات متأخرة من سبعينات القرن العشرين.

أثّرت الحرائق المتكررة لأسواق الكرخ في بنية ونشاط سوق الورّاقين في الكرخ، حيث أن الورّاقين هم الأكثر تضرراً من البقية، نظراً تعاملهم مع مواد سريعة الاشتعال كالورق والجلود، وما يلحق بها، فقد شهد الكرخ حرائق متعددة في أسواقه، كان أبرزها

---

(1) راجع/ منامات الوهراني/ ص1، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نعش، منشورات دار الكاتب العربي، القاهرة 1387هـ/ 1968م.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 1/ 82، وليسنر: خطط بغداد/ ص260.

(3) تاريخ بغداد 1/ 81 ومعجم البلدان 4/ 448 - مادة الكرخ.

(4) تاريخ بغداد 9/ 375 - 376 وليسنر - خطط بغداد/ ص96.

حريق سنة 307هـ حيث التهم من الدور والناس، وفي سنة 323هـ وقع حريق عظيم آخر شمل أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب المدهون والخرّازين والجوهريين، ثم جاء الحريق الأخطر الذي شبّ في الكرخ سنة 332هـ، حيث كان عظيماً، فأحرق الأسواق من حَدّ طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاف الكاغد والنعال، وذهبت النيران بأمتعة البزازين وأموال خطرة، ونهب الخرابون والعيّارون ما سلم من الحريق[1].

وكانت بعض الوقائع الشخصية لبعض القادة والجنود، هي الأخرى تؤدي إلى إحراق الأسواق، فقد اتهم ابن عائشة وأصحابه الذين عارضوا المأمون في بغداد بإحراق أسواق العطارين والصرّافين والغرّائين وأصحاب الراه «البيوع الصغيرة»، وفي سنة 326هـ وعلى أثر جدال بين بقال وبعض جند ابن رائق أحرقت حوانيت كثيرة في سوق الثلاثاء، وفي سنة 362هـ قتل أحد رجال صاحب المعونة، بالكرخ،مما دفع بالوزير إلى تجريد حملة تأديبية ضد أهل السوق وطرح الناس، من النحاسين إلى السماكين، فاحترقت بذلك أموال عظيمة وقتلت جماعة من الناس في الدّور والحمّامات، وفي سنة 364هـ أوقع العيارون حريقاً في سوق الخشابين من باب الشعير، الكرخ، وامتد إلى الجزارين وأصحاب الحصر وصف البواري[2].

كما أن زحمة الأسواق في الكرخ وزيادة عدد السكان كان لهما الدور في إنتقال بعض الناس إلى الجانب الشرقي - الرصافة[3].

وقد يكون للجانب الأمني دوراً في عملية توسّع المدينة، حيث كان العباسيون يوزعون الاقطاعات على رجالاتهم المقربين، ويقطعونهم في الجانب الشرقي، ويمدّون بينهم وبين بيوتهم الجسور، كما فعل مع خزيمة بن خازم، صاحب الشرطة، حيث أن بيته بقرب جسر الرصافة، على الشط، ليصل إلى الكرخ.

وثمة أمر آخر، كان له التأثير الواضح في نقل سوق الورّاقين من الكرخ إلى الرصافة، هو الحروب التي تعاقبت على بغداد، وكان الكرخ مسرحاً رئيساً لأحداثها، أيام الأمين والمأمون، وما تلا ذلك من أحداث، أي يمكن القول، أن تعاقب مثل هذه الأحداث،

(1) الصولي/ أخبار الراضي والمتقي/ ص261، وابن الأثير/ الكامل في التاريخ 8/ 121، وفهمي عبد الرزاق/ العامّة في بغداد/ ص172.

(2) الصولي/ أخبار الراضي والمتقي/ ص104، والمنتظم لابن الجوزي 7/ 60 - 75. وقد ذكر أن ما احترق كان سبعة عشر ألفاً وثلثمائة دكان، وثلاثمائة وعشرين داراً وثلاثة وثلاثون مسجداً، أيام معز الدولة بن بويه.

(3) ابن حوقل/ صورة الأرض 1/ 240 - 242، واليعقوبي/ البلدان/ ص254.

أخلّ بحالة الاستقرار السياسي والاقتصادي على حدّ سواء في الجانب الغربي - الكرخ - فيما كان الجانب الشرقي - الرصافة - آخذاً بالتطور والازدهار، فقد عرفت باب الطاق، وسوق الثلاثا، وسوق يحيى، بالازدهار الاقتصادي والتجاري، حتى أن هذه المناطق أخذت تمرّ بها المواكب الرسمية في الأعياد والمناسبات الدينية والسياسية[1]، وشكّل هذا المكان، آصرة حضارية وثقافية، حيث شيّد سوق الوراقين هناك وأصبح محطّ أنظار العلماء والأدباء والوافدين على بغداد، لا سيما في بداية القرن الرابع الهجري، لأن أحداث هذا القرن، كانت وبالاً على الكرخ، لا سيّما الحرائق.

تلك هي بعض الاستنتاجات التي أمكن التوصّل إليها حول تحديد موقع سوق الوراقين في بغداد، وفي ضوء مطالعاتنا، نأمل أن نصل إلى أمور أعمق في تحديدها في مسار بحثنا هذا.

الفصل الثالث

روّاد سوق الوراقين

أشرنا في الفصول السابقة إلى التطورات الثقافية والحضارية والعمرانية، وتوقفنا عند سوق الورّاقين وبقية الأسواق في بغداد، ولا يخفى على المتتبع معنا، حالة التطوّر الاقتصادي التي مرّت بها العصور العباسية، ولا سيّما في (ق 3هـ)، حيث نشطت الزراعة والتجارة، وامتدّ نفوذ العباسيين التجاري إلى المغرب الأقصى والأندلس، وشرق أفريقية من جهة، وإلى روسيا وحوض البلطيق من جهة ثانية، وإلى الهند والصين وكوريا من جهة ثالثة[2].

إنَّ هذه التطوّرات الاقتصادية، نتيجة منطقية لتطوّر الحالة السياسية للسلطة العباسية والمجتمع العباسي برمّته، وهو أمر يعكس ظلاله على وعي الناس، وتصبح مسألة التضايف الثقافي، بين مختلف الثقافات الإنسانية أمراً مفروغاً منه.

وبغداد كعاصمة للدولة الاسلامية في العصر العباسي، فمن المنطقي أن تكون الحركة

---

(1) راجع الفصل الخاص بسوق الثلاثاء وباب الطاق عند ليسنر/ خطط بغداد، ص 291 - 295.

(2) د. عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي/ص69 - 70، منشورات دار الطليعة، بيروت ط2، 1978م.

العلمية والثقافية فيها مزدهرة وعلى أشدّها، وقد أوضحنا ذلك، بشكل موسّع في الباب الثاني من هذه الدراسة.

إذن ترتسم أمامنا حالة ثقافية واسعة الأطراف، وبعيدة المرامي، تبرعمت وأثمرت مع تاريخ بغداد السياسي والحضاري في أيام العباسيين، وأوجدت تعبيرات هذه الحالة في أكثر من مكان، ومحل، لا سيما في قصورالخلفاء والوزراء والأمراء، والمجالس العلمية الأخرى، ولكن أوضح نشاط لها كان سوق الورّاقين، ذلك السوق الذي يشير إلى أنه قد فاق في تأثيره الثقافي جميع الأسواق[1]، حيث أن بضاعة هذا السوق نامية باطراد، وزبائنه صفوة المجتمع المتحضّر والمثقّف من العلماء والأدباء والشعراء، وباعة هذه البضاعة هم الورّاقون، أصحاب القدح المعلى في الثقافة العربية - الإسلامية، أولئك الذين مازجوا بين رغباتهم النفسية والعقلية وبين مصدر قوتهم، لبعد معرفي واضح، فليس اعتباطاً أن يصف ابن عقيل هذا السوق بأنه «سوق كبيرة، وهي مجالس العلماء والشعراء»[2].

وإذا انطلقنا من هذه العبارة، فإن الأفق يمتد أمامنا رحباً، فيندرج في دلالة المضمون، الفلاسفة والمتكلمون، والعلماء والمحدثون، وأصحاب الكلام والصوفيون، والزنادقة والمتشددون، والقضاة ورجال السياسة، والأدباء والنقّاد، والشعراء والظرّاف، وغيرهم، وهذه التلوينات الأدبية والثقافية، يمكن للمرء أن يشاهدها يومياً في السوق، وهي تقف عند دكاكين الورّاقين أو في إحدى حلقات المنادي[3] في قلب السوق وهو يعرض بضاعته للبيع.

وبغية معرفة بعض هؤلاء الروّاد، سنحاول ذكر بعض من كان دائم التردد على هذا السوق، وفي هذا الصدد يشمخ الجاحظ أمامنا بكل قوة وجبروت، فهو قد أودع سرّه في الكتب، وفيها كان موته، وبين الورّاقين كانت شهرته وسطوته، حتى قال عنه ابن النديم وياقوت الحموي «أنه كان يكترى أسواق الورّاقين ويبيت فيها للنظر»[4]، وهذا العملاق كان واحداً من أركان الثقافة العربية الإسلامية، ماضياً وحاضراً، وقد تناقلت أخباره المصادر، وحكت عنه كتب الفقه وعلوم الدين، وحسده الأوائل والأواخر، حتى أن ثابت بن قرّة قال: ما أحسد هذه الأمة إلاّ على ثلاثة أنفس: أولهم: عمر بن الخطاب، والثاني:

(1) راجع بعض الاستطرادات في هذا المجال عند بدري محمد فهد في/ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري/ ص78/ بغداد 1967م.

(2) ابن الجوزي/ مناقب بغداد/ ص26.

(3) في الفصل القادم، سوف نتطرق إلى ذلك بالتفصيل.

(4) الفهرست/ ص169، ومعجم الأدباء 16/ 75.

الحسن البصري، والثالث: أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدره[1] المتقدمين والمتأخرين، أن تكلم حكى سحبان البلاغة، وإن ناظر، ضارع النظّام في الجدال، وإن جدّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مزبّد حبيب القلوب، ومراح الأرواح، شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع، إلاّ رشاه آنفاً، ولا تعرض له متعرّض إلا قدم له التواضع استبقاء، الخلفاء تعرفه والأمراء تصفه وتنادمة، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلم له، والعامة تحبّه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشت حكمته، ووطىء الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب»[2].

ومن رواد هذا السوق في (ق 3هـ) عليّ بن يحيى المنجّم، صاحب الخزانة العظيمة التي بناها في ضيعته وسمّاها خزانة الحكمة[3].

ومن الروّاد المشاهير إبن سهل النوبختي، صاحب خزانة المأمون، وواحد من أعلام الشيعة وأعيانهم، كان يترصّد في سوق الورّاقين حركة أبي الفرج الأصبهاني، صاحب «الأغاني» حتى قال عنه: إنه أكذب الناس، لأنه كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها[4].

ومن الروّاد المشهورين أبو الفرج الأصبهاني، كان هذا الرجل شبه مقيم في سوق الورّاقين وله نوادر وحكايا في السوق[5].

ومن العلماء الذين يمكن اعتبارهم روّاداً لسوق الورّاقين، تلك الطائفة الكبير التي أوردها ابن النديم في «الفهرست» لا سيّما وأنه كان يلتقي بهم في ذات السوق، نظراً لكونه ورّاقاً معروفاً، من أمثال: واصل بن عطاء، وابي الهذيل العلاف، وابراهيم بن سيّار النظّام، وثمامة بن أشرس، وابن أبي داود، وابن الراوندي، والناشيء وأبي علي الجبائي، وعلي بن

---

(1) امتدر المدر: أخذه، ومدر المكان = طانه، راجع الفيروزآبادي - القاموس - مادة (مدر).

(2) التوحيدي/ المقابسات/ ص52 - 56، تحقيق حسن السندوبي، ط1، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، 1347هـ/ 1929م.

(3) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 15/ 144 - 175.

(4) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد 11/ 399، ترجمة أبي الفرج رقم 6278/ .

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 13/ 94 - 136، الترجمة رقم 17.

عيسى الرمّاني، وهشام بن الحكم، وشيطان الطاق، وأبي حنيفة النعمان - الإمام - والاطباء والشعراء والعلماء وغيرهم[1].

وبعد ابن النديم، يبرز الورّاق الواسع الذكر والذائع الصيت، أبو حيّان التوحيدي، وهو واحد من أعلام القرن الرابع الهجري، ليحدثنا عن طائفة كبيرة كان يلتقي بهم، ويحاورهم في سوق الورّاقين، وقد حفل كتابه «المقابسات» بالكثير من أحاديثم[2]، وكان أبرز هؤلاء العلماء، ممّن ذكرهم التوحيدي، وكان لهم الدور الأبرز في نهضة الثقافة العربية الإسلامية في (ق 4هـ) وهم: أبو سليمان السجستاني (محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي) المتوفي سنة 357هـ/ 985م، كان هذا الرجل رأس مناطقة بغداد، عالم في الحكمة والفلسفة والمنطق، وكان مجلسه عامراً فخماً مليئاً بمختلف النشاطات الثقافية، وكان أبو حيان يسمّي هذا المجلس «مجلس الأنس»، تتلمذ على يد شيخه يحيى بن عدي وابي بشر بن متّي بن يونس القنائي، وكان السجستاني عارفاً بدقة بالفلسفة القديمة، وكتابه «صوان الحكمة» معروف ومشهور[3].

* يحيى بن عدي: المتوفي سنة 364هـ/ 975م، واحد من مشاهير الفلسفة الأخلاقيين، إنتهت إليه رئاسة المناطقة في بغداد، قرأ على الفارابي وأبي بشرمتي بن يونس القنائي، نقل إلى العربية عدداً من الكتب اليونانية عن السريانية، له مؤلفات كثيرة أشهرها «تهذيب الأخلاق»[4].

* أبو الفتح النوشجاني، أبو العبّاس البخاري، أبو الخير اليهودي، ابن الخمّار، أبو بكر الصميري[5].

* ومن المناطقة الروّاد ابن السمح (أبي علي الحسن بن السمح البغدادي المنطقي، المتوفي سنة 418هـ/ 1027م، كتب في الفلسفة والعلوم وتميّزت إنجازاته بالمنطق الذي درسه على يحيى بن عدي، وكذلك تعليقاته على كتاب «الطبيعة» لأرسطو، ويعدّ من أفاضل

---

(1) راجع فهرست الاعلام عند ابن النديم في/ الفهرست/ ص517 - 528.

(2) سوف نبيّن ذلك في فصل «مجالس العلماء في سوق الورّاقين».

(3) المقابسات: نشره محمد توفيق حسين/ ص492 - 496، مطبعة الإرشاد، بغداد 1970، وكذلك يراجع د. عبد الأمير الاعسم/ أبو حيّان التوحيدي في المقابسات/ ص249، إصدار دار الأندلس، ط1، بيروت 1400هـ/ 1980م.

(4) الأعلام للزركلي 8/ 156 وأخبار الحكماء للقفطي/ ص236 - 237.

(5) راجع عن هؤلاء: فهرست المقابسات/ نشرة توفيق حسين/ ص492 - 496 حيث يشير إلى تراجم بعضهم.

المشتغلين بالفلسفة والمنطق في مدرسة بغداد خلال النصف الثاني من (ق 4هـ)[1].

* ومن الروّاد الذين جالسهم التوحيدي وقابلهم في سوق الورّاقين كل من: البديهي - النحوي، والخوارزمي الكاتب، وأبو القاسم الانطاكي المعروف بالشيخ المجتبى، وماقية المجوسي، وأبو بكر القومسي، وأبو محمد العروضي، وابو إسحاق النصيبي، ونظيف الرومي، ووهب بن يعيش، وأبو سعيد السيرافي[2].

* ومن الأعلام البارزين، الذين كانوا من أبرز روّاد سوق الورّاقين، أبو إسحاق الصابىء (إبراهيم بن هلال) كان نابغة عصره في الأدب، وقد تقلد دواوين الرسائل للمطيع ولمعزّ الدولة، وعزّ الدولة[3]، كما أن التوحيدي عاصر ابن مسكوية الفيلسوف الأخلاقي المعروف، والمؤرخ والباحث المشهور، وهو واحد من كبار الفلاسفة في الإسلام، وآرائه تتجلى واضحة في كتابه الشهير «تهذيب الأخلاق»[4].

* كما تكشف «المقابسات» أسماء أخرى التقاهم التوحيدي في السوق، من أمثال أبي الحسن العامري، وثابت بن سنان، وابن سوار، وابن زرعة، وعيسى بن علي بن عيسى الجراح، وأبي بشر متي بن يونس، وأعلام غيرهم، ناهيك عن جمهور المعتزلة ورجالاتهم الذين كان السوق ساحة عمل أدبي وفكري لهم.

لقد استرعى سوق الورّاقين انتباه العلماء والأدباء والفرسان والقادة، نظراً لماله من سمعة طيبة في عقول الناس، حتى أن المهلّب كان يوصي بنيه بأن لا يقيموا في الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق[5]، وواصلت شهرة سوق الورّاقين إمتداداتها التاريخية حتى أن أهل الاندلس تعاطوا معها إيجابيا، وبشكل حضاري، وكيف لا، وهم مقلدون لأهل المشرق، وصارت الأمثال تضرب في كل حرفة ومهنة، حتى قيل: جلوس الأدباء عند الورّاقين، وجلوس المخمنين عند النخاسين، وجلوس الطفيلين عند الطباخين[6]، ولا أدلّ على ذلك من ذكر تلك الأسماء الأعلام الذين كانوا من نوابغ (ق 4هـ)، فكل واحد منهم هو فرد في صناعته[7].

---

(1) عبد الأمير الأعسم/ المرجع السابق/ ص253.
(2) المرجع السابق/ ص131 132.
(3) توفيق حسين: المقابسات/ ص116، هامش رقم 2، والزركلي: الأعلام 1/ 78.
(4) الزركلي/ الأعلام 1/ 211 - 212.
(5) الجاحظ: الحيوان 1/ 52.
(6) ابن عبد ربّه الأندلسي/ العقد الفريد 4/ 199.
(7) محمد كرد علي/ أمراء البيان/ ص529.

فليس اعتباطاً أن ينتبه التوحيدي إلى حركة هؤلاء الرواد في سوق الورّاقين، وما يناقشونه في جلساتهم عند الورّاقين، حيث تحولت دكاكينهم إلى منتديات أدبية، لذلك كان التوحيدي، عيناً راصدة معرفياً، وما كتاب «المقابسات» وغيره إلا دليلاً على سعة الظاهرة الأدبية في السوق.

وثمة ملاحظة هامة تتوجب التوكيد، أن الكثير من الوراقين كانوا أميل إلى صفوف المعارضة السياسية، كما أوضحنا من قبل، لذلك يكون نشاط السوق أكثر تأثيراً، لأن المخاطب فيه عقول فكرية وأدبية وثقافية، ولهذا السبب، بتقديرنا، بثّ إخوان الصفا «رسائلهم» في دكاكين الورّاقين، وأخفوا أسماءهم فيها[1].

ويمكن القول أن سوق الورّاقين وروّاده من رجالات الفكر والأدب، شكلوا ظاهرة متميّزة أغنت الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية، على حدّ سواء، نظراً للتلاقح المعرفي الذي كانت تموج به الحياة العقلية في بغداد في العصر العباسي، وسوف يظهر ذلك بصورة أوضح في الفصول القادمة من البحث.

الفصل الرابع

كيفية بيع الكتب في سوق الوراقين

ليس عبثاً أن يشير اليعقوبي إلى أن سوق الورّاقين كان فيه أكثر من مئة حانوت[2]، فهذه الإشارة واضحة الدلالة على أن تجارة الكتب، واحدة من التجارات الرابحة من الناحية الاقتصادية، والرائجة من الناحية الثقافية والحضارية، فمتطلبات العلماء والأدباء من الورق وأدوات الكتابة، ونسخ ما يحتاجون نسخه، مسألة تحتاج إلى من يلبي أمرها، فكان سوق الورّاقين هو المكان الأرحب لذلك، لكونه متخصصاً ببيع هذه المتطلبات الثقافية والعلمية، لذلك كان مرتادوه يجدون كل ما يحتاجون إليه.

ونظراً لكون الكتاب هو البوصلة الأكثر دلالة والأكثر طلباً ورواجاً، فإن باعة الكتب

---

(1) أنظر: مقدمة أحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفا/ ص22، الطبعة المصرية 1347هـ/ 1928م، وراجع: التوحيدي/ الامتاع والمؤانسة 2/ 2 - 6/ الليلة السابعة عشرة/ نشرة أحمد الزين وأحمد أمين، القاهرة 1942م.

(2) البلدان/ ص245.

«الوراقون أصحاب الدكاكين» كانوا يلزمون المشتغلين عندهم من الوراقين بهذه المهمة، فكان الدلالون هم الأعرف ببيع هذه الكتب، حيث أن عملية بيع الكتب كانت تجري داخل السوق على شكل «نداء» علني، يقوم المنادي، وهو الورّاق الدلال بكل ما يتطلب من ذلك حيث أنه يقوم بعرض الكتاب أمام الجمهور، ويكون موضعه في مكان مرتفع في المكان الذي ينادي عليه، ثم يقرأ اسم الكتاب ومؤلفه، وعدد صفحاته، ويقرأ بعض العبارات من فصوله، ويقدّم ما هو أمتع وأجمل وأوقع في نفس السامع، زيادة في الاقبال على الشراء[1]، وأحياناً يدخل المنادي عنصر المفاكهة في عملية النداء، كي يسترعي إنتباه العلماء والنحويين، بحيث أنهم يشتركون بالفرجة والجمهرة، وتصبح عملية البيع أشبه بالندوة الأدبية والفكرية، فهذا يعلّق، وذاك يصحح، وآخر يقرظ، ورابع يلحن، وخامس يراجع، والأعناق مشرئبة نحو المنادي، وعندما يزداد اللغط والهرج، يفتح باب «المزاد» لشراء الكتاب، بحيث أن الدلال، بهذه العملية، كان قد قام بمزج آراء الناس كافة، علماء وأدباء ونقّاد وزبائن عاديين، وقام بنفس الوقت بدعاية واضحة للكتاب، استشفّ من خلالها مدى الاقبال على بضاعته أولاً، واستطاع أن يخمّن سعراً جيداً لهذا الكتاب أو ذاك، ويلعب اسم المؤلف وشهرته دوراً بارزاً في عملية البيع بالنداء، وثمة نادرة طريفة في هذا السياق يوردها السيوطي في ترجمة «محمد بن محمد بن عبد الرحمن. . . بن القويع»[2]، يقول إبن سيد الناس: لما قدم/القويعي/ قعد في سوق الكتب، والشيخ بهاء الدين بن النحاس هناك، ومع المنادى، ديوان ابن هانىء، فنظر فيه ابن القويع فترنم بقوله/ يقصد بقول ابن هاني/ : «فتكات لحظك أم سيوف أبيك. . . وكؤس خمرك أم مراشف فيك».

فقرأه بالنصب في الجميع، فقال له ابن النحّاس: يا مولانا، هذا نصب كبير، فقال له بنترة: أنا أعرف الذي تريد من رفعها، على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة، والذي أنا ذهبت إليه أغزل وأمدح، وتقديره أقاسي فتكات لحظك. فقال له: يا مولانا، فلم لا تتصدر وتشغل الناس؟ فقال: وايش هو النحو في الدنيا حتى يذكر[3].

وعلى هذا الأساس في «النداء» بيعت الكثير من الكتب، وقد لعب اسم المؤلف دوراً هاماً في رفع سعرها، فتذكر المصادر أن مسوّدة «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني أخرجت إلى سوق الورّاقين، وبيعت في «النداء» بأربعة آلاف درهم، وأن أكثرها في ظهور

---

(1) سوف نرى - في الجزء الخامس من هذه الدراسة - عند الترجمة عن الدلالين - كيف يؤدون عملهم.

(2) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة/ ص97.

(3) السيوطي/ المصدر السابق/ ص97.

وبخط «التعليق» - وأنها اشتريت لأبي أحمد بن محمد بن حفص. قال أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فأنفذت إلى «ابن قرابة» - ربما كان الدلال الذي باعها - وسألته إنفاذ صاحبها لابتاعها، فأعلمني أنها بيعت، وأرسلت إلى ابن حفص، فأنكر أنه يعرف شيئاً من هذا، فبحثت كل البحث فما قدرت عليها[1]، فيما بعث سيف الدولة الحمداني موفداً إلى سوق الورّاقين ليباع له كتاب الأغاني، ودفع بحقه ألف دينار، وعندما بلغ الصاحب بن عبّاد ذلك قال:

لقد قصّر سيف الدولة، وأنه يستأهل أضعافها[2]، حيث أن هذه النسخة كانت المرة الوحيدة التي كتبها أبو الفرج بيده وأهداها لسيف الدولة. وقد كان أبو الفرج قد جمع هذا العمل في خمسين سنة[3].

ويلعب الدلال دوراً هاماً في عملية إخفاء بعض المخطوطات والكتب النادرة، حيث أنها تعرض عليه أولاً، فيختار منها لنفسه ما يشاء، ويعرض الآخر للبيع، فمن ذلك ما ينقله ياقوت: أن أبا سعيد عمر بن أحمد الدينوري الوراق، قد وقع على أهم كتب الطبري وهو «كتاب أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة» أملى منه الطبري حوالي خمسمائة ورقة «أربعة أجزاء» ولم يخرجها للناس في الإملاء، وخرج بها الدينوري الوراق إلى الشام وانتفع بها[4].

وتلعب المصادفة، هي الأخرى، دوراً ذا أهمية في عملية شراء أو بيع الكتب، وهي تتوقف على الحاذق في معرفة أهمية الكتاب ومضمونه، وينقل البيهقي خبراً مفاده أن ابن سينا - الفيلسوف الإسلامي المعروف، كان قبل شهرته في سوق الورّاقين فعرض عليه الدلال محمد كتاباً ينادى عليه فردّه/ أبو علي بن سينا/ ردّاً متبرماً، معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم، فقال الدلال: اشتر مني فإنه رخيص بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتراه فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي الفيلسوف - المعلم الثاني في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، قال ابن سينا: فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب، بسبب أنه كان لي محفوظاً، ففرحت بذلك وتصدقت بشيء كثير على الفقراء[5]. وهذه الحادثة تشير إلى أن هناك بعض الناس لا يدركون أهمية ما في بطون

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 13/ 126 - 127.

(2) معجم الأدباء 13/ 97.

(3) المصدر نفسه 13/ 98.

(4) معجم الأدباء 18/ 77.

(5) ظهيرالديني البيهقي/ تاريخ حكماء الإسلام/ ص55 - 56/ نشرة محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق 1365هـ/ 1946م.

الكتب من جهة، ومن جهة ثانية، يظهر التفاوت المعرفي بين إنسان وآخر، ويظهر أيضاً أن طلاب العلم والمعرفة دائماً كان يفتقرون للمادة، والعوز ظاهرعليهم تاريخياً، وهناك نادرة جميلة اعتمدت على مبدأ الفطنة والذكاء في شراء الكتب، يوردها الخطيب، يقول: إن المتنبي أكثر ملازمة الورّاقين، وأن الورّاق الذي كان يجلس إليه قال يوماً: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط، قال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي، سمّاه الورّاق ونسبه أبو الحسن العلوي الزيدي، صاحب الحديث والرواية التي ينقلها الخطيب - ويتألف ذلك الكتاب من ثلاثين ورقة ليبيعه، قال: فأخذ «المتنبي» ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه، من هذه المدة فبعيد، فقال له: وإن كنت حفظته فمالي عليك؟! قال: أهبُ لك الكتاب، فقال الوراق: فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه عليَّ إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كمّه وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال المتنبي: ما إلى ذلك سبيل، قد وهبته لي! قال فمنعناهُ منه وقلنا له، أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه[1].

وقد يقوم الدلالون بمشاهدة خزائن للكتب ويقيمونها، وربما ارتشوا، لسبب أو لآخر، حيث أنهم في هذه الحالة يتركون سوق الورّاقين ويتجهون إلى المكان المراد تقييم تلك الكتب فيه، ومن ذلك ما قام به خيران الورّاق عندما قام بتخمين مكتبة ثعلب النحوي بعد وفاته، حيث طلب منه الوزيرالقاسم بن عبيد الله فقوّم ما كان يساوي عشرة دنانير ثلاثةً، فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار[2]، وهذا التخمين، بتقديرنا، خضع إمّا لرشوة مالية، وأما لخوف من سلطة الوزير المذكور، وبكلتا الحالتين فإن هذا الورّاق قد خرق المبدأ الأخلاقي الذي رسمه الورّاقون لأنفسهم[3].

ومن الخزائن التي بيعت في الدلالة بأبخس الأثمان، تركة الطبيب الأسلمي أسعد بن المطران، وفيها ألوف كثيرة من الأجزاء الصغار، بيعت في المناداة بثلاثة آلاف درهم[4] فيما حصلت واقعة لبيع كتب بعكس هذه تماماً، فقد حكى يحيى بن عدي أن كتابين من شرح الاسكندر، للسماع ولكتاب البرهان، عرضا عليه بمئة وعشرين ديناراً، قال: فمضيت لاحتال في الدنانير، ثم عدت فأصبت القوم قد باعو الشرحين في جملة كتب، على رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار[5].

(1) تاريخ بغداد 4/ 102 - 103 ترجمة المتنبي رقم 1758.
(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 5/ 127.
(3) راجع فصل أخلاق الورّاقين بهذا الباب.
(4) طبقات الأطباء/ ص655.
(5) ابن النديم/ الفهرست/ ص354 - وحبيب زيّات/ الوراقة والورّاقون/ ص37.

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وذات جذر تاريخي ممتد من ذاك الأوان وحتى عصرنا الراهن، هي أن أغلب رجال الفكر والأدب والعلم، والشغوفين بالقراءة وحبّ المطالعة وشراء الكتب، هم أكثرالناس فقراً وعوزاً، الأمر الذي يجعلهم يتحايلون بشتى السبل للحصول على الكتاب، عن طريق السرقة أحياناً، أو عن طريق استعارة الكتاب وعدم ردّه إلى صاحبه بحجّة أو بأخرى، أو عن طريق إحداث خلل فيه، من قبيل تمزيق بعض الأوراق منه أو اقتطاعها، ومن ثم المساومة عليه، وهلّم جراً[1]، ولقد سبقنا الأوائل إلى ذلك، فقد تحدثت المصادر عن واحد من رجالات العلم والفقه واللغة في القرن السادس الهجري هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن الخشّاب البغدادي الحنبلي، المتوفى سنة 567هـ، وهذا الرجل كان أعلم أهل زمانه بالنحو، وله معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة، ومن جملة المعروفين بالتأليف، وكانت له خزانة كتب كبيرة[2]، ومسلكية هذا النحوي الكبير في شراء الكتب تتحدد على النحو التالي، كما أوردتها المصادر التي تحدثت عنه، قالوا: وكان إذا حضر سوق الكتب، وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: أنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس، وإذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به قال: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه»[3].

وعملية شراء الكتب، في سوق الورّاقين، تخضع للتفحّص والنقد، وامعان النظر في الكتاب وتقليبه، والتأكد من صحة ربطه وتماسك ملازمه، وتعهد أوله وآخره ووسطه، والنظر إلى ترتيب أبوابه وكراريسه، وتصفّح أوراقه واعتبار صحته[4] للتأكد من سلامته على كافة الوجوه.

---

(1) أذكر أني كنت أتعامل مع مكتبة «النهضة العربية» ببغداد، شارع السعدون على نحو فيه شيء من التهذيب، حيث كنت أشتري الكتاب، وأشترط على صاحب المكتبة، على أنه إذا لم يكن أخي قد اشتراه فسوف أعيده إليه، بنفس اليوم، وكان الرجل يوافق على ذلك، فآخذ الكتاب وأنزوي في مقهى «البتاويين» الملاصق لجدار المكتبة المذكورة، وأتم قراءته وأعيده إلى صاحب المكتبة، وفق الشرط، وآخذ غيره، وهكذا كنت أتعامل، وربما أدرك الرجل ذلك في سلوكي وغضّ الطرف عني.

(2) تطرقنا في الحديث عنها بفصل - مكتبات العلماء والأدباء - في باب (ولع العراقيين بالكتب) وقد كان ابن الخشاب من القلائل الذين تصدّوا بالنقد إلى «مقامات الحريري» حيث أصدر «رسالة» بهذا الصدد، وهي مثبتة في نهاية كتاب/ مقامات الحريري/ طبعة المطبعة السينية بمصر، سنة 1348هـ/ 1929م.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 12/ 47 - 53، والسيوطي: بغية الوعاة/ ص276 - 277، وكوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة ص252 - 253.

(4) راجع بهذا الصدد/ ابن جماعة الكناني: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم/ ص172 - 173 طبعة حيدر آباد سنة 1353هـ.

لقد ظلت عملية بيع الكتب بالنداء مأخوذ بها في أغلب الحواضر والأقاليم الإسلامية، خارج دار الخلافة العباسية، وبنفس الأساليب التي كانت سائدة في سوق الورّاقين ببغداد، فثمة مظاهر مشتركة تماماً، ظهرت في الأندلس، ذكرها صاحب/ نفح الطيب/ على النحو التالي: قال الحضرمي: أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدّة، أترقّب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخط جيّد وتسفير «تجليد» مليح، ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد عليّ في هذا الكتاب، حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، أن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه. فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيّد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأخرجني، وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلّة ما بيدي بيني وبينه[1].

وكانت أشبيلية واحدة من كبريات المدن الأندلسية التي اشتهرت بكثرة كتبها وعلمائها إلى جانب قرطبة، حتى أن ابن رشد يقول لأبي بكر بن زهر: ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى اشبيلية[2] قالوا، وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً[3]، ويذكر ابن بشكوال، أن قاضي الجماعة بقرطبة عبد البر المكنّى بأبي المطرف، كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً، وعندما توفّي، واجتمع أهل قرطبة لمدة عام كامل في مسجده لبيع كتبه، في الفتنة في الغلاء وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية[4].

وفي مصر بيعت خزائن الكتب الفاطمية، بعد أن أسقط صلاح الدين الأيوبي دولتهم،

---

(1) المقرى التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 1/ 463، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1388 هـ/ 1968م.

(2) نفح الطيب 1/ 463.

(3) المصدر السابق 1/ 385 و1/ 394 - 395 و1/ 155 و1/ 363.

(4) ابن بشكوال: أبي القاسم خلف بن عبد الملك/ الصلة 1/ 310، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

ولما استولى على قصر العاضد لدين الله، وجد من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد، فباع جميع ما فيه[1].

وهناك طرق أخرى سلكها الأدباء والعلماء للتعاطي مع الكتاب عرفت بـ«إهداء الكتب» نظراً للعوز اللاحق عند بعضهم، أو تفضّل بعضهم على بعض، لسبب اقتصادي أو معرفي، وكانوا يتغزلون بهذه الكتب المهداة، ويشيدون بفضل أصحابها عليهم، فمن ذلك ما يقوله أبو الفتح البستي، بعد أن أهدى له كتاب[2]:

بنفسي من أهدى إليّ كتابه ... فأهدى لي الدنيا مع الدين في دُرجِ

كتاب معانيه خلال سطوره ... لآلىء في درج كواكب في برج

وله بنفس المعنى والسبب[3]:

ولما أتاني كتاب منك مبتسم ... عن كل برّ وفضل غير محدودِ

حكت معانيه في أثناء أسطره ... آثارك البيض في أحوالي السودِ

وعندما أهدى ابن مندويه الاصفهاني كتاباً، قال متغزلاً في ذلك الكتاب[4]:

يكرّر طورا من قراه فصوله ... فإن نحن أتممنا قراءته عدنا

إذا ما نشرناه فكالمسك نشره ... ونَطويهِ لا طيّ السآمة بل ضنّا

وقال الصاحب بن عبّاد في كتاب أهدى له[5]:

«كتاب أوجب من الاعتداد، وأوفر من الاعداد، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد، كتاب أنساني سماع الأغاني من مطربات الغواني، كتاب رأيت فيه ساعة الأوبة على المسافر، وبرد الليل على المسامر، كتاب شممته شمّ الولد، وألصقته بالقلب والكبد، كتاب مطلعه مطلع أهلّة الأعياد، وموقعه نيل المراد».

وقال أحمد بن إبراهيم الضبّي الوزير في رسالة بعثها إلى أبي سعيد الشيبي[6]: كتاب

---

(1) ابن الاثير: الكامل في التاريخ 11/ 242، حوادث سنة 567هـ.

(2) الثعالبي: يتيمة الدهر 4/ 291، ومن غاب عنه المطرب/ ص32، تحقيق عبد المعين الملوحي: إصدار دار طلاس، ط1، دمشق 1987م.

(3) يتيمة الدهر 4/ 291.

(4) من غاب عنه المطرب/ ص32.

(5) من غاب عنه المطرب/ ص31.

(6) معجم الأدباء 2/ 109، ومن غاب عنه المطرب/ ص31.

هو في الحسن روضة حَزْنٍ[1] بل جنّة عدن، وفيه شرح النفس وبسط الأنس، برد الاكباد والقلوب وقميص يوسف في أجفان يعقوب.

وقال المريمي في وصف كتاب[2]:

يطوى وليس بمطويٍّ محاسنه　　فالحسن ينشره والكف تطويه

والمعنى هنا أقرب إلى «الرسالة».

الفصل الخامس

مجالس العلماء في سوق الورّاقين

شكّل سوق الورّاقين حاضناً ثقافياً - وحضارياً متطوراً، يستحق أن يتباهى به العباسيون كإنجاز حضاري، دلّ على رقيّهم وحسّهم العالي وشعورهم بالمسؤولية التاريخية إزاء عصرهم وما تلاه، فلقد كان هذا السوق، إضافة إلى كونه سوقاً تجارياً، موئل الصفوة العلمية من أهل الأدب والفكر والسياسة، وليس اعتباطاً أن يصفه ابن الجوزي بأنه كان مجلس العلماء والشعراء[3]، فقد كانت الندوات الأدبية والعلمية والثقافية تعقد فيه، وفيه يتناظر العلماء، وعند دكّات الورّاقين كانت المجالس العلمية تعقد، وضجيج الفلاسفة والمتكلّمين يسمع، في هذا الدكان أو ذاك، حتى أن صفة التمييز بين دكان وآخر كانت معروفة، تبعاً للورّاق، فهذا ورّاق عالم بعلوم الحديث، وذاك أديب يغشاه الأدباء، وثالث متكلم يحيط به المعتزلة والدهريون، ورابع يتعاطى الفلسفة، وخامس ناقد للشعر، وسادس أخباري، وسابع نسّابة، وثامن مترجم، وتاسع من أصحاب النوادر، وعاشر مجلّد، وآخرون في اختصاصات أخر، لذلك كان الروّاد من الأدباء والعلماء يعرفون غاياتهم، وعند مَنْ يجلسون ويجتمعون، وكل يجد ضالته عند ورّاق معيّن، وقد انتقلت هذه الظاهرة إلى الورّاقين في بقية الأمصار الإسلامية كالمغرب والاندلس ومصر والشام، بنفس تلك الأساليب، فلقد ذكر أن سعد الوراق كان له دكان وراقة في الرهاء من أعمال الجزيرة[4]،

---

(1) الحَزَن = ما ارتفع من الارض، وإذا كانت الروضة في حزن كانت أينع وأزهر.

(2) من غاب عنه المطرب/ ص32.

(3) مناقب بغداد/ ص26.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان 3/ 106 - مادة (رهاء).

كان يغشاه فيه كل أديب من طلاب النصارى من شعراء الشام وديار مصر[1].

لقد استقطب سوق الورّاقين ببغداد، كلّ عالم وأديب بمجالسه هذه، وكانت هذه المجالس منعقدة يومياً، على ما يبدو، فقد أشارت المصادر إلى مثل ذلك، حيث ذكر ياقوت الحموي أن أبا الغنائم حبشي بن محمد، النحوي الضرير، كان يذهب إلى سوق الورّاقين في كل ليلة، ولمدة عشرين سنة[2]، ووقفة قصيرة مع هذا الخبر تكشف لنا مدى الأهمية العلمية لمثل هذه المجالس، من ناحية، ومن ناحية أخرى، تبيّن أن هذه المجالس ذات تأثير اجتماعي، إضافة إلى تأثيرها العلمي، وإلا كيف أن هذا النحوي الضرير ظلّ مداوماً عليها عشرين سنة؟!

ومن الجدير ملاحظته في هذه المجالس، أن الأعلام، من روّاد السوق، كان لهم التأثير الأوضح في ذلك، وقد أشرنا في فصل سابق إلى هؤلاء[3]، ومن هؤلاء الروّاد أبو الفرج الأصبهاني، فقد كان مودعاً سرّه في سوق الورّاقين، وهذا العلامة الموسوعي كان أميل إلى الأدب من بقية الفنون، رغم أنه ذا باع طويل في أغلبها، يقول عنه ياقوت: قال ابن عبد الرحيم، حدّثني أبو نصر الزجاج قال: كنت جالساً مع أبي الفرج الأصبهاني في دكّان في سوق الورّاقين، وكان أبو الحسين علي بن يوسف بن البقّال الشاعر جالساً عند أبي الفتح بن الخرّاز الورّاق وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباس الصولي التي يقول فيها:

رأى خلّتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلّت

فلما بلغ إليه استحسنه وكرّره، ورآه أبو الفرج فقال له: قم إليه فقل له: قد اسرفت في استحسان هذا البيت، وهو كذاك، فأين موضع الصنعة فيه! فقلت له ذاك، فقال: قوله «وكانت قذى عينيه» فعدت إليه وعرّفته، فقال: عد إليه فقل له: أخطأت، الصنعة في قوله: «من حيث يخفى مكانها»[4]. ويعلّق ياقوت على ذلك بقوله؛ وقد أصاب كل واحد منهما حافة من الغرض، فإن الموضعين معاً غاية في الحسن، وإن كان ما ذهب إليه أبو الفرج أحسن[5].

هنا - في هذا النص - تتكشف أمامنا حالة نقدية للشعر، منحصرة في هذا المجلس، رغم أن الشاعر غائب/ الصولي/ لكن الورّاق - أبا الفتح بن الخرّاز - يذكره بشعره، ويتصدى

---

(1) حبيب زيات/ الوراقة والوراقون/ ص45.
(2) معجم الأدباء 7/ 215 - 216، الترجمة رقم 53. ونكت الهيمان، لصلاح الدين بن أيبك الصفدي/ ص133 - 134، طبعة مصر سنة 1329هـ/ 1911م.
(3) راجع الفصل الرابع من هذا الباب/ روّاد سوق الورّاقين/ .
(4) معجم الأدباء 13/ 112.
(5) معجم الأدباء 13/ 112 - 113.

له أبو الفرج، بصفته ناقداً، ويحاورالورّاق، وفي الوقت نفسه متذوق وناقد، أي أن مجلس هذا الورّاق تطغى عليه الميول الأدبية، وتنحدر نحو الشعر أكثر من غيره، وهذه حالة واحدة مرّت بنا في هذا السوق، إضافة إلى ما ذكرناه من «النوادر» والتي كانت هي الأخرى تَحْدُثُ ويتحدث بها في ذات السوق، ولكن أوضح تصوير لمجالس العلماء في سوق الورّاقين، هو ما ينقله أشهر ورّاق قاطبة، أبو حيّان التوحيدي، في كتابه الهام «المقابسات» حيث أن المواضيع التي كان العلماء يختارونها شاملة جامعة، وتدخل في نطاق نظرية المعرفة، لكافة العلوم، رغم ما يطغى عليها من نَفَسٍ فلسفي، ولغة عالية، قد تصعب على البعض معرفة رموزها، وسوف نذكر «المقابسات» التي دارت في سوق الورّاقين، لأنها الشاهد الحيّ الذي لا زال يذكرنا بتلك المجالس العلمية، وهو أمر يكشف صلادة تلك الحضارة، وعمق بناتها الأوائل من العلماء والأدباء ورجال الفكر، بحيث أننا - في هذا الزمن - نتصاغر أمام تلك الشخصيات، ونتضاءل مقابل تلك العلوم والمعارف، التي كانوا يتعاطونها بسلاسة وبداهة، فكل فكرة كانت تدور بينهم، ويتحاورون فيها، قد تحتاج إلى الكثير منّا، لأن نقف معها، وربما أعوزتنا الحاجة، للرجوع إلى القواميس الفلسفية والمعاجم اللغوية، لمعرفة جوهرها ومكنونها، وهي بحق تستاهل الوقوف منا بترٍو وجلال.

المجالس الفلسفية في سوق الوراقين

لقد كانت تلك المجالس العلمية في سوق الورّاقين معكوسة بشكل علمي وواضح كل الوضوح في كتاب «المقابسات للتوحيدي»، حيث أنها دوّنت كل ما كانت تعجّ به بغداد آنذاك من بحوث علمية في الفلسفة الإلهية والطبيعة، ومن تناول كل مسألة، حتى مسائل اللغة والأدب بمعايير فلسفية نفسيّة، وعند الغور أعمق في المقابسات، نلاحظ طغيان موضوعات الفلسفة بشكل شبه مقصود، حيث أن النضوح العقلي عند أبي حيان مال به إلى ذلك، فكانت أقرب إلى روحه الفلسفية، حيث نرى فيها موضوعات النفس والعقل والزمان والمكان، والعالمين العلوي والسفلي، والخليقة والميعاد، والمادة والجوهر، والنقطة، والعناصر، وعلاق النحو العربي بالمنطق اليوناني، وغير ذلك، كما اشتملت على مواضيع خلقية، كتهذيب النفس، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والصداقة والصديق[1].

(1) للاستزادة في معرفة موضوعات «المقابسات» راجع د. عبد الأمير الأعسم/ أبو حيّان التوحيدي في كتاب «المقابسات» ص 130 - 131، وكذلك باب/ دراسة فنية لكتاب المقابسات/ من نفس الكتاب، ففيه تحليل وعرض واف عن موضوع المقابسات، منشورات دار الأندلس، بيروت، ط1، 1400 هـ/ 1980م.

والمتأمّل في هذه الموضوعات الواردة في «المقابسات» يستطيع أن يرسم خطّاً بيانياً صاعداً للحالة العلمية التي كانت سائدة في (ق 4هـ)، ويستطيع من خلالها أيضاً أن يرى أهميّة مجالس العلم في سوق الورّاقين، وتأثيراته الثقافية في حياة المجتمع العراقي في العصر العباسي.

وبالنظر للشمولية الثقافية والعلمية في كتاب المقابسات وما حوته من أفكار لحياة الناس العقلية، وانسجاماً مع السياق المنهجي، رأينا أن نكتفي بهذا الكتاب، استدلالاً وتوثيقاً لحالة السوق، وما حوته مجالسه العلمية، ومن ناحية أخرى عدم الاطالة على القارىء، إضافة إلى أن «المقابسات المنتخبة» في هذا المقال، قد قيلت في سوق الورّاقين، وبذا تشكّل وثيقة هامة من وثائقه حرصنا على إبرازها وبعث الروح فيها مجدداً، إحياءً لذاك التراث الغني المتوهج أبداً.

في المقابسة السادسة[1]، والتي حملت عنوان (في علّة تفاوت وقع الألفاظ في السمع، والمعاني في النفس) فإن التوحيدي يحاور فيها أبا بكر القومسي، أحد تلاميذ يحيى بن عدي، رئيس مناطقة بغداد في زمانه، وأحد الورّاقين المعروفين، يقول: قلت له: ما معنى قول بعض الحكماء: الألفاظ تقع في السمع، فكلما اختلفت كانت أحلى، والمعاني تقع في النفس، فكلما اتفقت كانت أحلى؟

فقال: هذا كلام مليح، وله قسط من الصواب والحقّ، أن الألفاظ يشملها السمع، والسمع حس، ومن شأن الحس التبدد في نفسه، والتبدد بنفسه، والمعاني تستفيدها النفس، ومن شأنها التوحُّد بها والتوحيد لها، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنية وملكة، وتبطل عند الحس بطولاً، وتمحى محولاً، والحس تابع للطبيعة، والنفس متقبلة للعقل، وكانت الألفاظ على هذا التدريج والتنسيق من أمة الحس، والمعاني المقولة فيها من أمة العقل. فالاختلاف في الأول بالواجب، والاتفاق في الثاني بالواجب، وبالجملة الألفاظ وسائط بين الناطق والسامع، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها، كان وشيها أروع وأجهر، والمعاني جواهر النفس، فكلما ائتلفت حقائقها على شهادة العقل، كانت صورتها أنصع وأبهر، وإذا وفيت البحث حقّه، فإن اللفظ يجزل تارة ويتوسط تارة، بحسب الملابسة التي تحصل له من نور النفس وفيض العقل وشهادة الحق وبراعة النظم، وقد يتفق هذا لتعويل الإنسان بمزاجه الصحيح، وطبيعته الخبيرة واختياره المحمود، وقد يفوته هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن سبق بهذه المعاني إليه، فيكون اقتداؤه حافظاً عليه نسبة

(1) راجع ص144 من المقابسات/ نشرة حسن السندوبي، وسوف نعتمد عليها في هذا الفصل.

البيان على شكله المعجب، وصورته المعشوقة، ومدار البيان على صحة التقسيم، وتخيّر اللفظ، وترتيب النّظم وتقريب المراد، ومعرفة الوصل والفصل، وتوخّي الزمان والمكان، ومجانبة العسف والاستكراه، وطلب العفو كيف كان»[1].

وفي المقابسة رقم 13، حوار فلسفي، ينقله التوحيدي عن يحيى بن عدي وأحد سائليه، يتمحور موضوعها (في قول القائل: العلة قبل المعلول، لا مدخل للزمان فيه)، يقول: قال يحيى بن عدي: قول القائل: العلة قبل المعلول لا مدخل للزمان فيه، وكذلك قول النحويين: الاسم قبل الفعل لا يتضمن معنى الزمان، وكأنه جار في قضايا الدهر، والفرق بين الزمان والدهر بيّن.

قال له البديهي[2]، فقولنا: الأب قبل الابن، أين هو الزمان؟ قال: من جهة لا مدخل للزمان بينهما، وذلك أن الغرض، أن هذا علّة هذا، ومن جهة يدخل، لأنه يصير مؤذناً بأن هذا كان في الزمان، وأمّا قول النحويين، أن الاسم قبل الفعل، فمعقول أن ترتيبه مقدّم عليه، وإلا فمتى وجد الاسم وجد الفعل، ومتى وجد الفعل وجد الحرف، فمرتبة الوجود واحدة في الجميع، ومراتب الأعيان مختلفة في الجميع، ثم قال: وينبغي أن يصفو اللحظ الذي تجرّد في نحو الأشياء الأول، التي هي كثيرة بالأسماء والنعوت عند الاستعمال، وواحدة بالحقائق والذوات، فإن هذا النظر إذا صفى وتم، كفى مؤنة عظيمة، وحاز أمراً عزيزاً»[3].

وتقابس بن سوار وابن السمح[4] عند باب الطاق، وكلاهما عالي الطبقة في الفلسفة، في المقابسة رقم 17 في (الحق والباطل في سيرة الناس واعتقادهم) يقول التوحيدي:

سئل ابن سوار وكان ابن السمح بباب الطاق: هل ما فيه الناس من السيرة، وما هم عليه من الاعتقاد، حقّ كله أو أكثره حق، أو كلّه باطل أو أكثره؟!

فقال: المسألة هائلة والجواب هيّن.

قيل: أفدنا أفادك الله، فإن ركيّة العلم لا تنزح وإن اختلفت عليها الدّلاء، وكثر على حافاتها الواردة، فقال: صدقتم، واعلموا أنه إذا لُحظ استيلاء الطبيعة عليهم، وغلبة آثارهم فيهم، في الرأي المعتقد، والسيرة المؤثرة، فأكثر ذلك باطل، لأن سلطان العقل في

(1) المقابسات/ ص144 - 145.

(2) هو أبو الحسن علي بن محمد البديهي، راجع المقابسات/ ص154 هامش رقم 2.

(3) المقابسات/ ص154 - 155.

(4) راجع ترجمتهما في المقابسات/ ص160، في الحاشية.

بلاد الطبيعة غريب، والغريب ذليل، وان لحظ حكم العقل وما يجب به، ويليق بجوهره، ويحسن مضافاً إليه، فأكثر ذلك حق، كان الملحوظ رأياً وسيرة وعادة أو خليقة، وعلى حسب هاتين القبيلتين يكون القضاء ويقع الحكم، والحقّ لا يصير حقاً بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحلية، وكذلك الباطل، ولكن قد يظنّ بالرأي الذي قد سبق إليه الاتفاق من جلّة الناس وأفاضلهم أنه أولى التقديم والإيثار وأحق بالتعظيم والاختيار، لأنه يكون مقوّماً بالبحث، مجبوراً بالفكر، مصقولاً على الزمان، تلمسه كل يد، وتجتليه كل عين، ويصير ثباته على صورته الواحدة، دليلاً قوياً وشاهداً زكياً على حقيقته، لأنه يبرأ حينئذ من هوى منتحله، ويعرى من تعصّب ناصر، ويبقى بصورته الخاصة، ويجرى مجرى السكينة التي لا تحتاج إلى علاج المعالج، وتمويه المموّه، وانتقاد المنتقد، وتنفيق المنفّق، وحيلة المحتال»[1].

وفي المقابسة رقم 21، ينقلنا التوحيدي إلى موضوع الحسب والنسب بالنسبة للأديب يقول: سمعت أبا سليمان السجستاني يقول: فضيحة حسيب لا أدب له، أفظع وأشنع من فضيحة أديب لا حسب له. فقال ابن الورّاق النحوي[2] ولم ذاك؟

فقال: لأن هذا عدم ما يقوّم نفسه ويكمل ذاته، وذاك فقد ما يقوّم أصله ويستر قديمه، والنفس أرفع من الأصل، لأن الأصل راجع إلى الولادة، والنفس دالة على النقص والزيادة، نعم، وعلى الشقاء والسعادة، وقد يحسّ الإنسان بنفسه الجيدة سقوط أجوبة فيتلافى ذلك في تكسّب الخير وإيثار الجميل، وشدوِالأدب وقصد العلم، كل ذلك سلف له، كما يحس الإنسان بشرف أبويه، فيتكل على ما سبق لأوليته، ولا يشغل زمانه العزيزفي تحلية نفسه بحلي آبائه وأجداده وأخواله وأعمامه، ليكون ذلك زينة له في حياته، وذكراً لعقبه من بعده، فلا جرم أنه أحرى من صاحبه كثيراً، ثم قال: سمعت بباب الطاق في هذه الأيام، وإنسان من أنكاد السِوقة يقول لآخر من ضربائه: شرفك ميّت وشرفي حي، وشرفك أخرس وشرفي ناطق، وشرفك أعمى وشرفي بصير، قيل له: ماذا أراد بهذا؟

قال: أراد أنّي بنفسي على هذه الفضائل الشريفة، والحال المتمناة، وأنت بنفسك على أضدادها، لا تحيي ولا تنطق ولا تبصر، لم تنفعك أرومتك البيضاء، ولم تضرّني جرثومتي السوداء، ومتى نابك أمر فتُحدّث بشرف غيرك، فكنت بمنزلة الخصي المدلّ بهنّ غيره، وهذا ما لا يجدى عليه عند البضاع[3].

(1) المقابسات/ ص160 – 161.
(2) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن العباس، راجع المقابسات/ ص168، الهامش رقم 1.
(3) المقابسات/ ص168 – 169.

وفي المقابسة رقم 22، ينقلنا التوحيدي إلى موضوع هام جداً يقع بين المنطق الفلسفي والنحو العربي، على أعتبار أن التوحيدي يعشق طرفي الموضوع باعتباره «أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء» على حدّ تعبير ياقوت الحموي[1]، ومحاولته بهذا الموضوع مع أستاذه أبي سليمان السجستاني، فيقول: قلت لأبي سليمان، أني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبة ومشابهة قريب على ذلك، فما الفارق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل يتفاوتان بالقرب؟

فقال: النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي، وجلّ نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الاخلال بالألفاظ التي هي لها كالحال والمعارض، وجل نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوّغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر، ألا ترى أن المنطقي يقول يحرق، وهو ينفعل، والنحوي يقول يحترق وهو يفتعل[2]، (لأن نظر المنطقي فيما حلاوة العقل، ونظر النحوي فيما حلاوة اللفظ)[3]، ونظائر هذا المثال شوائع ذوائع في غرض الفنيّين والنظريين، أعني المنطق والنحو، وكما أن التقصير في تجبير اللفظ، ضار ونقص وانحطاط، كذلك النقص في تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط.

وحدّ الأفهام والتفهّم معروف، وحدّ البلاغة والخطابة موصوف، والحاجة إلى الإفهام والتفهّم على عادة أهل اللغة، أشدّ من الحاجة إلى الخطابة والبلاغة لأنها متقدمة بالطبع، والطبع أقرب إلينا، والعقل أبعد عنا، والبديهة منوطة بالحس، وإن كانت معانة من وجهة الحسّ، وليس ينبغي أن يكتفي بالأفهام كيف كان، وعلى أيّ وجه وقع، فإن الدينار قد يكون رديء الذهب، وقد يكون رديء الطبع، وقد يكون فاسد السكة، وقد يكون جيّد الذهب، عجيب الطبع، حسن السكة، فالناقد الذي عليه المدار وإليه العيار، يبهرجه مرّة برداءة هذا ومرّة برداءة هذا، ويقبله مرة بحسن هذا، ومرّة بحسن هذا، والإفهام إفهامان: رديء وجيّد، فالأول لسفلة الناس، لأن ذلك غايتهم وشبيه برتبتهم في نقصهم، والثاني لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع، فأمّا البلاغة فإنها زائدة على الأفهام الجيدة بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخيّر اللفظ واختصار الزينة، بالرقة.

---

(1) معجم الأدباء 15/ 6.

(2) هناك إرباك واضح في نسخة السندوبي/ ص170 حيث فيه حذف، واستدركنا ذلك على مختارات د. إبراهيم الكيلاني من المقابسات/ ص96، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1984م.

(3) سقطت هذه العبارات المحصورة بين القوسين (. . .) من نسخة السندوبي/ ص170 وأثبتناها من نسخة الكيلاني/ ص96.

والجزالة والمتانة، وهذا الفن لخاصة النفس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام، والتواصل إلى غاية ما في القلوب لذوي الفضل بتقويم البيان.

قلت له/ والكلام للتوحيدي/ فما النحو؟

قال: على ما يحضرني الساعة من رسمه على غير تصفية حدُّهُ وتنقيحه: أنه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده، أو تعرفه وتقلل منه، أو تعرفه وتحيله وتأباه، وتذهب منه، وتستغني بغيره.

قلت: فما المنطق؟ قال: آلة بها يقع الفصل والتميز بين ما يقال هو حقّ أو باطل فيما يعتقد، وبين ما يقال هو خير أو شرّ فيما يفعل، وبين ما يقال هو صدق أو كذب، فيما يطلق باللسان، وبين ما يقال: هو حسن أو قبيح بالفعل.

قلت: فهل يعين أحدهما صاحبه؟ قال: نعم، وأيّ معونة إذا اجتمع المنطق العقلي والمنطق الحسّي فهو الغاية والكمال. قال: ويجب أن تعلم أن فوائد النحو مقصورة على عادة العرب بالقصد الأول، قاصرة على عادة غيرهم بالقصد الثاني، والمنطق مقصور على عادة جميع أهل العقل من أي جيل كانوا وبأي لغة أبانوا، إلا أن تتعذر أسماء عند قوم، وتوجد عند قوم، فحينئذ الحال في التقصير يتورّك[1] على تعذر الأسماء أو على وضعها على الخلاف، أمّا بالتواطؤ والاصطلاح، أو بالطبع والأسماح، قال: وبالجملة، النحو يرتّب اللفظ ترتيباً يؤدي الحقّ المعروف أو إلى العادة الجارية، والمنطق يرتّب المعنى ترتيباً يؤدي إلى الحقّ المعترف به من غير عادة سابقة، والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل، والشهادة في النحو مأخوذة من العرف، ودليل النحو طباعي، ودليل المنطق عقلي، والنحو مقصور، والمنطق مبسوط، والنحو يتبع ما في طباع العرب، وقد يعتريه الاختلاف، والمنطق يتبع ما في غرائز النفوس، وهو مستمر على الإئتلاف، والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق، كما أن الحاجة إلى الكلام في الجملة أكثر من الحاجة إلى البلاغة، لأن ذلك أوّل، وهذا ثان، والنحو أوّل مباحث الإنسان، والمنطق آخر مطالبه، وكل إنسان منطقي بالطبع الأول، ولكن يذهب عن استنباط ما عنده بالاهمال، وليس كل إنسان نحوياً في الأصل، والخطأ في النحو يسمى لحناً، والخطأ في المنطق يسمى إحالة، والنحو تحقيق المعنى باللفظ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل، وقد يزول اللفظ إلى اللفظ، والمعنى بحاله لا يزول ولا يحول، فأما المعنى فإنه متى زال إلى معنى آخر تغيّر المعقول، ورجع إلى غير ما عهد في الأول، والنحو يدخل المنطق، ولكن مزيناً له، والمنطق يدخل

(1) التورّك = الاعتماد على الشيء، وتورك على الأمر، قدر عليه. أنظر اللسان - مادة (ورك).

النحو، ولكن محققاً له، وقد يفهم بعض الأغراض، وإن عرّى لفظه من النحو، ولا يفهم شيء منها إذا عرّى من العقل، فالعقل أشدّ انتظاماً لمنطق، والنحو أشد التحاماً بالطبع والنحو شكل سمعي، والمنطق شكل عقلي، وشهادة النحو طباعية، وشهادة المنطق عقلية، وما يستعار للنحو من المنطق حتى يتقوّم أكثر مما يستعار للمنطق من النحو حتى يصحّ ويستحكم، والمنطق وزن بعيار العقل، والنحو كيل بصاع اللفظ، ولهذا قبل في النحو الشاذ والنادر، ورُدَّ في المنطق ما جرى مجراها»[1].

وفي المقابسة رقم 40، ينقلنا التوحيدي إلى رحاب العلم في حياة الحي وما يقابله من جهل، يقول: قال أبو بكر الصيمري لجماعة عنده، ونحن في طاق الحرّاني في الورّاقين، وقد ذهب به القول في كل عروض، وجذبه إلى كلّ باب، العلم حياة الحي في حياته، والجهل موت الحي في حياته، فإذا كان الجاهل ميّتاً في حياته فماذا ترى يكون بعد مماته؟ وإذا كان العلم حياة الحي في حياته، فلا شك أنه يكون حياة له بعد وفاته.

ثم قال: العلوم الإلهية في اليسر، لأنه بساط العمل الصالح، والحقّ المعتقد، والخلق الظاهر، والطاعة الحسنة، والراحة المعاقبة، ومن عُرّيَ من العلم ولزم العمل كان كخابط عشواء، ما يفوته أكثر ممّا يجده، وما يفسده أكثر مما يصلحه، ومن لزم العلم وخلا من العمل كان كلابس ثوبي زور. والعلم فنون، وأشرفه معرفة الحق الأول، والعلم قوام المعقول، والعمل قوام المحسوس، ولولا المحسّ لاستغنى عن العمل لأن العمل إنما هو رياضة النفسين اللتين تعاندان النفس الناطقة، أعني الشهوية والغاضبة، فأما العلم، فهو كله في تقديس المعقول بالعقل والتشوّق إليه، وطلب الاتصال به، والغرق في بحره، والوصول إلى وحدته، والعمل مقوّم للقِوى التي تريح كثيراً بالزيادة والنقصان، وبالخمود والهيجان، والعلم مبلغ إلى الغاية التي لا مطلوب ورائها، والعمل مهيىء لك نحو المسلك إلى سعادتك، والعلم مشرف بك على سعادتك، والعمل يوصل، والعلم وصول، والعمل حق عليك لا بدّ من أدائه، والعلم حق لك لا بدّ لك من اقتضائه، والعلم كله نور، وأنورُه ما أضاءك، وسطع عليك، وأسفر بك وجلاً عن حقيقتك، وتحلى بعقيدتك، ونحّى قشورك عنك، وأبرز لبّك منك، وصقلك وصفّاك، وزيّنك، وأبهجك ونوّرك، وأهلك ليدرك حدّك، وأحلّك دار كرامتك وقرارك، وصار ألصق بك من شعارك ودثارك، هناك تبقى ولا تبلى وتغنى ولا تضنى، هناك المواصل والموصول، والعالم والمعلوم، والعاقل والمعقول، في فضاء الوحدة، ومغاني القدس، وخطة الراحة، ومراد الطمأنينة والجدّة، والثقة والسكنية، وعرصة الهية لا تفرقة ولا تمييز، ولا كثرة ولا اختلاط، ولا تمازج ولا

(1) المقابسات/ص169 - 172.

اختلاف، حال تجل عن إمارات الحال، وأمر يلطّف عن رسوم الأمر، على هذا سكبت العبرات، وطالت الزفرات، أتظنّ أن الرقي في سلاليم المعرفة، والتناهي في غايات التوحيد، هَيِّنٌ سهل وقريب ممكن؟! هيهات أن يكون ذلك كذلك، ولكن لواحد بعد واحد يخصّ به الواحد في عالم بعد عالم وفي دور بعد دور».

يقول التوحيدي: «وكان كلامه أطول من هذا وأشفى، وهذا حاصل منه، والله أسأل تقبله والوفاء به والقيام عليه»[1].

إن مجالس العلماء تلك التي كان أبو حيان التوحيدي وزملاؤه من حلقة أبي سليمان السجستاني يتناقشون فيها في سوق الورّاقين وغيره من المواضع، كانت شاملة لأغلب الفنون الأدبية والعلمية، ولم تنحصر في الفلسفة وحدها وعلوم المنطق، فالمتقابسون كانوا أعلاماً، وكل منهم كان فرداً في صناعته، ففي المقابسة رقم 60، ينقلنا التوحيدي إلى حالة النقد الأدبي، المؤطرة في رؤية فلسفية، رغم أن موضوعها يخصّ التأثير النفسي للنظم والنثر، وأيهما أشدّ وقعاً على النفس، يقول: قال أبو سليمان، وقد جرى كلام في النظم والنثر: النظم أدلّ على الطبيعة، لأن النظم في حيّز التركيب. والنثر أدلّ على العقل، لأن النثر من حيّز البساطة، وإنما تقبلنا المنظوم بأكثر مما تقبلنا المنثور لأنا للطبيعة أكثر منا بالعقل، والوزن معشوق للطبيعة والحسّ، ولذلك يفتقر له عندما يعرض استكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لاحظ للفظ عنده، وان كان متشوّقاً معشوقاً، والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشّح بالوزن المحمول على الضرورة، إن المعنى متى صوّر بالسانح والخاطر، وتوخى الحكم لم يبل بما يقويه من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف، لكن العقل، مع هذا يتخيّر لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا شقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم، وليس هذا للطبيعة؟ بل الذي يستند إليها ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخلوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل.

ثم قال: ومع هذا ففي النثر ظلّ النظم، ولولا ذلك ما خفّ ولا حلا، ولا طاب ولا تحلا، وفي النظم ظلّ من النثر، ولولا ذلك ما تميّزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه[2].

---

(1) المقابسات/ ص201 - 202.

(2) المقابسات/ ص245 - 246.

لقد عكست المقابسات بصدق روح العصور العلمية، واشترك رجالها بتحريك الحالة الثقافية واستوعب سوق الورّاقين ذاك النشاط المعرفي المهيمن، وبرزت جميع التيارات الثقافية وأوجدت لها حضوراً في ثقافتها وآدابها، فهؤلاء المتصوفة قد امتطوا صهوة البلاغة بشفافية، أبلغ من المعتزلة، لأنهم أطلقوا العنان لهوى الروح والقلب لأن يتصاعد فوق خيوط العقل، مخترقاً كل الحُجُب محاولاً التوحّد بالحدّ المطلق، مفجراً كل طاقات اللغة للتعبير عن دواخلهم، الأمر الذي جعل الحالة الثقافية في ذلك العصر تتوقف عند أدبهم، وكان سوق الورّاقين ساحة طراد لفلسفتهم، وقد آسرت هذه الفلسفة العالية جوانح أبي حيّان التوحيدي، فراح يتواشج ويتشاجى بها ومعها، حتى دعاه الأمر لأن طرح كلام الصوفية على شيخه أبي سليمان السجستاني في المقابسة رقم 95، يقول: رويت لأبي سليمان كلاماً لبعض الصوفية، فلم يفكه له ولم يهشّ عنده، وقال: لو قلت أنا في هذه الطريقة شيئاً، لقلت: الحواس مهالك، والأوهام مسالك، والعقول ممالك، فمن خلّص نفسه من المهالك قوى على المسالك، ومن قطع المسالك أشرف على الممالك، ومن أشرف على الممالك شرف بوصلة الملك المالك.

فقال له أبو الخطاب الكاتب: أيها الشيخ! هذا والله أحسن من كل ما يسمع منهم، فلو زدتنا منه، فقال: الحواس مضلّة والأوهام مزلّة، والعقول مدلّة، فمن اهتدى في الأول وثبت في الثاني أدرك في الثالث، ومن أدرك في الثالث فقد أفلح، ومن ضلّ في الأول، وزلّ في الثاني، وخاب في الثالث، فهو من الهمج.

واستزاده مطرّ الكاتب البغدادي، فاستعفى وقال: هذا حديث قوم أباعيد منّا على بعض المشابهة لنا، وما قلناه كاف فيما قصدناه، وإن استتبّ خفت العِثار، واستجلبت العار، ولكل قوم أفق يدورون عليه، ومركز يطمئنون إليه، وجوّ يتنفسون فيه، وفنن يقطفون منه، ولولا هذه اللطائف التي هي تعلّة للنفوس الوافرة والناقصة لكانت الصدور تنفرج أسى، والعقول تتحيّر يأساً، والأرواح تزهق كمداً، والاكباد تتفتت ضمدا، فسبحان من له هذه القدرة في هذه الخليقة، وهذه الأسرار في هذه الطريقة[1].

على هذه الشاكلة كانت مجالس العلماء في سوق الورّاقين، تنعقد، وبمثل هذه المواضيع تتطارح، وفي هذا المستوى المعرفي تجري، فلا عجب في ذلك، إذا قلنا أن ثقافة ذلك العصر كانت نبعاً ومنهلاً لنا، فما زلنا حتى الساعة ننهل منه، ونستسقي منه جداول معرفتنا، ونروّي به أرض مداركنا.

---

(1) المقابسات/ ص 326 - 327. وراجع المختار من المقابسات لإبراهيم الكيلاني، ص212 - 213.

ذلك هو نشاط الورّاقين، في ذلك العصر النيّر، وتلك هي تأثيراتهم الحضارية لا زالت تعانق أنفسانا بأريج تلك الفترة العطرة الزاهية، من تاريخ بغداد المجيد، وقد حقّ علينا لذلك التراث الخالد، أن نجلي عنه غبار الزمن الدفين، لا سيّما وإنّا في هذا الزمن نتعرض لحالة من الاستلاب على كُلِّ الصُعد.

مصادر البحث للجزء الثاني (ظهور مهنة الوراقة)

– أ –

1 – الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح.

* المستطرف في كل فنٍّ مستظرف، منشورات دار الفكر، بيروت والمطبعة الميمنية بالقاهرة 1314هـ.

2 – إبن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1965م.

3 – إبن الأثير: عز الدين أبو المحاسن علي بن أبي الكرم الشيباني.

* الكامل في التاريخ – 12 جزءاً – منشورات دار صادر، بيروت 1385هـ/ 1965م.

* اللّباب في تهذيب الأنساب، تحقيق القدسي، طبعة القاهرة 1357هـ.

5 – الأزدي: أبو المطهّر محمد بن أحمد.

* حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم ميتز، طبعة هايدلبرغ سنة 1902م.

6 – الأزدي: أبو زكريا إبن أياس.

* تاريخ الموصل، مخطوط، في دار الكتب المصريّة، رقم 2475.

7 – إسماعيل – د. محمود.

* الحركات السريّة في الإسلام، طبعة بيروت 1973م.

8 – إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفا، تحقيق خير الدين الزركلي الطبعة المصريّة، القاهرة، 1347هـ/ 1928م.

9 – أمين – أحمد.

* ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، ط7، 1964م.

10 – الأعسم – د. عبد الأمير.

* أبو حيّان التوحيدي في كتاب «المقابسات» منشورات دار الأندلس، بيروت، ط1، 1400هـ/ 1980م.

11 - إبن الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد.

* نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء: تحقيق د. إبراهيم السامرائي، منشورات مطبعة المعارف، بغداد، 1959م.

- ب -

12 - البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجُعفي.

* صحيح البخاري - 8 أجزاء - منشورات دار الطباعة العامرة، القاهرة 1315هـ وبشرح العلامة القسطلاني، ط1، القاهرة 1307هـ.

13 - إبن بسّام المحتسب، محمد بن أحمد.

* نهاية الرتبة في طلب الحسبة: تحقيق حسام الدين السامرائي، منشورات مطبعة المعارف، بغداد، 1968م.

14 - إبن بشكوال: القاسم بن خلف بن عبد الملك بن مسعود بن دامة الأنصاري.

* كتاب الصلة - جزءان - منشورات الدار المصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م.

15 - البغوي: الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء.

* شرح السُنة - 8 أجزاء - تحقيق شعيب الإرناؤوط وزهير الشاويش، منشورات المكتب الإسلامي ط1، دمشق، 1390هـ/ 1971م.

16 - بيدرسن: يوهانس.

* الكتاب العربي، منذ نشأته حتى عصر الطباعة، ترجمة د. حيدر غيبة، منشورات دار الأهالي ط1، دمشق، 1989م.

17 - البيهقي - ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد.

* المحاسن والمساوىء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، 1961م.

* تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1365هـ/ 1946م.

- ت -

19 - الأتابكي: أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي.

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - 16 مجلد - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1963م.

20 - التوحيدي: أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس.

* المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1347هـ/ 1929م، ونشر توفيق حسين، بغداد 1970م.

* الإمتاع والمؤانسة - 3 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م.

* رسائل التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق 1985م.

* الهوامل والشوامل - بالإشتراك مع مسكويه، تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1370هـ/ 1951م.

- ث -

24 - الثعالبي - أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

* مَنْ غاب عنهُ المطرب، تحقيق عبد المعين الملّوحي، منشورات دار طلاس، دمشق 1987م.

* خاص الخاص، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1966م.

* يتيمة الدهر، 4 أجزاء، طبعة الصاوي المصريّة 1352هـ/ 1934م.

27 - ثعلب - أبو العبّاس يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني.

* مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

- ج -

28 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب.

* الحيوان - 7 أجزاء - طبعة البابي الحلبي ط2، تحقيق د. عبد السلام هارون، مصر، بدون تاريخ.

* رسائل الجاحظ - 4 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1384هـ/ 1965م.

30 - إبن جماعة: بدر الدين بن أبي إسحاق إبراهيم بن السيّد بن جماعة الكناني.

* تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلّم. طبعة حيدر آباد، 1952هـ.

31 - جواد: د. مصطفى وأحمد سوسة.

* دليل خارطة بغداد - قديماً وحديثاً، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1378هـ/ 1958م.

32 - الجواليقي - أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر.

* المُعرّب، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبوعات دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1361هـ.

33 - إبن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء - ط 1، حيدر آباد الدكن، سنة 1358هـ.

* مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات دار السلام، بغداد 1342هـ.

* تلبيس إبليس، تحقيق محمد منير الدمشقي، منشورات مطبعة النهضة بمصر، القاهرة، 1928م.

- ح -

36 - إبن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد بن العبدري الفاسي المالكي.

* مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة - 4 أجزاء - منشورات المطبعة المصرية بالأزهر، ط 1، 1348هـ/ 1929م.

37 - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - 6 أجزاء مع الذيل - منشورات مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة بيروت، بدون تاريخ.

38 - حسنين د. عبد النعيم محمد.

* القاموس الفارسي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت 1402هـ/ 1982م.

39 - الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحرامي.

* مقامات الحريري، منشورات المطبعة الحسينية بمصر، 1348هـ/ 1929م.

40 - الحموي: إبن حجّة، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد.

* خزانة الأدب وغاية الأرب، الطبعة المصرية ط1، سنة 1304هـ.

41 - الحموي: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

* معجم الأدباء - 20 جزءاً - تحقيق د. أحمد فريد رفاعي، منشورات دار المأمون المصريّة، 1357هـ/ 1938م.

* معجم البلدان - 8 أجزاء - منشورات دار صادر، بيروت، 1374هـ/ 1955م.

43 - الحنبلي: إبن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب - 8 أجزاء - منشورات دار المسيرة ط2، بيروت 1399هـ/ 1979م.

44 - إبن حوقل: أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي - الرحالة.

* صورة الأرض، طبعة ليدن، 1938م.

- خ -

45 - الخالديان: أبو بكر محمد وأبو سعيد إبنا هشام.

* ديوان الخالديين، تحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1388هـ/ 1969م.

46 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد، 14 مجلد، ط 1، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ومطبعة السعادة بمصر 1349هـ/ 1931م.

47 - إبن خلدون: العلاّمة عبد الرحمن بن محمد المغربي.

* مقدمة إبن خلدون - 4 أجزاء - تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، ط1، لجنة البيان العربي، مصر سنة 1376هـ/ 1957م. وطبعة دار إحياء التراث العربي، جزء واحد، بيروت.

48 - إبن خلّكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- د -

49 - دائرة المعارف الإسلامية - 20 مجلد - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته.

50 - الدمشقي: أبو الفضل جعفر بن علي.

* الإشارة إلى محاسن التجارة، منشورات مطبعة المؤيد، ط1، دمشق 1318هـ.

51 - الدوري: د. عبد العزيز.

* مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي، ط2، بيروت 1978م.

* التكوين التاريخي للأمة العربية، ط1، منشورات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984م.

- ذ -

53 - الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

* سير أعلام النبلاء - 24 جزء - تحقيق شعيب الإرناؤوط وجماعته، منشورات مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1401هـ/ 1981م.

- ر -

54 - إبن رسته: أبو علي أحمد بن عمر.

* الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، 1891م.

55 - روزنتال: فرانتز.

* مناهج العُلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة أنيس فريحة، منشورات دار الثقافة بيروت، ومؤسسة فرنكلين، نيويورك عام 1961م.

- ز -

56 - الزبيدي: محب الدين أبو الفيض السيّد محمد مرتضى الحسيني الواسطي.

* تاج العروس، ط1، المطبعة الخيرية بمصر، سنة 1306هـ.

57 - الزركلي: خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء - ط5، منشورات دار العلم للملايين بيروت، 1980م.

58 - الزمخشري: جار الله محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي ثم الزمخشري.

* مخطوطة، إستجازة الحافظ السلفي الشيخ الزمخشري، تحقيق د. بهيجة الحسني، منشورات مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 23، لسنة 1393هـ/ 1973م.

59 - زيّات: حبيب.

* الوراقة والورّاقون في الإسلام، بحث قصير،نشر بمجلة المشرق عام 1947، ثم نشرته المطبعة الكاثوليكية،بيروت 1947م.

- س -

60 - السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي.

* طبقات الشافعية الكبرى - 6 أزاء ط2، المطبعة الحسينية بمصر. بدون تاريخ.

61 - سعد: فهمي عبد الرزاق.

* العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، منشورات المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1983م.

62 - سعيد: د. خير الله.

* النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا، منشورات دار كنعان دمشق 1992م.

63 - السقطي: أبو عبد الله محمد بن أبي محمد.

* آداب الحسبة، تحقيق كولن وليفي بروفنسال، طبعة باريس 1931م.

64 - السكتواري: علاء الدين علي دده بن مصطفى.

* محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، ط1، منشورات المطبعة العامرة الشرقية، القاهرة 1311هـ.

65 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الشافعي.

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، منشورات مطبعة السعادة بمصر، القاهرة، 1326هـ.

* تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، 1371هـ/ 1952م.

67 - السمعاني: أبو أسعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 أجزاء - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، منشورات محمد أمين دمج، بيروت، وطبعة مارجليوث، ليدن، 1912م.

- ش -

68 - الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد.

* الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد 1951م.

69 - الشكعة: د. مصطفى.

* أبو الطيّب المتنبي في مصر والعراقين،منشورات عالم الكتب، ط1، بيروت 1403هـ/ 1983م.

70 - الشيخلي: صباح إبراهيم سعيد.

* الأصناف في العصر العباسي: منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد 1396هـ/ 1976م.

- ص -

71 - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك.

* الوافي بالوفيات - 25 جزءاً - تحقيق هيلموت ريتر، طبعة إستانبول، 1931م.

72 - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب.

* أدب الكتّاب، تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر 1341هـ.

* الأوراق، أو أخبار الراضي والمتّقي - جزءان - تحقيق هيورث دن، منشورات مطبعة الصاوي بمصر، ط1، 1934م.

- ط -

73 - الطبري: محمد بن جرير.

* تاريخ الرسل والملوك - 10 أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة 1968م.

74 - الطرابلسي: علاء الدين بن الحسن.

* معين الحُكّام فيما يتردد بين الخصمين من أحكام، طبعة القاهرة 1300هـ.

- ع -

75 - إبن عبد ربّه: أبو عمر محمد الأندلسي.

* العقد الفريد - 7 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1363هـ/ 1944م.

76 - إبن عساكر: الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

* تهذيب تاريخ دمشق - 7 أجزاء - طبعة روضة الشام 1332هـ.

77 - العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر.

* الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، طبعة حيدر آباد 1349هـ.

78 - العلموي: الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد.

* المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ط 1، بتحقيق أحمد عبيد، منشورات المكتبة العربية، دمشق 1349هـ.

79 - العُمري: إبن فضل الله، شهاب الدبن أحمد بن يحيى.

* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ج 8 - تحقيق بسام محمد بارود، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط 1، 2001م.

80 - عواد: كوركيس.

* خزائن الكتب القديمة في العراق، مطبعة المعارف، بغداد 1948م.

- غ -

81 - غي ليسترانج - المستشرق.

* بغداد في عهود الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، ط 1، بغداد 1355هـ/ 1936م.

- ف -

82 - أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم.

* الأغاني - 24 جزءاً - طبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة 1389هـ/ 1970م. وطبعة الهيئة المصرية العامة، ط 1، 1345هـ/ 1927م.

83 - فهد: بدري محمد.

* العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد، 1967م.

84 - الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، العلاّمة اللغوي.

* القاموس المحيط، ط2، منشورات مؤسّسة الرسالة، بيروت 1407هـ/ 1987م.

- ق -

85 - القرآن الكريم.

86 - القرشي: إبن الإخوة، محمد بن علي.

* معالم القربة في طلب الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

87 - القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة، 1369هـ/ 1950م.

88 - القلقشندي: الشيخ أبو العباس أحمد.

* صبح الأعشى في كتابة الإنشا - 13 جزء - منشورات دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1340هـ/ 1920م.

- ك -

89 - الكتبي: محمد شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر.

* فوات الوفيات - 5 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

90 - إبن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي.

* البداية والنهاية - 14 جزءاً - منشورات مكتبة المعارف، بيروت ومكتبة النصر، الرياض 1966م.

91 - كرد علي: محمد.

* أمراء البيان - جزءان - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1355هـ/ 1937م.

92 - الكردي: محمد طاهر بن عبد القادر المكّي الخطّاط.

* حُسن الدُعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1357هـ/ 1938م.

93 - الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف.

* كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق «فن كست» المستشرق، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م.

- ل -

94 - لومبار: موريس.

* الإسلام في فجر عظمته، ترجمة حسين العودات، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1979م.

- م -

95 - الماوردي: علي بن محمد بن حبيب.

* الأحكام السلطانية، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1380هـ/ 1960م.

96 - إبن مخلوف: محمد.

* شجرة النور الزكية في طبقات الحنفيّة، منشورات دار الكاتب العربي، طبعة بالأوفست، بدون تاريخ.

97 - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر - 4 أجزاء - مطبوعات الجامعة اللبنانية بعناية شارل بيلاّ، بيروت 1974م وطبعة باريس، وطبعة دار المعرفة اللبنانية 1403هـ/ 1982م.

98 - مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب.

* تجارب الأمم - جزءان - تحقيق آمدروز، طبعة القاهرة 1314هـ/ 1915م.

* السعادة في فلسفة الأخلاق، تحقيق محمد علي صبح، منشورات المطبعة العربية بمصر 1346هـ/ 1928م.

* تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، منشورات مكتبة الحياة، ط2، بيروت 1398هـ.

101 - مروّة: د. حسين.

* النزعات الماديّة في الفلسفة العربية - الإسلامية - جزءان - ط2، منشورات دار الفارابي، بيروت 1398هـ/ 1978م.

102 - المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري.

* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، 1909م.

103 - مقدسي: د. جورج.

* خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة أحمد صالح العلي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد 1948م.

104 - المقري التلمساني: أحمد بن محمد المغربي المالكي الأشعري.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت 1388هـ/ 1968م.

105 - إبن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري.

* لسان العرب - 14 مجلد - طبعة دار صادر - بيروت.

106 - مؤلف مجهول.

* مخطوط - الذخائر والتحف في بير الصنايع والحرف - موجود في مكتبة غوتا، في ألمانيا، تحت رقم/ 903/ عربيات/ ونشرته صباح الشيخلي في كتابها «الأصناف الإسلامية في العصر العباسي».

107 - أبو ملحم: د. علي.

* علم الأخلاق عند مسكويه، دراسة منشورة في مجلة «دراسات عربية» العدد 12 السنة 26، أكتوبر 1990م.

108 - ميتز: آدم/ المستشرق.

* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - 4 أجزاء - ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، طبعة القاهرة 1377هـ/ 1957م.

109 - مؤلف مجهول.

* أخبار الدولة العباسيّة، تحقيق د. عبد العزيز الدوري وعبد العزيزالمطّلبي، بيروت 1971م.

- ن -

110 - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.

* الفهرست، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

111 - النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.

* نهاية الأرب - 30 جزءاً - طبعة دار الكتب المصريّة.

- و -

112 - وكيع: محمد بن خلف بن حيّان بن صدقة بن زياد، القاضي المعروف بوكيع.

* أخبار القضاة، جزءان، منشورات عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

113 - الوهراني: ركن الدين محمد بن محمد بن محرز.

* منامات الوهراني، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نعش، منشورات دار الكاتب العربي، القاهرة 1387هـ/ 1968م.

- هـ -

114 - أبو هلال الصابئي: أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الكاتب.

* تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1958م.

- ي -

115 - اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن واضح.

* البلدان، طبعة ليدن ومطبعة النجف، ط3، 1377هـ/ 1957م.

116 - نشرة دورية باسم «أخبار المركز» تصدر كل شهرين عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي.

الأعداد/ 1، 2، 5 لعام 2003م.

الأعداد/ 8، 9 لعام 2004م.

انتهى الجزء الثاني

د. خير الله سعيد

- ولد في مدينة بغداد 1955 .
- يكتب الدراسة والمقالة الأدبية والأبحـاث الطويلة .
- نشر مقالاته الأولى في المجلات والصحف السورية والعربية . عضو في جمعية الدراسات والبحوث في اتحاد الكتاب العرب، متخصص في التاريخ والتراث العباسي .
- أسس النادي الثقافي العربي بجامعة الصداقة بين الشعوب في موسكو عام 1996 .
- أسس المنتدى الثقافي العراقي في موسكو عام 2003 .

مؤلفاته:

1 - مغنيات بغداد في عصر الرشيد وأولاده- دراسة . دمشق 1991 .

2 - النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا- دراسة . دمشق 1992 .

3 - عمل الدعاة الإسلاميين في العصر العباسي - دراسة . دمشق 1993 .

4 - خطاطو بغداد في العصر العباسي - دراسة . دمشق 1996 .

5 - وراقو بغداد في العصر العباسي - دراسة طويلة . الرياض 2000 .

6 - تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية (باللغة الروسية) بالاشتراك مع مجموعة من المستشرقين الروس . - موسوعة في مجلدين ضخمين . موسكو 2002 .

7 - الوراقة والوراقون في الحضارة العربية الإسلامية - موسوعة في ستة أجزاء .

8 - أوراق بغدادية من العصر العباسي - دراسة .

سيصدر له قريباً:

1 - من وجد ديوان الوجد - دراسة نقدية عن آخر كتاب للراحل هادي العلوي (ديوان الوجد) .

2 - دراسة أكاديمية عن «الموال العراقي» .

3 - دراسات نقدية عن مقامات الحريري .

4 - مدن فلسطين في تراث الأقدمين - دراسة .

5 - أوراق من التراث / (القسم الأول) «رجال ومواقف» .

6 - أوراق من التراث / (القسم الثاني) «نساء ومواقف» .

7 - دراسات نقدية عن الرواية العربية السياسية المعاصرة - وليمة لأعشاب البحر نموذجاً .

8 - دراسات عن الفلكلور العراقي: الأبوذية - العتابا - المربع - الدارمي - الأمثال الشعبية .

9 - بغداد والشعراء والقـدر - دراسة نقدية .

تم تعضيد هذا الكتاب من قبل الصندوق العربي للثقافة والفنون


ISBN 978-614-404-201-4
9 786144 042014